فتاوى الأئمة النجدية

حول

قضايا الأمة المصيرية

من: شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

إلى: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

المجلد الأول

أصول الإسلام والتوحيد والإيمان

الموضوعات

الإسلام - التوحيد - الرسالة - الإيمان
الطاغوت وصفة الكفر به - الحاكمية - الولاء
والبراء - الأسماء والصفات - القضاء والقدر.

تقديم

سماحة الشيخ العلامة

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

جمعه وأعده

أبو يوسف مدحت بن الحسن آل فراج

مكتبة الرشد

ناشرون

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

مكتبة الرشد
ناشرون

المملكة العربية السعودية - الرياض
شارع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)
ص.ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ فاكس ٤٥٧٣٣٨١
Email: alrushd@alrushdryh.com
Website: www. rushd.com

- فرع طريق الملك فهد: الرياض - هاتف ٢٠٥١٥٠٠ فاكس ٢٠٥٢٣٠١.
- فرع مكة المكرمة: هاتف ٥٥٨٥٤٠١ فاكس ٥٥٨٣٥٠٦.
- فرع المدينة المنورة: شارع أبي ذر الغفاري - هاتف ٨٣٤٠٦٠٠ فاكس ٨٣٨٣٤٢٧.
- فرع جدة: ميدان الطائرة - هاتف ٦٧٧٦٣٣١ فاكس ٦٧٧٦٣٥٤.
- فرع القصيم: بريدة - طريق المدينة - هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨.
- فرع أبها: شارع الملك فيصل - تلفاكس ٢٣١٧٣٠٧.
- فرع الدمام: شارع الخزان - هاتف ٨١٥٠٥٦٦ فاكس ٨٤١٨٤٧٣.
- فرع حائل: هاتف ٥٣٢٢٢٤٦ - فاكس: ٥٦٦٢٢٤٦.

مكاتبنا بالخارج

- القاهرة: مدينة نصر - هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥ : موبايل: ٠١٠١٦٢٢٦٥٣
- بيروت: بئر حسن - هاتف: ٨٥٨٥٠١ - فاكس: ٨٥٨٥٠٢ - موبايل: ٠٣٥٥٤٣٥٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقريظ

التاريخ ١٦/١١/١٤٢١

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

الحمد الله الواحد الأحد الفرد الصمد المتعالي عن الشريك والوالد والولد، أحمده سبحانه أفضل ما ينبغي أن يُحمد، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تقدس عن الأنداد وتفرد، وأشهد أن نبيه ورسوله محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تعبد:

أما بعد، فقد تصفحت هذا المجموع الكبير والذي بعنوان (فتاوى الأئمة النجدية حول قضايا الأمة المصيرية من شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب إلى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز)، والذي انتقاه واختاره الأخ أبو يوسف **مدحت بن حسن آل فراج** فوجدته جامعاً شاملاً لما يتعلق بالتوحيد وحقيقته، وحكمه وأنواع العبادة التي أمر الله بها وأدلتها، وضد التوحيد الذي هو الشرك ووسائله، وما ورد فيه من الوعيد، وحكم المشركين ورد شبهاتهم، وإبطال ما يتشبثون به في استدلالهم على جواز التوسل الممنوع ودعائهم للمخلوق وما يحصل من القبوريين من دعاء الأموات والذبح لهم وشد الرحال إلى الأضرحة والهتاف بأسماء من يعتقدون فيهم الولاية، وإشراكهم مع الله تعالى في الكثير من أنواع العبادة، وهكذا حكم موالاة المشركين ومودتهم وخدمتهم وخدعتهم وما ورد في ذلك من الوعيد الشديد في الكتاب

والسنة وذكر أنواع الموالاة والمراد بالمشركين والكفار الذين لا تجوز موالاتهم. وقد ذكر أيضاً ما يتعلق بمعتقد أهل السنة والجماعة، وأصول الإيمان وأدلتها، والتكفير والتفسيق وشبهات المبتدعة، كالمرجئة والخوارج، ومناقشة الكثير من أدلة النفاة والمعطلة والممثلة وأمثال ذلك مما هو ظاهر في هذا المجموع الذي نقله من رسائل ومسائل أئمة الدعوة النجدية وأورد نصوصهم كما هي وأشار إلى مواضعها في الكتب المطبوعة المتداولة، وقد أحسن في ترتيبها وانتقائها وتبويبها وتقسيمها إلى بحوث وفصول، وجعل لكل بحث عنواناً واضحاً يبين محتواه، وعلق أحياناً عند الحاجة على بعض المواضيع كإيضاح كلام أو تخريج حديث أو إشارة إلى محذوف لا صلة له بالموضوع وما أشبه ذلك، وقد أحسن صنعاً في هذا الانتقاء، حيث أن هذه المواضيع هي ما أنكره على أهل الدعوة أعداؤهم من القبوريين حيث رموهم بتكفير المسلمين، وسلب الأموال المحرمة، وقتل الأبرياء، وتحريم التوسل، وتحريم الزيارة للقبور، ومنع الصلاة على النبي ﷺ، ونحو ذلك من الافتراءات التي أنكرها علماء هذه البلاد.

فننصح كل منصف أن يرجع إلى مثل هذا المجموع وأصوله رجاءاً أن يتبين له الصواب الذي هو هدف كل مسلم. والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

قاله: عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيّئات أعمالنا، من يهْدِه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: لقد أظلتنا سحابة الفتن، وأمواج المحن، وظلمات البلاء، وطالت علينا ليالي الفساد، حتى عاد الدين غريبًا كما بدأ، وخرجت فئام

وجماعات من الناس عن جوهره وحقيقته أفواجًا كما دخلوا فيها من قبل أفواجًا.

ولقد تكالبت علينا الأعداء على اختلاف عقائدهم ومناهلهم وتوجهاتهم، وصالوا وجالوا بالفساد خلال ديارنا، بعدما ضربوا صفحًا من الذكر، عمَّا بينِهم من مباينات واختلافات وتحزُّبات، ريثما يتم لهم القضاء على الإسلام وأهله.

وأمسك الحاقدون قوسًا واحدة، بيد واحدة، يحركها قلب واحد، ليضربوا بها سهام الغدر والمكر والخبث والدهاء.

ولقد صرخ شيطان الكفر في شيعته قائلاً: صوِّبوا سهامكم تجاه القلوب والعقول والمراكز الحساسة حتى نصيبهم بالشلل التام، والغيبوبة القاتلة لئلا تكون لهم رجعة، وينقطع نسلهم من الوجود.

وأرض المعركة مشتعلة، وسماؤها ملبَّدة بالغيوم، وجوَّها ممتلىء بالسموم، وطيورها تدعو بالويل والثبور، ودخان الغدر يفوح، ورائحة الخيانة قد أزكمت الأنوف.

وفصيل الكفر قد جاء مرصوص الصفوف، مترجلين بعدما قاموا بعقر خيولهم، وكسر أغمدة سيوفهم، ونصب سهامهم، وتصويب رماحهم، مصطحبين معهم نساءهم وذراريهم، حتى يستحيل الفرار، ويُدْبِر الهروب؛ وعزموا على الحرب التي لا تعرف إلاَّ الدمار والخراب والاستئصال دون العمار والبناء والوجود.

وأما فصيل المسلمين فقد جاء بصفوف يواجه بعضها بعضًا، وقد سرحوا خيولهم، وأخمدوا سيوفهم في غمادها، إلاَّ أنهم صوَّبوا سهامهم ورماحهم، لكن تجاه العلماء الربانيين، والدعاة المخلصين، والمجاهدين

المناضلين. . . ، منشدين بذلك السلام والأمان من عدو لدود لا يعرف إلاَّ الكيد، ولا يرضى بغير الكفر.

ووسط هذا الزخم الشديد والخضم الهائل من الفتن المائجة، أصبح حال أمتنا المرير كصيد ثمين بين جماعة من النسور الضارية، كل واحد منها ينهش منه كل ما لذَّ له وطاب، وقت ما شاء، ومتى ما أراد.

وإزاء هذا العداء السافر نجد حال أمتنا الأليم، يموج بصراعاته موجًا، ويمور بتحزباته مورًا.

وفي كل يوم، أو بالأحرى في كل ساعة، تأتي بليَّة عظيمة، وداهية فظيعة، وتتوالى علينا الفتن العمياء الصماء البكماء، التي يرقق بعضها بعضًا، حتى إذا رأى المؤمن إحداها قال: هذه مهلكتي، فإذا أدبرت وجاءت الأخرى قال: هذه هذه. . .

اللَّهمَّ إنا نشكو إليك: ضعفنا، وقلة حيلتنا، وهواننا على الناس، ونشكو إليك ظلم الطواغيت، وزندقة المنافقين، وكل لسان مسموم، وقلم مأجور، ونشكو إليك كل محرف ومبدل، وكل ساكت عن الحق، أو متكلم بالباطل، حتى يُمرَّر بهم كيد الأعداء ومخططاتهم على أمتنا الإسلامية، لتظل ضاربة في غفلتها، وتغط في نومها، وتستمر مغيبة عن دورها وهدفها وعلة وجودها.

حال طوائف الأمة الحالي

وإن تنظر تجد عجبًا لا ينقضي من حال معظم فصائل الأمة تجاه هذا الكيد الشرس، الذي لا يرقب أصحابه فينا إلاًّ ولا ذمة، بل ولا يعرفون إلاَّ طمس الحقائق، وتلبيس المفاهيم، واختلاط الأوراق، التي من شأنها أن تجعل المسلم دومًا في حيرة من أمره، غير محدد المعالم والحدود والهوية، هكذا أرادوا. . .

فنجد: طائفة من الأمة قد جعلت أصابعها في آذانها، واستغشت ثيابها، غير آبهة بشيء من الكيد والعدوان.

ومنها: (طائفة) رفعت لواء التلبيس والتحريف تارةً، والتبجح بالباطل تارةً، والسكوت المزري المشين عن إبطاله أخرى، كل ذلك لتبقى الأمة ضاربة في الظلمات بل دليل، وشاردة في جنبات الوجود بلا زمام.

ومنها: (طائفة) غرقت في أنهار البدع، وبحار الخرافات والمخالفات العقدية والعملية، تارةً لثقل تكاليف المشروع، وأحيانًا لحب التجديد ترويحًا على النفوس، وكثيرًا بسبب جهامة الإلف، والعادة، وتقديس دين الأباء الخارج عن سلطان العلم، ومرجعية الوحي.

ومنها: (طائفة) سبحت في بحار الشهوات، وغاصت في وحل الهوىٰ، وكأن الدين شأن غيرهم.

ومنها: (طائفة) أرادت أن تفصِّل ثوبًا لأصول السنَّة والمنهجية السلفية، جاعلة من أهم وأدق أوصافه أن يحقق لأصحابه تلبية نداء الفطرة، وأنهم بحق حماة الدين دون غيرهم، ولكن بشرط أن لا يدخلهم في حلبة الصراع الحقيقي، بل في هامشه، والأولى أن يخرجهم عن دائرته وحدوده ومعالمه بالكلية.

ومنها: (طائفة) عقدت بينها وبين أنفسها عهدًا على الالتزام بأي شعيرة من شعائر الإسلام، لكن بشرط ــ غير مقروء ولا مكتوب ولا مسموع ــ أن لا يترتب عليه أي حرج في دنياها، وقد تجد لديها توخيًا شديدًا لتحري الحلال، واجتناب الحرام، والمداومة المستمرة على عبادة الله، لكن المهم والمراد أن تبقى منزوعة المواقف، لا ولاء، ولا براء، لا سيما في الأمور التي تنبني عليها التكاليف العظام، وتكون بحق مفرق طريق بين الحق والطغيان.

ومنها: (طائفة) أخذت على عاتقها نشر فكر الإرجاء الخبيث، وبثّ آثاره السيئة، الذي من شأنه أن يخرِّج دومًا أجيالاً لا تعرف إلاَّ التميع، وسياسة الترقيع والاستسلام والذلة والمهانة، مع محاولة تذويب الفواصل والحدود بين الحق والباطل، من أجل التقابل بينهما في منتصف الطريق، وهيهات هيهات لما يريدون ويأملون.

ومنها: (طائفة) لم تتبن سياسة الفعل، ولكن تبنَّت سياسة ردّ الفعل؛ فقامت متعطشة لسفك الدماء، وانتهاك الأعراض، وترويع الآمنين، وأخذت سلطانًا من تلقاء أنفسها تجري به أحكام: الردَّة والتكفير والتبديع والتفسيق، لكل مارق عن هديها أو خارج عن إطار جماعتها، وقدمت للعالم كله كافة افتراءاتها على أنها أصل الإسلام، وأساس العقيدة الصحيحة المنضبطة، الذي لا يسع طالب الحق إلاَّ اتباعها، والمضي قدمًا على سننها هكذا زعموا!

ومنها: (طائفة) أعطت ولاءها الكامل للنظام القائم ولرايته المرفوعة، أيًّا كانت وجهتها المعلنة، سواءً كانت راية إسلامية أو علمانية، أو قومية، أو بعثية، أو راية مخلطة... المهم لديها أن الولاء يعطى خالصًا للراية المرفوعة، وكذلك قامت بإعلان البراءة من كل الرايات التي لم تحن الفرصة بعد لرفعها، وذلك لعظيم جهلها، وكبير غفلتها.

ومنها: (طائفة) أرادت عزل الدين ومقوماته، وشرائعه وأصوله، عن سياسة دنيا الأمة، وترسيم منهج حياتها، وتحديد مجالات علاقتها بين مختلف مناحي قطاعاتها الداخلية من جانب، وبين كل من حولها من أصحاب الأديان والملل والنحل من جانب آخر.

وأرادت أن تقصر دور الدين، وتحصره بين العبد وربه في بعض الطقوس التعبُّدية وذلك إلى حين، فإذا تمكنت من مخططها العفن وكيدها

الخبيث، قامت بالخطوة الثانية المتمثلة في إنهاء دور الدين بالكلية، وأعلنت التمرُّد الواضح على كافة تعاليم الأديان والردَّة ـــ التي لا تعرف العودة ـــ عن سائر الشعائر والشرائع.

ومنها: (طائفة) ثارت على كل ما هو باطل ومنكر، وقامت تسبح ضد تيار عاتي، لتتحدى سيل الطغيان الجارف، ولم تبخل في سبيل ذلك بشيء من دمائها وأموالها، بل وقدمت نفسها قربانًا لرضا الرب سبحانه، وفدية لنصرة دينه، وإقامة شريعته وسطرت بدقائق حياتها وقطرات دمائها الزكية أروع ألوان البطولة والفداء، وأبت إلاَّ الانطلاق من حمى الإخلاص لبارئها سبحانه، حتى تعيد الأمة لطريقها، وتثبت قواعد دينها الرباني الحنيف. ونراها على قلَّة عددها، وضعف عدَّتها، إلاَّ أن الله سبحانه قد اصطفاها من الناس ليصنع بها قدره، وينفذ بها وعده، وقد ألقى لها الرعب في قلوب أعدائها. ولكن بنظرة متأنية خالية من العواطف، نجد أن نقطة الضعف الغائرة في جسد هذه الطائفة يكمن في عدم قيامها وانطلاقها من منهج شامل متكامل متأصل بالبراهين والدلائل، حتى تستطيع من خلاله: تحديد أطر البدايات، ومستلزمات كل مرحلة من مراحل الصراع، والتخلص من عشوائية القرارات، وإشكالية تداخل أطوار العمل المنهجي لعودة هذا الدين، ومن ثمّ تتمكن من القيام بعرض واقع الأزمة الراهنة بكل أبعاده الحقيقية، مع بيان مردود فعله الخطير على كافة أبناء الأمة، ليتجلى بذلك لب الصراع، وحقيقة المعركة الهائلة والحاسمة، التي ينبغي أن تخوضها الأمة شاءت ذلك أم أبت.

* * *

وبعد ما قمنا بتقليب الطرف في أحوال أمتنا، يتجلى لنا بوضوح بيِّن: وجوب البحث الحثيث، والتنقيب الدائم المستمر عن منهج أصيل، يتميز

بالشمولية، ويتّسم بالمرجعية الصحيحة المنضبطة، قد التحم فيه جانبه العقدي بجانبه العملي، وشقه النظري بشقه الواقعي، ومن ثمّ نستطيع أن نقدمه لأمتنا على أنه الطريق الوحيد، والسبيل الفريد للخروج من أزمتها الحالية، والعبور بها من ذلة التبعية إلى عزة الريادة، وبالتالي حشد كل الطاقات، وتجنيد كافة الإمكانات للسير به وخلفه وتحت لوائه، حتى يتسنى لنا أن نستعيد زمام البشرية من يد ألدّ أعدائها، ونخرج بديننا الحنيف من غربته الثانية إلى ظهوره وعلوه وتمكينه الثاني، كما خرج به الصحابة من غربته الأولى إلى ظهوره وعلوه وتمكينه الأول.

* * *

أعود فأقول: كم نحن اليوم في مسيس الحاجة إلى منهج رباني، ننطلق منه، ونعود إليه، ونستظل به، ونحن نصارِع ونصارَع من قبل كافة الملل والنحل المارقة عن حقيقة الوجود، والخارجة عن علة الخلق والإيجاد، والضاربة في عطن الفساد ومستنقع الإلحاد.

كم يفقد المسلمون الغالي والثمين، من دمائهم، وأنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، ومقدساتهم، وأراضيهم، وذراريهم... عندما يخوضون جولة من جولات الصراع مع أعدائهم، في أثناء غياب منهج شمولي متكامل أصيل مدروس. وكم تزداد المحن قوة، والفتن ظلمة، والشبهات التباسًا، والحق ضياعًا واندراسًا حينما تفقد الأمة الإسلامية وسائل الارتباط بمنهجها المنضبط القويم ـ المتصل سندًا بجميع الرسل والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم ـ حال الصراع والنزال.

وكم انطلقت كثير من الجماعات الإسلامية اليوم، ثم لا تلبث أن تعود لنقطة الانطلاق، وتارة إلى ما قبل نقطة الانطلاق، وأحيانًا تستقبل اتجاهًا

معاكسًا لها، ومن ثمَّ تجد نفسها دائرة في حلقة مفرغة، باحثة في عناء شديد عن نقطة البداية، فلا تجدها، بل وتضيع من تحت أقدامها.

وفي خضم هذه الحالة، التي تتسم: بالترنح، والتذبذب، والتخبط، والعشوائية، يستحيل علينا أن نحدد الوسائل والطرق التي تحقِّق المقاصد والغايات.

وعندما نقلب صفحات التاريخ الخالدة ـ المليئة بالدروس والعبر ـ، نجد أن الأمة الإسلامية قد مر عليها كثيرٌ من المحن والرزايا، التي تحمل من الكيد والدهاء والخبث، ما الله به عليم، حتى كاد بعضها أن يكسر الإسلام، ويقصم ظهر أمته، ويستأصل وجود أبنائه، إلاَّ أن الأمة ما تلبث أن تفيء من سكرتها، وتستيقظ من غفلتها إلى منهجها القويم لتصطبغ به، فتخرج منه وبه أمة أبيّة على المكر، عصيّة على العداء، داحرة لكل ظالمٍ وطاغٍ وباغٍ، وتنتهي بذلك إحدى جولات الصراع ـ التي لا تنتهي ما بقي زمانُ التكليف ـ بين الإسلام والكفر، لصالح الحق، ولعز المسلمين.

ودائمًا كنا نرى في هجمات أهل الكفر الشرسة على أهل ملتنا: تكاتف العلماء والأمراء، ومن ورائهم كافة طبقات الأمة، وتعانق الأيدي والقلوب، وترص الصفوف، وتعبأ كل الطاقات لمواجهة هذا الكيد السافر، حتى ينجلي مكرهم، ويُرد كيدهم في نحرهم.

أما يومنا الطويل الأسى، البالغ من الحسرة مداه، فللأسف الشديد، نرى: تفككًا وخورًا شديدًا، مع فقدانٍ للثقة بين كثير من فصائل الأمة، وهذا التفكك قد ورثنا: الذلة والمهانة، واستمراء الدنية، واستمرار التبعية، وورث أعداءنا بدوره: استعلاءً، وشموخًا، وعلوًا، وسفورًا في العداء.

وهذا مما يبرهن ويؤكد على حاجة الأمة الضرورية إلى منهج شامل منضبط صحيح، تلوح فيه بجلاء: البدايات والنهايات، والقواعد والأصول

والنتائج، والوسائل والأهداف والغايات.

وانطلاقًا من إيجاد حل للمصائب العظام والدواهي الكبار، التي تحيط بأمتنا، وتهدد بحق وجودها وبقائها، بدأت البحث الحثيث، والتنقيب الدائم المستمر عن منهج أصيب منضبط، يصلح أن يقدم لأمتنا على أنه العلاج الناجع الوحيد، الذي ينبغي أن تتجرعه لتخرج به من أزمتها الراهنة، وتثبت قدماها على طريق التحدي الرهيب. وقد وقع اختياري على تراث الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، وطيب مثواه، وذلك لعمق منهجه، وأصالته، وقوته، وشموليّته، وكذا قرب عهده منّا، ومشابهة ظروف وأوضاع نشأته لظروفنا وأوضاعنا الحالية، فقد كانت الأمة الإسلامية تمر إلى حدٍّ كبير بذات الأزمة التي تمرُّ بها في فترتنا الآنية، وكذلك واجهت حركته ـ رحمه الله تعالى ـ ذات الطواغيت والمنافقين ومرتزقة الأقلام والكلمات، التي نصارعها ونواجهها في جولتنا الحالية.

فلما تشابهت علل النشأة، وأحوال المرحلة، وطبيعة العداء وحجم الصراع، رأيت أنه قد تعين وتوجَّب عليّ، الغوص العميق في ثنايا هذا التراث، لاستخراج كنوزه، واغتنام ثرواته، فقمت ـ مستعينًا بالله العليم الخبير ـ بتبويب هذا التراث المتناثر، تبويبًا منهجيًا شموليًا، مبتدئًا فيه بالمقدمات والأصول، ومارًّا بالنواقض والعوائق، ومنتهيًا بالنتائج والعواقب.

والقصد من وراء هذا العمل: أن تظهر بوضوح حقيقة تلك الدعوة، وينجلي شمولها العميق، ومن ثمّ يستحيل اختزالها المراد لها من قبل أعدائها في بعض جوانبها فقط، لئلا تكون قادرة على محاربة الطغيان، ومنازلة الفساد، ومقارعة الخارجين عن شريعة الله وعبوديته، التي ما خلقت الخليقة إلاَّ لتعبده وحده لا شريك له، وتستظل بشريعته في كل جوانب حياتها، حتى تلقاه سبحانه على ذلك غير مفرطة، ولا عادلة، ولا مبدلة.

* * *

مميزات هذا المنهج

لقد اتَّصف هذا المنهج المبارك ـ إن شاء الله تعالى ـ بخصال طيبة، وصفات حسنة، ومميزات أصيلة، قل أن توجد مجتمعة لغيره، منها:

ـ شموليَّته، وتطوُّره الطبيعي، مع الأحداث والوقائع ومتطلبات كل مرحلة من مراحل الصراع، مع مراعاة حدود وطاقات وإمكانيات المسلمين الراهنة.

ـ تأصيله بالبراهين المتواترة سندًا ومعنى، والحشد الدائم لآحاد الأدلة ـ مع مراعاة روح ومقاصد التشريع ـ لكل مسألة من مسائله، حتى يتسنى اليقين بكل جزئية من جزئياته، ومن ثمّ الجزم والقطع بكلياته وقواعده.

ـ الحرص الشديد على وجوب اتباع السلف الصالح، لا سيما أصحاب القرون الثلاثة الأولى المفضلة، قرون الاتباع والاقتداء.

ـ عدم تقديس أي أحد، مهما علت مرتبته وارتفع سهمه في العلم والمكانة، وتجويز الخطأ عليه، مع بيانه إن وقع، والاعتذار عنه بحسب الحاجة الداعية إليه.

ـ بيان قضية التوحيد ـ التي هي أصل الأصول الإيمانية ـ وجلاء أركانها، وحشد النصوص الدالة عليها والمؤيدة لها، مع دحض وإخماد كافة ألوان الشرك وأصوله ومواده وذرائعه ووسائله.

ولا غرور في ذلك، فإن قضية التوحيد هي بحق مفرق الطريق الوحيد، ومحل الصراع الأبدي الدائم بين المسلمين، وأعدائهم من كافة الملل والنحل المارقة عن فطرة الوجود.

ـ الالتحام المصيري بين الجانب العقائدي، والجانب العملي، دون

انقصام بينهما، بل ولقد قام أئمة الدعوة ـ رحمهم الله تعالى ـ بكل ما قالوه وسطروه وأصلوه، دون مهادنة أو مواربة، وهذا بلا شك يبعث على الطمأنينة، واليقين في نفوس أتباعهم، وأنهم بحق على جادة الطريق، وكذا يجعل الجاد في دينه ـ في كل عصر ومصر ـ يستطيع أن يرى صورة الصراع كاملة وبأبعادها الحقيقة، وأن يبصر معالم الطريق واضحة، ومن ثمّ يستطيع القيام بتحديد دوره، والإحاطة بمتطلبات مرحلته الراهنة بوضوح تام ورؤية شاملة.

ـ الجرأة في عرض الحق، وقبول الصراع، والتحدي عليه، ومن أجله.

ـ عدم الخوف والانزعاج من النتائج المنبثقة من تجريد عرض الحقائق، ذلك الخوف الذي قد يسبب نوعًا من تمييع الأصول، وعدم الترتيب المنطقي للأدلة، وذلك يوقع لا محالة في الفصل بين العلل وأحكامها، والجمع بين المتناقضات، والتفريق بين المتماثلات في الأحكام والغايات.

ـ عدم القبول بأنصاف الحلول، ورفض فكرة الالتقاء في وسط الطريق بين أهل الحق وأهل الباطل، لأن هذه السياسة العقيمة ـ فضلاً عن بطلانها شرعًا فإن ـ من شأنها دومًا، أن تعمل على طمس هوية أهل الحق، وتمييع دورهم، وتفريغ هدفهم من محتواه الحقيقي، والقضاء على قضيتهم، والنتيجة المتحتمة والمترتبة على ذلك، هي عجز وقصور أهل الحق عن جهاد أهل الباطل، وإظهار قضاياهم المنحرفة، والتدليل على عدم مشروعيتها، وهذا من أعظم ما يؤمله أهل الضلال ويريدوه.

ـ اتباع سياسة حكيمة راشدة في إخماد البدع، ومحاربة محدثات الأمور، لا سيما بدعة الإرجاء الخبيثة بدركاتها المختلفة، وما تمخض

عنها، من تحلل عن الشرائع، وانغماس مزري في وحل الكفر والفسوق والعصيان، وكذا إصباغ الشرعية على كل قوى الطغيان، بدعوى أن أصحابها يقولون: «لا إلـه إلاَّ الله»؛ والإيمان العاصم للدماء والأموال ــ في زعمهم ــ لا يكون إلاَّ بمجرد نطقها، مع التصديق الكامل بها!!! وها نحن نرى اليوم ربيب الإرجاء الخبيث، الذي نما وترعرع في حضانته، وتحصن بحصنه ــ الغير حصين ــ ألا وهو العلمانية الخبيثة ذات الظلال العفنة والظلمات المتراكمة.

وكل ذلك كان بسبب عدم مواجهة الحركة الإسلامية لآثار الإرجاء العقيمة، ومقارعة أقطابه، وبيان فساد منهجه، وخطورة ردود أفعاله على الإسلام والمسلمين.

ــ الحرص الشديد على التسلح بالدليل، ومنازلة الحجة بالحجة، ومقارعة البرهان بالبرهان، مع رفض التقليد، وإباء الاتباع المذموم، ومن ثمّ خرَّجت هذه الدعوة ــ بفضل الله سبحانه ــ العامي الراسخ في دينه، والذي يغلب بحق ألفًا من علماء المشركين، ناهيك عن العلماء والحفاظ والدعاة وطلبة العلم، الذين خرجوا وما زالوا يتخرجون من جامعة هذا التراث.

ــ هذه الدعوة تمثل امتدادًا ضاربًا في أعماق التاريخ، لمدرسة العالم الرباني، الذي نظن أن الله سبحانه قد اختاره واصطفاه من خلقه، ليقرر به ضوابط قضايا الاعتقاد، ويبين به معالم طريق النجاة، ويوضح به الحدود والفواصل بين منهج أهل الحق، ومناهج أهل الباطل والإلحاد، حتى صار بحق علمًا منفردًا، يرغم أنوف أهل الشرك والبدع والطغيان، على ممر الدهور والعصور، حيًّا وميتًا، ألا وهو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية الحراني الدمشقي، ومن ورائه تلميذه الإمام العلاَّمة ابن القيم الجوزية.

وبأدنى نظر في تراث شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب نجد أنّ كل، أو جلّ مسائله، ودلائله وردوده، وتقريراته، مستفاة كاملة، أو شبه كاملة من تراث شيخ الإسلام إمام الأئمة، جهبذ الجهابذة، أحمد بن تيمية رحمهما الله تعالى، ولقد صدقت كلمة أحد المستشرقين حيث قال: لقد ترك شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ألغامًا، فجر بعضها شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب، نسأل الله أن يعين العلماء الربانيين، والدعاة المخلصين على تفجير ينابيع الحكمة، وأنوار الهدى، الساطعة من تراثه الطاهر.

منهجي في البحث

لقد كان نصب عيني منذ الوهلة الأولى للشروع في هذا الكتاب، أن تعرض أصوله، وقواعده، وردوده، ونتائجه، دون أدنى شائبة تَدَخُّل، أو وصاية على ما قرره هؤلاء الأئمة الأعلام، من أحكام وتقريرات، لتبقى بصماتهم، عالية وكاملة وظاهرة عليها؛ لأني على قناعة تامة، بحاجة الأمة الضرورية، إلى ما قررته أئمتها الأعلام، وعلماؤها الربانيون، لكن بشرط عزيز، وهو أن تعرض كاملة، وواضحة، ومركزة، وبأمانة تامة، دون أي حذف، أو شطب، أو اختزال لشيء غير مراد من تراثهم، وما سطرته أيديهم.

ولذلك فقد كان همي الأكبر في هذا المقام، أن يقدم هذا الإرث الطاهر للأمة الإسلامية في صورة منهج أصيل متكامل كما كان في حسّ صاحبه ومؤسسه الإمام محمد بن عبد الوهاب، وأحفاده وتلاميذه ــ الذين ساروا على أصول دربه ــ من بعده رحمهم الله جميعًا.

ولقد قمت بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة أبواب، الباب الأول جاء في: أصول التوحيد والإسلام والإيمان؛ والباب الثاني في: الشرك والمشركين؛ والباب الثالث في: الأحكام المترتبة على مفهوم التوحيد والشرك.

وإفرادي للأحكام المترتبة على مفهوم التوحيد والشرك في جزء منفرد عن جزئي التوحيد والشرك، من أجل أن يتم الفصل التام بين القيام بالتوحيد مع البراءة من الشرك، كعقيدة يجب القيام بها، ليتحقق بذلك أصل الدين، ويكون المرء به مسلمًا، وبين إجراء الأحكام المنبثق من تصور حَدَّي التوحيد والشرك، وطبيعة العلاقة بينهما، حتى لا يأتي الخلط، ويتم الدمج بين تحقيق أصل الدين من جهة وإجراء الأحكام من جهة أخرى، ووضعهما معًا في سلة واحدة، من حيث التأصيل، والتدليل، والمشروعية، ومن ثمّ تحل الطامة العظمى، والداهية الكبرى المتمثلة في الغلو المذموم في التفكير، وإخراج السواد الأعظم لجمهور المسلمين من دينهم وملتهم، بلا دليل ولا برهان، اللّهم إلاّ الزعم بأن إجراء الأحكام على المشركين والمرتدين من صلب وماهية أصل الدين، تلك الدعوى المفتراة، التي لم يقم على صحتها دليل صحيح صريح من الكتاب، أو السنَّة، بفهم أصحاب الثلاثة القرون الأولى المفضلة، ولا إجماعهم المعصوم، الواجب الاتباع. وعندما نقرر هذا، فينبغي أن نقرر ونعلن في مقابله: أن العلماء قد عدّوا: عدم تكفير المشركين، أو الشك في كفرهم، أو تصحيح مذهبهم، ناقضًا من نواقض الإسلام، المبيحة للدم والمال، ولكن هناك فرقًا كبيرًا، وبونًا شاسعًا، بين أن يكون إجراء الأحكام على المشركين بإطلاق أصلاً من أصول الدين، وبين أن يكون في بعض مناطاته وصوره، ناقضًا من نواقض الإسلام، يخضع في ذلك لتوفر شروط التكفير، وانتفاء موانعه، التي قررها الصحابة والتابعون، ومن سار على دربهم، واقتفى أثرهم، لا أهل الإرجاء والتجهم الحديث والمعاصر، الذين يريدون غلق هذا الباب، وطي هذا الملف، حتى تمنى كثير منهم عدم الخوض في هذه القضية، أو الحديث عنها، أو سماعها، حتى لا تقسو القلوب، وتزل القدم في الوقوع في المحذور، هكذا زعموا!

ولا يفوتني في هذا المقام، أن أعلن البراءة من كلٍ من منهجي التكفير والإرجاء، والتحذير المتكرر للأمة من عاقبة شؤم بدعتهما، وآثارهما السيئة، ولكن انطلاقًا من معالم منهج أهل السنَّة والجماعة، الذي يريد الخير الدائم لكل الناس، ينبغي علينا دومًا أن نرفع أكف الضراعة لله الهادي إلى سواء الصراط، أن يهدينا وسائر إخواننا ــ المغالين والمفرطين ــ للصواب، وإن يجنبنا جميعًا الكفر، والزلل، والبدع، ومحدثات الأمور.

* * *

التقسيم الموضوعي للكتاب:

لقد جاء الكتاب مقسمًا إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول في : أصول التوحيد والإسلام والإيمان؛ وفيه مقدمة، وتسعة فصول.

المقدمة في : أحوال المشركين بين التبديل والتغيير.

الفصل الأول : حقيقة الإسلام وشروط قبوله.

الفصل الثاني : حقيقة التوحيد، وأركانه، ومقتضياته، وأنواعه.

الفصل الثالث : كيفية الإيمان بالرسالة، وتحقيق أركانها ومقتضياتها.

الفصل الرابع : أصول الإيمان، ومقتضياته، ولوازمه.

الفصل الخامس : الطاغوت، وصفة الكفر به.

الفصل السادس : الحكم لله وحده لا شريك له، وحكم من بدل شرائع الإسلام، أو حكم بغير ما أنزل الله.

الفصل السابع : حقيقة الولاء والبراء.

الفصل الثامن : الأسماء والصفات، ومنهج السلف في الإيمان بها.

الفصل التاسع : القضاء والقدر، ومنهج السلف في الإيمان به.

* * *

الباب الثاني : الشرك والمشركين، وفيه ثمانية فصول:

الفصل الأول : حد الشرك، ودرجاته، وأنواعه وأحكامه، مع بيان علة عدم مغفرته، ووجوب الحذر منه.

الفصل الثاني : العلم سبيل النجاة من الشرك، وإلاَّ وقع بالجهل، والتلبيس وتغيير الحقائق.

الفصل الثالث : الفتنة بالقبور، والمفاسد المترتبة عليها، مع الرد على أشهر شبهات أهلها.

الفصل الرابع : الشفاعة، وأنواعها، وشروطها، وأسباب تحصيلها، والحرمان منها.

الفصل الخامس : المشرك مغبون في دينه لإخلاله بكل قيود الكلمة العاصمة، إلاَّ مجرد التلفظ بها.

الفصل السادس : أشهر شبهات المشركين وعلمائهم، مع سهام الردود عليها.

الفصل السابع : الأدلة الجلية من الشريعة الربانية، على كفر من عبد غير الله تعالى.

الفصل الثامن : علة قتال المشركين، ووجوب البراءة منهم، وحكم الدار إذا غلبت عليها أحكام الشرك.

* * *

الباب الثالث : الأحكام المترتبة على مفهوم التوحيد والشرك.
وفيه تسعة فصول:

الفصل الأول : شروط عصمة الدم والمال.
الفصل الثاني : حكم الشك في كفر الكافر، وصوره.
الفصل الثالث : العذر بالجهل.
الفصل الرابع : العلاقة بين إقامة الحجة، والكفر وأحكامه.
الفصل الخامس : أنواع الكفر، وحكم تكفير المعين.
الفصل السادس : أحكام الديار.
الفصل السابع : أحكام القتال، ومشروعية الجهاد.
الفصل الثامن : نواقض الإسلام، وأحكام الردة والمرتدين.
الفصل التاسع : أشهر الشبهات المثارة على أئمة الدعوة، والردّ الوافر عليها.

* * *

ولقد كانت الفكرة السائدة في هذا الكتاب من أوله إلى آخره، تكمن في تقسيم كل فصل من فصوله إلى عدة مباحث، يبدأ كل واحد منها بعنوان، يبين المراد منه، وحرصت على أن يكون معناه مستنبطًا من الأفكار الأساسية، والقواعد المنهجية التي جاءت ضمن النقول، تحت هذا المبحث، وإذا قمت بإيراد نقل مطول، لتقرير أي مسألة من المسائل، فعندئذٍ أقوم بإدخال عنوان جانبي، بين معكوفتين ( )، مرة، أو عدة مرات، بحسب الحاجة الداعية إليه، من أجل سهولة الاستفادة، ودوام التركيز للقارىء النجيب، لكل فقرة من فقرات النقل؛ وكذا قمت بوضع هوامش جانبية لها، كلما دعت الحاجة إليها، تكون من جانب بيانًا لأعز مقاصدها ومراداتها، ومن جانب آخر تلخيصًا مهمًا لها. وبعد الانتهاء من

كل فصل، أعقد تلخيصًا دقيقًا له، تحت عنوان: **(كلمات منتقاة مضيئة)**، ويكون هذا التلخيص بأقلام أئمة الدعوة، المنقول عنهم في هذا الفصل، وعمَّن أسندوه فيه عن الأئمة العلماء في ذات الفصل المذكور.

وأود التنويه إلى أن المقصود بالأصالة في هذا الكتاب، هو بيان معتقد أئمة الدعوة، في كل مسألة من مسائله، وتقرير من تقريراته، ودائمًا ما كنت آتي بالتبع في ختام كل فصل، بنقل، أو عدة نقول، عن الأئمة المعاصرين، من أمثال: أعضاء اللجنة الدائمة، وهيئة كبار العلماء، وأعضاء الإفتاء، حتى يتضح اتحاد الطريق، واستمرارية المسير في تقرير المسائل العلمية، الحاكمة على المسائل العملية، والقائدة لها.

• • •

ترجمة الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى، وأسكنه فسيح جناته في ترجمة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب وأبنائه وأحفاده وأتباعه ـ رحمهم الله جميعًا ـ ، وفي التعريف بحقيقة دعوة الشيخ، وحجم الصراع بينه وبين خصومه، مع بيان أسبابه الحقيقة، فقال رحمه الله تعالىٰ:

«الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله وخيرته من خلقه سيدنا وإمامنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

أما بعد: أيها الإخوان الفضلاء، أيها الأبناء الأعزاء، هذه المحاضرة الموجزة أتقدم بها بين أيديكم تنويرًا للأفكار، وإيضاحًا للحقائق، ونصحًا لله ولعباده، وأداء لبعض ما يجب عليَّ من الحق نحو المحاضَرِ عنه، وهذه المحاضرة عنوانها: الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، دعوته وسيرته.

لما كان الحديث عن المصلحين والدعاة والمجددين، والتذكير بأحوالهم، وخصالهم الحميدة، وأعمالهم المجيدة، وشرح سيرتهم التي دلَّت على إخلاصهم، وعلى صدقهم في دعوتهم وإصلاحهم ـ لما كان

الحديث عن هؤلاء المصلحين المشار إليهم، وعن أخلاقهم وأعمالهم وسيرتهم، مما تشتاق إليه النفوس، وترتاح له القلوب، ويود سماعه كل غيور على الدين، وكل راغب في الإصلاح والدعوة إلى سبيل الحق، رأيت أن أتحدث إليكم عن رجل عظيم، ومصلح كبير، وداعية غيور، ألا وهو الشيخ المجدد للإسلام في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر من الهجرة النبوية، وهو الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي الحنبلي.

لقد عرف الناس هذا الإمام ولا سيما علماؤهم ورؤساؤهم، وكبراؤهم وأعيانهم في الجزيرة العربية وفي خارجها، ولقد كتب الناس عنه كتابات كثيرة ما بين موجز وما بين مطول، ولقد أفرده كثير من الناس بكتابات، حتى المستشرقون كتبوا عنه كتابات كثيرة، وكتب عنه آخرون في أثناء كتاباتهم عن المصلحين، وفي أثناء كتاباتهم في التأريخ، وصفه المنصفون منهم بأنه مصلح عظيم، وبأنه مجدد للإسلام، وبأنه على هدى ونور من ربه، وإن تعدادهم يشق كثيرًا.

ومن جملتهم المؤلف الكبير أبو بكر الشيخ حسين بن غنام الأحسائي، فقد كتب عن هذا الشيخ فأجاد وأفاد، وذكر سيرته وذكر غزواته، وأطنب في ذلك وكتب كثيرًا من رسائله، واستنباطاته من كتاب الله عز وجل، ومنهم أيضًا الشيخ عثمان بن بشر في كتابه «عنوان المجد»، فقد كتب عن هذا الشيخ أيضًا، وعن دعوته، وعن سيرته، وعن تأريخ حياته، وعن غزواته وجهاده.

ومنهم خارج الجزيرة: الدكتور أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح» فقد كتب عنه وأنصف، ومنهم الشيخ الكبير مسعود الندوي، فقد كتب عنه وسماه: «المصلح المظلوم»، وكتب عن سيرته وأجاد في ذلك.

وكتب عنه أيضًا آخرون، منهم الشيخ الكبير الأمير محمد بن إسماعيل

الصنعاني، فقد كان في زمانه، وقد كان على دعوته، فلما بلغه دعوة الشيخ سرَّ بها وحمد الله عليها، وكذلك كتب عنه العلامة الكبير الشيخ محمد ابن علي الشوكاني، صاحب نيل الأوطار، ورثاه بمرثية عظيمة، وكتب عنه جمع غير هؤلاء يعرفهم القراء والعلماء.

وبمناسبة كون كثير من الناس قد يخفى عليه حال هذا الرجل وسيرته ودعوته، رأيت أن أساهم في بيان حال هذا الرجل، وما كان عليه من سيرة حسنة ودعوة صالحة، وجهاد صادق، وأن أشرح قليلاً مما أعرفه عن هذا الإمام حتى يتبصر في أمره من كان عنده شيء من لبس، أو شيء من شك في حال هذا الرجل ودعوته وما كان عليه.

ولد هذا الإمام في عام ١١١٥هـ، هذا هو المشهور في مولده رحمة الله عليه، وقيل: في عام ١١١١هـ، والمعروف الأول: أنه ولد في عام ١١١٥هـ على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التحية، وتعلم على أبيه في بلدة العيينة، وهذه البلدة هي مسقط رأسه رحمة الله عليه، وهي قرية معلومة في اليمامة في نجد، شمال غرب مدينة الرياض، بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلو متر.

ولد فيها رحمة الله عليه، ونشأ نشأة صالحة، وقرأ القرآن مبكرًا، واجتهد في الدراسة والتفقه على أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان، وكان فقيهًا كبيرًا، وكان عالمًا قديرًا، وكان قاضيًا في بلدة العيينة، ثم بعد بلوغ الحلم حج وقصد بيت الله الحرام، وأخذ عن بعض علماء الحرم الشريف، ثم توجه إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فاجتمع بعلمائها، وأقام فيها مدة، وأخذ عن عالمين كبيرين مشهورين في المدينة ذلك الوقت، وهما: الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي، أصله من المجمعة، وهو والد الشيخ إبراهيم بن عبد الله صاحب العذب الفائض في علم

الفرائض، وأخذ أيضًا عن الشيخ الكبير محمد حياة السندي بالمدينة، هذان العالمان ممن اشتهر أخذ الشيخ عنهما بالمدينة، ولعله أخذ عن غيرهما ممن لا نعرف.

ورحل الشيخ لطلب العلم إلى العراق، فقصد البصرة واجتمع بعلمائها، وأخذ عنهم ما شاء الله من العلم، وأظهر الدعوة هناك إلى توحيد الله، ودعا الناس إلى السنة، وأظهر للناس أن الواجب على جميع المسلمين أن يأخذوا دينهم عن كتاب الله، وسنة رسول الله عليه الصلاة السلام، وناقش وذاكر في ذلك، وناظر من هنالك من العلماء، واشتهر من مشائخه هناك شخص يقال له: الشيخ محمد المجموعي ، وقد ثار عليه بعض علماء السوء بالبصرة، وحصل عليه وعلى شيخه المذكور بعض الأذى، فخرج من أجل ذلك، وكان من نيته أن يقصد الشام، فلم يقدر على ذلك لعدم وجود النفقة الكافية، فخرج من البصرة إلى الزبير، وتوجه من الزبير إلى الأحساء، واجتمع بعلمائها وذاكرهم في أشياء من أصول الدين، ثم توجه إلى بلدة حريملاء وذلك ــ والله أعلم ــ في العقد الخامس من القرن الثاني عشر؛ لأن أباه كان قاضيًا في العيينة، وصار بينه وبين أميرها نزاع، فانتقل عنها إلى حريملاء بعد انتقاله إليها سنة ١١٣٩هـ، فقدم الشيخ محمد على أبيه في حريملاء بعد انتقاله إليها سنة ١١٣٩هـ، فيكون قدومه حريملاء في عام ١١٤٠هـ أو ما بعدها، واستقر هناك، ولم يزل مشتغلاً بالعلم والتعليم والدعوة في حريملاء حتى مات والده عام ١١٥٣هـ، فحصل من بعض أهل حريملاء شر عليه، وهمَّ بعض السفلة بها أن يفتك به، وقيل إن بعضهم تسوَّر عليه الجدار، فعلم بهم بعض الناس فهربوا، وبعد ذلك ارتحل الشيخ إلى العيينة رحمة الله عليه.

وأسباب غضب هؤلاء السفلة عليه أنه كان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن

المنكر، وكان يحث الأمراء على تعزير المجرمين، الذين يعتدون على الناس بالسلب والنهب والإيذاء، هؤلاء السفلة الذين يقال لهم العبيد هناك، ولما عرفوا من الشيخ أنه ضدهم، وأنه لا يرضى بأفعالهم، وأنه يحرض الأمراء على عقوباتهم، والحد من شرهم؛ غضبوا عليه وهموا أن يفتكوا به، فصانه الله وحماه.

ثم انتقل إلى بلدة العيينة وأميرها إذ ذاك عثمان بن نصار بن معمر، فنزل عليه ورحَّب به الأمير، وقال: قم بالدعوة إلى الله، ونحن معك وناصروك، وأظهر له الخير والمحبة والموافقة على ما هو عليه، فاشتغل الشيخ بالتعليم والإرشاد والدعوة إلى الله عز وجل، وتوجيه الناس إلى الخير، والمحبة في الله ــ رجالهم ونسائهم ــ واشتهر أمره في العيينة، وعظم صيته، وجاء إليه الناس من القرى المجاورة.

وفي يوم من الأيام قال الشيخ للأمير عثمان: دعنا نهدم قبة زيد ابن الخطاب رضي الله عنه فإنها أسست على غير هدى، وإن الله جل وعلا لا يرضى بهذا العمل، والرسول عليه الصلاة والسلام نهى عن البناء على القبور، واتخاذ المساجد عليها، وهذه القبة فتنت الناس، وغيرت العقائد، وحصل بها الشرك فيجب هدمها، فقال الأمير: لا مانع من ذلك، فقال الشيخ: إني أخشى أن يثور أهل الجبيلة ــ والجبيلة قرية هنالك قريبة من القبر ــ .

فخرج عثمان ومعه جيش يبلغون ٦٠٠ مقاتل لهدم القبة، ومعهم الشيخ رحمة الله عليه، فلما قربوا من القبة خرج أهل الجبيلة لما سمعوا بذلك لينصروها ويحموها. فلما رأوا الأمير عثمان ومن معه كفوا ورجعوا عن ذلك، فباشر الشيخ هدمها وإزالتها، فأزالها الله عز وجل على يديه

رحمة الله عليه، ولنذكر نبذة عن حال نجد قبل قيام الشيخ رحمة الله عليه، وعن أسباب قيامه، ودعوته.

كان أهل نجد قبل دعوة الشيخ على حالة لا يرضاها مؤمن، كان الشرك الأكبر قد نشأ وانتشر، حتى عبدت القباب، وعبدت الأشجار، والأحجار، وعبدت الغيران، وعبد من يدعي الولاية، وهو من المعتوهين، وعبد من دون الله أناس يدعون بالولاية، وهم مجانين مجاذيب، لا عقول عندهم، واشتهر في نجد السحرة والكهنة، وسؤالهم وتصديقهم وليس هناك مُنْكِر إلاَّ من شاء الله، وغلب على الناس الإقبال على الدنيا وشهواتها، وقل القائم لله والناصر لدين الله، وهكذا في الحرمين الشريفين، وفي اليمن اشتهر في ذلك الشرك، وبناء القباب على القبور، ودعاء الأولياء والاستغاثة بهم.

وفي اليمن من ذلك الشيء الكثير، وفي بلدان نجد من ذلك ما لا يحصى، ما بين قبر وما بين غار، وبين شجرة، وبين مجذوب ومجنون يدعى من دون الله ويستغاث به مع الله، وكذلك مما عرف في نجد واشتهر دعاء الجن، والاستغاثة بهم، وذبح الذبائح لهم، وجعلها في الزوايا من البيوت رجاء نجدتهم، وخوف شرهم.

فلمَّا رأى الشيخ الإمام هذا الشرك وظهوره في الناس، وعدم وجود منكر لذلك، وقائم بالدعوة إلى الله في ذلك، شمر عن ساعد الجد، وصبر على الدعوة، عرف أنه لا بدَّ من جهاد وصبر وتحمل للأذى، فجد في التعليم والتوجيه والإرشاد وهو في العيينة، وفي مكاتبة العلماء في ذلك، والمذاكرة معهم رجاء أن يقوموا معه في نصر دين الله، والمجاهدة في هذا الشرك وهذه الخرافات؛ فأجاب دعوته كثيرون من علماء نجد وعلماء الحرمين، وعلماء اليمن، وغيرهم، وكتبوا إليه بالموافقة، وخالف آخرون وعابوا ما دعا إليه

وذموه، ونفروا عنه وهم بين أمرين؛ ما بين جاهل خرافي لا يعرف دين الله، ولا يعرف توحيد الله، وإنما يعرف ما هو عليه آباؤه وأجداده من الجهل والضلال والشرك والبدع والخرافات، كما قال الله عز وجل عن أمثال أولئك: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وطائفة أخرى ممن ينسبون إلى العلم ردوا عليه عنادًا وحسدًا، لئلا يقول العامة: ما بالكم لم تنكروا علينا هذا الشيء؟ لماذا جاء ابن عبد الوهاب وصار على الحق، وأنتم علماء ولم تنكروا هذا الباطل؟ فحسدوه وخجلوا من العامة وأظهروا العناد للحق إيثارًا للعاجل على الآجل، واقتداءً باليهود في إيثارهم الدنيا على الآخرة، نسأل الله العافية والسلامة.

أما الشيخ فقد صبر وجدَّ في الدعوة، وشجعه من شجعه من العلماء والأعيان في داخل الجزيرة، وفي خارجها، فعزم على ذلك واستعان بربه عز وجل، وعكف قبل ذلك على كتاب الله، وكانت له اليد الطولى في تفسير كتاب الله والاستنباط منه، وعكف على سيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه، وجدَّ في ذلك وتبصر فيه، حتى أدرك من ذلك ما أعانه وثبته على الحق، فشمر عن ساعد الجد، وصمم على الدعوة وعلى أن ينشرها بين الناس، ويكاتب الأمراء والعلماء في ذلك، وليكن في ذلك ما يكون.

فحقق الله له الآمال الطيبة، ونشر به الدعوة، وأيد به الحق، وهيأ الله له أنصارًا ومساعدين وأعوانًا، حتى ظهر دين الله، وعلت كلمة الله، فاستمر الشيخ في الدعوة في العيينة بالتعليم والإرشاد.

ثم شمر عن ساعد الجد إلى العمل وإزالة آثار الشرك بالفعل، لما رأى الدعوة لم تؤثر، باشر الدعوة عمليًّا ليزيل بيده ما تيسر، وما أمكن من آثار الشرك.

قال الشيخ للأمير عثمان بن معمر: لا بدَّ من هدم هذه القبة التي على قبر زيد، وزيد بن الخطاب رضي الله عنه هو أخو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله تعالى عن الجميع، وكان من جملة الشهداء في قتال مسيلمة الكذاب في عام ١٢ من الهجرة النبوية، فكان ممن قتل هناك، وبني على قبره قبة فيما يذكرون، وقد يكون قبر غيره، لكنه فيما يذكرون أنه قبره، فوافقه عثمان كما تقدم، وهدمت القبة بحمد الله، وزال أثرها إلى اليوم ولله الحمد والمنة، أماتها جل وعلا لما هدمت عن نية صالحة، وقصد مستقيم، ونصر للحق، وهناك قبور أخرى منها قبر يقال إنه قبر ضرار بن الأزور، كانت عليه قبة هدمت أيضًا، وهناك مشاهد أخرى أزالها الله عز وجل، وكانت هناك غيران وأشجار تعبد من دون الله جل وعلا، فأزيلت وقضي عليها وحذر الناس عنها.

والمقصود أن الشيخ استمر رحمة الله عليه على الدعوة، قولاً وعملاً كما تقدم، ثم إن الشيخ أتته امرأة، واعترفت عنده بالزنا عدة مرات، وسأل عن عقلها فقيل إنها عاقلة ولا بأس بها، فلما صممت على الاعتراف، ولم ترجع عن اعترافها، ولم تدع إكراهًا ولا شبهة وكانت محصنة، أمر الشيخ رحمة الله عليه بأن ترجم فرجمت بأمره، حالة كونه قاضيًا بالعيينة، فاشتهر أمره بعد ذلك بهدم القبة، وبرجم المرأة، وبالدعوة العظيمة إلى الله، وهجرة المهاجرين إلى العيينة، وبلغ أمير الأحساء وتوابعها من بني خالد سليمان ابن عريعر الخالدي أمر الشيخ، وأنه يدعو إلى الله، وأنه يهدم القباب، وأنه يقيم الحدود، فعظم على هذا البدوي أمر الشيخ؛ لأن من عادة البادية ــ إلاَّ من هدى الله ــ الإقدام على الظلم، وسفك الدماء، ونهب الأموال، وانتهاك الحرمات، فخاف أن هذا الشيخ يعظم أمره، ويزيل سلطان الأمير البدوي، فكتب إلى عثمان يتوعده، ويأمره أن يقتل هذا المطوع الذي عنده في العيينة،

وقال: إن المطوع الذي عندكم بلغنا عنه كذا وكذا!! فإما أن تقتله، وإما أن نقطع عنك خراجك الذي عندنا!! وكان عنده للأمير عثمان خراج من الذهب، فعظم على عثمان أمر هذا الأمير، وخاف إن عصاه أن يقطع عنه خراجه أو يحاربه، فقال للشيخ: إن هذا الأمير كتب إلينا كذا وكذا، وإنه لا يحسن منا أن نقتلك، وإنا نخاف هذا الأمير ولا نستطيع مجارته، فإذا رأيت أن تخرج عنا فعلت، فقال الشيخ: إن الذي أدعو إليه هو دين الله، وتحقيق كلمة لا إله إلاَّ الله، وتحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله، فمن تمسك بهذا الدين، ونصره وصدق في ذلك نصره الله وأيده وولاه على بلاد أعدائه، فإن صبرت واستقمت، وقبلت هذا الخير فأبشر، فسينصرك الله ويحميك من هذا البدوي وغيره وسوف يوليك الله بلاده وعشيرته، فقال: أيها الشيخ، إنا لا نستطيع محاربته، ولا صبر لنا على مخالفته.

فخرج الشيخ عند ذلك وتحول من العيينة إلى بلاد الدرعية، جاء إليها ماشيًا فيما ذكروا، حتى وصل إليها في آخر النهار، وقد خرج من العيينة، في أول النهار مشيًا على الأقدام، لم يرحله عثمان، فدخل على شخص من خيارها في أعلى البلد يقال له محمد بن سويلم العريني، فنزل عليه، يقال إن هذا الرجل خاف من نزوله عليه، وضاقت به الأرض بما رحبت، وخاف من أمير الدرعية محمد بن سعود فطمأنه الشيخ وقال له: أبشر بخير وهذا الذي أدعو الناس إليه دين الله، وسوف يظهره الله.

فبلغ محمد بن سعود خبر الشيخ محمد، ويقال إن الذي أخبره زوجته، جاء إليها بعض الصالحين، وقال لها: أخبري محمدًا بهذا الرجل، وشجعيه على قبول دعوته، وحرضيه على مؤازرته ومساعدته، وكانت امرأة صالحة طيبة، فلما دخل عليها محمد بن سعود أمير الدرعية وملحقاتها، قالت له: أبشر بهذه الغنيمة العظيمة! هذه غنيمة ساقها الله إليك، رجل داعية

يدعو إلى دين الله، يدعو إلى كتاب الله، يدعو إلى سنَّة رسول الله عليه الصلاة والسلام، يا لها من غنيمة! بادر بقبوله، وبادر بنصرته، ولا تقف في ذلك أبدًا.

فقبل الأمير مشورتها، ثم تردَّد هل يذهب إليه أو يدعوه إليه؟! فأشير عليه، ويقال إن المرأة أيضًا هي التي أشارت عليه مع جماعة من الصالحين، وقالوا له: لا ينبغي أن تدعوه إليك، بل ينبغي أن تقصده في منزله وأن تقصده أنت، وأن تعظم العلم والداعي إلى الخير.

فأجاب إلى ذلك لما كتب الله له من السعادة والخير رحمة الله عليه، وأكرم مثواه، فذهب إلى الشيخ في بيت محمد بن سويلم وقصده وسلم عليه وتحدث معه، وقال له: يا شيخ محمد، أبشر بالنصرة، وأبشر بالأمن، وأبشر بالمساعدة، فقال له الشيخ: وأنت أبشر بالنصرة أيضًا، والتمكين والعاقبة الحميدة، هذا دين الله من نصره نصره الله، ومن أيده أيده الله، وسوف تجد آثار ذلك سريعًا، فقال: يا شيخ، سأبايعك على دين الله ورسوله، وعلى الجهاد في سبيل الله، ولكنني أخشى إذا أيدناك ونصرناك وأظهرك الله على أعداء الإسلام أن تبتغي غير أرضنا، وأن تنقل عنا إلى أرض أخرى، فقال: لا؛ أبايعك على هذا، أبايعك على أن الدم بالدم، والهدم بالهدم، لا أخرج عن بلادك أبدًا.

فبايعه على النصرة وعلى البقاء في البلد، وأنه يبقى عند الأمير يساعده ويجاهد معه في سبيل الله حتى يظهر دين الله، وتمت البيعة على ذلك، وتوافد الناس إلى الدرعية من كل مكان ، من العيينة، وعرقة، ومنفوحة، والرياض، وغير ذلك من البلدان المجاورة، ولم تزل الدرعية موضع هجرة يهاجر إليها الناس من كل مكان، وتسامع الناس بأخبار الشيخ ودروسه في الدرعية ودعوته إلى الله وإرشاده إليه، فأتوا زرافات ووحدانًا، فأقام الشيخ

بالدرعية معظمًا مؤيدًا محبوبًا منصورًا، ورتَّب الدروس في الدرعية في العقائد، وفي القرآن الكريم، وفي التفسير، وفي الفقه، والحديث ومصطلحه، والعلوم العربية، والتأريخية، وغير ذلك من العلوم النافعة، وتوافد الناس عليه من كل مكان، وتعلم عليه في الدرعية الشباب وغيرهم، ورتب للناس دروسًا كثيرة للعامة والخاصة، ونشر العلم في الدرعية، واستمرَّ على الدعوة، ثم بدأ بالجهاد وكاتب الناس إلى الدخول في هذا الميدان، وإزالة الشرك الذي في بلادهم، وبدأ بأهل نجد، وكاتب أمراءها وعلماءها، كاتب علماء الرياض، وأميرها دهام بن دواس، وكاتب علماء الخرج وأمراءها، وعلماء بلاد الجنوب والقصيم، وحائل، والوشم، وسدير، وغير ذلك، ولم يزل يكاتبهم ويكاتب علماءهم وأمراءهم، وهكذا علماء الأحساء وعلماء الحرمين الشريفين، وهكذا علماء الخارج في مصر، والشام، والعراق، والهند، واليمن، وغير ذلك، ولم يزل يكاتب الناس ويقيم الحجج، ويذكر الناس ما وقع فيه أكثر الخلق من الشرك والبدع، وليس معنى هذا أنه ليس هناك أنصار للدين، بل هناك أنصار، والله جل وعلا ضمن لهذا الدين أن لا بدَّ له من ناصر، ولا تزال طائفة في هذه الأمة على الحق منصورة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، فهناك أنصار للحق في أقطار كثيرة، ولكن الحديث الآن عن نجد، فكان فيها من الشر والفساد والشرك والخرافات ما لا يحصيه إلاَّ الله عز وجل، مع أن فيها علماء فيهم خير، ولكن لم يقدر لهم أن ينشطوا في الدعوة وأن يقوموا بها كما ينبغي.

وهناك أيضًا في اليمن وغير اليمن دعاة إلى الحق، وأنصار قد عرفوا هذا الشرك وهذه الخرافات، ولكن لم يقدر الله لدعوتهم من النجاح ما قدر لدعوة الشيخ محمد لأسباب كثيرة، منها: عدم تيسر الناصر المساعد لهم، ومنها: عدم الصبر لكثير من الدعاة وتحمل الأذى في سبيل الله، ومنها: قلة

علوم بعض الدعاة التي يستطيع بها أن يوجه الناس بالأساليب المناسبة، والعبارات اللائقة، والحكمة والموعظة الحسنة، ومنها أسباب أخرى غير هذه الأسباب.

وبسبب هذه المكاتبات الكثيرة والرسائل والجهاد اشتهر أمر الشيخ، وظهر أمر الدعوة، واتصلت رسائله بالعلماء في داخل الجزيرة وفي خارجها، وتأثر بدعوته جم غفير من الناس، في الهند وفي أندونيسيا وفي أفغانستان وفي أفريقيا وفي المغرب، وهكذا في مصر والشام والعراق، وكان هناك دعاة كثيرون، عندهم معرفة بالحق والدعوة إليه، فلما بلغتهم دعوة الشيخ زاد نشاطهم وزادت قوتهم، واشتهروا بالدعوة، ولم تزل دعوة الشيخ تشتهر وتظهر بين العالم الإسلامي وغيره، ثم في هذا العصر الأخير طبعت كتبه، ورسائله، وكتب أبنائه وأحفاده، وأنصاره وأعوانه من علماء المسلمين في الجزيرة وخارجها، وكذلك طبعت الكتب المؤلفة في دعوته، وترجمته، وأحوال أنصاره، حتى اشتهرت بين الناس في غالب الأقطار والأمصار، ومن المعلوم أن لكل نعمة حاسدًا، وأن لكل داع أعداء كثيرين كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فلما اشتهر الشيخ بالدعوة، وكتب الكتابات الكثيرة، وألّف المؤلفات القيّمة، ونشرها في الناس، وكاتبه العلماء ظهر جماعة كثيرون من حساده ومن مخالفيه، وظهر أيضًا أعداء آخرون، وصار أعداؤه وخصومه قسمين: قسم عادوه باسم العِلم والدين، وقسم عادوه باسم السياسة، لكن تستروا بالعلم، وتستروا باسم الدين، واستغلوا عداوة من عاداه من العلماء الذين أظهروا عداوته، وقالوا إنه على غير الحق، وإنه كيت وكيت، والشيخ رحمة الله عليه مستمر في الدعوة يزيل الشبه، ويوضح الدليل، ويرشد الناس

إلى الحقائق على ما هي عليه من كتاب الله وسنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام، وطورًا يقولون: إنه من الخوارج، وتارةً يقولون: يخرق الإجماع ويدَّعي الاجتهاد المطلق، ولا يبالي بمن قبله من العلماء والفقهاء، وتارة يرمونه بأشياء أخرى، وما ذاك إلاَّ من قلة العلم من طائفة منهم، وطائفة أخرى قلَّدت غيرها، واعتمدت على غيرها، وطائفة أخرى خافت على مراكزها فعادته سياسة، وتستَّرت باسم الإسلام والدين، واعتمدت على أقوال المخرفين والمضللين.

والخصوم في الحقيقة ثلاثة أقسام:

علماء مخرفون يرون الحق باطلاً والباطل حقًّا، ويعتقدون أن البناء على القبور، واتخاذ المساجد عليها، ودعاءها من دون الله والاستعانة بها وما أشبه ذلك دين وهدى، ويعتقدون أن من أنكر ذلك فقد أبغض الصالحين، وأبغض الأولياء، وهو عدو يجب جهاده.

وقسم آخر من المنسوبين للعلم جهلوا حقيقة هذا الرجل، ولم يعرفوا عنه الحق الذي دعا إليه، بل قلدوا غيرهم، وصدقوا ما قيل فيه من الخرافيين المضللين، وظنوا أنهم على هدى فيما نسبوه إليه من بغض الأولياء والأنبياء، ومن معاداتهم وإنكار كراماتهم، فذموا الشيخ، وعابوا دعوته ونفروا عنه.

واستمرت الحرب الكلامية والمجادلات والمساجلات بين الشيخ وخصومه، يكاتبهم ويكاتبونه ويجادلهم ويرد عليهم ويردون عليه، وهكذا جرى بين أبنائه وأحفاده وأنصاره، وبين خصوم الدعوة حتى اجتمع من ذلك رسائل كثيرة، وردود جمة، وقد جمعت هذه الرسائل والفتاوى والردود فبلغت مجلدات، وقد طبع أكثرها والحمد لله.

واستمر الشيخ في الدعوة والجهاد، وساعده الأمير محمد بن سعود

أمير الدرعية، وجد الأسرة السعودية على ذلك، ورفعت راية الجهاد، وبدأ الجهاد من عام ١١٥٨هـ، بدأ الجهاد بالسيف وبالكلام، وبالحجة والبرهان، ثم استمرت الدعوة مع الجهاد بالسيف، ومعلوم أن الداعي إلى الله عزَّ وجلّ إذا لم يكن لديه قوة تنصر الحق وتنفذه، فسرعان ما تخبو دعوته وتنطفىء شهرته، ثم يقل أنصاره، ومعلوم ما للسلاح من الأثر العظيم في نشر الدعوة، وقمع المعارضين، ونصر الحق، وقمع الباطل، ولقد صدق الله العظيم في قوله عزَّ وجلّ، وهو الصادق سبحانه في كل ما يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]، فبيَّن سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل بالبيِّنات، وهي الحجج والبراهين الساطعة، التي يوضح الله بها الحق، ويدفع بها الباطل، وأنزل مع الرسل الكتاب الذي فيه البيان، والهدى والإيضاح، وأنزل معهم الميزان، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من الظالم، ويقام به الحق وينشر به الهدى، ويعامل الناس على ضوئه بالحق والقسط، وأنزل الحديد فيه بأس شديد، فيه قوة وردع وزجر لمن خالف الحق، فالحديد لمن لم تنفع فيه الحجة، وتؤثر فيه البينة، فهو القامع، ولقد أحسن من قال في مثل هذا:

وما هو إلاّ الوحي أو حد مرهف ... تزيل ظباه أخدعي كلِّ مائل
فهذا دواء الداء من كل جاهل ... وهذا دواء الداء من كل عادل

فالعاقل ذو الفطرة السليمة ينتفع بالبينة، ويقبل الحق بدليله، أما الظالم التابع لهواه فلا يردعه إلاّ السيف.

فجد الشيخ رحمه الله في الدعوة والجهاد، وساعده أنصار من آل سعود ــ طيَّب الله ثراهم ــ على ذلك، واستمروا في الجهاد والدعوة من

عام ١١٥٨هـ، إلى أن توفي الشيخ في عام ١٢٠٦هـ، فاستمر في الجهاد والدعوة قريبًا من خمسين عامًا، جهاد، ودعوة ونضال، وجدال في الحق، وإيضاح لما قال الله ورسوله، ودعوة إلى دين الله، وإرشاد إلى ما شرعه رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى التزم الناس بالطاعة، ودخلوا في دين الله، وهدموا ما عندهم من القباب، وأزالوا ما لديهم من المساجد المبنية على القبور، وحكموا الشريعة، ودانوا بها وتركوا ما كانوا عليه من تحكيم سوالف الآباء والأجداد، وقوانينهم، ورجعوا إلى الحق، وعمرت المساجد بالصلوات، وحلقات العلم، وأدِّيت الزكوات، وصام الناس رمضان كما شرع الله عزَّ وجلّ، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وساد الأمن في الأمصار والقرى والطرق والبوادي، ووقف البادية عند حدهم، ودخلوا في دين الله وقبلوا الحق، ونشر الشيخ فيهم الدعوة، وأرسل الشيخ إليهم المرشدين، والدعاة في الصحراء والبوادي، كما أرسل المعلمين والمرشدين والقضاة إلى البلدان والقرى، وعمَّ هذا الخير العظيم والهدى المستبين نجدًا كلها، وانتشر فيها الحق، وظهر فيها دين الله عزَّ وجل.

ثم بعد وفاة الشيخ رحمة الله عليه، استمر أبناؤه وأحفاده، وتلاميذه وأنصاره في الدعوة والجهاد، وعلى رأس أبنائه الشيخ الإمام عبد الله ابن محمد، والشيخ حسين بن محمد، والشيخ علي بن محمد، والشيخ إبراهيم بن محمد، ومن أحفاده الشيخ عبد الرحمن بن حسن، والشيخ علي بن حسين، والشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد، وجماعة آخرون، ومن تلاميذه أيضًا الشيخ حمد بن ناصر بن معمر، وجمع غفير من علماء الدرعية وغيرهم، واستمروا في الدعوة والجهاد، ونشروا دين الله تعالى، وكتابة الرسائل وتأليف المؤلفات، وجهاد أعداء الدين، وليس بين هؤلاء الدعاة وخصومهم شيء، إلَّا أن هؤلاء دعوا إلى توحيد الله وإخلاص

العبادة لله عزَّ وجلّ، والاستقامة على ذلك، وهدم المساجد والقباب التي على القبور، ودعوا إلى تحكيم الشريعة والاستقامة عليها، ودعوا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود الشرعية، هذه أسباب النزاع بينهم وبين الناس.

والخلاصة: أنهم أرشدوا إلى توحيد الله، وأمروهم بذلك، وحذروا الناس من الشرك بالله، ومن وسائله وذرائعه، وألزموا الناس بالشريعة الإسلامية، ومن أبى واستمر على الشرك بعد الدعوة والبيان، والإيضاح والحجة، جاهدوه في الله عزَّ وجلّ، وقصدوه في بلاده حتى يخضع للحق، وينيب إليه، أو يلزموه به بالقوة والسيف حتى يخضع هو وأهل بلده إلى ذلك، وكذلك حذروا الناس من البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، كالبناء على القبور، واتخاذ القباب عليها، والتحاكم إلى الطواغيت، وسؤال السحرة والكهنة وتصديقهم وغير ذلك، فأزال الله ذلك على يد الشيخ وأنصاره رحمة الله عليهم جميعًا.

وعمرت المساجد بتدريس الكتاب العظيم والسنَّة المطهرة، والتأريخ الإسلامي، والعلوم العربية النافعة، وصار الناس في مذاكرة، وعلم، وهدى، ودعوة، وإرشاد، وآخرون منهم فيما يتعلق بدنياهم من الزراعة والصناعة وغير ذلك، علم وعمل ودعوة وإرشاد، ودنيا ودين، فهو يتعلم ويذاكر، ومع ذلك يعمل في حقله الزراعي، أو في صناعته، أو تجارته وغير ذلك؛ فتارةً لدينه، وتارةً لدنياه، دعاة إلى الله وموجهون إلى سبيله، ومع ذلك يشتغلون بأنواع الصناعة الرائجة في بلادهم، ويحصلون من ذلك على ما يغنيهم عن خارج بلادهم.

وبعد فراغ الدعاة وآل سعود من نجد امتدت دعوتهم إلى الحرمين وجنوب الجزيرة، وكاتبوا علماء الحرمين سابقًا ولاحقًا، فلما لم تُجْدِ

الدعوة واستمر أهل الحرمين على ما هم عليه من تعظيم القباب، واتخاذها على القبور، ووجود الشرك عندها والسؤال لأربابها، سار الإمام سعود ابن عبد العزيز بن محمد بعد وفاة الشيخ بإحدى عشرة سنة متوجهًا إلى جهة الحجاز، ونازل أهل الطائف ثم قصد أهل مكة، وكان أهل الطائف قد توجه إليهم قبل سعود: الأمير عثمان بن عبد الرحمن المضايفي، ونازلهم بقوة أرسلها إليه الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد أمير الدرعية بقوة عظيمة من أهل نجد وغيرهم، وساعدوه حتى استولى على الطائف، وأخرج منها أمراء الشريف، وأظهر فيها الدعوة إلى الله، وأرشدوا إلى الحق، ونهى فيها عن الشرك وعبادة ابن عباس وغيره مما كان يعبده هناك الجهال، والسفهاء من أهل الطائف.

ثم توجه الأمير سعود عن أمر أبيه عبد العزيز إلى جهة الحجاز، وجمعت الجيوش حول مكة، فلما عرف شريفها أنه لا بدَّ من التسليم أو الفرار فر إلى جدة، ودخل سعود ومن معه من المسلمين البلاد من غير قتال، واستولوا على مكة في فجر يوم السبت ثامن محرم من عام ١٢١٨هـ، وأظهروا الدعوة إلى دين الله، وهدموا ما فيها من القباب التي بنيت على قبر خديجة وغيره، فأزالوا القباب كلها، وأظهروا فيها الدعوة إلى توحيد الله عزَّ وجلّ، وعينوا فيها العلماء المدرسين، والموجهين والمرشدين، والقضاة الحاكمين بالشريعة.

ثم بعد مدة وجيزة فتحت المدينة، واستولى آل سعود على المدينة في عام ١٢٢٠هـ بعد مكة بنحو سنتين، واستمر الحَرَمَان في ولاية آل سعود، وعينوا فيها الموجهين والمرشدين، وأظهروا في البلاد العدل وتحكيم الشريعة، والإحسان إلى أهلها ولا سيما فقراؤهم ومحاويجهم، فأحسنوا إليهم بالأموال، وواسوهم وعلموهم كتاب الله، وأرشدوهم إلى الخير،

وعظموا العلماء، وشجعوا على التعليم والإرشاد، ولم يزل الحرمان الشريفان تحت ولاية آل سعود إلى عام ١٢٢٦هـ، ثم بدأت الجيوش المصرية والتركية تتوجه إلى الحجاز لجهاد آل سعود وإخراجهم من الحرمين، لأسباب كثيرة تقدم بعضها، وهذه الأسباب كما تقدم هي أن أعداءهم وحسادهم، والمخرفين الذين ليس لهم بصيرة.

وبعض السياسيين الذين أرادوا إخماد هذه الدعوة وخافوا منها أن تزيل مراكزهم، وأن تقضي على أطماعهم، كذبوا على الشيخ وأتباعه وأنصاره، وقالوا: إنهم يبغضون الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنهم يبغضون الأولياء، وينكرون كرامتهم، وقالوا إنهم أيضًا يقولون كيت وكيت، مما يزعمون أنهم ينتقصون به الرسل عليه الصلاة والسلام، وصدَّق هذا بعض الجهال، وبعض المغرضين، وجعلوه سلَّمًا للنيل منهم والجهاد لهم، وتشجيع الأتراك والمصريين على حربهم، فجرى ما جرى من الفتن والقتال، وصار القتال بين الجنود المصرية والتركية ومن معهم، وبين آل سعود في نجد والحجاز، سجالاً مدة طويلة من عام ١٢٢٦هـ إلى عام ١٢٣٣هـ، سبع سنين كلها قتال ونضال بين قوى الحق وقوى الباطل.

والخلاصة أن هذا هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه، وإنما قام لإظهار دين الله وإرشاد الناس إلى توحيد الله، وإنكار ما أدخل الناس فيه من البدع والخرافات، وقام أيضًا لإلزام الناس بالحق، وزجرهم عن الباطل، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، هذه هي خلاصة دعوته رحمة الله تعالى عليه، وهو في العقيدة على طريقة السلف الصالح يؤمن بالله وبأسمائه وصفاته، ويؤمن بملائكته ورسله وكتبه وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، على طريقة أئمة الإسلام في توحيد الله، وإخلاص العبادة له جل وعلا، وفي الإيمان بأسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بالله

سبحانه، لا يعطل صفات الله ولا يشبه الله بخلقه، وفي الإيمان بالبعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك.

ويقول في الإيمان ما قاله السلف: إنه قول وعمل يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كل هذا من عقيدته رحمة الله عليه، فهو على طريقتهم وعلى عقيدتهم، قولاً وعملاً، ولم يخرج عن طريقتهم تلك البتة، وليس له في ذلك مذهب خاص، ولا طريقة خاصة، بل هو على طريقة السلف الصالح من الصحابة وأتباعهم بإحسان رضي الله عن الجميع.

وإنما أظهر ذلك في نجد وما حولها، ودعا إلى ذلك، ثم جاهد عليه من أباه وعانده، وقاتلهم حتى ظهر دين الله، وانتظر الحق. وكذلك هو على ما عليه المسلمون من الدعوة إلى الله، وإنكار الباطل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن الشيخ وأنصاره يدعون الناس إلى الحق ويلزمونهم به، وينهونهم عن الباطل وينكرونه عليهم، ويزجرونهم عنه حتى يتركوه.

وكذلك جد في إنكار البدع والخرافات حتى أزالها الله سبحانه بسبب دعوته؛ فالأسباب الثلاثة المتقدمة آنفًا هي أسباب العداوة والنزاع بينه وبين الناس، وهي:

أولاً: إنكار الشرك، والدعوة إلى التوحيد الخالص.

ثانيًا: إنكار البدع والخرافات، كالبناء على القبور واتخاذها مساجد، ونحو ذلك كالموالد والطرق التي أحدثتها طوائف المتصوفة.

ثالثًا: إنه يأمر الناس بالمعروف، ويلزمهم به بالقوة، فمن أبى المعروف الذي أوجبه الله عليه، ألزم به وعزر عليه إذا تركه، وينهى الناس عن المنكرات، ويزجرهم عنها، ويقيم حدودها، ويلزم الناس بالحق،

ويزجرهم عن الباطل، وبذلك ظهر الحق وانتشر، وكبت الباطل وانقمع، وصار الناس في سيرة حسنة، ومنهج قويم في أسواقهم، وفي مساجدهم وفي سائر أحوالهم، لا تعرف البدع بينهم، ولا يوجد في بلادهم الشرك، ولا تظهر المنكرات بينهم، بل من شاهد بلادهم وشاهد أحوالهم، وما هم عليه ذكر حال السلف الصالح وما كانوا عليه زمان النبي ﷺ، وزمن أصحابه، وزمن أتباعه بإحسان في القرون المفضلة رحمة الله عليهم.

ـ وأخذ الشيخ الكريم رحمه الله تعالى، يتحدث عن سبب الابتلاء والامتحان بالعساكر المصرية والتركية آنذاك، وهو التفريط والتغيير، وأن البلاء لا يزول ولا يرتفع، إلاَّ بتوبة صادقة إلى الله سبحانه من سبب مجيئه إلى أن قال رحمه الله تعالى ـ :

وهذا آخر ما تيسر بيانه والتعريف به من حال الشيخ ودعوته، وأنصاره وخصومه، والله المستعان، وعليه الاتكال، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله، نبينا وإمامنا محمد ابن عبد الله وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيله، واهتدى بهداه، والحمد لله رب العالمين»[(١)].

هذا آخر ما تيسر كتابته في هذه المقدمة؛ والآن نفسح المجال للقارىء العزيز للدخول بخطى ثابتة ومتأنية وراسخة، لفهم وإدراك: أصول وقواعد وأهداف وغايات هذا التراث.

• • •

(١) الإمام محمد بن عبد الوهاب، دعوته وسيرته ٥ ــ ٣٧.

الباب الأول
أصول الإسلام والتوحيد والإيمان

وفيه مقدِّمة وتسعة فصول:

المقدّمة	:	أحوال المشركين بين التبديل والتغيير.
الفصل الأول	:	حقيقة الإسلام وشروط قَبوله.
الفصل الثاني	:	حقيقة التوحيد وأركانه ومقتضياته وأنواعه.
الفصل الثالث	:	كيفية الإيمان بالرسالة، وتحقيق أركانها ومقتضياتها.
الفصل الرابع	:	أصول الإيمان ومقتضياته ولوازمه.
الفصل الخامس	:	الطاغوت وصفة الكفر به.
الفصل السادس	:	الحكم لله وحده لا شريك له.
الفصل السابع	:	حقيقة الولاء والبراء.
الفصل الثامن	:	الأسماء والصفات ومنهج السلف في الإيمان بها.
الفصل التاسع	:	القضاء والقدر ومنهج السلف في الإيمان به.

مقدمة

أحوال المشركين بين التبديل والتغيير

(مدخل ضروري وهام لفهم وبيان قضية التوحيد)

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : لقد ملأ الشرك الأرض قاصيها ودانيها، وللشيطان ما يبذل من أهله، وليس للرحمٰن من ذلك نصيب.

المبحث الثاني : لقد دار الناس مع أسماء قد خلت من حقائقها ومدلولاتها، ولم يقفوا مع المعاني التي تعلَّقت بها الأحكام، فعاد بذلك الشرك والتنديد، واستغنى أهله به عن الإخلاص والتوحيد.

المأمول من هذه المقدّمة

أن تقف الأمة بعلمائها ودعاتها ومفكريها وعبَّادها وعوامها، على المصيبة العظمى والداهية الكبرى للتردِّي المزري المشين الذي يصيب الأمة حال انتشار الشرك بين أرجائها وفورانه بين جناباتها، ومن ثمّ ولا بد تأتي النتيجة الحتمية المتمثلة في غياب التوحيد، وطمس معالمه، وردم حدوده.

فانتشار الشرك مؤذن بضياع هوية الأمة، لأن الهوية الوحيدة التي تجمعنا وترتب صفوفنا، ويدور حولها ولاؤنا وبراؤنا، هي قضية التوحيد.

«فالتوحيد» حل محلّ: العصبية الجاهلية، والقومية العربية، والوحدة الوطنية... وكافة شعائر الكفر، وأعلام الشرك، ونجوم الزندقة.

فإذا ضاع التوحيد، أصبح نهارنا كليلنا، ونورنا كظلماتنا.

ولا رجعة لنا من التيه الذي ضرب بأطنابه حولنا، إلاَّ بالرجوع المنشود للمَعين الصافي، الذي يتمثل في: الكتاب، والسنَّة، والترجمة العملية لهما من أصحاب الثلاثة القرون الأولى ننهل منها عقائدنا ونستمد شرعية وجودنا، ونستلهم معالم طريقنا وحدود قضيتنا، وكيفية إعادة بناء صفوفنا، حتى نستطيع الانطلاق الصحيح

الحثيث على ضوء ديننا الحنيف، وعلى هدي رعيلنا الأول، للقيام بدورنا أولاً تجاه أنفسنا، وثانيًا حيال البشرية كلها من حولنا.

وأول أعلام الطريق، ومنارات السبيل، هو القيام بالإخلاص والتوحيد، والقضاء على الشرك والتنديد.

وإليكم الدليل والبرهان على كل ما تقدم من الآمال والآلام.

• • •

المبحث الأول
لقد ملأ الشرك الأرض، قاصيها ودانيها، وللشيطان ما يبذل من أهله، وليس للرحمن من ذلك نصيب

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن في بيان أحوال الأمة، وما أصابها من الشرك، الذي ضرب بأطنابه وجذوره في كافة بلدان المسلمين، قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رحمهم الله جميعًا:

شبّ الصغير، وهرم الكبير على انطماس أعلام الشريعة وغلبة الجهل والتقليد

«كان أهل عصره ومصره في تلك الأزمان، قد اشتدت غربة الإسلام بينهم، وعفت آثار الدين لديهم، وانهدمت قواعد الملَّة الحنيفية، وغلب على الأكثرين ما كان عليه أهل الجاهلية، وانطمست أعلام الشريعة في ذلك الزمان، وغلب الجهل والتقليد، والإعراض عن السنَّة والقرآن، وشبَّ الصغير، وهو لا يعرف من الدين إلاَّ ما كان عليه أهل تلك البلدان، وهرم الكبير على ما تلقاه عن الآباء والأجداد، وأعلام الشريعة مطموسة؛ ونصوص التنزيل وأصول السنة فيما بينهم مدروسة، وطريقة الآباء والأسلاف مرفوعة الأعلام، وأحاديث الكهَّان، والطواغيت، مقبولة غير مردودة، ولا مدفوعة، قد خلعوا ربقة التوحيد والدين، وجدُّوا واجتهدوا في

خلعت ربقة الدين والتوحيد، وحلّ الشرك والتنديد

الاستغاثة والتعلق على غير الله، من الأولياء، والصالحين، والأوثان، والأصنام، والشياطين.

المصيبة، مصيبة العلماء والرؤساء

وعلماؤهم، ورؤساؤهم، على ذلك مقبلون، ومن بحره الأجاج شاربون، وبه راضون؛ وإليه مدى الزمان داعون، قد أعشتهم العوائد والمألوفات، وحبستهم الشهوات والإرادات، عن الارتفاع إلى طلب الهدى، من النصوص المحكمات، والآيات البيّنات، يحتجون بما رأوه من الآثار الموضوعات، والحكايات المختلقة، والمنامات، كما يفعله أهل الجاهلية وغبر الفترات؛ وكثير منهم: يعتقد النفع والضرَّ في الأحجار والجمادات، ويتبرَّكون بالآثار والقبور في جميع الأوقات: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر/ ١٩]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام/ ١]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف/ ٣٣].

(حالة بلاد نجد)

فأما بلاد نجد: فقد بالغ الشيطان في كيدهم وجدَّ، وكانوا ينتابون: قبر زيد بن الخطاب، ويدعونه رغبًا ورهبًا، بفصيح الخطاب، ويزعمون أنه يقضي لهم الحوائج، ويرونه من أكبر الوسائل والولائج، وكذلك عند قبر يزعمون أنه قبر: ضرار ابن الأزور، وذلك كذب ظاهر، وبهتان مزرو[1].

(١) هكذا في الأصل، ولعلها (مزوَّر).

وكذلك عندهم: نخل ــ فحال ــ ينتابه النساء والرجال، ويفعلون عنده أقبح الفعال؛ والمرأة: إذا تأخر عنها الزواج، ولم ترغب فيها الأزواج، تذهب إليه، فتضمه بيدها، وتدعوه برجاء وابتهال، وتقول: يا فحل الفحول، أريد زوجًا قبل الحول؛ وشجرة عندهم تسمَّى: الطرفية، أغراهم الشيطان بها، وأوحى إليهم التعلق عليها، وأنها ترجى منها البركة، ويعلقون عليها الخرق، لعل الولد يسلم من السوء.

وفي أسفل بلدة الدرعية: مغارة في الجبل، يزعمون أنها انفلقت من الجبل، لامرأة تسمَّى: بنت الأمير، أراد بعض الناس أن يظلمها ويضير، فانفلق لها الغار، ولم يكن له عليها اقتدار، كانوا يرسلون إلى هذا المكان من اللحم والخبز ما يقتات به جند الشيطان.

وفي بلدتهم: رجل يدعي الولاية، يسمَّى: تاج؛ يتبرَّكون به، ويرجون منه العون والإفراج، وكانوا يأتون إليه، ويرغبون فيما عنده من المدد ــ بزعمهم ــ ولديه، فتخافه الحكام، والظلمة؛ ويزعمون أن له تصرفًا وفتكًا بمن عصاه، وملحمة، مع أنهم يحكون عنه الحكايات القبيحة الشنيعة، التي تدل على انحلاله عن أحكام الملة والشريعة، وهكذا سائر بلاد نجد، على ما وصفنا، من الإعراض عن دين الله، والجحد لأحكام الشريعة والرد.

الاعتقادات الباطلة قد عمَّت وظهرت وطمَّت

ومن العجب: أن هذه الاعتقادات الباطلة، والمذاهب الضالة، والعوائد الجائرة، والطرائق الخاسرة، قد فشت، وظهرت، وعمَّت، وطمَّت.

(حالة بلاد الحرمين آنذاك)

حتى بلاد الحرمين الشريفين! فمن ذلك: ما يفعل عند قبر محجوب؛ وقبّة أبـي طالب، فيأتون قبره بالشماعات والعلامات، للاستغاثة عند نزول المصائب، وحلول النواكب، وكانوا له في غاية التعظيم، ولا ما يجب عند البيت الكريم! فلو دخل سارق، أو غاصب، أو ظالم قبر أحدهما، لم يتعرض له أحد، لما يرون له من وجوب التعظيم، والاحترام، والمكارم.

ومن ذلك: ما يفعل عند قبر ميمونة، أم المؤمنين رضي الله عنها، في سرف؛ وكذلك عند قبر خديجة، رضي الله عنها، يفعل عند قبرها، ما لا يسوغ السكوت عليه من مسلم يرجو الله والدار الآخرة، فضلاً عن كونه من المكاسب الدينية الفاخرة، وفيه: من اختلاط النساء بالرجال، وفعل الفواحش والمنكرات، وسوء الأفعال، ما لا يقرّه أهل الإيمان والكمال، وكذلك سائر القبور المعظمة المشرَّفة، في بلد الله الحرام، مكة المشرَّفة.

(حالة بلاد الطائف)

وفي الطائف: قبر ابن عباس، رضي الله عنهما، يفعل عنده من الأمور الشركية التي تشمئز منها نفوس الموحدين، وتنكرها قلوب عباد الله المخلصين، وتردها الآيات القرآنية، وما ثبت من النصوص عن سيد المرسلين، منها: وقوف السائل عند القبر متضرِّعًا مستغيثًا، وإبداء الفاقة إلى معبودهم، مستكينًا مستعينًا، وصرف خالص المحبة التي هي محبة العبودية، والنذر والذبح لمن تحت ذاك المشهد، والبنية.

وأكثر سوقتهم وعامتهم يلهجون بالأسواق: اليوم على الله

وعليك يا ابن عباس، فيستمدون منه الرزق، والغوث، وكشف الضرّ، والبأس؛ وذكر محمد بن الحسين النعيمي الزبيدي رحمه الله: أن رجلاً رأى ما يفعل أهل الطائف، من الشعب الشركية والوظايف، فقال: أهل الطائف لا يعرفون الله، إنما يعرفون ابن عباس، فقال له بعض من يترشح للعلم: معرفتهم لابن عباس كافية، لأنه يعرف الله.

فانظر إلى هذا الشرك الوخيم، والغلو الذميم، المجانب للصراط المستقيم، ووازن بينه وبين قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٦]. وقوله جلَّ ذكره: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن/ ١٨]، وقد لعن رسول الله ﷺ اليهود والنصارى، باتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد يعبد الله فيها، فكيف بمن عبد الصالحين، ودعاهم مع الله، والنصوص في ذلك لا تخفى على أهل العلم.

اتخاذ القبور مساجد لا يجوز، فكيف بعبادة الصالحين

كذلك ما يفعل بالمدينة المشرَّفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، هو من هذا القبيل، بالبعد عن منهاج الشريعة والسبيل، وفي بندر جدة ما قد بلغ من الضلال حدَّه، وهو القبر الذي يزعمون أنه قبر حوّاء؛ وضعه لهم بعض الشياطين، وأكثروا في شأنه الإفك المبين، وجعلوا له السدنة والخدام، وبالغوا في مخالفة ما جاء به محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، من النهي عن تعظيم القبور، والفتنة بمن فيها من الصالحين والكرام.

وكذلك مشهد العلوي، بالغوا في تعظيمه، وتوقيره، وخوفه، ورجائه؛ وقد جرى لبعض التجّار أنه انكسر بمال عظيم لأهل الهند وغيرهم، وذلك في سنة عشر ومائتين، وألف؛ فهرب

إلى مشهد العلوي، مستجيرًا، ولائذًا به مستغيثًا؛ فتركه أرباب الأموال، ولم يتجاسر أحد من الرؤساء والحكام، على هتك ذاك المشهد والمقام، واجتمع طائفة من المعروفين، واتفقوا على تنجيمه في مدة سنين، فنعوذ بالله من تلاعب الفجرة والشياطين.

(حالة بلاد مصر)

تجاوز أهل مصر في شركهم أهل الجاهلية الأولى

وأما بلاد مصر، وصعيدها، وفيُّومها، وأعمالها، فقد جمعت من الأمور الشركية، والعبادات الوثنية، والدعاوى الفرعونية، ما لا يتسع له كتاب، ولا يدنو له خطاب، لا سيما عند مشهد: أحمد البدوي، وأمثاله من المعتقَدين المعبودين، فقد جاوزوا بهم ما ادعته الجاهلية لآلهتهم؛ وجمهورهم: يرى من تدبير الربوبية، والتصريف في الكون، بالمشيئة، والقدرة العامة، ما لم ينقل مثله عن أحد من الفراعنة والنماردة.

وبعضهم يقول: يتصرف في الكون سبعة؛ وبعضهم يقول: أربعة، وبعضهم يقول: قطب يرجعون إليه، وكثير منهم يرى الأمر شورى، بين عدد ينتسبون إليه، فتعالى الله عمَّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف/ ٥].

وقد استباحوا عند تلك المشاهد، من المنكرات، والفواحش، والمفاسد، ما لا يمكن حصره، ولا يستطاع وصفه، واعتمدوا في ذلك من الحكايات، والخرافات والجهالات، ما لا يصدر عمَّن له أدنى مُسكة أو حظ من المعقولات، فضلاً عن النصوص الشرعيات.

(حالة أهل اليمن)

كذلك ما يفعل في بلدان اليمن، جار على تلك الطريق والسنن؛ ففي صنعاء، وبرع، والمخا، وغيرها من تلك البلاد، ما يتنزَّه العاقل عن ذكره ووصفه، ولا يمكن الوقوف على غايته وكشفه؛ ناهيك بقوم: استخفَّهم الشيطان، وعدلوا عن عبادة الرحمن، إلى عبادة القبور والشيطان؛ فسبحان من لا يعجل بالعقوبة على الجرائم، ولا يهمل الحقوق والمظالم.

وفي حضرموت، والشحر، وعدن، ويافع، ما تستك عن ذكره المسامع، يقول قائلهم: شيء لله يا عيدروس! شيء لله يا محيي النفوس!

وفي أرض نجران، من تلاعب الشيطان، وخلع ربقة الإيمان، ما لا يخفى على أهل العلم بهذا الشأن، كذلك رئيسهم المسمَّى: بالسيد، لقد أتوا من طاعته وتعظيمه، وتقديمه وتصديره، والغلو فيه، بما أفضى بهم إلى مفارقة الملَّة والإسلام، والانحياز إلى عبادة الأوثان والأصنام: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة/ ٣١].

عاقبة الغلو

(حالة بلاد الشام والعراق)

وكذلك، حلب، ودمشق، وسائر بلاد الشام، فيها من تلك المشاهد، والنُّصب، والأعلام، ما لا يجامع عليه أهل الإيمان والإسلام، من أتباع سيد الأنام، وهي: تقارب ما ذكرنا من الكفريات المصرية، والتلطخ بتلك الأحوال الوثنية الشركية.

وكذلك: الموصل، وبلاد الأكراد، ظهر فيها من أصناف الشرك والفجور والفساد؛ وفي العراق: من ذلك بحره المحيط بسائر الخلجان، وعندهم المشهد الحسيني؛ قد اتخذه الرافضة وثنًا، بل ربًا مدبِّرًا، وخالقًا ميسِّرًا، وأعادوا به المجوسية، وأحيوا به معاهد اللات والعزى، وما كان عليه أهل الجاهلية.

وكذلك: مشهد العباس؛ ومشهد علي، ومشهد أبي حنيفة، ومعروف الكرخي، والشيخ عبد القادر؛ فإنهم قد افتتنوا بهذه المشاهد، رافضتهم، وسنيتهم؛ وعدلوا عن أسنى المطالب والمقاصد؛ ولم يعرفوا ما وجب عليهم من حق الله الفرد، الصمد، الواحد.

وبالجملة: فهم شر تلك الأمصار، وأعظمهم نفورًا عن الحق واستكبارًا، والرافضة: يصلون لتلك المشاهد، ويركعون، ويسجدون لمن في تلك المعاهد، وقد صرفوا من الأموال والنذور، لسكان تلك الأجداث والقبور، ما لا يصرف عشر معشاره للملك العلي الغفور.

ملة الرافضة

ويزعمون: أن زيارتهم لعلي وأمثاله، أفضل من سبعين حجة لله، تعالى وتقدَّس في مجده وجلاله؛ ولآلهتهم من التعظيم، والتوقير، والخشية، والاحترام، ما ليس معه من تعظيم الله، وتوقيره، وخشيته وخوفه، شيء للإله الحق، والملك العلاَّم.

ولم يبق ممّا عليه النصارى، سوى دعوى الولد، مع أن بعضهم يرى الحلول لأشخاص بعض البرية: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات/ ١٨٠].

وكذلك جميع قرى الشط؛ والمجرة، على غاية من الجهل،

وفي القطيف، والبحرين، من البدع الرافضية، والأحداث المجوسية، والمقامات الوثنية، ما يضاد ويصادم أصول الملّة الحنيفية.

(المنهج الذي ينبغي أن ينتهجه المؤمن، حيال انتشار الشرك والمشركين)

فمن اطلع على هذه الأفاعيل، وهو عارف بالإيمان والإسلام، وما فيهما من التفريع، والتأصيل تيقّن: أن القوم قد ضلُّوا عن سواء السبيل، وخرجوا عن مقتضى القرآن والدليل، وتمسَّكوا بزخارف الشيطان، وأحوال الكهان، وما شابه هذا القبيل، فازداد بصيرة في دينه، وقوي بمشاهدته إيمانه ويقينه، وجدّ في طاعة مولاه وشكره، واجتهد في الإنابة إليه وإدامة ذكره، وبادر إلى القيام بوظائف أمره، وخاف أشد الخوف على إيمانه، من طغيان الشيطان وكفره، فليس العجب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجا»[(١)].

وقال الشيخ الوالد عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين حفظه الله:

جماهير أمة الدعوة يجهلون: المراد من كلمة التوحيد

«فحيث أن التلفظ بالشهادتين والعمل بمقتضاها، هما الركن الأساسي للدين الإسلامي، وحيث إن جماهير أمة «الدعوة» يجهلون ما يراد بهما، ويعتقدون أن المراد: مجرد النطق بهما دون معرفة وعمل، وأن هناك من يفسرهما بما يخالف معناهما، لذا فقد أحببت أن أكتب بحثًا حول ذلك، رجاء أن يستفيد منه من له قصد حسن، ممن أراد الله به خيرًا»[(٢)].

---

(١) الدرر السنية ١/ ٣٧٨ ـ ٣٨٦.

(٢) الكنز الثمين مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ عبد الله ابن عبد الرحمن الجبرين ١/ ٧٣.

وقال أيضًا حفظه الله تعالى:

إن الكثير من العوام في هذه القرون المتأخرة قد فسدت عقائدهم، ونشئوا على جهالة بالدين، وبمدلول الشهادتين، بل بمعاني اللغة العربية كلها، فلا جرم أصبح الجمهور منهم لا يفهمون معنى الشهادتين، ويقعون في ما يناقضها صريحًا، ويكتفون بمجرد التلفظ بهما، معتقدين أن الأجر والحسنات، وعصمة الدم والمال، تحصل بترديد هذه الأحرف الجوفاء، دون معرفة لمعانيها ولا عمل بمقتضاها»[١].

وقال الشيخ سليمان بن سحمان في بيان أحوال المشركين:

«ويجتمعون في الموالد المخترعة المبتدعة، كمولد أحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي، والرفاعي، والست زينب، والست نفيسة، وعبد القادر، والكاظم، وحمزة، وغيرهم، فيتضرَّعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت الأسحار.

ومنهم: من يسجد لها، فهم يعبدون أصحابها بدعائهم ورجائهم، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصرة والرزق والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وبذل النذور لجلب ما أملوه، ودفع الشرور، مع اتخاذ قبورهم أعيادًا، والصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترباتها، وغير ذلك من أنواع العبادات والطلبات، التي كان عليها عبَّاد الأوثان، يسألون أوثانهم، ليشفعوا لهم عند مليكهم.

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ١/ ٨٥ ـ ٨٦.

(حال المشركين الملطخ بالأوزار، والشاهد عليهم بالكفر والمروق)

وهؤلاء المشركون: إذا رأوا قبَّته من مكان بعيد، نزلوا عن الدواب، واستقبلوا بدعائهم والنحيب، ووضعوا لها الجباه، وقبَّلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت الأصوات بالضجيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يُبدي ولا يُعيد، ونادوه ولكن من مكان بعيد، حتى إذا وصلوا إليه، صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد حازوا من الأجر كمن صلىٰ القبلتين.

فهم حول القبر ركعًا وسجَّدًا، يبتغون فضلاً من الميت ورضوانًا، وقد ملؤوا أكفهم خيبة وخسرانًا، فللشيطان ما يراق هناك من العبَرات، ويرفع بالدعاء من الأصوات ويطلب من الميت أنواع الحاجات، ويسأل منه تفريج الكربات، وإغناء ذوي الفاقات ومعافاة أولي العاهات والبليَّات.

ثم انبثوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركًا وهدًى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام، كأنه الحجر الأسود، وما يفعل به وفد بيت الله الحرام، ثم عفَّروا عنده تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنها لم تعفَّر كذلك بين يديه في السجود، واستمتعوا بخَلاقهم[1] من ذلك القبر،

---

(١) المقصود بالاستمتاع بالخَلاق في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة/ ٦٩]: هو التلذذ والتنعم بشهوات الدنيا، والاستعانة بها على معاصي الله، مع الإعراض عن المراد من الخلق والعبودية والتكليف، ولعل الخَلاق في هذا الموضع قد قصد به الشيخ: النصيب.

فلم يكن لهم عند الله من خلاق، وقربوا لذلك القرابين، فكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير رب العالمين.

وجه آخر من الاستمتاع بالخلاق، ودليل على أن الشرك ليس له قرار، وأنه من تزيين الشيطان

وقد آل الأمر إلى فعل أنواع المنكرات، من بذل الفروج ثلاثة أيام من كل سنة، في مولد أحمد البدوي، ومشهده الذي في طنطا، وقد حدثني بذلك شفاهًا، من شاهد ذلك، يخرجن إليه الغواني، جاعلين ذلك في صحائفه، ولينالوا من بركته، وأنهم محسوبون عليه، زيادة على فعلهم عند قبر الست نفيسة، ومشهد الحسين، هذا والعلماء حاضرون، والعباد شاهدون، والمردان مع الفجَّار المدَّعين الولاية والمتزيِّنين بها مجتمعون، وفي فراش واحد بلا حائل ليلاً ينامون، وفي النهار معهم مختلون، ويدّعون أنهم لهم يربون.

موقف العلماء والعباد المزري

والعلماء والحالة هذه لا ينكرون، والعباد لله لا يغارون، مع أنهم متمكنون من العبادة، ولأجلها يعظمون، ويعزِّرون ويوقرون، وليس أحد من الكفار لهم عن فعل العباد مانعًا، ولا عن إظهارها جهارًا دافعًا، لكنهم لهذه الأفعال لا ينكرون، ولا الحق يقولون، بل كلا الفريقين يصنفون الكتب في ذلك، ويعتذرون عنه بأجوبة ليست صوابًا ولا سديدة، بل هي عن الحق بعيدة.

منها قولهم: «تنبيه» اعلم أنه قد يعترض بعض الناس على أحمد البدوي، وعلى هؤلاء المجتمعين عنده في حضرة ضريحه، ويقولون: إذا كان له هذا المولد العظيم، والتصرف التام النافذ بعد الممات ، فكيف لا يتصرف في دفع أصحاب المعاصي عند حضور مولده؟!

والجواب عن ذلك من أوجه:

أحدها: أنه في عناية من ربه، فكل من حضر مولده من أهل العصيان، وافق نزول الرحمة والغفران، فغفر له بسببه، وتيب عليه ولو بعد حين من الزمان.

الثاني: أن الغالب على حاله البسط، وجاهه عريض يسع الخلق، ولو وافقه جميع فسّاق أهل الأرض كذلك كان مغفورًا لهم بسببه.

الثالث: أنه قد خرج إلى مقام لا تكليف فيه، وهؤلاء العاملون عملهم لهم وعليهم. انتهى ما ذكره هذا المجيب عن عباد القبور، وأهل الفواحش والفجور.

فأيّ ملّة ــ صان الله ملّة الإسلام ــ لا تمانع هذه الكفريات ولا تدافعها؟

حكم من يجوز السفر إلى الأوطان التي علا فيها الشرك واستقر، ابتغاء الفوز بمعتقد أهلها

فإن كان الخير عند هؤلاء ومساكنتهم، ومجامعتهم والسفر إلى أوطانهم مباحًا، والحالة هذه، فما أرى من يرى ذلك شم رائحة الإيمان، والغيرة لله ورسوله ودينه، ولا عرف ما يجب لله في الإسلام على المسلمين، ولا ما هو الشرك المنافي لتوحيد رب العالمين»(١).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمهما الله تعالى:

«**قال شيخ الإسلام**: فلما كان بعد زمن البخاري، من عهد بني بويه الديلمي فشا في الرافضة: التجهُّم، وأكثر أصول المعتزلة، وظهرت القرامطة ظهورًا كثيرًا، وجرت حوادث عظيمة، وعبدت

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٨/ ٤٦٤ ــ ٤٦٧.

الغرباء حذّروا من انتشار الشرك، إلاّ أنه تغلب وازداد

الأموات في هذا المصر وغيره، حتى ادعوا فيهم التصرف في الكون من دون الله تعالى، فما زال هذا الشرك يزداد حتى ملأ الأرض قاصيها ودانيها، وما زال الغرباء ينكرونه، لكنهم أقل القليل لا يسمع لهم، ولا يطاع.

وقد قال ﷺ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

وفي حديث ثوبان الذي رواه مسلم، وأبو داود وغيرهما: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلِّين، ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»[1].

وقال عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ــ رحمهم الله تعالى ــ في بيان مناطات الشرك، ودرجاته، وأنواعه، وأسباب غلبته وانتشاره:

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح المنازل في باب التوبة: «وأما الشرك فهو نوعان: أكبر، وأصغر:

فالأكبر لا يغفره الله إلاَّ بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا يحبه كما يحب الله بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله،

---

(١) الدرر السنية ١١/ ٥١٧.

ويغضبون لتنقص معبوديهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلـٰهه ومعبوده على لسانه إن قام وإن قعد وإن عثر وإن استوحش، وهو لا ينكر ذلك ويزعم أنه حاجته إلى الله وشفيعه عنده، وهكذا كان عباد الأصنام سواء، وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وهؤلاء اتخذوا من البشر، قال الله تعالى حاكيًا عن أسلاف هؤلاء: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [الزمر/ ٣]، فهذه حال من اتخذ من دون الله وليًّا يزعم أنه يقربه إلى الله زلفى، وما أعز من يتخلص من هذا، بل ما أعز من لا يعادي من أنكره.

(أسباب انتشار الشرك، وغلبته على النفوس)

والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله وأخبر أن الشفاعة كلها له. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [الإسراء/ ٥٦].

وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ/ ٢٢، ٢٣].

والقرآن مملوء من أمثال هذه الآية، ولكن أكثر الناس لا يشعر

بدخول الواقع تحته ويظنه في قوم قد خلوا ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين المرء وبين فهم القرآن، كما قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وذمَّه وقع فيه وأقره وهو لا يعرف إنه الذي كان عليه أهل الجاهلية، فتنتقض بذلك عرى الإسلام. ويعود المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والبدعة سنَّة، والسنَّة بدعة، ويكفَّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدَّع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانًا، فالله المستعان.

كمال التوحيد سبب الشفاعة والشرك سبب لمنعها

«ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى والاستعانة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلاً عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلاَّ بإذنه، والله لم يجعل سؤال غيره سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه، كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحَّم عليها ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة، وجعلوا قبورهم أوثانًا تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى التنقص بالأموات.

الشرك: تنقص بالله، وصفاته، شاء المشرك ذلك أم أبىٰ

وهم قد تنقَّصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحِّدين بذمهم ومعاداتهم، وتنقَّصوا من أشركوا به غاية التنقص إذ ظنوا أنهم

راضون منهم بهذا وأنهم أمروهم به، وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم!

كيفية النجاة من الشرك

ولله در خليله إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم/ ٣٥، ٣٦]، وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلاَّ من جرَّد توحيده لله، وتقرَّب بمقتهم إلى الله». انتهى كلامه رحمه الله.

فتأمَّل رحمك الله كلام هذا الإمام، وتصريحه بأن من دعا الموتى وتوجه إليهم واستغاث بهم ليشفعوا له عند الله، فقد فعل الشرك الأكبر الذي بعث محمد ﷺ بإنكاره وتكفير من لم يتب منه وقتاله ومعاداته، وأن هذا قد وقع في زمانه، وأنهم غيروا دين الرسول ﷺ وعادوا أهل التوحيد الذين يأمرونهم بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

لا يستقيم الإسلام إلاَّ بمعاداة المشركين

وتأمَّل قوله أيضًا: وما أعز من يتخلص من هذا، بل ما أعز من لا يعادي من أنكره، يتبين لك الأمر إن شاء الله تعالى، ولكن تأمل أرشدك الله تعالى قوله: «وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلاَّ من عادى المشركين لله . . . » إلى آخره، يتبين لك أن الإسلام لا يستقيم إلاَّ: بمعاداة أهل هذا الشرك، فإن لم يعادهم فهو منهم وإن لم يفعله، والله أعلم»(١).

ولقد أبان الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني أن انتشار الشرك في جميع ديار الإسلام، دعاه إلى تسويد إحدى رسائله،

---

(١) عقيدة الموحِّدين، الكلمات النافعة في المكفِّرات الواقعة ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

لإنكار ما أوجب الله على العلماء إنكاره، فقال رحمه الله بعد أن أثنى على الله بما هو أهله:

«وبعد، فهذا تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد وجب عليّ تأليفه، وتعين عليّ ترصيفه، لما رأيته وعلمته من اتخاذ العباد، الأنداد في الأمصار والقرى وجميع البلاد، من اليمن والشام ونجد وتِهامة وجميع ديار الإسلام، وهو الاعتقاد في القبور، وفي الأحياء ممن يدعي العلم بالمغيبات والمكاشفات، وهو من أهل الفجور، لا يحضر للمسلمين مسجدًا، ولا يرى لله راكعًا ولا ساجدًا، ولا يعرف السنَّة ولا الكتاب، ولا يهاب البعث ولا الحساب، فوجب عليّ أن أنكر ما أوجب الله إنكاره ولا أكون من الذين يكتمون ما أوجب الله إظهاره»[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) عقيدة الموحِّدين، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ص ١٢٢.

المبحث الثاني

لقد دار الناس مع أسماء، قد خلت من حقائقها ومدلولاتها، ولم يقفوا مع المعاني التي تعلَّقت بها الأحكام، فعاد بذلك: الشرك والتنديد، واستغنى أهله به عن الإخلاص والتوحيد

قال عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمهما الله تعالى:

«وتلطف الشيطان في كيد هؤلاء الغلاة في قبور الصالحين، بأن دسَّ عليهم تغيير الأسماء والحدود الشرعية، والألفاظ اللغوية، فسموا الشرك وعبادة الصالحين: توسُّلاً ونداء، وحسن اعتقاد في الأولياء، وتشفعًا بهم، واستظهارًا بأرواحهم الشريفة؛ فاستجاب له صبيان العقول، وخفافيش البصائر، وداروا مع الأسماء، ولم يقفوا مع الحقائق.

فعادت عبادة الأولياء والصالحين، ودعاء الأوثان والشياطين، كما كانت قبل النبوة، وفي زمان الفترة حذو النعل بالنعل، وحذو القذَّة بالقذَّة، وهذا من أعلام النبوة، كما ذكره غير واحد، ولم يزل ذلك في ظهور وازدياد، حتى عمَّ ضرره، وبلغ شرره الحاضر والباد.

ففي كل إقليم، وكل مدينة وقرية، ممن ينتسب إلى الإسلام، ولائج يدعونهم مع الله، ويلتمسون بدعائهم قرب الرب ورضاه، يفزعون إليهم في الشدائد والمهمّات، ويلوذون بهم في النوائب والحاجات، وبعضهم لا يرد على خاطره، ولا يلم بباله دعاء الله تعالى في شيء من ذلك، إلاَّ استشعاره حصول مقصوده ونجاح مطلوبه، من جهة الأولياء والأنداد.

استغناء أهل الشرك به عن التوحيد والإخلاص

وقد رأينا وسمعنا من ذلك ما يعزُّ حصره واستقصاؤه، ولو كان يخفى لعرَّجنا على ذكره وتفصيله، ولكنه أشهر من الشمس في نحر الظهيرة»[1].

(لقد بلغ المشركون حدًّا في شركهم، يربو على شرك أهل الجاهلية الأولى)

قال عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى أيضًا:

تغير الأسماء مع بقاء معانيها، لا يغير شيئًا من الأحكام المترتبة عليها

ونذكر لك هنا طرفًا من معتقد عباد القبور والصالحين، وحقيقة ما هم عليه من الدين، ليعلم الواقف عليه أي الفريقين أحق بالأمن، إن كان الواقف ممن اختصه الله بالفضل والمنّ، ولئلا يلتبس الأمر بتسميتهم لكفرهم ومحالهم: تشفُّعًا وتوسُّلاً واستظهارًا، مع ما في التسمية من الهلاك المتناهي عند من عقل الحقائق.

من ذلك محبتهم مع الله محبة تأله وخضوع ورجاء، ودعاؤهم مع الله في المهمّات والملمّات والحوادث التي لا يكشفها ولا يجيب الدعاء فيها إلاَّ فاطر الأرض والسموات والعكوف حول أجداثهم، وتقبيل أعتابهم، والتمسح بآثارهم، طلبًا للغوث، واستجابة

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١٢/ ٢٨٣.

للدعوات وإظهارًا للفاقة، وإبداء للفقر والضراعة، واستنزالاً للغوث والأمطار، وطلبًا للسلامة من شدائد البر والبحار. وسؤالاهم تزويجهم الأرامل والأيامى، واللطف بالضعفاء واليتامى، والاعتماد عليهم في المطالب العالية، وتأهيلهم لمغفرة الذنوب والنجاة من الهاوية، وإعطاء تلك المراتب السامية.

(استغناء المشركين بالمخلوق عن الخالق، في: التأله، والقصد والإنابة. . .)

وجماهيرهم لما ألفت ذلك طباعهم وفسدت به فطرهم، وعزَّ عنه امتناعهم، لا يكاد يخطر ببال أحدهم ما يخطر ببال آحاد المسلمين، من قصد الله تعالى والإنابة إليه، بل ليس لذلك عندهم إلاَّ الولي الفلاني، ومشهد الشيخ فلان، حتى جعلوا الذهاب إلى المشاهد عوضًا عن الخروج للاستسقاء والإنابة إلى الله في كشف الشدائد والبلوى. كل هذا رأيناه وسمعناه عنهم.

وقد حدَّث الشيخ مصطفى البولاقي أن بعض رؤساء الجامع الأزهر عاده لما اشتكى عينيه، وقال له: هلاَّ ذهبت إلى مولد الشيخ أحمد البدوي فقد حكي أن إنسانًا شكا إليه ذهاب بصره، فسمع قائلا يقول من الضريح: أعطوه عين كذا وكذا.

وقع الشرك في الربوبية

فانظر إلى ما خطر ببال هذا المتكلم من تعظيم هذا الميت وتأهيله لتلك المطالب التي لا يقدر عليها إلاَّ الله القاهر الغالب. وقصد الوساطة هنا على ما فيها ما أظنها تخطر بباله أصلاً. فهل سمعت عن جاهلية العرب مثل هذه الغرائب التي ينتهي عندها العجب؟

والكلام مع ذكي القلب يقظ الذهن قوي الهمة العارف بالحقائق، ومن لا ترضى نفسه بحضيض التقليد في أصول الديانات والتوحيد؛ وأما ميت القلب بليد الذهن وضيع النفس جامد القريحة ومن لا تفارق همته التشبث بأذيال التقليد، والتعلق على ما يحكى عن فلان وفلان من معتقد أهل المقابر والتنديد، فذاك فاسد الفطرة معتل المزاج. وخطابه محض عناء ولجاج.

(أنواع من الكفر عظيمة)

ومما بلغنا عن بعض علماء زبيد: أن رجلين قصدا الطائف، فقال أحدهما لصاحبه ـ والمسؤول ممن يترشح للعلم ـ: أهل الطائف لا يعرفون الله إنما يعرفون ابن عباس، فأجابه: بأن معرفتهم لابن عباس كافية، لأنه يعرف الله.

فأي ملة ـ صان الله ملَّة الإسلام ـ لا تمانع هذه الكفريات ولا تدافعها؟

وذكر الزبيدي أيضًا أن رجلاً كان بمكة عند بعض المشاهد، فقال لمن عنده: أريد الذهاب إلى الطواف، فقال بعض غلاتهم: مقامك هاهنا أكرم.

ومن وقف على كتاب مناقب الأربعة المعبودين بمصر، وهم البدوي والرفاعي والدسوقي ورابعهم فيما أظن أبو العلا، فقد وقف على ساحل كفرهم، وعرف صفة إفكهم.

وبلغنا عن بعض الثقات أن جماعة من المدَّعين للعلم بزبيد كانوا يقرؤون صحيح البخاري، فإذا فرغوا منه ـ إما أحيانًا أو مطلقًا ـ ذهبوا إلى قبر البحيرة أو غيره، فوقفوا عاكفين ما شاء

الله، وعليهم من السكينة والوقار وضروب الخضوع لنازل الحفرة.
قال من نقله: فالله أعلم، أهو شيء وجدوه في صحيح البخاري أو غيره، أو ما هو؟

ورأيت في حاشية الشيخ إبراهيم الباجوري على السنوسية نقلاً عن الدردير فيما أظن عن الشعراني: أن الله وكّل بقبر كل ولي مَلَكًا يقضي حاجة من سأل ذلك الولي.

فقف هنا وانظر ما آل إليه شركهم وإفكهم.

فأين هذا من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ... ﴾ الآية [البقرة/ ١٨٦].

وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً... ﴾ [الأعراف/ ٥٥].

وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح/ ٧، ٨].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل/ ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ... ﴾ الآية [غافر/ ٦٠]، وأي حجة في هذا الذي قال الشعراني لو كانوا يعلمون؟ ولكن القوم أصابهم داء الأمم قبلهم. فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلوا الشياطين.

نبذ كتاب الله وراء الظهور مؤذن بكل بلية

ومن هذا الجنس: ما ذكره الشعراني في ترجمة الملقب بشمس الدين الحنفي أنه قال في مرض موته: من كانت له حاجة فليأت قبري ويطلب مني أن أقضيها له. فإنما بيني وبينه ذراع من تراب. وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل. انتهى.

إذا كان هذا حال المتبوعين، فكيف بحال الأتباع

وقد اجتمع جماعة من الموحِّدين من أهل الإسلام في بيت رجل من أهل مصر وبقربه رجل يدّعي العلم، فأرسل إليه صاحب البيت، فسأله بمسمع من الحاضرين فقال له: كم يتصرف في الكون؟ فقال: يا سيدي سبعة. قال: من هم؟ قال: فلان وفلان وعد أربعة من المعبودين بمصر. فقال صاحب الدار لمن بحضرته من الموحِّدين: إنما بعثت لهذا الرجل وسألته لأعرفكم قدر ما أنتم فيه من نعمة الإسلام. أو كلامًا نحو هذا.

(جمهور أهل البسيطة ممن يدَّعي الإسلام، قد غرقوا في بحار الشرك الوخيم)

وباب تصرف المشايخ والأولياء قد اتسع حتى سلكه جمهور من يدَّعي الإسلام من أهل البسيطة. وخرقه قد هلك في بحاره أكثر من سكن الغبراء وأظلته المحيطة حتى نسي القصد الأول من التشفع والوساطة. فلا يعرج عليه عندهم إلاَّ من نسي عهود الحمى. وقد ذكر هذا شيخ الإسلام في منهاجه عن غلاة الرافضة في علي. فعاد الأمر إلى الشرك في توحيد الربوبية والتدبير والتأثير، ولم يبلغ شرك الجاهلية الأولى إلى هذه الغاية، بل ذكر الله جل ذكره أنهم كانوا يعترفون له بتوحيد الربوبية ويقرُّون به، ولذلك احتج عليهم في غير موضع من كتابه بما أقروا به من الربوبية والتدبير على ما أنكروه من الإلهية.

الشرك في متأخري الأمة أعظم من شرك أهل الجاهلية الأولى

ومن ذلك ــ وهو من عجيب أمرهم ــ ما ذكره حسين ابن محمد النعمي اليمني في بعض رسائله: أن امرأة كف بصرها فنادت وليها: أما الله فقد صنع ما ترى، ولم يبقَ إلاَّ حسبك. انتهى.

الشرك بحر مظلم لا ساحل له

وحدثني سعد بن عبد الله بن سرور الهاشمي رحمه الله أن

بعض المغاربة قدموا مصر يريدون الحج، فذهبوا إلى الضريح المنسوب إلى الحسين رضي الله عنه بالقاهرة فاستقبلوا القبر وأحرموا ووقفوا وركعوا وسجدوا لصاحب القبر حتى أنكر عليهم سدنة المشهد وبعض الحاضرين، فقالوا: هذا محبة في سيدنا الحسين. وذكر بعض المؤلفين من أهل اليمن أن مثل هذا واقع عندهم.

وقد حدثني الشيخ خليل الراشدي بالجامع الأزهر أن بعض أعيان المدرِّسين هناك قال: لا يدق وتد في القاهرة إلاَّ بإذن أحمد البدوي. قال: فقلت له: هذا لا يكون إلاَّ لله أو كلامًا نحو هذا. فقال: حبـي في سيدي أحمد البدوي اقتضى هذا.

وحكي أن رجلاً سأل الآخر: كيف رأيت الجمع عند زيارة الشيخ الفلاني؟ فقال: لم أر أكثر منه إلاَّ في جبل عرفات، إلاَّ إني لم أرهم سجدوا لله سجدة قط، ولا صلّوا مدة ثلاثة الأيام، فقال السائل: قد تحملها الشيخ. قال بعض الأفاضل: وباب تحمل الشيخ مصراعاه ما بين بصرى وعدن، قد اتسع خرقه وتتابع فتقه، ونال رشاش زقومه الزائر والمعتقد، وساكن البلد. انتهى.

وقد اشتهر ما يقع من السجود على أعتاب المشاهد، وقصد التبرك ـ مع ما فيه ـ لا يمنع حقيقة العبادة الصورية. ومن المعروف عنهم شراء الولدان من الولي بشيء معين، يبقى رسمًا جاريًا يؤدَّى كل عام، وإن كانت امرأة فمهرها أو نصف مهرها لأنها مشتراة منه. ولا يماري في هذا إلاَّ مكابر، لأنه استفاض واشتهر، فلا ينكره إلاَّ مكابر في الحسيات. وإن فقد بعض أنواعه في بعض البلاد فكم له من نظائر، وهذا أشد وأشنع مما ذكر الله جل ذكره عن

جاهلية العرب بقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا . . . ﴾ الآية [الأنعام/ ١٣٦].

الشرك في العبادة أكبر من الشرك في الاستعانة

وكذلك جعل السوائب باسم الولي لا يحمل عليها ولا تذبح، وسَوق الهدايا والقرابين إلى مشاهد الأولياء وذبحها حبًا للشيخ، وتقربًا إليه. وهذا وإن ذكر اسم الله عليه فهو أشد تحريمًا مما ذبح للحم وذكر عليه اسم غير الله كعيسى مثلاً. فإن الشرك في العبادة أكبر من الشرك بالاستعانة.

ومن ذلك: ترك الأشجار والكلأ والعشب إذا كان بقرب المشهد وجعله حرمًا له.

(مناسك حج المشاهد)

ومنها: الحج إلى المشاهد في أوقات مخصوصة مضاهاة لبيت الله. فيطوفون حول الضريح ويستغيثون ويهدون لصاحب القبر ويذبحون، وبعض مشائخهم يأمر الزائر بحلق رأسه إذا فرغ من الزيارة. وقد صنف بعض غلاتهم كتابًا سمَّاه حج المشاهد.

ومنها: التعريف في بعض البلاد عند من يعتقدونه من أهل القبور، فيصلون عشية عرفة عند القبر خاضعين سائلين؛ **والعراق** فيه من ذلك الحظ الأكبر والنصيب الأوفر. بل فيه البحر الذي لا ساحل له والمهامة التي لا ينجو سالكها، ولا يكاد؛ ومن نحوه درج الكفر وظهر الشرك والفساد، كما يعرف ذلك من له إلمام بالتاريخ. . . ومبدأ الحوادث في الدين، ومن شاهد ما يقع منهم عند مشهد الحسين ومشهد علي والكاظم عند رافضتهم، وعبد القادر والحسن البصري والزبير وأمثالهم عند سنيهم، من العبادات وطلب العطايا

والمواهب والتصرفات وأنواع الموبقات، علم أنهم من أجهل الخلق وأضلهم وأنهم في غاية من الكفر والشرك، ما وصل إليها من قبلهم ممن ينتسب إلى الإسلام.

والله المسؤول أن ينصر دينه ويعلي كلمته بمحو هذه الأوثان، حتى يعبد وحده، فتسلم الوجوه له، وتعود البيضاء كما كانت ليلها كنهارها.

ومن ذلك ــ وإن كان يعلم مما تقدم: اتخاذها أعيادًا ومواسم، مضاهاة لما شرعه الله ورسوله من الأعياد المكانية والزمانية.

ومنها: ما يقع ويجري في هذه الاجتماعات من الفجور والفواحش، وترك الصلوات وفعل الخلاعات التي هي في الحقيقة خلع لربقة الدين والتكليف؛ ومشابهة لما يقع في أعياد النصارى والصابئة والإفرنج ببلاد فرنسا وغيرها من الفجور والطبول والزمور والخمور.

وبالجملة فما أحدثه عباد القبور يعزُّ حصره واستيفاؤه»[1].

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى:

«وقد عمَّت في زمنه ــ أي الإمام محمد بن عبد الوهاب ــ البلوى بعبادة الأولياء والصالحين وغيرهم، وأطبق على ترك الإسلام جمهور أهل البسيطة، وفي كل مصر من الأمصار وبلد من البلدان وجهة من الجهات من الآلهة والأنداد لرب العالمين ما لا يحصيه إلاَّ الله، على اختلاف معبوداتهم، وتباين اعتقاداتهم.

---

(١) منهاج التأسيس والتقديس ٥٠/ ٥٥.

فمنهم من يعبد الكواكب ويخاطبها بالحوائج، ويبخر لها التبخيرات، ويرى أنها تفيض عليه أو على العالم وتقضي لهم الحاجات، وتدفع عنهم البليّات، ومنهم من لا يرى ذلك ويكفر أهله ويتبرأ منهم، لكنه قد وقع في عبادة الأنبياء والصالحين، فاعتقد أنه يستغاث بهم في الشدائد والملمّات، بأنهم هم الواسطة في إجابة الدعوات وتفريج الكربات.

فترة يصرف وجهه إليهم، ويسوِّي بينهم وبين الله في: الحب والتعظيم والتوكل والاعتماد والدعاء والاستغاثة وغير ذلك من أنواع العبادات.

وهذا هو دين الجاهلية الأولى، كما الأول هو دين الصابئة الكنعانيين، وقد بعث الله محمدًا ﷺ بالهدىٰ ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون»[1].

وبعد استعراض أحوال المشركين في عصر الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، وما دهاهم من التردِّي المشين في أوحال الشرك الوخيم، مع التركيز على: نقضهم لكافة العقود والعهود التي أبرموها مع ربهم وأنبيائهم وأنفسهم...

ولقد آثرت هذه البداية، لتتجلى بها قضية التوحيد ـ لأنه بالضد تعرف الأشياء ـ، وليدرك العلماء والدعاة والمربين: خطورة الموقف وعظم المقام، عندما يُغيّب التوحيد، ويحل محله الشرك والتنديد برب العالمين، ومن ثمّ تعلو راية الشرك خفاقة، وينجم علم الزندقة فوق رؤوس الأمة، ويلوح بهما في وجه

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٤٣٧.

الموحِّدين نكاية بهم، وضربة موجعة لكيانهم وصفوفهم. . . والحاصل أن ما تقدم ينبـىء بحاجة الأمة الماسَّة لمعرفة التوحيد، والحد الحقيقي من الديانة الذي ينبغي القيام به حتى تتحقق النجاة الحقيقية، ويتسنى للأمة القيام بدورها المناط بها والمراد لها.

ولهذا ولغيره الكثير سوَّد علماء وأئمة الأمة كتبهم في جلاء قضية التوحيد، لبناء حائط الصد الشامخ الذي يقي الأمة الضربات المتلاحقة من قبل أعدائها، ويضمن لها استمرارية البقاء في حلبة الصراع، عن طريق الجهاد الحثيث، المتواصل، للحفاظ على عقيدة المسلمين صافية، من زيف وبطلان دعاوي أهل الشرك والإلحاد.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن ــ رحمهما الله تعالى ــ في خاتمته لقرَّة عيون الموحِّدين:

«وقد ابتدأ المصنف رحمه الله تعالى ــ أي الإمام محمد ابن عبد الوهاب ــ هذا المصنف العظيم: ببيان توحيد الإلهية، لأن أكثر الأمة ممن تأخَّر قد جهلوا هذا التوحيد، وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد، فقام ببيان: التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونهوهم عما كانوا عليه من الشرك المنافي لهذا التوحيد.

فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفَّقه الله لفهمه، وأعطاه القدرة على الدعوة إليه، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته، فقرَّر هذا التوحيد، كما ترى في هذه الأبواب، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات، لأن أكثر العامة لم يكن لهم التفات إلى هذا العلم الذي خاض فيه من ينتسب إلى العلم، وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عمن خاض في هذه

العلوم، وأحسنوا الظن بأهل الكلام، وظنوا أنهم على شيء، فقبلوا ما وجدوه عنهم، فقرَّروا مذهب الجهمية، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات، وخالفوا ما دلَّت عليه نصوص الكتاب والسنَّة، وما عليه سلف الأمة، وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين.

وما زال أهل السنَّة متمسكين بذلك، لكنهم قلُّوا، فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد، فقرَّرها بأدلتها، فللَّه الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام، فضلّ عنه من ضلَّ من أهل القرى والأمصار وغيرهم، وبالله التوفيق.

فقد اجتمع في هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلاَّمة ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله:

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وصلَّى الله على سيِّد المرسلين، وإمام المتقين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»(١).

● ● ●

---

(١) قرَّة عيون الموحِّدين ص ٢٩٤ ـ ٦٢٥.

كلمات منتقاة، مضيئة

● قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عُرَى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. اهـ. وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وذمَّه، وقع فيه وأقرَّه، وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية، فتنتقض بذلك عرىٰ الإسلام.

[الإمام ابن قيم الجوزية]

● فما زال هذا الشرك يزداد، حتى ملأ الأرض، قاصيها ودانيها، وما زال الغرباء ينكرونه، لكنهم أقل القليل، لا يسمع لهم ولا يطاع.

[شيخ الإسلام أحمد بن تيمية]

● لقد عادت عبادة الأولياء والصالحين، ودعاء الأوثان والشياطين، كما كانت قبل النبوة، وفي زمن الفترة، حذو النعل بالنعل، وحذو القذَّة بالقذَّة، وهذا من أعلام النبوة... ولقد أطبق على ترك الإسلام جمهور أهل البسيطة.

[الإمام عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن]

● لقد اتُّخذ الأنداد في الأمصار والقرىٰ وجميع أهل البلاد، من اليمن والشام ونجد وتهامة، وجميع ديار الإسلام، وهو الاعتقاد في القبور.

[الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني]

- وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر، إلاَّ من جرَّد توحيده لله، وتقرَّب بمقت المشركين إلى الله.

[الإمام ابن قيم الجوزية]

- إن الإسلام لا يستقيم إلاَّ بمعاداة المشركين، فإن لم يعادهم فهو منهم، وإن لم يفعله.

[الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب]

❑ ❑ ❑

الفصل الأول

حقيقة الإسلام وشروط قَبوله

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : حقيقة الإسلام الفارقة بين الموحِّدين المسلمين، والمشركين الكافرين.

المبحث الثاني : شروط صحة الإسلام وقَبوله.

المبحث الثالث : البراءة من الشرك وأهله، شرط في صحة الإسلام وقَبوله بالإجماع.

المبحث الأول

حقيقة الإسلام الفارقة
بين الموحِّدين المسلمين، والمشركين الكافرين

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب معرِّفًا الإسلام بقوله:

«هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله»[1].

وقال أيضًا رحمه الله:

«ولفظ الإسلام يتضمن: الاستسلام والانقياد والإخلاص، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر»[2].

وقال رحمه الله:

«وأصله ـ أي الإسلام ـ وقاعدته أمران:

الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والموالاة فيه، وتكفير من تركه؛ والإنذار عن الشرك في عبادة الله، والتغليظ في

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١/ ١٢٩.

(٢) الدرر السنية ٢/ ٨٣.

ذلك، والمعاداة فيه، وتكفير من فعله»[١].

وقال عبد الرحمن بن حسن:

«وأصل الإسلام، وأساسه أن ينقاد العبد لله تعالى بالقلب والأركان، مذعنًا له بالتوحيد، مفردًا له بالإلهية والربوبية دون كل ما سواه، مقدِّمًا مراد ربِّه على كل ما تحبه نفسه وتهواه.

وهذا معنى قول النبي ﷺ: (الإسلام أن تشهد: أن لا إلـه إلاَّ الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً) الحديث»[٢].

وقال رحمه الله أيضًا:

«لا يصح لأحد إسلام إلاَّ بمعرفة ما دلَّت عليه هذه الكلمة ـ أي كلمة التوحيد ـ من نفي الشرك في العبادة، والبراءة منه وممن فعله ومعاداته، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، والموالاة في ذلك»[٣].

وقال رحمه الله:

«وأعظم حق الإسلام، وأصله الأصيل: هو عبادة الله وحده، والكفر بما يعبد من دونه، وهذا هو الذي دلَّت عليه كلمة الإخلاص. فمن قالها وعبد غير الله، واستكبر عن عبادة الله، فهو مكذِّب لنفسه، شاهد عليها بالكفر والإشراك»[٤].

---

(١) الدرر السنية ٢/ ١٥٣.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٤٢٠.

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل ٥/ ٥٤٧.

(٤) الدرر السنية ١٢/ ٢٧٥.

وقال عبد الله وإبراهيم ابنا عبد اللطيف، وسليمان بن سحمان رحم الله الجميع:

حقيقة الإسلام التي بعث الله بها رُسله الكرام، ودعوا إليها تتمثل في: وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له، وأن لا يشرك في واجب حقه أحد من خلقه، وأن يوصف بما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال.

فمن خالف ما جاءوا به، ونفاه وأبطله، فهو كافر ضال، وإن قال: لا إلـه إلاَّ الله، وزعم أنه مسلم، لأن ما قام به من الشرك يناقض ما تكلَّم به من كلمة التوحيد، فلا ينفعه التلفُّظ بقول: لا إلـه إلاَّ الله، لأنه تكلَّم بما لم يعمل به، ولم يعتقد ما دلّ عليه»[1]. اهـ.

وقال إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن رحمهم الله تعالى:

«قال محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: ومجرَّد الإتيان بلفظ الشهادة، من غير علم بمعناها، ولا عمل بمقتضاها، لا يكون به المكلَّف مسلمًا؛ بل هو حجة على ابن آدم، خلافًا لمن زعم أن الإيمان مجرَّد: الإقرار»[2].

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف، مفتي الديار النجدية في وقته رحمه الله تعالى:

«فإن كثيرًا من الناس ينتسبون إلى الإسلام، وينطقون بالشهادتين، ويؤدُّون أركان الإسلام الظاهرة، ولا يُكتفى بذلك في الحكم بإسلامهم، ولا تحل ذكاتهم لشركهم بالله في العبادة بدعاء

---

(١) عقيدة الموحِّدين ص ٤٥١ بتصرف.

(٢) الدرر السنية ١/ ٥٢٢ ــ ٥٢٣.

الأنبياء والصالحين، والاستغاثة بهم، وغير ذلك من أسباب الردة عن الإِسلام.

وهذا التفريق بين المنتسبين إلى الإِسلام، أمر معلوم بالأدلة من الكتاب والسنَّة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها»[١].

❑ ❑ ❑

---

(١) عقيدة الموحِّدين ص ٣٩٢.

المبحث الثاني

شروط صحة الإسلام وقبوله

دين الله يكون بالقلب واللسان والجوارح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله تعالى:

اعلم رحمك الله: أن دين الله يكون على القلب بالاعتقاد، وبالحب والبغض، ويكون على اللسان بالنطق وترك النطق بالكفر، ويكون على الجوارح بفعل أركان الإسلام، وترك الأفعال التي تكفر، فإذا اختل واحدة من هذه الثلاث، كفر وارتدَّ.

الشك نوع من أنواع الكفر

مثال عمل القلب: أن يظن أن هذا الذي عليه أكثر الناس من الاعتقاد في الأحياء والأموات حق، ويستدل بكون أكثر الناس عليه، فهو كافر مكذِّب للنبي ﷺ، ولو لم يتكلَّم بلسانه، ولم يعمل إلاَّ بالتوحيد، وكذلك إذا شك، لا يدري من الحق معه، فهذا لو لم يكذب فهو لم يصدق النبي ﷺ، فهو يقول عسى الله أن يبيِّن الحق، فهو في شك، فهو مرتد ولو لم يتكلَّم إلاَّ بالتوحيد.

ومثال اللسان: أن يؤمن بالحق ويحبه، ويكفر بالباطل ويبغضه، ولكنه تكلَّم مداراة لأهل الأحساء، ولأهل مكة أو غيرهم بوجوههم، خوفًا من شرِّهم؛ وإما أن يكتب لهم كلامًا يصرِّح لهم بمدح ما هم عليه، أو يذكر أنه ترك ما هو عليه، ويظن أنه ماكر بهم، وقلبه موقن أنه لا يضره، وهذا أيضًا لغروره.

وهو معنى قول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل/ ١٠٦، ١٠٧]، فقط لا لتغير عقائدهم.

فمن عرف هذا، عرف أن الخطر، خطر عظيم شديد، وعرف شدة الحاجة للتعلم والمذاكرة، وهذا معنى قوله في الإقناع في الردة، نطقًا أو اعتقادًا أو شكًّا أو فعلاً، والله أعلم»[١].

وقال عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى:

«والإسلام حقيقته: أن يسلم العبد بقلبه وجوارحه لله تعالى، وينقاد له بالتوحيد والطاعة، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة/ ١١٢].

وقال تعالى: ﴿۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان/ ٢٢].

وإحسان العمل لا بدَّ فيه من الإخلاص، ومتابعة ما شرعه الله ورسوله»[٢].

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله تعالى ــ بعد أن ذكر شروط لا إلـه إلاَّ الله ــ:

«فإذا تبيَّن لك هذا وعرفته، وتحققت أن لا إلـه إلاَّ الله، هي كلمة الإخلاص، وهي الفارقة بين الكفر والإسلام، وهي كلمة

---

(١) الدرر السنية ١٠/ ٨٧، ٨٨.

(٢) الدرر السنية ٢/ ٢٥٤، ٢٥٥.

التقوى؛ وهي العروة الوثقى، فاعلم: أن هذه الكلمة، نفي، وإثبات؛ نفي الإلهية عما سوى الله من المخلوقات، وإثباتها لله وحده لا شريك له؛ وأنها لا تنفع قائلها إلاَّ باجتماع هذه الشروط التي تقدَّم ذكرها، فمن عرف معناها، وعمل بمقتضاها، وتحقق بها علمًا وعملاً واعتقادًا، فقد استمسك بالإسلام الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران/ ١٩].

معنى النفي والإثبات في كلمة التوحيد، وشروط الانتفاع بها

وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران/ ٨٥] »(١).

وقال عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين رحمه الله تعالى:

«الإقرار بتوحيد الربوبية، وهو أنَّ الله سبحانه خالق كل شيء ومليكه ومدبِّره، فهذا يُقرُّ به المسلم والكافر ولا بد منه، لكن لا يصير الإنسان به مسلمًا حتى يأتي بتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون، وبه يتميَّز المسلم من المشرك، وأهل الجنة من أهل النار»(٢).

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى:

«فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئًا من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال: لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله وصلَّى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين: أن لا يعبد إلاَّ الله، فمن أتى بالشهادتين، وعبد غير الله، فما أتى بهما حقيقة،

ترك الشرك: شرط لصحة الإسلام

(١) الدرر السنية ٢/ ٣٦٠.

(٢) عقيدة الموحِّدين والرد على الضلاَّل والمبتدعين (رسالة الانتصار لحزب الله الموحِّدين) ص ١١.

وإن تلفظ بهما، كاليهود الذين يقولون: لا إله إلاَّ الله وهم مشركون.

ومجرد التلفظ بالشهادتين لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناها، واعتقاده إجماعًا»[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى:

«فلا إله إلاَّ الله، هي: كلمة الإسلام لا يصح إسلام أحد إلاَّ بمعرفة ما وضعت له، ودلَّت عليه، وقَبوله، والانقياد للعمل به، وهي كلمة الإخلاص المنافي للشرك، وكلمة التقوى»[٢].

وسُئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء:

(فتوى رقم ١٠٦٨٤)

س: ما هو الحدُّ الفاصل بين الكفر والإسلام، وهل من ينطق بالشهادتين ثم يأتي بأفعال تناقضهما يدخل في عِداد المسلمين رغم صلاته وحياته.

ج: الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه.. وبعد:

التوحيد قولاً واعتقادًا وعملاً، هو الحد الفاصل بين المسلمين والكافرين

الحد بين الكفر والإسلام النطق بالشهادتين مع الصدق والإخلاص والعمل بمقتضاهما، فمن تحقق فيه ذلك فهو مسلم مؤمن. أما من نافق فلم يصدق ولم يخلص فليس بمؤمن، وكذا من نطق بهما وأتى بما يناقضهما من الشرك، مثل من يستغيث بالأموات في الشدَّة أو الرخاء، ومن يؤثر الحكم بالقوانين الوضعية على الحكم

(١) تيسير العزيز الحميد ص ١٥٤، ١٥٥.
(٢) الدرر السنية ٢/٢٤٦.

بما أنزل الله تعالى، ومن يهزأ بالقرآن أو ما ثبت من سنَّة رسول الله ﷺ فهذا كافر وإن نطق بالشهادتين وصلَّى وصام.

وبالله التوفيق وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز»[1]

❑ ❑ ❑

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ٢/ ٤٥، ٤٦.

المبحث الثالث

البراءة من الشرك وأهله
شرط في صحة الإسلام وقبوله بالإجماع

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن نقلاً عن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحم الله الجميع:

تعريف الإسلام المفرق بين المسلمين والمشركين

«إن حقيقة دين الإسلام وزُبدة ما جاءت به الرسل الكرام، هو إفراد الله بالقصد والعبادة، وإسلام الوجه له بالعمل والإرادة، وترك التعلق على الأولياء من دونه والأنداد، والبراءة من عبادة ما سواه من سائر المخلوقات والعباد. وهذا معنى كلمة الإخلاص والتوحيد. وهو الحكمة المقصودة بخلق جميع الكائنات والعبيد.

مجرَّد الإتيان بلفظ الشهادة مع الشرك الأكبر، لا يدخل المكلف في الإسلام بإجماع العلماء

وقرَّر رحمه الله أن مجرد الإتيان بلفظ الشهادة مع مخالفة ما دلَّت عليه من الأصول المقرَّرة؛ ومع الشرك الأكبر في العبادة لا يدخل المكلف في الإسلام. إذ المقصود من الشهادتين حقيقة الأعمال التي لا يقوم الإيمان بدونها، كمحبة الله وحده، والخضوع له والإنابة إليه، والتوكل عليه، وإفراده بالاستعانة والاستغاثة فيما لا يقدر عليه سواه، وعدم الإشراك به فيما يستحقه من العبادات، كالذبح والنذر والتقوى والخشية، ونحو ذلك من الطاعات.

واستدلَّ لذلك بنصوص قاطعة وبراهين واضحة ساطعة، وحكي الإجماع على ذلك عن الأئمة الفضلاء والسادة النبلاء، من سائر أهل الفقه والفتوى، وذكر عبارة من حكى الإجماع من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم، وألَّف في ذلك التآليف، وقرر الحجة وصنف التصانيف.

وقد عارضه من الغلاة المارقين ومن الدعاة إلى عبادة الأولياء والصالحين، أناس من أهل وقته، فباءوا بغضب الله ومقته، وأظهره الله عليهم بعد الامتحان. وحقَّت كلمة ربك على أهل الكفر والطغيان. وهذه سنَّة الله التي قد خلت من قبل، وحكمته التي يظهر بها ميزان الفضل والعدل»[1].

وقال أيضًا رحمه الله:

لا يصح الإسلام إلاَّ بالبراءة من الطواغيت وتكفيرهم

«لا يصح دين الإسلام إلاَّ بالبراءة من هؤلاء ـ أي الطواغيت المعبودة من دون الله ـ وتكفيرهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٥٦]»[2].

وقال عبد الرحمن بن حسن:

«أجمع العلماء سلفًا وخلفًا من الصحابة، والتابعين، والأئمة، وجميع أهل السنَّة، أن المرء لا يكون مسلمًا، إلاَّ بالتجرُّد من الشرك الأكبر، والبراءة منه وممن فعله، وبغضهم ومعاداتهم بحسب الطاقة والقدرة، وإخلاص الأعمال كلها لله، كما في حديث معاذ الذي في الصحيحين: «فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا

---

(١) منهاج التأسيس والتقديس ص ١٠.

(٢) الدرر السنية ١٠/ ٥٣.

يشركوا به شيئًا»[1].

وقال عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن:

«إن أصل الإسلام وقاعدته هي: عبادة الله وحده لا شريك له، وإفراده بالقصد والطلب، وأن توحيد الربوبية واعتقاد الفاعلية له تعالى، لا يكفي في السعادة والنجاة، ولا يكون به المرء مسلمًا حتى يعبد الله وحده، ويتبرأ مما سواه من الأنداد والآلهة»[2].

وقال أيضًا رحمه الله:

قال ابن القيم: والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان برسوله واتباعه فيما جاء به.

فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا فهو كافر جاهل»[3].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

من عرف التوحيد وأبى التعرض للمشركين بالبغض والمعاداة، لا يكون مسلمًا

وأنت يا من منَّ الله عليه بالإسلام، وعرف أن ما من إله إلاّ الله؛ لا تظنّ أنك إذا قلت: هذا هو الحق، وأنا تارك ما سواه، لكن لا أتعرض للمشركين، ولا أقول فيهم شيئًا، لا تظن أنَّ ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام، بل لا بدَّ من بغضهم، وبغض من يحبهم، ومسبتهم، ومعاداتهم؛ كما قال أبوك إبراهيم، والذين معه: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة/ ٤].

---

(١) الدرر السنية ١١/ ٥٤٥.

(٢) الدرر السنية ١٢/ ١٩٧، ١٩٨.

(٣) منهاج التأسيس والتقديس في الردِّ على شبهات داود بن جرجيس ص ٢٢٤.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل/ ٣٦].

دليل قوي على ما سبق

ولو يقول رجل: أنا أتبع النبي ﷺ وهو على الحق، لكن لا أتعرَّض اللَّات، والعُزَّى، ولا أتعرض أبا جهل وأمثاله، ما عليّ منهم؛ لم يصح إسلامه»[1].

وقال أيضًا رحمه الله:

الفرق بين التوحيد والطاعات، والشرك والمعاصي

اعلم رحمك الله: أن فرض معرفة شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، قبل فرض الصلاة والصوم، فيجب على العبد أن يبحث عن معنى ذلك، أعظم من وجوب بحثه عن الصلاة والصوم، وتحريم الشرك والإيمان بالطاغوت أعظم من تحريم نكاح الأمهات، والعمَّات؛ فأعظم مراتب الإيمان بالله: شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله.

تفسير دقيق لمعنى لا إلـه إلاَّ الله

ومعنى ذلك، أن يشهد العبد: أن الإلـهية كلها لله، ليس منها شيء لنبي، ولا لملك، ولا لولي، بل هي حق الله على عباده. والألوهية، هي التي تسمَّى في زماننا: السر؛ والإلـه في كلام العرب، هو الذي يسمَّى في زماننا: الشيخ، والسيد، الذي يُدعى به ويستغاث به؛ فإذا عرف الإنسان: أن هذا الذي يعتقده كثيرون، في شمسان، وأمثاله، أو قبر بعض الصحابة، هو العبادة التي لا تصلح إلاَّ لله، وأن من اعتقد في نبي من الأنبياء، فقد كفر، وجعله مع الله إلـهًا آخر، فهذا لم يكن قد شهد أن لا إلـه إلاَّ الله.

الشرك يبطل الشهادة بالتوحيد

(١) الدرر السنية ٢/ ١٠٩.

صفة الكفر بالطاغوت

ومعنى الكفر بالطاغوت: أن تبرأ من كل ما يعتقد فيه غير الله، من جني، أو أنسي، أو شجر، أو حجر، أو غير ذلك، وتشهد عليه بالكفر والضلال، وتبغضه، ولو كان أنه أبوك أو أخوك، فأما من قال: أنا لا أعبد إلاّ الله، وأنا لا أتعرض السادة والقباب على القبور وأمثال ذلك، فهذا كاذب في قول لا إلـه إلاّ الله، ولم يؤمن بالله، ولم يكفر بالطاغوت»[1].

وقال حسين وعبد الله ابنا الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعًا:

كيفية تحقيق الإسلام

إن الرجل لا يكون مسلمًا إلاّ إذا عرف التوحيد ودان به، وعمل بموجبه، وصدق الرسول ﷺ فيما أخبر به، وأطاعه فيما نهى عنه وأمر به، وآمن به وبما جاء به.

من لم يعاد المشركين، أو عاداهم ولم يكفرهم، لا يكون مسلمًا

فمن قال لا أعادي المشركين، أو عاداهم ولم يكفرهم، أو قال لا أتعرض أهل لا إلـه إلاّ الله ولو فعلوا الكفر والشرك وعادوا دين الله، أو قال لا أتعرض للقباب، فهذا لا يكون مسلمًا بل هو ممن قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء/ ١٥٠، ١٥١].

والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة/ ٢٢] الآية.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ

---

(١) الدرر السنية ٢/ ١٢١.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الممتحنة/ ١] الآيات، والله أعلم»[١].

وقال عبد الرحمن بن حسن:

«فلا يتم لأهل التوحيد توحيدهم، إلَّا باعتزال أهل الشرك، وعداوتهم وتكفيرهم»[٢].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى:

«فاعلم أن العلماء أجمعوا على أنَّ من صرف شيئًا من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال: لا إله إلَّا الله محمد رسول الله وصلَّى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين: أن لا يعبد إلَّا الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله فما أتى بهما حقيقة، وإن تلفظ بهما، كاليهود الذين يقولون: لا إله إلَّا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بالشهادتين لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعًا»[٣].

مجرد التلفظ بالشهادتين بدون العمل بهما واعتقاد معناهما، لا يكفي في الإسلام إجماعًا

• • •

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ١/ ٣٨.

(٢) الدرر السنية ١١/ ٤٣٤.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ١٥٤، ١٥٥.

كلمات منتقاة، مضيئة

● أجمع علماء أهل السنَّة سلفًا وخلفًا، من الصحابة والتابعين، والأئمة، وجميع أهل السنَّة، أنَّ المرء لا يكون مسلمًا، إلاَّ بالتجرد من الشرك الأكبر، والبراءة منه وممن فعله، وبغضهم ومعاداتهم بحسب الطاقة والقدرة، وإخلاص الأعمال كلها لله. [الإمام عبد الرحمن بن حسن]

● مجرَّد التلفظ بالشهادتين، لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناها، واعتقاده إجماعًا. [الإمام سليمان بن عبد الله]

● الإسلام هو: توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان برسوله واتباعه فيما جاء به.

فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا فهو كافر جاهل. [الإمام شيخ الإسلام ابن قيِّم الجوزية]

● الإسلام هو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله. [الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

● مجرد الإتيان بلفظ الشهادة مع مخالفة ما دلَّت عليه من الأصول المقرَّرة، ومع الشرك الأكبر في العبادة، لا يدخل المرء في الإسلام. [الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

● أصل الإسلام وقاعدته أمران:

الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والموالاة فيه، وتكفير من تركه.

والثاني: الإنذار عن الشرك من عبادة الله، والتغليظ في ذلك، والمعاداة فيه، وتكفير من فعله. [الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

❑ ❑ ❑

الفصل الثاني

حقيقة التوحيد وأركانه ومقتضياته وأنواعه

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول : معنى الإلٰه الذي ينبغي معرفته والعمل بموجبه لتحقيق التوحيد مع الانحلاع من الشرك والتنديد.

المبحث الثاني : حدّ العبادة وكيفية القيام بها.

المبحث الثالث : من شروط صحَّة العبادة: الكفر بالطاغوت، والانخلاع من الشرك مع البراءة من أهله.

المبحث الرابع : أركان التوحيد.

المبحث الخامس : حقيقة التوحيد وأنواعه وحدود العلاقة بينهما.

المبحث السادس : كمال الله المطلق من جميع الوجوه أوجب له سبحانه: وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، وبه جزم الموحِّدون ببطلان كل ما يعبد من دونه، ووجوب ذلك ثابت بالعقل والفطرة والنقل.

المبحث السابع : أصول التوحيد العاصمة من الشرك والتنديد، قد اتفقت عليها الرسالات، وتطابقت عليها النبوَّات، ومن ثمّ فلا يسع أي عبد فيها إلاَّ الاتباع دون الابتداع والاجتهاد.

المبحث الثامن : التوحيد أساس دعوة النبيين والمرسلين، ومن شك فيه فليس معه من الإسلام أدنى نصيب.

المبحث التاسع : شروط وأركان «لا إلـه إلاَّ الله» مع بيان أن المقصود الأعظم منها: تحقيق معناها في القلب، فالنطق بها باللسان، فالقيام بمقتضاها بالجوارح.

المبحث العاشر : أحوال وأصناف الناطقين بكلمة التوحيد.

مدخل مفيد لفهم قضية التوحيد

لقد انعقد إجماع الصحابة، ومن ورائهم أهل السنَّة ـ السائرين على أصول دربهم ـ في كل عصر ومصر من عصورهم وأمصارهم على أنَّ معنى «لا إلـه إلاَّ الله» هو: لا معبود بحق إلاَّ الله.

ومن ثمَّ تحتَّم على كل عبد: العلم بمدلول كلمتي «الإلـه» و «العبـادة»، حتـى يتسنَّى لـه معـرفـة معـانـي ومقتضيـات ولـوازم ومبطلات الكلمة العاصمة، كلمة التوحيد.

ولا يفوتني التذكير هنا بأن تحقيق التوحيد علمًا واعتقادًا ونطقًا وعملاً، هو نقطة الانطلاق الأولى لتحقيق مشروعية وجود الأمة، وهو السبيل الوحيد العاصم من كيد الكفار ومخططات الإلحاد.

وبه نستطيع أن نفيء من غفلتنا وسباتنا العميق لنتسلَّم زمام أمرنا من أيدي أعدائنا، لنقود قافلة أمتنا بحكم ربنا وهدي نبينا ﷺ.

ومن ثم نستطيع القيام بالدور الريادي المُناط بنا وهو قيادة البشرية وهدايتها لعلة خلقها والحكمة من وجودها وهي: إفراد الله سبحانه بالعبادة مع الكفر والبراءة من كل ما يعبد من دونه.

❑ ❑ ❑

المبحث الأول

معنى الإلـه الذي ينبغي معرفته، والعمل بموجبه، لتحقيق التوحيد مع الانخلاع من الشرك والتنديد

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: «فاعلم أن الإلـه هو: المعبود. هذا هو تفسير هذه اللفظة بإجماع أهل العلم، فمن عبد شيئًا فقد اتخذه إلـهًا من دون الله، وجميع ذلك باطل، إلاَّ إلـه واحد، وهو الله وحده تبارك وتعالى علوًا كبيرًا»[1].

وقال أيضًا الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«الإلـه في كلام العرب هو الذي يُقصد للعبادة، وكانوا يقولون ــ أي كفار قريش ــ : إن الله هو إلـه الآلهة»[2].

وقال أيضًا رحمه الله:

«معرفة الإلـه ما هي؟ فينبغي التفطن لهذه، فإنها أصل الدين، وهي الفارقة بين المسلم والكافر، وأصل هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف/ ٣٦].

وذكر الرحمن: هو القرآن. فلما طلبوا الهداية من غيره

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ١٦.

(٢) الدرر السنية ٢/ ٧٣.

أضلَّهم الله، وقيَّض لهم الشيطان فصدَّهم عن أصل الأصول، وهم مع هذا يحسبون أنهم مهتدون.

وبيان ذلك: أنه ليس المراد معرفة الإلـه الإجمالية، يعني: معرفة الإنسان أن له خالقًا، فإنها ضرورية فطرية، بل معرفة الإلـه هل هذا الوصف مختص بالله لا يشركه فيه ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسل؟ أم جعل لغيره قسط منه؟!

فأما المسلمون، أتباع الأنبياء، فإجماعهم على أنه مختص كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء/ ٢٥].

إبطال تفسير الإلـه: بأنه القادر على الاختراع

والكافرون يزعمون: أنه هو الإلـه الأكبر، ولكن معه آلهة أخرى تشفع عنده؛ والمتكلِّمون ممن يدعي الإسلام، لكن أضلَّهم الله عن معرفة الإلـه، فذكر عن الأشعري، ومن تبعه: أنه القادر، وأن الألوهية هي القدرة، فإذا أقررنا بذلك، فهي معنى قوله: لا إلـه إلَّا الله؟ ثم استحوذ عليهم الشيطان، فظنوا أن التوحيد لا يتأتى إلَّا بنفي الصفات، فنفوها، وسموا من أثبتها مجسِّمًا.

وردَّ عليهم أهل السنَّة بأدلة كثيرة، منها: أن التوحيد لا يتم إلَّا بإثبات الصفات.

(الإلـه: هو المعبود)

وأن معنى الإلـه: هو المعبود؛ فإذا كان هو سبحانه متفردًا به عن جميع المخلوقات، وكان هذا وصفًا صحيحًا، لم يكذب الواصف به، فهذا يدل على الصفات، فيدل على العلم العظيم، والقدرة العظيمة؛ وهاتان الصفتان أصل جميع الصفات، كما قال

تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق/ ١٢] »[١].

وقال عبد الرحمن بن حسن:

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره «لا إلـه إلاَّ الله»، أي: لا معبود إلاَّ هو.

وقال الزمخشري: «الإلـه» من أسماء الأجناس. كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق.

وقال شيخ الإسلام: «الإلـه» هو المعبود المطاع، فإن الإلـه هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد. وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع.

قال: فإن الإلـه المحبوب المعبود الذي تألَهه القلوب بحبها، وتخضع له وتذل له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهمَّاتها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلاَّ لله وحده.

إذا صح التوحيد، صحت الأعمال، وإلاَّ فلا

ولهذا كانت «لا إلـه إلاَّ الله» أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحَّت، صحَّ بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصحِّحها العبد، فالفساد لازم له في علومه وأعماله.

---

(١) الدرر السنية ٢/ ١١١ ـ ١١٣.

وقال ابن القيم: «الإلـه» هو الذي تألَهه القلوب: محبَّةً وإجلالاً وإنابة، وإكرامًا وتعظيمًا وذلاًّ وخضوعًا وخوفًا ورجاءً وتوكُّلاً.

وقال ابن رجب: «الإلـه» هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبةً له وإجلالاً، ومحبَّةً وخوفًا ورجاءً، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح هذا كله إلاَّ لله عزَّ وجل، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلـهية، كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول «لا إلـه إلاَّ الله»، ونقصًا في توحيده وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

كيف يكون العلم نافعًا

وقال البقاعي: «لا إلـه إلاَّ الله»، أي: انتفى انتفاءً عظيمًا أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلاَّ فهو جهل صرف.

وقال الطيبي: «الإلـه» فِعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أَلِه إلـهة، أي: عبد عبادة. قال الشارح: وهذا كثير في كلام العلماء وإجماع منهم.

معنى لا إلـه إلاَّ الله، وشروط الانتفاع بها

فدلَّت «لا إلـه إلاَّ الله» على نفي الإلـهية عن كل ما سوى الله تعالى كائنًا ما كان، وإثبات الإلـهية لله وحده دون كل ما سواه، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره، كما قال تعالى عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن/ ١، ٢].

فلا إلـه إلاَّ الله لا تنفع إلاَّ من عرف مدلولها نفيًا وإثباتًا، واعتقد ذلك وقبله وعمل به، وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدم في كلام العلماء أن هذا جهل صرف، فهي حجة عليه بلا ريب»[١].

❑ ❑ ❑

---

(١) فتح المجيد ص ٤١، ٤٢.

المبحث الثاني

حدُّ العبادة وكيفية القيام بها

قال سليمان بن عبد الله رحمه الله في شرحه على كتاب التوحيد:

«قال شيخ الإسلام: (العبادة) هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل.

وقال أيضًا: «العبادة» اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

فلك العبادة دائر على القلب واللسان والجوارح

وقال ابن القيم: ومدارها على خمس عشرة قاعدة، من كمَّلها كمل مراتب العبودية، وبيان ذلك: أن العبادة منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهنَّ لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

وقال القرطبي: أصل «العبادة» التذلل والخضوع، وسمِّيت وظائف الشرع على المكلفين عبادات، لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذلِّلين لله تعالى.

وقال ابن كثير: «العبادة» في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبَّد وغير معبَّد، أي: مذلَّل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وهكذا ذكر غيرهم من العلماء.

أي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦].

ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الإنس والجن إلاَّ لعبادته، فهذا هو الحكمة في خلقهم، ولم يرد منهم ما تريده السادة من عبيدها من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، بل هو الرازق ذو القوة المتين، الذي يُطْعِم ولا يُطْعَم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام/ ١٤].

معنى الإسلام

و «عبادته» هي: طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام، لأنَّ معنى الإسلام: هو الاستسلام لله المتضمِّن غاية الانقياد، في غاية الذل والخضوع. قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه في الآية: إلاَّ لآمرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي. وقال مجاهد: إلاَّ لآمرهم وأنهاهم، واختاره الزجاج وشيخ الإسلام. قال: ويدل على هذا قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة/ ٣٦]، قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى.

وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ﴾ [الفرقان/ ٧٧]، أي: لولا عبادتكم إياه.

وقد قال في القرآن في غير موضع: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة/ ٢١]، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء/ ١].

فقد أمرهم بما خلقوا له، وأرسل الرسل إلى الجن والإنس بذلك، وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية قطعًا، وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه، ويقرُّون أن الله إنما خلقهم ليعبدوه العبادة الشرعية، وهي طاعته وطاعة رسله، لا ليضيعوا حقه الذي خلقهم له.

قال: وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة/ ١٨٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء/ ٦٤].

ثم قد يُطاع وقد يُعصى، وكذلك ما خلقهم إلَّا للعبادة، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون، وهو سبحانه لم يقل: إنه فعل الأول، وهو خلقهم، ليفعل بهم كلهم الثاني وهو عبادته، ولكن ذكر الأول ليفعلوا هم الثاني فيكونوا هم الفاعلين له، فيحصل لهم بفعله سعادتهم، ويحصل ما يحبه ويرضاه منهم ولهم. انتهى.

الألوهية تدور مع الربوبية وجودًا وعدمًا

والآية دالة على وجوب اختصاص الخالق تعالى بالعبادة، لأنه سبحانه هو ابتدأك بخلقك والإنعام عليك بقدرته ومشيئته ورحمته من غير سبب منك أصلاً، وما فعله بك لا يقدر عليه غيره، ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق، أو دفع ضرٍّ فهو الذي يأتي بالرزق لا يأتي به غيره، وهو الذي يدفع الضرَّ لا يدفعه غيره.

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك/ ٢٠، ٢١]»[1].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣١/ ٣٣.

وقال عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين رحمه الله تعالى:

«وحدُّ «العبادة» وحقيقتها: طاعة الله، فكل قول وعمل ظاهر وباطن يحبه الله فهو عبادة، فكل ما أمر به شرعًا أمر إيجاب أو استحباب فهو عبادة، فهذا حقيقة العبادة عند جميع العلماء، التي من جعل منها شيئًا لغير الله فهو كافر مشترك»[1].

وقال عبد الرحمن بن حسن نقلاً عن محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني:

«إن «العبادة» أقصى باب: الخضوع والتذلل، ولم تستعمل إلاَّ في الخضوع لله، لأنه مولي أعظم النعم، حقيق بأقصى غاية الخضوع، كما في الكشاف.

التوحيد: رأس العبادة وأساسها

ثم إنَّ رأس «العبادة» وأساسها: التوحيد لله، الذي تفيده كلمته التي إليها دعت جميع الرسل، وهي: لا إله إلاَّ الله، والمراد: اعتقاد معناها لا مجرد قولها باللسان، ومعناها: إفراد الله بالعبادة والإلهية، والنفي والبراءة من كل معبود دونه، وقد علم الكفار هذا المعنى، لأنهم أهل اللسان العربي فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]. انتهى»[2].

وقال محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى:

«قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات/ ٥٦]، ومعنى يعبدون: يوحِّدون، والعبادة هي: التوحيد، لأن الخصومة بين الرسل وأممهم فيه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(١) مجموعة الرسائل ٥٥/ ٤٧٦.

(٢) الدرر السنية ٨/ ٢٢١.

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل/ ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء/ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن/ ١٨].

عدم قصد الشرك لا يغني عن أصحابه

فمن دعا غير الله من ميت، أو غائب، أو استغاث به، فهو مشرك كافر، وإن لم يقصد إلاَّ مجرد التقرُّب إلى الله، وطلب الشفاعة عنده»[1].

وقال عبد الرحمن بن حسن:

«وأما تعريف «العبادة»: فقد قال العلامة ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذلِّ عابده هما قطبان

وعليهما فلَك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان

ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

فذكر أصل العبادة، التي يصلح العمل مع حصولها، إذا كان على السنة، فذكر قطبيها، وهما: غاية المحبة لله، في غاية الذل له، والغاية تفوت بدخول الشرك، وبه يبطل هذا الأصل، لأن المشرك، لا بدَّ أن يحب معبوده، ولا بدّ أن يذل له، ففسد الأصل بوجود الشرك فيه، ولا تحصل الغاية فيهما إلاَّ بانتفاء الشرك، وقصر المحبة والتذلل لله وحده، وبهذا تصلح جميع الأعمال المشروعة، وهي

الشرك يفسد أصل العبادة

---

(١) الدرر السنية ١/ ٥٦٧.

المراد بقوله: وعليهما فلك العبادة دائر، والدائر هي الأعمال، ولا تصلح إلاَّ بمتابعة السنّة.

وهذا معنى قول الفضيل بن عياض رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك/ ٢]، قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه، وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة»[١].

وقال بعض علماء نجد الأعلام في رسالتهم المسمَّاة: «تنزيه الذات والصفات من دَرن الإلحاد والشبهات»:

«والعبادة أنواع:

أنواع العبادة

اعتقادية ــ وهي أساسها ــ وذلك أن يعتقد أنه الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، وأنه الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلاَّ بإذنه، وأنه لا معبود بحق إلاَّ هو، وغير ذلك مما يجب له من لوازم الإلهية.

شروط عصمة الدم والمال

ومنها لفظية: وهي النطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقد ما ذكر ولم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله. وكان كإبليس، فإنه يعتقد التوحيد بل ويقر به ولم يمتثل أمر الله بالسجود فكفر، ومن نطق ولم يعتقد حقن ماله ودمه وحسابه على الله وحكمه حكم المنافقين.

وبدنية: كالقيام والركوع والسجود في الصلاة، ومنها الصوم وأفعال الحج والطواف.

---

(١) الدرر السنية ٢/ ٢٤٩، ٢٥٠.

ومالية: كإخراج جزء من المال امتثالاً لما أمر الله تعالى به.

وأنواع الواجبات والمندوبات في الأبدان والأموال والأفعال والأقوال كثيرة، لكن هذه أمهاتها.

إرسال الرسل من أجل أن يفرد الله بالعبادة وحده لا شريك له

وإذا تقرَّرت هذه الأمور فاعلم أن الله تعالى بعث الأنبياء عليهم السلام من أوَّلهم إلى آخرهم يدعون العباد إلى إفراد الله بالعبادة، لا إلى إثبات أنه خلقهم ونحوه، إذ هم مقرُّون بذلك كما ذكرناه، ولم يعبدوا الأصنام بالخضوع لهم والتقرب بالنذور والنحر لهم إلاَّ لاعتقادهم أنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم لديه، فأرسل الله الرسل تأمرهم بترك عبادة كل ما سواه، وأن هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، والتقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون إلاَّ لله وحده، وأمر عباده أن يقولوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة/ ٥].

ولا يصدق قائل هذا إلاَّ إذا أفرد العبادة لله، وإلاَّ كان كاذبًا منهيًّا عن أن يقول هذه الكلمة، إذ معناها: نخصك بالعبادة ونفردك بها، وهو معنى قوله: ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت/ ٥٦]، ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة/ ٤١]، لما عرف من علم البيان أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي: لا تعبدوا إلاَّ الله ولا تعبدوا غيره، ولا تتقوا إلاَّ الله ولا تتقوا غيره كما في الكشاف.

(كيف يتحقق توحيد العبادة)

فإفراد الله تعالى بتوحيد العبادة لا يكون إلاَّ بأن يتم جميعها كلها له، والنداء في الشدائد والرجاء لا يكون إلاَّ لله وحده، والاستغاثة والاستعانة بالله وحده، واللجأ إلى الله والنذر له والنحر له وجميع أنواع العبادة، ومن يفعل شيئًا من ذلك لمخلوق من حي أو ميت أو جماد فقد أشرك في العبادة، وصار من يفعل له هذه

الشـــرك يبطـــل الإيمـان، ويبيح الدمـاء والأموال

الأمور إلهًا لعابديه، سواء كان ملكًا أو نبيًّا أو وليًّا أو شجرًا أو قبرًا أو جنيًّا، وصار بهذه العبادة أو بأي نوع منها عابدًا لذلك المخلوق، وإن أقرَّ بالله وعبده، فإن قرار المشركين بالله وتقرُّبهم إليه لم يخرجهم عن الشرك وعن وجوب سفك دمائهم وسبي ذراريهم ونهب أموالهم، فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك لا يقبل عملاً شورك فيه غيره ولا يؤمن به عبدٌ، عبد معه غيره، كما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1].

❑ ❑ ❑

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ٥/ ٦٧٢، ٦٧٣.

المبحث الثالث

من شروط صحة العبادة: الكفر بالطاغوت، والانخلاع من الشرك، مع البراءة من أهله

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

التوحيد يدور مع العبادة وجودًا وعدمًا

«فاعلم أن العبادة لا تسمَّى عبادة إلاَّ مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمَّى صلاة إلاَّ مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة/ ١٧].

فإذا عرفت: أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها، وأحبط العمل، وصار صاحبه من الخالدين في النار، عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله»[١].

(١) الدرر السنية ٢/ ٢٣.

وقال أيضًا رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد:

الكفر بالطاغوت شرط لصحة العبادة

«المسألة السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلاَّ بالكفر بالطاغوت، ففيه معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة/٢٥٦]»[١].

وقال عبد الرحمن بن حسن:

«وفي الباب ـ أي الباب الأول من كتاب التوحيد ـ: الحث على إخلاص العبادة لله، وأنها لا تنفع مع الشرك، بل لا تسمَّى عبادة»[٢].

وقال أيضًا رحمه الله:

«لا بدَّ من التجرد من الشرك في العبادة، من لم يتجرَّد من الشرك لم يكن آتيًا بعبادة الله وحده، بل هو مشرك قد جعل لله ندًّا»[٣].

وقال سليمان بن عبد الله: «إن التجرد من الشرك لا بدَّ منه في العبادة، وإلاَّ فلا يكون العبد آتيًا بعبادة الله بل مشرك»[٤].

وقال أبو بطين:

أما تعريف العبادة، فقد عرَّفها شيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في فوائده على كتابه، كتاب التوحيد، بأن العبادة هي

---

(١) فتح المجيد ص ٣٣.

(٢) فتح المجيد ص ٣٤.

(٣) فتح المجيد ص ٣٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ص ٤٥.

التوحيد، لأن الخصومة فيه، وأن من لم يأت به لم يعبد الله؛ فدلَّ على أنَّ التجرد من الشرك لا بدَّ منه في العبادة، وإلاَّ فلا يسمَّى عبادة»[1].

وقال عبد الرحمن بن حسن:

وقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء/ ٣٦] الآية.

اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة

وهذه الآية تبين العبادة التي خُلقوا لها أيضًا، فإنه تعالى قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه وهو الشرك في العبادة، فدلَّت هذه الآية على: أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة، فلا تصح بدونه أصلاً، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام/ ٨٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر/ ٦٥، ٦٦]، فتقديم المعمول يفيد الحصر، أي: بل الله فاعبد وحده لا غير، كما في فاتحة الكتاب: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة/ ٥]»[2].

وقال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين رحمه الله تعالى:

من قدم شيئًا من العبادة لغير الله فقد أثبت التأله لغيره، وإن فرّ من ذلك، ولم يقره

فإذا علم الإنسان، وتحقق معنى الإلـه وأنه: المعبود، وعرف حقيقة العبادة تبيَّن له أنَّ من جعل شيئًا من العبادة لغير الله فقد عبده

(١) الدرر السنية ٢/ ٣٠٣.

(٢) قرة عيون الموحِّدين ص ٦.

واتخذه إلـٰهًا، وإن فر من تسميته معبودًا أو إلـٰهًا، وسمَّى ذلك توسُّلاً وتشفعًا والتجاء ونحو ذلك.

فالمشرك: مشرك شاء أم أبـى، كما أن المرابـي مراب شاء أم أبـى، وإن لم يسمِّ ما فعله ربا، وشارب الخمر شارب للخمر، وإن سمَّاها بغير اسمها»[١].

❑ ❑ ❑

---

(١) عقيدة الموحِّدين، رسالة الانتصار لحزب الله الموحِّدين ص ١٢.

المبحث الرابع
أركان التوحيد

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

التوحيد يكون بالقلب واللسان والجوارح

«لا خلاف بين الأمة أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب الذي هو: العلم، واللسان الذي هو: القول، والعمل الذي هو: تنفيذ الأوامر والنواهي؛ فإن أخل بشيء من هذا لم يكن الرجل مسلمًا.

فإن أقرَّ بالتوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون، وإبليس، وإن عمل بالتوحيد ظاهرًا وهو لا يعتقده باطنًا فهو منافق خالصًا، أشر من الكافر، والله أعلم»[١].

وقال سليمان بن عبد الله: «إن معنى التوحيد، وشهادة أن لا إلـه إلاَّ الله: أن لا يعبد إلاَّ الله، وأن لا يعتقد النفع والضر إلاَّ في الله، وأن يكفر بما يعبد من دونه، ويتبرأ منها ومن عابديها»[٢].

وقال محمد بن عبد الوهاب أيضًا رحمه الله تعالى:

«وقال ابن القيم في شرح المنازل: شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. هذا هو

---

(١) الدرر السنية ٢/ ١٢٤، ١٢٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ١٠٢.

التوحيد مفرق طريق بين دار الإيمان ودار الكفر

التوحيد الذي نفى الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه حقنت الدماء، والأموال، وانفصلت دار الإيمان من دار الكفر، وصحَّت به الملة العامة، وإن لم يقوموا بحسن الاستدلال ـ بعد أن يسلموا من: الشبهة والحيرة والريب ـ بصدق شهادة صحَّحها قَبول القلب؛ وهذا توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، وهي إرسال الرسل الصنائع، ويجب بالسمع، ويوجد بتبصير الحق وينمو على مشاهدة الشواهد، والحمد لله رب العالمين»[1].

وقال عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى:

«فالتوحيد هو: الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة/ ٤].

وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حدَّه وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه»[2].

❑ ❑ ❑

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ٤/ ٣٢.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣٨٠.

المبحث الخامس

حقيقة التوحيد، وأنواعه، وحدود العلاقة بينها

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب:

الإسلام مبناه على التوحيد

«التوحيد: مصدر وحَّد يُوحِّد توحيدًا، أي: جعله واحدًا، وسمِّي دين الإسلام توحيدًا، لأن مبناه على أنَّ الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلـٰهيته وعبادته لا ند له، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله، وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلَّا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب.

وإن شئت قلت: التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد في الطلب والقصد وهو توحيد الإلـٰهية والعبادة، وذكره شيخ الإسلام وابن القيم وذكر معناه غيرهما.

النوع الأول:

تعريف توحيد الربوبية

توحيد الربوبية والملك، وهو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار

المتفرِّد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر، وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلٰهية، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس/ ٣١]. وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف/ ٨٧]. وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت/ ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل/ ٦٢].

مشركو قريش كانوا مؤمنين بتوحيد الربوبية، وأحيانًا يخلصون في توحيد الإلٰهية، ومنهم من كان مؤمنًا بالبعث، ومنهم من كان مؤمنًا بالقدر، ويدعون أنهم على ملة إبراهيم، ومع ذلك كله لم يكونوا مسلمين

فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين، بل قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف/ ١٠٦]، قال مجاهد في الآية: إيمانهم بالله قولهم: إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وعن ابن عباس وعطاء والضحاك نحو ذلك.

فتبين أن الكفار يعرفون الله، ويعرفون ربوبيته، وملكه، وقهره، وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعًا من العبادات كالحج

والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك، ويدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران/ ٦٧]، وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب، وبعضهم يؤمن بالقدر.

كما قال زهير:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدَّخر   ليوم الحساب أو يعجَّل فينقم

وقال عنترة:

يا عبل أين من المنية مهرب   إن كان ربي في السماء قضاها

الشرك في الألوهية سبب سفك دماء المشركين وسبي نسائهم، وإباحة أموالهم

ومثل هذا يوجد في أشعارهم، فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم، وسبي نسائهم، وإباحة أموالهم، مع هذا الإقرار والمعرفة، وما ذاك إلاَّ لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى لا إله إلاَّ الله.

النوع الثاني:

توحيد الأسماء والصفات، وهو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى، والصفات العلى.

توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لا يكفيان في الإسلام حتى يتحقق توحيد الألوهية

وهذا أيضًا لا يكفي في حصول الإسلام، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه، من توحيد الربوبية والإلـٰهية. والكفار يقرون بجنس هذا النوع، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك، إما جهلاً، وإما عنادًا، كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلاَّ رحمن اليمامة، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد/ ٣٠].

قال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن.

قال الشاعر: وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق.

وقال الآخر: ألا قضب[1] الرحمن ربي يمينها.

وهما جاهليان.

وقال زهير:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

قلت: ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلاَّ في اسم الرحمن خاصة، ولو كانوا ينكرونه لردُّوا على النبي ﷺ ذلك، كما ردُّوا عليه توحيد الإلـٰهية.

فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [صٓ/ ٥]، لا سيَّما السور المكية مملوءة بهذا التوحيد.

النوع الثالث:

تعريف توحيد الألوهية

توحيد الإلـٰهية المبني على إخلاص التأله لله تعالى، من

(١) القضب: القطع.

المحبة والخوف، والرجاء والتوكل، والرغبة والرهبة، والدعاء لله وحده، وينبني على ذلك: إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له، لا يجعل فيها شيئًا لغيره، لا لملَك مقرَّب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما. وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة/ ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود/ ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التوبة/ ١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم/ ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود/ ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٥٨﴾ [الفرقان/ ٥٨].

وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر/ ٩٩].

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنى قول: لا إلـٰه إلاَّ الله. فإن الإلـٰه هو: المألوه المعبود بالمحبة، والخشية، والإجلال، والتعظيم، وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار.

تعريف الإلـٰه

التوحيد: سبب افتراق الناس في الدارين

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ﴾ [البقرة/ ٢١]، فهذا أول أمر في القرآن.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون/ ٢٣]، فهذا دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك.

وقال هود لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف/ ٦٥].

وقال صالح لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود/ ٦١].

وقال شعيب لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف/ ٥٩].

وقال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام/ ٧٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء/ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) ﴾ [الزخرف/ ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات/ ٥٦].

وقال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ ما يقول لكم؟ قال: يقول: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا،

واتركو ما يقول اباؤكم»[1].

وقال النبي ﷺ لمعاذ: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله»[2]، وفي رواية: «أن يوحِّدوا الله».

تحقيق التوحيد أول واجب على المكلف، وأول ما يدخل به المرء في الإسلام

وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلَّف، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك في الله، كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسول الله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة، فهو أول واجب وآخر واجب، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إلـه إلاَّ الله دخل الجنة»، حديث صحيح.

وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله»، متفق عليه.

القرآن كله كتاب توحيد

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال، بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد.

(خصائص توحيد الألوهية)

ويسمَّى هذا النوع توحيد الإلـهية، لأنه مبني على إخلاص التألُّه، وهو أشد المحبة لله وحده، وذلك يستلزم: إخلاص العبادة.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها الحديث رقم (٧، ٥١، ٢٦٨١، ٧٥٤١) وغيرها، ومسلم في صحيحه في كتاب الجهاد حديث رقم (١٧٧٣ وغيرهما عن ابن عباس أن أبا سفيان أخيره. قاله محقق الكتاب محل النقل.

(٢) رواه البخاري في الزكاة حديث رقم (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان حديث رقم (١٩) عن ابن عباس وسيأتي في أهل الكتاب. قاله محقق الكتاب محل النقل.

وتوحيد العبادة لذلك.

وتوحيد الإرادة، لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال.

وتوحيد القصد، لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده.

وتوحيد العمل، لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده.

قال الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر/ ٢]. وقال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر/ ١١، ١٢]. وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر/ ١٤، ١٥] إلى قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر/ ٢٩]، إلى قوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ الآية [الزمر/ ٣٨]، إلى قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ الآية [الزمر/ ٤٣، ٤٤]، إلى قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٤]، إلى قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر/ ٦٤ ـ ٦٦] إلى آخر السورة.

(القرآن كله كتاب توحيد، وفي كل آية منه: الدلالة الواضحة عليه، والداعية إليه)

فكل هذه السور في الدعاء إلى هذا التوحيد، والأمر به، والجواب عن الشبهات والمعارضات، وذكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم، وما أعدَّ لمن خالفه من العذاب الأليم. وكل سورة في القرآن بل كل آية في القرآن، فهي داعية إلى هذا التوحيد، شاهدة به، متضمِّنة له، لأن القرآن إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الصفات فذاك مستلزم هذا، متضمِّن له.

وإما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، أو أمر بأنواع من العبادات، ونهي عن المخالفات، فهذا هو توحيد الإلـٰهية والعبادة، وهو مستلزم للنوعين الأولين، متضمِّن لهما أيضًا.

وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العُقبى من الوبال، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه، كما قال النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلـٰه إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت» رواه البخاري ومسلم، فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال، فدل على أن

الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له، بفعل المأمور، وترك المحظور، والإخلاص في ذلك لله.

وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة، فيجب إخلاصها لله تعالى، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في شيء فليس بمسلم»[1].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمهما الله تعالى في بيان التوحيد وأنواعه الذي هو سبيل النجاة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح النفس، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فلا صلاح للنفس إلاَّ في ذلك، وبدونه تكون فاسدة، وهذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسول[2]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل/ ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم/ ٣٠، ٣١].

(التوحيد طريق النجاة الوحيد)

فالغاية الحميدة، التي بها كمال بني آدم، وسعادتهم ونجاتهم، عبادة الله وحده، وهي حقيقة لا إله إلاَّ الله، وكل من لم

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٢١ ــ ٢٦.

(٢) هكذا في الأصل، ولعلها (الرسل).

يحصل له هذا الإخلاص، لم يكن من أهل النجاة والسعادة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء/ ١١٦].

كيفية تحقيق التوحيد

فمن آمن بأن الله رب كل شيء وخالقه، ولم يعبد الله وحده، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، وأخشى عنده من كل ما سواه، وأرجى عنده من كل ما سواه، بل من سوّى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب، بحيث يحبه كما يحب الله، ويخشاه كما يخشى الله، ويرجوه كما يرجو الله ويدعوه كما يدعو الله، فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله، ولو كان مع ذلك عفيفًا في طعامه ونكاحه، وكان حليمًا شجاعًا، انتهى.

وقال العلاَّمة ابن القيم، رحمه الله تعالى، بعد ذكره الشرك في الربوبية:

كيف يعدل المشركون عن توحيد الألوهية بعد إقرارهم بتوحيد الربوبية

النوع الثاني: أهل الإشراك بالله في إلـٰهيته، المقرون بأنه وحده: رب كل شيء، ومليكه وخالقه، وأنه ربهم ورب آبائهم الأوّلين، ورب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، وهم مع هذا يعبدون غيره، ويعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم، وهم الذين اتَّخذوا من دونه أندادًا، فهؤلاء لم يعرفوا (إياك نعبد) حقه، وإن كان لهم نصيب من «نعبدك» لكن ليس لهم نصيب من (إياك نعبد) المتضمِّن معنى لا نعبد إلاَّ إياك، حبًا وخوفًا ورجاء وطاعة وتعظيمًا، فـ(ـإياك نعبد) تحقيق لهذا التوحيد وإبطال للشرك في الإلـٰهية، كما أن (إياك نستعين) تحقيق لتوحيد الربوبية، وإبطال للشرك به، وكذلك قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة/ ٦، ٧]، فإنهم أهل التوحيد، وهم أهل

(إياك نعبد) تحقيق لتوحيد الألوهية. و(إياك نستعين) تحقيق لتوحيد الربوبية

تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة/ ٥].

(لولا النبوّات لكان الناس أمة واحدة)

وأما أهل الإشراك، فهم أهل الغضب والضلال، فإن هذا الانقسام ضروري، بحسب انقسامهم في معرفة الحق، والعمل به، إلى عالم به عامل بموجبه، وهم أهل النعمة وعالم به معاند له، وهم أهل الغضب، وجاهل به، وهم الضالون، وهذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل، فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة، فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون هذه الرسالة. انتهى.

أكثر الناس لا يعرف التوحيد وضده من الشرك والتنديد

والمقصود من هذه المقدمة: العلم بأن التوحيد الذي بعث الله به رسله، غريب في الناس جدًا، وأكثرهم لا يعرف حقيقته، ولا يعرف الشرك الأكبر المنافي له، وغاية ما عندهم هو أن يعرف أن الله تعالى ربه وخالقه، وخالق جميع المخلوقات ورازقها، والمتصرِّف فيهم، وقد عرفت مما سلف: أن أكثر الأمم من أعداء الرسل، يعرفون ذلك، ويقرُّون به، كما أقرّ به كفار قريش لما بعث الله محمدًا ﷺ، وهذا مقرَّر في القرآن أتم تقرير.

(أدلة القرآن في تقرير توحيد الألوهية)

وأما توحيد الإلـٰهية، الذي هو مضمون لا إلـٰه إلاَّ الله، الذي دلَّ عليه القرآن، من أوَّله إلى آخره، فالأكثر لا يعرفونه، مع أن سور القرآن الكريم مشحونة ببيانه، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة/ ١٦٥].

وقوله: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ [الرعد/ ١٤].

وقوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء/ ٢٣].

وقوله: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر/ ٢، ٣].

وقوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة/ ٥].

وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن/ ١٨].

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف/ ٥].

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣﴾ [فاطر/ ١٣].

وقوله: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ [الصافات/ ٤، ٥].

وقوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ الآية [المؤمنون/ ١١٧].

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ [الزخرف/ ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء/ ٢٥].

إلى أمثال ذلك مما لا يحصى في القرآن كثرة، في بيان هذا التوحيد، وما ينافيه من الشرك بالله، الذي هو أعظم ذنب عصي الله به، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة/ ٧٢].

توحيد الربوبية يستلزم: توحيد الألوهية، وهو الحجة عليه

فإذا تأمّلت القرآن، وجدته قد احتج على المشركين فيما جحدوه من توحيد الإلـهية، بما أقروا به من توحيد الربوبية، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس/ ٣١].

وقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الآيات [المؤمنون/ ٨٤ ـ ٨٩]، فإذا أقرُّوا أن الله رب كل شيء ومليكه، وأنه المتصرف في جميع خلقه، لزمهم أن يعبدوه وحده، فإن الإقرار بهذا التوحيد، يستلزم الإقرار بالنوع الآخر، ولا بد منهما جميعًا.

(توحيد الأسماء والصفات، وأركان الإيمان به)

وأما الثالث من أنواع التوحيد، فهو: أن نَصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه ووصفه رسوله على ما يليق بجلال الله، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، فإن صفات الرب تعالى وأسماءه تدل على كمال الرب تعالى، وتنفي عن الله ما نفى عن نفسه ونفى عنه رسوله ﷺ من كل ما ينافي كمال حياته وقيُّوميته وكمال غناه، كما نزَّه الله عنه نفسه، ونزَّهه عنه رسوله ﷺ كما قال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى/ ١١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص].

وكما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام»، الحديث. ونحو هذا مما نزَّه الله عنه نفسه، ونزَّهه عنه رسوله ﷺ كثير في الكتاب والسنَّة، فالمهديون المؤمنون يثبتون ما أثبته الله ورسوله، من معاني أسمائه وصفاته على ما يليق

بجلاله، وينفون عنه مشابهة المخلوقين، وسمات المحدثين، وينفون عنه ما نفى عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ من كل ما لا يليق به، والله أعلم»[1].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

كيفية تحقيق التوحيد

«قال شيخ الإسلام: التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلـهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إلـه إلاَّ الله: لا يعبد إلاَّ إياه، ولا يتوكل إلاَّ عليه، ولا يوالي إلاَّ له، ولا يعادي إلاَّ فيه، ولا يعمل إلاَّ لأجله. وذلك يضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة/ ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل/ ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون/ ١١٧].

وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف/ ٤٥]، وأخبر عن كل نبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة/ ٤].

وقال عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ

---

(١) الدرر السنية ٨/ ٢٢٨ ـ ٢٣٢.

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات/ ٣٥، ٣٦]، وهذا في القرآن كثير.

(التوحيد هو الإقرار بألوهية الله وحده، مع الالتزام به)

وليس المراد بالتوحيد: مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف. ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد. وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد، فإن الرجل لو أقرَّ بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزَّهه عن كل ما ينزَّه عنه، وأقرَّ بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحدًا حتى يشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وحده، فيقر بأن الله وحده هو الإلـه المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له.

تعريف الإلـه

والإلـه هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، وليس هو الإلـه بمعنى: القادر على الاختراع. فإذا فسر المفسر «الإلـه» بمعنى: القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإلـه، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد، ــ كما يفعل ذلك من يفعله من متكلِّمة الصفاتية، وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه ــ لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ. فإن مشركي العرب كانوا مقرِّين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين. قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف/ ١٠٦].

قالت طائفة من السلف: تسألهم: من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله. وهم مع هذا يعبدون غيره»، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون/ ٨٤ ـ ٨٩].

فليس كل من أقرَّ بأن الله تعالى رب كل شيء وخالقه يكون عابدًا له دون ما سواه. داعيًا له دون ما سواه، راجيًا له خائفًا منه دون ما سواه يوالي فيه ويعادي فيه، ويطيع رسله ويأمر بما أمر به، وينهى عما نهى عنه.

وعامة المشركين أقرُّوا بأن الله خالق كل شيء وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم، وجعلوا له أندادًا، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر/ ٤٣، ٤٤].

الإقرار بالربوبية دون الألوهية، داعيًا إلى الشرك

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس/ ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام/ ٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة/ ١٦٥].

الشرك له حقيقة، لا دخل لها باعتقاد العبد

ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها، ويصوم وينسك لها ويتقرَّب إليها... ثم يقول: إن هذا ليس بشرك، إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لي، فإذا جعلتها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا، ومن المعلوم بالاضطرار من الإسلام أن هذا شرك.. انتهى كلامه»[1].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

فاعلم أن وصية الله لعباده هي: كلمة التوحيد الفارقة بين الكفر والإسلام، فعند ذلك افترق الناس سواء جهلاً أو بغيًا أو عنادًا، والجامع لذلك اجتماع الأمة على وفق قول الله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى/ ١٣]، وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف/ ١٠٨].

(أركان التوحيد وواجباته)

فالواجب على كل أحد إذا عرف التوحيد وأقرَّ به أن يحبه بقلبه، وينصره بيده ولسانه، وينصر من نصره ووالاه. وإذا عرف الشرك وأقرَّ به أن يبغضه بقلبه، ويخذله بلسانه، ويخذل من نصره ووالاه باليد واللسان والقلب. هذه حقيقة الأمرين، فعند ذلك يدخل في سلك من قال الله فيهم: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران/ ١٠٣].

التوحيد بالقول والعلم والعمل بلا خلاف بين الأمة، فإن أخل العبد بشيء من ذلك لا يكون مسلمًا

فنقول لا خلاف بين الأمة أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب الذي هو العلم، واللسان الذي هو القول، والعمل الذي هو تنفيذ الأوامر والنواهي، فإن أخلَّ بشيء من هذا لم يكن الرجل مسلمًا.

---

(١) فتح المجيد ص ١٨، ١٩.

فإن أقرَّ بالتوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس، وإن عمل بالتوحيد ظاهرًا وهو لا يعتقده باطنًا فهو منافق خالص، وهو شرٌّ من الكافر، والله أعلم.

قال رحمه الله وهو نوعان: توحيد الربوبيَّة وتوحيد الألوهية، أما توحيد الربوبيَّة فيقرُّ به الكافر والمسلم، وأما توحيد الألوهيَّة فهو الفارق بين الكفر والإسلام، فينبغي لكل مسلم أن يميز بين هذا ويعرف أن الكفار لا ينكرون أن الله الخالق الرازق المدبِّر، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ الآية [يونس/ ٣١].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ ﴾ الآية [العنكبوت/ ٦١].

لا يكون العبد مسلمًا حتى ينطق بالتوحيد ويعمل به

فإذا ثبت لك أن الكفار يقرُّون بذلك عرفت أن قولك لا يخلق ولا يرزق إلاَّ الله، ولا يدبِّر الأمر إلاَّ الله، لا يصيرك مسلمًا حتى تقول لا إلٰه إلاَّ الله مع العمل بمعناها. فهذه الأسماء كل منها له معنى يخصه.

أما قولك الخالق فمعناه: الذي أوجد جميع مخلوقاته بعد عدمها، وأما قولك الرازق فمعناه: أنه لما أوجد الخلق أجرى عليهم أرزاقهم. وأما المدبِّر: فهو الذي تنزل الملائكة من السماء إلى الأرض بتدبيره، وتصعد إلى السماء بتدبيره، ويسير السحاب بتدبيره، وتصرف الرياح بتدبيره، وكذا جميع خلقه هو الذي يدبرهم على ما يريد. فهذه الأسماء تتعلق بتوحيد الربوبية الذي يقرُّ به الكفار.

معنى كلمة التوحيد

وأما توحيد الألوهية فهو قولك: لا إله إلاّ الله، وتعرف معناها كما عرفت معنى الأسماء المتعلّقة بالربوبيّة، فقولك: لا إله إلاّ الله نفي وإثبات، فتنفي الألوهية كلها عن غير الله وتثبتها لله وحده، فمعنى الإله في زماننا: الشيخ والسيد الذي يقال فيهم: سرٌّ ممن يعتقد فيهم أنهم يجلبون منفعة أو يدفعون مضرَّة.

فمن اعتقد في هؤلاء أو غيرهم نبيًّا كان أو غيره هذا الاعتقاد، فقد اتخذه إلـهًا من دون الله، فإن بني إسرائيل لما اعتقدوا في عيسى ابن مريم وأمه سمَّاهم الله إلـهين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة/ ١١٦].

ففي هذا دليل على أنَّ من اعتقد في مخلوق جلب منفعة أو دفع مضرة فقد اتخذه إلـهًا، فإذا كان الاعتقاد في الأنبياء هذه حاله فما دونهم أولى.

وأيضًا فإن من تبرَّك بحجر أو شجر، أو مسح على قبر أو قبة يتبرك بهم فقد اتخذهم آلهة.

والدليل على ذلك أن الصحابة لما قالوا للنبي ﷺ اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، يريدون بذلك التبرُّك، قال: «الله أكبر إنها السَّنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف/ ١٣٨ ـ ١٤٠]، فوصف قول الصحابة في ذات أنواط بقول بني إسرائيل وسمَّاه إلـهًا.

ففي هذا دليل على أن من فعل من ذلك شيئًا مما ذكرناه فقد اتخذه إلـها، والإله هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاَّ له وهو الله وحده، فمن نذر لغير الله أو ذبح له فقد عبده، وكذلك من دعا غير الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس/ ١٠٦]، وفي الحديث: «إن الدعاء مخ العبادة».

وكذلك من جعل بينه وبين الله واسطة وزعم أنها تقرِّبه إلى الله فقد عبده. وقد ذكر الله ذلك عن الكفار فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس/ ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر/ ٣].

وكذلك ذكر عن الذين جعلوا الملائكة وسائط فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ/ ٤٠، ٤١].

فذكر سبحانه أن الملائكة نزَّهوه عن ذلك وأنهم تبرَّؤوا من هؤلاء، وأن عبادتهم كانت للشياطين الذين يأمرونهم بذلك. وذكر سبحانه عن الذين جعلوا الصالحين وسائط فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء/ ٥٦، ٥٧].

وذكر سبحانه أنهم لا يملكون كشف الضرِّ عن أحد ولا عن

أنفسهم، وأنهم لا يحُولونه عن أحد، وأنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فهذا يثبت لك معنى «لا إلـه إلاَّ الله»، فإذا عرفت حال المعتقدين في عيسى ابن مريم والمعتقدين في الملائكة، والمعتقدين في الصالحين، وحالهم معهم أنهم لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا فضلاً عن غيرهم، عرفت أنَّ من اعتقد فيمن دونهم فهو أضل سبيلاً، فحينئذٍ يثبت لك معنى «لا إلـه إلاَّ الله»، والله أعلم»[1].

❑ ❑ ❑

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ٤/ ٣٧ ـ ٤٠.

المبحث السادس

كمال الله المطلق من جميع الوجوه أوجب له سبحانه وحدانيته في ربوبيّته وألوهيّته، وبه جزم الموحِّدون ببطلان تألُّه كل ما يعبد من دونه، ووجوب[1] ذلك ثابت بالعقل والفطرة والشرع

قال سليمان بن عبد الله:

ولمّا كان تحقيق التوحيد، بل التوحيد لا يحصل إلاَّ بالإيمان بالله، والإيمان بأسمائه وصفاته، نبَّه المصنف ـ أي: الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتابه التوحيد، باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات ـ على وجوب الإيمان بذلك.

«وأيضًا» فالتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد العبادة، والأوّلان وسيلة للثالث، فهو الغاية والحكمة المقصودة بالخلق والأمر. وكلها متلازمة، فناسب

(١) المقصود بالوجوب العقلي والفطري: استحالة قَبولهما لغير التوحيد، والبراءة من كل ما يعبد من دون الله، والوجوب الشرعي: الثواب والعقاب القائمان على فعل التوحيد، واقتراف الشرك.

التنبيه على الإيمان بتوحيد الصفات»[1].

وقال أيضًا رحمه الله:

صفاته سبحانه التي أوجبت له وحدانيته في تألهه، وأبطلت تأله كل ما يعبد من دونه

«وهو سبحانه ينعم عليك ويحسن إليك بنفسه، فإن ذلك موجب ما تسمَّى به ووصف به نفسه، إذ هو الرحمن الرحيم، الودود المجيد، وهو قادر بنفسه، وقدرته من لوازم ذاته، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته، لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه، بل هو الغني عن العالمين: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل/ ٤٠].

فالرب سبحانه غني بنفسه، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه، واجب له من لوازم ذاته، لا يفتقر في شيء من ذلك إلى غيره، ففعله وإحسانه وجوده من كماله، لا يفعل شيئًا لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه، بل كل ما يريد فعله فإنه فعَّال لِمَا يريد. وهو سبحانه بالغ أمره، فكل ما يطلبه فهو يبلغه ويناله ويصل إليه وحده ولا يعينه أحد، ولا يعوقه أحد، لا يحتاج في شيء من أموره إلى معين، وما له من المخلوقين من ظهير، وليس له ولي من الذل، قاله شيخ الإسلام»[2].

ونقل عبد اللطيف بن عبد الرحمن عن ابن القيم قوله:

«ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه. الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب:

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٨٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٣٣.

عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره.

فمن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبَّه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدَّة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه وتعالى عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب مع غاية الذل. هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين.

اتفقت الشرائع على حرمة الشرك، المستقر حرمته في الفطر والعقول

فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبَّهه به في خالص حقِّه. وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيَّرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت لهم من الله الحسنىٰ، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرتهم وعقولهم. فازدادوا بذلك نورًا على نورهم، يهدي الله لنوره من يشاء»(١).

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

«وأما توحيد الصفات: فلا يستقيم توحيد الربوبية، ولا توحيد الألوهية، إلَّا بالاقرار بالصفات، لكن الكفار أعقل ممن أنكر الصفات، والله أعلم»(٢).

---

(١) منهاج التأسيس والتقديس ص ٢٨٥، ٢٨٦.

(٢) الدرر السنية ٢/ ٧٣.

وقال أيضًا رحمه الله:

إن التوحيد لا يتم إلَّا بإثبات الصفات، وأن معنى الإله: هو المعبود، فإذا كان هو سبحانه منفردًا به عن جميع المخلوقات، وكان هذا وصفًا صحيحًا، لم يكذب الواصف به، فهذا يدل على الصفات، فيدل على: العلم العظيم، والقدرة العظيمة، وهاتان الصفتان أصل جميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق/ ١٢].

إن العبادة إذا كانت كلها لله عن جميع المخلوقات، فلا تكون إلَّا بإثبات الصفات والأفعال.

فتبيَّن أن منكر الصفات منكر لحقيقة الألوهية[١]. اهـ.

❑ ❑ ❑

(١) الدرر السنية ١/ ١١٢، ١١٣، بتصرف بسيط.

المبحث السابع

أصول التوحيد العاصمة من الشرك والتنديد، قد اتفقت عليها الرسالات، وتطابقت عليها النبوّات، ومن ثَمَّ فلا يسع أي عبد فيها إلاَّ الاتباع دون الابتداع والاجتهاد

قال عبد اللطيف بن عبد الرحمن:

أصول الدين ثابتة بالعقل والنقل، ولا مجال للاجتهاد فيها

«ومسائل معرفة الله ووجوب توحيده، وإسلام الوجه له وحده لا شريك له، ومسائل ربوبيته واختصاصه بالخلق والإيجاد والتدبير، ونحو ذلك، مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام، كصَمَدِيَّته تعالى، ونفي الكفء والصاحبة والولد، وغناه بذاته ومباينته لمخلوقاته، وعموم قدرته وإحاطة سمعه وبصره وعلمه بجميع المعلومات والمبصرات والمسموعات، ونحو ذلك من أصول الدين.

فكل الرسل متفقون عليه، وجميع الكتب داعية إليه والعقول الصحيحة حاكمة به، فكل اجتهاد خالفه فباطل مردود لا يسوغ العمل به في شريعة من الشرائع، ولا عند عالم من العلماء ولا فقيه من الفقهاء. والعراقي(١) أجنبي عن هذه المباحث والعلوم، ولا يدري

---

(١) العراقي هذا: من أشد المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله تعالىٰ ــ التي هي دعوة التوحيد، وزبدة رسالة الرسل والنبيين ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ .

الفرق بين مسائل الاجتهاد وغيرها، وكأن الرجل من أهل الفترات لم يأنس بشيء مما جاءت به النبوَّات.

قال شمس الدين في هدايته: بل جميع النبوَّات من أولها إلى آخرها متفقة على أصول.

(أصول التوحيد التي اتفقت عليها جميع الرسالات)

أحدها: أن الله تعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه، ولا ندَّ ولا ضدَّ، ولا وزير ولا مشير ولا ظهير، ولا شافع إلاَّ من بعد إذنه.

الثاني: أنه لا والد له ولا ولد، ولا كفء ولا نظير ولا نسب بوجه من الوجوه، ولا زوجة.

الثالث: أنه غني بذاته، فلا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه.

الرابع: أنه لا يتغير ولا تعرض له الآفات، من: الهرم والمرض والسِّنَة والنوم والنسيان والندم، والخوف والهمِّ والحزن، ونحو ذلك.

الخامس: أنه لا يماثله شيء من مخلوقاته، بل ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

السادس: أنه لا يحل بشيء من مخلوقاته، ولا يحل في ذاته شيء منها، بل هو بائن، عن خلقه بذاته، والخلق بائنون عنه.

السابع: أنه أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وفوق كل شيء، وعال على كل شيء، وليس فوقه شي البتة.

الثامن: أنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء يريده، بل هو فعَّال لما يريد.

التاسع: أنه عالم بكل شيء، يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وما تسقط من ورقة إلاَّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس، ولا متحرِّك ولا ساكن إلاَّ وهو يعلمه على حقيقته.

العاشر: أنه سميع بصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، قد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، ونفذت مشيئته في جميع البريات، وعمَّت رحمته جميع المخلوقات ووسع كرسيَّه الأرض والسموات.

الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب، ولا يستخلف أحدًا على ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم.

الثاني عشر: أنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت.

الثالث عشر: أنه المتكلِّم المكلِّم الآمر الناهي، قائل الحق، وهادي السبيل، مرسل الرسل، ومنزل الكتب، قائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، ومجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

الرابع عشر: أنه الصادق في وعده وخبره، فلا أصدق منه قيلاً، ولا أصدق منه حديثًا، وهو لا يخلف الميعاد.

الخامس عشر: أنه تعالى صمد بجميع معاني الصمدية، يستحيل عليه ما يناقض صمديته.

السادس عشر: أنه قدُّوس سلام، فهو المبرَّأ من كل عيب وآفة ونقص.

السابع عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

الثامن عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم، ولا يخاف عباده منه ظلمًا.

وهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه، ولا يخبر بشيء بخلافه.

فتركت المثلِّثة عبَّاد الصليب هذا كله وتمسَّكوا بالمتشابه من المعاني والمجمل من الألفاظ، وأقوال من قد ضلُّوا من قبل وأضلُّوا كثيرًا وضلُّوا عن سبيل السواء، وأصول المثلِّثة ومقالاتهم في ربّ العالمين تخالف هذا كله وتباينه أشد المخالفة والمباينة، انتهى.

أصول التوحيد خارجة عن المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد، وبهذا نستطيع التفريق بين دين المسلمين، وأديان المشركين، وإلَّا استحال التميز

فقف وتأمل هذه الأصول وأوَّلها، وهو أنه تعالى لا شريك ولا ندَّ ولا شافع إلَّا من بعد إذنه، ووازن بينه وبين قول العراقي: إنَّ هذه المسائل[1] التي لا تعلم يعذر العلماء في جهلها أحدًا، وهل يقول من يعقل إنَّ هذه المسائل من المسائل الاجتهادية. فإن كان

---

(١) أي مسائل التوحيد الواجبة بالعقل والفطرة وكافة الشرائع.

هذا القول صحيحًا فليهن النصارى عبَّاد الصليب اجتهادهم المنجي عند هذا العراقي، وكذا عبَّاد الأوثان، والجهمية المعطلة، والقدرية النفاة، والقدرية المجبرة، والرافضة المارقة، فإنهم قالوا بتلك الأقوال الضالة، واعتقدوها عن رأي لهم واجتهاد وشبهة تصوروها، كما قال هذا الشيخ: فترك المثلِّثة عبَّاد الصليب هذا كله وتمسَّكوا بالمتشابه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ الآية [الكهف/ ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ ﴾ الآية [الرعد/ ٣٣].

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام/ ١٣٧].

وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام/ ١٠٨].

والتزيين: يتناول ما تمسَّكوا به من الشبه والمتشابه واعتقاد حُسنه، وأنه لا ينكر ولا يلزم بسواه.

الخلاف في بعض فروع الشريعة اجتهادًا، موجب للإنكار، وفي بعضها التكفير والقتال، فكيف بأصل التوحيد وعمود الملة

ثم هذا مخالف للإجماع، ولو في فروع الدين، فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على الإنكار على المخطىء المخالف للنص في مسائل كثيرة، منها: ما وقع من قدامة بن مظعون وأصحابه لما استحلُّوا الخمر باجتهاد تأويل وفهم انفردوا به، في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ الآية [المائدة/ ٩٣].

والصحابة أنكروا على من رأى أن دفع الزكاة لا يجب لأحد بعد رسول الله ﷺ وقاتلوا على ذلك واستباحوا الدماء عليه، وإن لم ينكر من قاتلوه غير ذلك من الدين.

وقد بعث ﷺ سرية إلى رجل تزوج امرأة أبيه فقتلوه وغنموا ماله، وسار فيه بسيرته في المرتدين.

فكيف يقال: إنَّ من دعا الأولياء والصالحين واستغاث بهم وذبح لقبورهم وخافهم ورجاهم مع الله لا ينكر عليه؟ لأن الإنكار محل الاجتهاد؟ سبحانك هذا بهتان عظيم»[١].

❑ ❑ ❑

(١) منهاج التأسيس والتقديس ص ٨٠ ــ ٨٣.

المبحث الثامن

«التوحيد» أساس دعوة النبيين والمرسلين ومن شك فيه فليس معه من الإسلام أدنى نصيب

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن، رحمه الله تعالى بعد أن أثنى على الله بما هو أهله:

الله أرسل رسوله ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد

أما بعد: فاعلموا معشر الإخوان أن الله تعالى أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وعرفهم ما خلقوا له من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله، والرغبة عن عبادة غيره والبراءة منها والكفر بالطاغوت وهو الشيطان وما زيَّنه من عبادة الأوثان، فدعا قريشًا والعرب إلى أن يقولوا: لا إلـه إلاَّ الله، لما دلَّت عليه من بطلان عبادة كل ما يعبد من دون الله، وإخلاص العبادة لله وحده دون كل ما سواه. وهذا هو التوحيد الذي خلق الله الخلق لأجله، وأرسل الرسل لأجله، وأنزل الكتب لأجله، وهو أساس الإيمان والإسلام ورأسه، وهو الدين الحق الذي لا يقبل الله من عبد دينًا سواه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات/ ٥٦]، أي: يوحِّدون، وقال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

﴿تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء/ ٢٣]، وهذه الآية تفسر الآية قبلها، وتبيِّن أنَّ المراد بالعبادة: التوحيد، وأن يكون سبحانه وتعالى هو المعبود وحده دون كل ما سواه.

العبادة: هي التوحيد

والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد وبيانه، وبيّن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف/ ٤٠].

(التوحيد هو مفتاح دعوة كافة الرسل)

والرسل عليهم الصلاة والسلام افتتحوا دعوتهم لقومهم بهذا التوحيد: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون/ ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت/ ١٦ ـ ١٨].

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ﴾ [العنبوت/ ١٨]، يعني: قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب مَدْيَن والمؤتفكات، وهم قوم لوط، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل/ ٣٦].

وكل رسول يدعو قومه إلى أن يخلعوا عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله، ويخلصوا أعمالهم كلها عن الأصنام والأوثان التي

اتَّخذوها وجعلوها أندادًا لله بعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤)﴾ [يسٓ/ ٧٤].

وهذا هو معنى: لا إلـه إلاَّ الله لا يشك في هذا مسلم، كما قـال تعـالـى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعـراف/ ٦٥]، فأجابوه بقولهم: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥)﴾ [هود/ ٥٣ ـ ٥٥]، وهذا هو المنفي في كلمة الإخلاص ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ﴾ [الأنعام/ ٧٨].

كما قال تعالى مخبرًا عن جميع رسله أنهم قالوا لقومهم: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة/ ٤].

كيفية تحقيق الإيمان بالله وحده

والإيمان بالله وحده هو: البراءة مما كانوا يعبدونه من الأصنام والأوثان وإخلاص العبادة لله وحده، لا يرتاب في هذا مسلم.

فمن شكَّ في أن هذا هو معنى لا إلـه إلاَّ الله فليس معه من الإسلام ما يزن حبَّة خردل»[1].

❑ ❑ ❑

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ٤/ ٣٢١، ٣٢٢.

المبحث التاسع

شروط وأركان كلمة «لا إلـه إلاَّ الله»، مع بيان أن المقصود الأعظم منها: تحقيق معناها في القلب، فالنطق بها باللسان، فالقيام بمقتضاها بالجوارح، ولا أدلّ على ذلك: من إجماع السلف على أن من نطق بالشهادة، ولم يعتقد معناها، ولم يعمل بمقتضاها، فإنه لا يكون مسلمًا، ويقاتل على ذلك، حتى يعمل بما دلَّت عليه من النفي والإثبات

قال عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى في شرحه على كتاب التوحيد:

لا بدَّ في الشهادتين من: العلم، واليقين، والعمل بمدلولهما

«قوله «من شهد أن لا إلـه إلاَّ الله»[1]، أي: من تكلَّم بها عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها، باطنًا وظاهرًا، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولهما، كما قال الله تعالى:

(١) هذا إشارة إلى قول النبي ﷺ: «من شهد أن لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، متفق عليه.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد/ ١٩].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف/ ٨٦].

أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه: من البراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح فغير نافع بالإجماع.

الرد على غلاة المرجئة

قال القرطبي في المفهم على صحيح مسلم: باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لا بدَّ من استيقان القلب، هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة، القائلين بأن التلفُّظ بالشهادتين كاف في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدلّ على فساده. بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح. وهو باطل قطعًا. اهـ.

وفي هذا الحديث ما يدلّ على هذا، وهو قوله «من شهد» فإن الشهادة لا تصح إلاَّ إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق.

قال النووي: هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع ـ أو من أجمع ـ الأحاديث المشتملة على العقائد. فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين جميعهم. اهـ.

معنى كلمة التوحيد:

ومعنى «لا إله إلاَّ الله»: لا معبود بحق إلاَّ الله. وهو في غير موضع من القرآن، ويأتيك في قول البقاعي صريحًا قوله: (وحده)، تأكيد للإثبات (لا شريك له) تأكيد للنفي. قاله الحافظ، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة/ ١٦٣].

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء/ ٢٥].

وقال: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف/ ٦٥].

فأجابوه ردًّا عليه بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ﴾ [الأعراف/ ٧٠].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج/ ٦٢].

فتضمن ذلك نفي الإلـٰهية عما سوى الله، وهي العبادة، وإثباتها لله وحده لا شريك له، والقرآن من أوله إلى آخره يبيِّن هذا ويقرِّره ويرشد إليه.

تعريف دقيق للعبادة:

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلُّل رغبًا ورهبًا، وهذا كله لا يستحقه إلاَّ الله تعالى، كما تقدم في أدلَّة هذا الباب وما قبله، فمن صرف من ذلك شيئًا لغير الله فقد جعله لله ندًا، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

لا ينفع مع الشرك قول ولا عمل

فدلَّت «لا إلـه إلاَّ الله» على نفي الإلـٰهية عن كل ما سوى الله تعالى كائنًا ما كان، وإثبات الإلـٰهية لله وحده دون كل ما سواه، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل ودلَّ عليه القرآن من أوله إلى آخره، كما قال تعالى عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن/ ٧٢]، فلا إلـه إلاَّ الله لا تنفع إلاَّ من عرف مدلولها نفيًا وإثباتًا، واعتقد ذلك وقبله وعمل به، وأما من قالها من

غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدم في كلام العلماء أن هذا جهل صرف، فهي حجة عليه بلا ريب.

فقوله في الحديث: «**وحده لا شريك له**»، تأكيد وبيان لمضمون معناها. وقد أوضح الله ذلك وبينه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين، فما أجهل عُبادّ القبور بحالهم! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافي لكلمة الإخلاص لا إلـه إلاَّ الله! فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا لا إلـه إلاَّ الله لفظًا ومعنى، وهؤلاء المشركون أقرُّوا بها لفظًا وجحدوها معنى، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة، كالحب والتعظيم، والخوف والرجاء، والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة.

مشركي هذا الزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب

بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب، فإن أحدهم إذا وقع في شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى، ويعتقدون أنه أسرع فرجًا لهم من الله، بخلاف حال المشركين الأولين، فإنهم كانوا يشركون في الرخاء، وأما في الشدائد فإنما يخلصون لله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ الآية، [العنكبوت/ ٦٥].

فبهذا يتبين أن مشركي أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم»[١].

وقال سليمان بن عبد الله:

«قوله «من شهد أن لا إلـه إلاَّ الله»، أي: من تكلَّم بهذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطنًا وظاهرًا، كما دلَّ عليه

(١) فتح المجيد ص ٣٩ ـ ٤٢.

النطق بكلمة التوحيد من غير علم بمعناها ولا عمل بمقتضاها غير نافع بالإجماع

قوله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد/ ١٩]. وقوله: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف/ ٨٦]. أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع.

وفي الحديث ما يدلّ على هذا، وهو قوله: «من شهد» إذ كيف يشهد وهو لا يعلم، ومجرد النطق بشيء لا يسمّى شهادة به.

الدليل على ذلك

قال بعضهم: أداة الحصر لقصر الصفة على الموصوف قصر إفراد، لأن معناه: الألوهية في الله الواحد في مقابلة من يزعم اشتراك غيره معه، وليس قصر قلب، لأن أحدًا من الكفار لم ينفها عن الله، وإنما أشرك معه غيره...

(توحيد الله بالعبادة مع الكفر بالطاغوت، هو مدلول كلمة التوحيد)

ومعنى «لا إلـه إلاّ الله»، أي: لا معبود بحق إلاّ إلـه واحد، وهو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء/ ٢٥].

مع قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل/ ٣٦]، فصح أن معنى الإلـه هو: المعبود، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش: «قولوا لا إلـه إلاّ الله»، قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص/ ٥].

وقال قوم هود: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف/ ٧٠].

وهو إنما دعاهم إلى «لا إلـٰه إلاَّ الله»، فهذا هو معنى: لا إلـٰه إلاَّ الله، وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت، وإيمان بالله.

فتضمَّنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله ليس بإلـٰه، وأن إلـٰهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلـٰهية لغيره، فتضمنت نفي الإلـٰهية عما سواه، وإثباتها له وحده لا شريك له، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه إلـٰهًا وحده، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلـٰهًا، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي أو يستشهد من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد، المفتي فلان، والشاهد فلان، فإن هذا أمر منه ونهي.

كل عمل صادر عن تأله القلب، فهو من العبادة

وقد دخل في الإلـٰهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب والخضوع والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها، كالدعاء والخوف والمحبة، والتوكل والإنابة، والتوبة، والذبح، والنذر، والسجود، وجميع أنواع العبادة، فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئًا مما لا يصلح إلاَّ لله من العبادات لغير الله، فهو مشرك ولو نطق بـ لا إلـٰه إلاَّ الله، إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص...

ــ ثم ذكر نصوص العلماء في معنى الإلـٰه إلى أن قال ــ:

وهذا كثير جدًا في كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإلـٰه هو: المعبود، خلافًا لما يعتقده عبَّاد القبور وأشباههم في معنى الإلـٰه أنه الخالق أو القادر على الاختراع أو نحو هذه العبارات،

ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى، فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله، كدعاء الأموات، والاستغاثة بهم في الكربات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والنذر لهم في الملمات، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات.

الإقرار بتوحيد الربوبية، لم يفرق يومًا بين المسلمين والمشركين

وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات، فليهن أبو جهل وأبو لهب ومن تبعهما بحكم عبَّاد القبور، وليهن أيضًا إخوانُهم عبَّاد ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، إذ جعل هؤلاء دينهم هو الإسلام المبرور.

ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا: لا إله إلاَّ الله، بمعنى: أنه لا قادر على الاختراع إلاَّ الله. فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا. قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف/ ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف/ ٩]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الآية [يونس: ٣١] إلى غير ذلك من الآيات.

(معرفة مشركي قريش لمعاني كلمة التوحيد)

لكن القوم أهلُ اللسان العربي، فعلموا أنها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتكب بناء سؤال الشفاعة من غير الله، وصرف الإلهية لغيره لأم الراس، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر/ ٣]، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس/ ١٨]، ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص/ ٥].

فتبًا لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه بـ: «لا إلـه إلاَّ الله»، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات/ ٣٥، ٣٦]، فعرفوا أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله، وإفراد الله بالعبادة، وهكذا يقول عبّاد القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة والعبادة لله وحده: أنترك سادتنا وشفعاءنا في قضاء حوائجنا. فيقال لهم: نعم وهذا الترك والإخلاص هو الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾ [الصافات/ ٣٧].

فـ: «لا إلـه إلاَّ الله» اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلـهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم، فليس بإلـه، ولا له من العبادة شيء، وأثبتت الإلـهية لله وحده، بمعنى أن العبد لا يأله غيره، أي: لا يقصده بشيء من التأله وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة، كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

(لا إلـه إلاَّ الله لا تنفع المشرك بحال)

وبالجملة فلا يأله إلاَّ الله، أي: لا يعبد إلاَّ هو، فمن قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها، من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمَّنته من ذلك والعمل به، فهذا هو المسلم حقًا، فإن عمل به ظاهرًا من غير اعتقاد، فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك، فهو الكافر ولو قالها.

ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهرًا وهم في الدرك الأسفل من النار، واليهود يقولونها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر، فلم تنفعهم، وكذلك من ارتدَّ عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها، فإنه لا تنفعه، ولو قالها مائة ألف، فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله، كعبَّاد القبور والأصنام فلا تنفعهم ولا يدخلون في الحديث الذي جاء في فضلها، وما أشبهه من الأحاديث.

إذا لم تخرج الشهادتان صاحبها من الشرك إلى التوحيد فلا يكون مسلمًا. وهذا معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع

وقد بيَّن النبي ﷺ ذلك بقوله: «**وحده لا شريك له**»، تنبيهًا على أن الإنسان قد يقولها وهو مشرك، كاليهود والمنافقين وعبَّاد القبور، لما رأوا أن النبي ﷺ دعا قومه إلى قول: «لا إلـٰه إلاَّ الله»، ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط، وهذا جهل عظيم، وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها ويتركوا عبادة غير الله، ولهذا قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦﴾ [الصافات/ ٣٦].

وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [صٓ/ ٥]، فلهذا أبوا عن النطق بها، وإلاَّ فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها، ويعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا أمر معلوم بالاضرار من الكتاب والسنة والإجماع، أما عبَّاد القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة، ولا عرفوا الإلـٰهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له، بل لم يعرفوا من معناها إلاَّ ما أقرَّ به المؤمن والكافر، واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها: لا قادر على الاختراع، أو أن معناها: الإلـٰه، هو الغني عما سواه، الفقير إليه كل ما عداه، ونحو ذلك فهذا حق، وهو من لوازم الإلـٰهية، ولكن ليس هو المراد

بمعنى «لا إلـه إلاَّ الله»، فإن هذا القدر قد عرفه الكفار، وأقرُّوا به، ولم يدعوا في آلهتهم شيئًا من ذلك، بل يقرُّون بفقرهم، وحاجتهم إلى الله، وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب، وإلاَّ فقد سلموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة، والأمر كله لله وحده لا شريك له، وقد عرفوا معنى «لا إلـه إلاَّ الله» وأبوا على النطق والعمل بها، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلـهية، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف/ ١٠٦].

(مشركو زماننا أعظم شركًا من مشركي قريش)

وعبَّاد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها، وأبوا عن الإتيان به، فصاروا كاليهود(١) الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون به، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بالحب والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء والتوكل والدعاء عند الكرب، ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تأله قلبه لغير الله مما هو أعظم مما يفعله المشركون الأولون، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان صادقًا أو كاذبًا، ولو قيل له: احلف بحياة الشيخ فلان أو بتربته ونحو ذلك، لم يحلف إن كان كاذبًا، وما ذاك إلاَّ لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب، وما كان الأولون هكذا، بل كانوا إذا أرادوا التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالى، كما في قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية، وهي في «صحيح البخاري».

---

(١) المقصود باليهود هنا: عوامهم الأميين، الذين لا يعلمون توراتهم إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون؛ لا الأحبار وأهل العلم منهم. والله تعالىٰ أعلىٰ وأعلم.

حال المشرك الشاهد عليه بالكفر

وكثير منهم وأكثرهم يرى أن الاستغاثة بإلـهه الذي يعبده عند قبره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد، ويصرِّحون بذلك، والحكايات عنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، وكلهم إذا أصابتهم الشدائد أخلصوا للمدفونين في التراب، وهتفوا بأسمائهم، ودعوهم ليكشفوا ضرَّ المصاب في البر والبحر والسفر والإياب، وهذا أمر ما فعله الأولون، بل هم في هذه الحال يخلصون للكبير المتعال، فاقرأ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية، [العنكبوت/ ٦٥].

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ [النحل/ ٥٣، ٥٤].

وكثير منهم قد عطَّلوا المساجد وعمَّروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه أخذ في دعاء صاحبه باكيًا خاشعًا ذليلاً خاضعًا، بحيث لا يحصل له ذلك في الجمعة والجماعات وقيام الليل وإدبار الصلوات، فيسألونهم مغفرة الذنوب وتفريج الكروب والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف يظن عاقل فضلاً عن عالم أن التلفظ بـ: «لا إلـه إلاَّ الله» مع هذه الأمور تنفعهم، وهم إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم.

التلفظ بـ لا إلـه إلاَّ الله مع التلبس بالشرك الأكبر لا ينفع صاحبه

ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضًا بشهادة أن محمدًا رسول الله ولم يعرف معنى الإلـه ولا معنى الرسول وصلَّى وصام وحج ولا يدري ما ذلك إلاَّ أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئًا من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه، وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص كان كذلك كما ذكره صاحب «الدر الثمين في شرح

المرشد المعين» من المالكية، ثم قال شارحه: وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان انتهى. ولا ريب أن عبَّاد القبور أشد من هذا لأنهم اعتقدوا الإلـٰهية في أرباب متفرِّقين»(١).

وقال عبد الرحمن بن حسن في شرحه لكتاب التوحيد رحمه الله تعالى:

قوله: «وَلَهُما» أي البخاري ومسلم، وهذا حديث طويل اختصره المصنف وذكر منه ما يناسب الترجمة وهو قوله: «من قال لا إلـٰه إلاَّ الله يبتغي بذلك وجه الله»، وهذا هو حقيقة معناها الذي دلَّت عليه هذه الكلمة من الإخلاص ونفي الشرك، والصدق والإخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر، فإن من لم يكن مخلصًا فهو مشرك، ومن لم يكن صادقًا فهو منافق، والمخلص أن يقولها: مخلصًا الإلـٰهية لمن لا يستحقها غيره وهو الله تعالى، وهذا التوحيد هو أساس الإسلام الذي قال الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة/ ١٢٨]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل/ ٤٤].

من لم يكن مخلصًا كان مشركًا، ومن لم يكن صادقًا كان منافقًا

وقال الخليل عليه السَّلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام/ ٧٩].

والحنيف: هو الذي ترك الشرك رأسًا وتبرأ منه وفارق أهله وعاداهم، وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ

لا إلـٰه إلاَّ الله تنفع قائلها إذا قام بمعناها، أما الجاهل بمعناها نفيًا وإثباتًا فلا تنفعه

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٥١ ــ ٥٣.

ﭐلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان/ ٢٢]، فإسلام الوجه هو: إخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق وهو معنى الآية ونحوها إجماعًا.

فهذا هو الذي ينفعه قول (لا إلـه إلاَّ الله)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

وهذا بخلاف من يقولها، وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر، كما ترى عليه أكثر الخلق فهؤلاء وإن قالوها، فقد تلبسوا بما يناقضها فلا تنفع قائلها إلاَّ بالعلم بمدلولها نفيًا وإثباتًا، والجاهل بمعناها وإن قالها لا تنفعه لجهله بما وضعت له الوضع العربي الذي أريد منها من نفي الشرك، وكذلك إذا عرف معناها بغير تيقن له، فإذا انتفى اليقين وقع الشك.

ومما قيدت به في الحديث قوله ﷺ: غَيرَ شاكٍّ فَلا تَنْفَعُ إلاَّ من قالها بعلم ويقين لِقَوْلِهِ صِدْقًا مِنْ قَلبِهِ خالِصًا مِنْ قَلبِهِ، وكذلك من قالها غير صادق في قوله، فإنها لا تنفعه لمخالفة القلب اللسان، كحال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وكذلك حال المشرك فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للإخلاص، ولما دلَّت عليه هذه الكلمة مطابقة، فإنَّها دلَّت على نفي الشرك والبراءة منه، والإخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة، ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله: لا إلـه إلاَّ الله، كما هو حال كثير من عبدة الأوثان يقولون: لا إلـه إلاَّ الله وينكرون ما دلَّت عليه من الإخلاص، ويعادون أهله وينصرون الشرك وأهله، وقد قال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف/ ٢٦ ـ ٢٨]، وهي: لا إلـه إلاَّ الله.

وقد عبَّر عنها الخليل بمعناها الذي وضعت له ودلَّت عليه، وهو البراءة من الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، كما تقدم تقريره، وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلَّت عليه من الإخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذبًا منه، بل قد عكس مدلولها فأثبت ما نفته من الشرك، ونفى ما أثبتته من الإخلاص.

فهذا الذي ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة، وسبب ذلك الجهل بمعناها واتباع الهوى، فيصرفه عن اتباع الحق، وما بعث الله به رسله من توحيده الذي شرعه لعباده ورضيه لهم.

قوله: «لا إلـه إلَّا الله» فـ«لا» نافية للجنس نفيًا عامًا إلَّا ما استثنى، وخبرها محذوف تقديره لا إلـه إلَّا الله. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج/ ٦٢].

فإلـهيته تعالى هي الحق، وكل ما سواه من الآلهة فإلهيته باطلة، كما في هذه الآية ونظائرها، فهذه كلمة عظيمة هي العروة الوثقى، وكلمة التقوى وكلمة الإخلاص، وهي التي قامت بها السموات والأرض، وشرعت لتكميلها السنَّة والفرض، ولأجلها جُرِّدت سيوف الجهاد، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصي من العباد.

فمن قالها وعمل بها صدقًا وإخلاصًا، وقَبولاً ومحبة وانقيادًا، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»(١).

---

(١) قرة عيون الموحدين ص ١٨، ١٩.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى في شرحه على كتاب التوحيد:

«وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «إنَّك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله»، الحديث.

وأهل الكتاب المذكورون في هذا الحديث من كان في اليمن من اليهود والنصارى إذ ذاك. قوله: (فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله)، وكانوا يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذي دلَّت عليه من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه؛ فكان قولهم: لا إلـه إلاَّ الله لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة، كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم، وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك، وظنوا أن معناها: القدرة على الاختراع تقليدًا للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقرَّ به المشركون فلم يدخلهم في الإسلام كما قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [المؤمنون/ ٨٤]، إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون/ ٨٩].

المشرك يثبت ما نفته لا إلـه إلاَّ الله وينفي ما أثبتته قولاً واعتقادًا وفعلاً

وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس/ ٣١]، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

مشركو الأمم وأهل الجاهلية، قد أقروا بتوحيد الربوبية دون لازمه من توحيد الألوهية، فلم ينفعهم شيئًا

وهذا التوحيد قد أقرَّ به مشركو الأمم وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد ﷺ فلم يدخلهم في الإسلام لأنهم قد جحدوا ما دلَّت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلـٰهية وهو إخلاص العبادة ونفي الشرك والبراءة منه كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران/ ٦٤]، فهذا التوحيد هو أصل الإسلام.

وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف/ ١٦].

وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم/ ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر/ ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزمر/ ٢، ٣].

وأمثال هذه الآيات في بيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب»[1].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، في بيان معاني ومقتضيات النفي والإثبات لكلمة التوحيد:

«اعلم رحمك الله، أن معنى لا إلـٰه إلاَّ الله نفي وإثبات، تنفي

---

(١) قرة عيون الموحدين ص ٣٦، ٣٧.

أربعة أنواع وتثبت أربعة أنواع: تنفي الإلـهة، والطواغيت، والأنداد، والأرباب.

تعريف الإلـه

فالإلـهة: ما قصدته بشيء من جلب خير أو دفع ضر فأنت متَّخذه إلـهًا.

تعريف الطاغوت

والطواغيت من عبد وهو راض أو رشح للعبادة، مثل السمان أو تاج أو أبي حديدة.

تعريف النـد

والأنداد ما جذبك عن دين الإسلام من أهل أو مسكن أو عشيرة أو مال، فهو ند لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة/ ١٦٥].

تعريف الـرب

والأرباب من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة/ ٣١].

وتثبت أربعة أنواع: القصد، وهو كونك ما تقصد إلاَّ الله والتعظيم والمحبة لقوله تعالى عزَّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة/ ١٦٥] والخوف والرجاء لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس/ ١٠٧].

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير الله، ولا تكبر عليه: جهامة الباطل، كما أخبر الله عن إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بتكسيره الأصنام وتبرِّيه من قومه لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟

﴿مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ الآية [الممتحنة/ ٤]»[(١)].

وسأل بعض الإخوان الشيخ عبد الرحمن أبا بطين ـ رحمه الله تعالى ـ عن معنى «لا إلـه إلاَّ الله» وما تنفي وما تثبت.

فأجاب رحمه الله تعالى:

«ما سألت عنه من معنى «لا إلـه إلاَّ الله»، وما تثبت وما تنفي، فأول واجب على الإنسان معرفة معنى هذه الكلمة، قال الله تعالى لنبي ﷺ: «فاعلم أنه لا إلـه إلاَّ الله»، وقال: «ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلاَّ من شهد بالحق» أي: بلا إلـه إلاَّ الله «وهم يعلمون» بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم، فأفرض الفرائض معرفة معنى هذه الكلمة، ثم التلفظ بمقتضاها، فالإلـه هو: المعبود، والتأله: التعبد، «ومعنى لا إلـه إلاَّ الله» لا معبود إلاَّ الله، نفت الإلـهية عمَّن سوى الله، وأثبتتها لله تعالى وحده.

أفرض الفرائض العلم بلا إلـه إلاَّ الله ثم التلفظ بمقتضاها

فإذا عرفت أن الإلـه هو: المعبود، والإلـهية هي: العبادة، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأفعال، فالإلـه هو: المعبود المطاع. فمن جعل شيئًا من العبادة لغير الله فهو مشرك، وذلك كالسجود والدعاء والذبح والنذر، وكذلك التوكُّل والخوف والرجاء وغير ذلك من أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، وإفراد الله سبحانه بالعبادة ونفيها عمن سواه هو حقيقة التوحيد، وهو معنى لا إلـه إلاَّ الله.

تعريف الشرك وأنواعه

فمن قال: لا إلـه إلاَّ الله بصدق ويقين أخرجت من قلبه كل ما سوى الله محبة وتعظيمًا وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكلاً، فلا يصير في قلبه محبة لما يكرهه الله ولا كراهة لما يحبه، وهذا حقيقة

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ٤/ ٣٤، ٣٥.

الإخلاص الذي قال فيه ﷺ: «من قال لا إلـه إلاَّ الله مخلصًا من قلبه دخل الجنة ــ أو ــ حرم الله عليه النار».

قيل للحسن البصري: إن ناسًا يقولون: من قال لا إلـه إلاَّ الله دخل الجنة، فقال: من قال لا إلـه إلاَّ الله فأدى حقها وفرضها إلخ، وغالب من يقول: لا إلـه إلاَّ الله، إنما يقولها تقليدًا، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، فلا يعرف الإخلاص فيها، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يصرف عنها عند الموت، وغالب من يفتن في القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»، نسأل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والله أعلم، وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم»[١].

يخشى على من نطق بالشهادتين تقليـــدًا دون إخـــلاص أن يصرف عنها عند المـــوت

(المراد من كلمة التوحيد معناها، لا مجرد التلفظ بها)

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد، وهي: لا إلـه إلاَّ الله؛ والمراد من هذه الكلمة: معناها، لا مجرد لفظها؛ والكفار الجهال، يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله بالتعلق، والكفر بما يعبد من دونه، والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: قولوا لا إلـه إلاَّ الله؛ قالوا: أجعل الآلهة إلـهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب.

فإذا عرفت: أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام، وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة، ما عرفه جهال الكفار، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها، من غير اعتقاد القلب،

(١) مجموعة التوحيد ص ٤٨٩، ٤٩٠.

بشيء من المعاني؛ والحاذق منهم، يظن: أن معناها لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي، ولا يميت، ولا يدبِّر الأمر إلاَّ الله، فلا خير في رجل جُهَّال الكفار أعلم منه بمعنى لا إلـه إلاَّ الله»[1].

وقال عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن:

«وقوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: «لا إلـه إلاَّ الله». والقول المراد هنا: هو الصادر عن علم بمعناها، وانقياد لأصول مقتضاها، لا كما ظنه عبَّاد القبور من أن مجرد اللفظ يكفي مع المخالفة الظاهرة، وعبَّاد الأولياء والصالحين، فإن شهادتهم والحالة هذه وقولهم شبيه بشهادة المنافقين برسالة سيد المرسلين»[2].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في مذاكرة له مع أهل حريملة في بيان كلمة التوحيد، وما يضادها من الشرك والتنديد:

«قل لهم: لا إلـه إلاَّ الله قد سألنا عنها كل من جاءنا منكم من مطوع[3] وغيره ولا لقينا عندهم إلاَّ أنها لفظة ما لها معنى، ومعناها لفظها ومن قالها فهو: مسلم، وقد يقولون: لها معنى لكن معناها لا شريك له في ملكه.

ونحن نقول: لا إلـه إلاَّ الله ليست باللسان فقط، لا بد للمسلم إذا لفظ بها أن يعرف معناها بقلبه، وهي التي جاءت لها

---

(١) الدرر السنية ١/ ٧٠.

(٢) منهاج التأسيس والتقديس ص ٧٧.

(٣) المطوِّع: هو الذي يعلِّم العامة ويفقِّههم، وهو دون العالِم. قاله محقق الكتاب محل النقل رحمه الله تعالى.

الرسل، وإلاَّ الملك ما جاءت الرسل له، وأنا أبين لكم إن شاء الله مسئلة التوحيد ومسئلة الشرك:

أسلوب رائع في بيان الفرق بين التوحيد والشرك

تعرفون المشهد، فيه قبة، والذي من الرجال صلَّى الظهر قام واستقبل القبر وولَّى الكعبة قفاه وركع لعلي ركعتين: صلاته لله توحيد، وصلاته لعلي شرك، أءنتم فهمتم.

قالوا فهمنا، صار هذا مشركًا صلَّى لله وصلَّى لغيره.

ولله سبحانه حق على عبده في البدن والمال، والصلاة زكاة البدن، والزكاة في المال حق له تعالى، فإذا زكيت لله وخرجت بشيء تفرقه عند القبة فزكاتك لله توحيد، وزكاتك للمخلوق شرك.

كذلك سفك الدم، إن ذبحت لله توحيد وإن ذبحت لغيره صار شركًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام/ ١٦٢، ١٦٣]، والنسك: سفك الدم.

كذلك التوكل من أنواع العبادة، إن توكلت على الله صار توحيدًا، وإن توكلت على صاحب القبة صار شركًا، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود/ ١٢٣].

وأكبر من ذلك كله الدعاء، تفهمون أنه يذكر أن الدعاء مخ العبادة؟ قالوا: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن/ ١٨]، أنتم تفهمون أن هنا من يدعو الله ويدعو الزبير، ويدعو الله ويدعو عبد القادر، الذي يدعو الله وحده مخلِص، وإن دعا غيره صار مشركًا، فهمتم هذا؟

قالوا: فهمنا.

الشـــرك بـــالله ونقــض أصــل الدين، هي مسألة الخلاف والنزاع بين الشيخ وقومه

قال الشيخ: هذا إن فهمتموه فهذا الذي بيننا وبين الناس، فإن قالوا: هؤلاء يعبدون أصنامًا يدعونهم يريدون منهم، ونحن عبيد مذنبون وهم صالحون ونبغي بجاههم، فقل لهم: عيسى نبي الله عليه السلام وأمه صالحة، والعزير صالح والملائكة كذلك، والذين يدعونهم أخبر الله عنهم أنهم ما أرادوا منهم ما أرادوا بجاههم إلاَّ قربة وشفاعة، واقرأ عليه الآيات في الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الآية [سبأ/ ٤٠].

وفي الأنبياء قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ الآية [النساء/ ١٧١].

وفي الصالحين: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ الآية [الإسراء/ ٥٦]، ولم يفرق بينهم النبي ﷺ»[1].

وقال عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى:

«اعلم رحمك الله: أن كلمة الإخلاص لا إلـٰه إلاَّ الله، لا تنفع قائلها إلاَّ بمعرفة معناها، وهو نفي الإلـٰهية عما سوى الله، والبراءة من الشرك في العبادة، وإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران/ ٦٤].

ومعنى: ﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: نستوي نحن وأنتم في قصر العبادة على الله، وترك الشرك كله»[2].

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ٤/ ٣٥، ٣٦.

(٢) الدرر السنية ٢/ ٢٥٢، ٢٥٣.

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

«قال رسول الله ﷺ: (من قال لا إلـه إلاَّ الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرُم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل).

والحديث يفصح: أن لا إلـه إلاَّ الله لها: لفظ ومعنى.

(أنواع الناطقين بالتوحيد وأحكامهم)

ولكن الناس فيها ثلاث فرق، فرقة نطقوا بها وحقَّقوها، وعلموا أن لها معنى وعملوا به، ولها نواقض فاجتنبوها. وفرقة: نطقوا بها في الظاهر، فزيَّنوا ظواهرهم بالقول، واستبطنوا الكفر والشك. وفرقة نطقوا بها، ولم يعملوا بمعناها، وعملوا بنواقضها، فهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف/ ١٠٤].

فالفرقة الأولى هي: الناجية، وهم المؤمنون حقًّا، والثانية هم: المنافقون، والثالثة هم: المشركون.

(لا إلـه إلاَّ الله حصن بشرط: العلم بمعناها، والعمل بمقتضاها)

فلا إلـه إلاَّ الله: حصن، ولكن نصبوا عليه منجنيق التكذيب، ورموه بحجارة التخريب، فدخل عليهم العدوّ، فسلبهم المعنى، وتركهم مع الصورة، وفي الحديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». سلبوا معنى: لا إلـه إلاَّ الله، فبقي معهم: لقلقة باللسان وقعقعة بالحروف، وهو ذكر الحصن لا مع الحصن، فكما أن ذكر النار لا يحرق، وذكر الماء لا يغرق، وذكر الخبز لا يشبع، وذكر السيف لا يقطع، فكذلك ذكر الحصن لا يمنع.

دليل عظيم فارْعِه سمعك، واستصحبه تنج من خبث الإرجاء

فإن القول: قشر، والمعنى: لبّ، والقول: صدف، والمعنى: درّ، ماذا يصنع بالقشر مع فقدان اللب؟!

وماذا يصنع بالصدف مع فقدان الجوهر؟!

لا إلـه إلاَّ الله، مع معناها، بمنزلة الروح من الجسد، لا ينتفع بالجسد دون الروح، فكذلك لا ينتفع بهذه الكلمة دون معناها»(١).

وقال عبد الرحمن بن حسن:

لا يصح قول لا إلـه إلاَّ الله، إلاَّ بتحقيق شرط الكفر بما يعبد من دون الله، وبهما تعصم الدماء والأموال

«وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «وكفر بما يعبد من دون الله» فهذا: شرط عظيم، لا يصح قول: لا إلـه إلاَّ الله إلاَّ بوجوده، وإن لم يوجد، لم يكن من قال لا إلـه إلاَّ الله معصوم الدم والمال، لأن هذا هو معنى لا إلـه إلاَّ الله، فلم ينفعه القول بدون الإتيان بالمعنى الذي دلَّت عليه، من ترك الشرك والبراءة منه وممن فعله، فإذا أنكر عبادة كل ما يعبد من دون الله، وتبرأ منه، وعادى من فعل ذلك: صار مسلمًا، معصوم الدم والمال، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

(قيود لا إلـه إلاَّ الله)

وقد قيدت لا إلـه إلاَّ الله، في الأحاديث الصحيحة بقيود ثقال، لا بدّ من الإتيان بجميعها، قولاً واعتقادًا وعملاً، فمن ذلك: حديث عتبان، الذي في الصحيح: «فإن الله حرَّم على النار من قال لا إلـه إلاَّ الله، يبتغي بذلك وجه الله»، وفي حديث آخر: «صدقًا من قلبه»، «خالصًا من قلبه»، مستيقنًا بها قلبه غير شاك، فلا تنفع هذه

(١) الدرر السنية ٢/ ١١٢، ١١٣.

الكلمة قائلها إلاَّ بهذه القيود إذا اجتمعت له، مع العلم بمعناها ومضمونها كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف/ ٨٦].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد/ ١٩]، فمعناها يقبل الزيادة، لقوة العلم، وصلاح العمل.

فلا بدّ من العلم بحقيقة معنى هذه الكلمة، علمًا ينافي الجهل، بخلاف من يقولها، وهو لا يعرف معناها، ولا بدّ من اليقين، المنافي للشك، فيما دلَّت عليه من التوحيد.

ولا بدّ من الإخلاص المنافي للشرك، فإن كثيرًا من الناس يقولها، وهو يشرك في العبادة، وينكر معناها ويعادي من اعتقده وعمل به.

ولا بدّ من الصدق، المنافي للكذب، بخلاف حال المنافق الذي يقولها من غير صدق، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح/ ١١].

ولا بدَّ من القَبول المنافي للرد، بخلاف من يقولها ولا يعمل بها.

ولا بدَّ من المحبَّة لما دلَّت عليه من التوحيد والإخلاص وغير ذلك، والفرح بذلك المنافي لخلاف هذين الأمرين.

ولا بدّ من الانقياد بالعمل بها، وما دلَّت عليه مطابقة، وتضمنًا، والتزامًا، وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا سواه»[١].

---

(١) الدرر السنية ٢/ ٢٤٣، ٢٤٤.

وقال عبد الرحمن بن حسن أيضًا رحمه الله تعالى:

شروط الانتفاع بلا إلـه إلاَّ الله

اعلم رحمك الله: أن كلمة الإخلاص: لا إلـه إلاَّ الله، لا تنفع قائلها إلاَّ بمعرفة معناها، وهو نفي الإلـهية عمَّا سوى الله، والبراءة من الشرك في العبادة، وإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران/ ٦٤]، ومعنى: ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: نستوي نحن وأنتم في قصر العبادة على الله، وترك الشرك كله.

وقال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف/ ٢٦ ـ ٢٨].

فهذا هو حقيقة معنى: لا إلـه إلاَّ الله، وهو البراءة من كل ما يعبد من دون الله، وإخلاص العبادة لله وحده، وهذا هو معناها الذي دلَّت عليه هذه الآيات، وما في معناها، فمن تحقق ذلك وعلمه، فقد حصل له العلم بها، المنافي لما عليه أكثر الناس ـ حتى من ينتسب إلى العلم ـ من الجهل بمعناها.

الإقرار بكلمة التوحيد دون القبول لما دلت عليه، لا يعصم الدماء والأموال

فإذا عرف ذلك، فلا بدَّ له من القبول لما دلَّت عليه، وذلك ينافي الرد، لأن كثيرًا ممن يقولها، ويعرف معناها لا يقبلها، كحال مشركي قريش والعرب وأمثالهم، فإنهم عرفوا ما دلَّت عليه، لكن لم يقبلوا، فصارت دماؤهم وأموالهم حلالاً لأهل التوحيد، فإنهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات/ ٣٥، ٣٦]،

عرفوا: أن لا إلـه إلاَّ الله، توجب ترك ما كانوا يعبدونه من دون الله.

ولا بدَّ أيضًا من الإخلاص المنافي للشرك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر/ ١١، ١٢].

إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر/ ١٤، ١٥].

وفي حديث عتبان: «من قال لا إلـه إلاَّ الله، يبتغي بذلك وجه الله».

ولا بدَّ أيضًا من المحبة المنافية لضدها، فلا يحصل لقائلها معرفة وقَبول إلاَّ بمحبة ما دلَّت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، فمن أحب الله أحب دينه، ومن لا، فلا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة/ ١٦٥].

فصارت محبتهم لله ولدينه خاصة، فأحبوا الله ولدينه، ووالوا لله ولدينه، فأحبوا من أحبه الله، وأبغضوا من أبغضه الله.

وفي الحديث: «وهل الدين إلاَّ الحب والبغض».

ولهذا وجب أن يكون الرسول ﷺ أحب إلى العبد من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين، فإن شهادة: ألا إلـه إلاَّ الله، تستلزم شهادة أن محمدًا رسول الله، وتقتضي متابعته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران/ ٣١].

ولا بدّ أيضًا من الانقياد لحقوق: لا إلـه إلاّ الله، بالعمل بما فرضه الله، وترك ما حرَّمه الله، والتزام ذلك، وهو ينافي الشرك، فإن كثيرًا ممن يدعي الدين، يستخف بالأمر والنهي، ولا يبالي بذلك.

حقيقة الإسلام

والإسلام حقيقته: أن يسلم العبد بقلبه وجوارحه لله تعالى، وينقاد له بالتوحيد والطاعة، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة/ ١١٢].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان/ ٢٢].

وإحسان العمل، لا بد فيه من الإخلاص ومتابعة ما شرعه الله ورسوله.

ولا بدَّ أيضًا لقائل هذه الكلمة، من اليقين بمعناها المنافي للشك والريب، كما في الحديث الصحيح: «مسيقنًا بها قلبه، غير شاك فيها»، ومن لم يكن كذلك، فإنها لا تنفعه، كما دلَّ عليه حديث: سؤال الميت في قبره.

ولا بدّ أيضًا من الصدق المنافي للكذب، كما قال تعالى، عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح/ ١١]، فالصادق: يعرف معنى هذه الكلمة ويقبله، ويعمل بما تقتضيه وما يلزم قائلها من واجبات الدين، فيصدِّق قلبه لسانه، فلا تصح هذه الكلمة إلاّ إذا اجتمعت هذه الشروط، وبالله التوفيق»[1].

---

(١) الدرر السنية ٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٥.

ولقد نظم الشيخ سليمان بن سحمان شعرًا في معنى لا إلـٰه إلَّا الله، وبيان شروطها جاء فيه:

ولا تـــــدع إلَّا الله لا شـــــيء غيـــــره
فـــــداع لغيـــــر الله غـــــاو ومعتـــــد

وكـــن خـــاضعًـــا لله ربـــك لا لمـــن
تعظمـــه واركـــع لـــربـــك واسجـــد

وصـــلِّ لـــه واحـــذر مـــراءاة نـــاظـــر
إليـــك وتسميعًـــا لـــه بـــالتعبُّـــد

وجـانـب لمـا قـد يفعـل النـاس عنـد من
يـــرونـــه لـــه حقًّـــا فجـــاؤوا بمـــؤيـــد

يقـــومـــون تعظيمًـــا ويحنـــون نحـــوه
ويـــومـــون نحـــو الـــرأس والأنـــف بـــاليـــد

وهـــذا سجـــود وانحنـــا بـــإشـــارة
إليـــه بتعظيـــم وذا فعـــل معتـــد

إلـى غيـر ذا مـن كـل أنـواعهـا التـي
بهـــا الله مختـــص فـــوحِّـــده تسعـــد

وفـي صـرفهـا أو بعضهـا الشـرك قـد أتـى
فجـــانبـــه واحـــذر أن تجـــيء بمـــؤيـــد

وهـــذا الـــذي فيـــه الخصـــومـــة قـــد جـــرت
علـــى عهـــد نـــوح والنبـــي محمـــد

* * *

ووحِّـــده فـــي أفعـــالـــه جـــلَّ ذكـــره
مقـــرًّا بـــأن الله أكمـــل سيـــد

هــو الخــالــق المحيــي المميــت مــدبــر
هــو المــالــك الــرازق فــاســألــه واجتــد
إلــى غيــر ذا مــن كــل أفعــالــه التــي
أقــر ولــم يجحــد بهــا كــل ملحــد
ووحِّــده فــي أسمــائــه وصفــاتــه
ولا تتــأولهــا كــرأي المفنــد
فنشهــد أن الله حــق بــذاتــه
علــى عــرشــه مــن فــوق سبــع ممجــد
عليــه استــوى مــن غيــر كيــف وبــائــن
عــن الخلــق حقًّــا قــول كــل مــوحــد
وأن صفــات الله حــق كمــا أتــى
بهــا النــص مــن آي ومــن قــول أحمــد
بكــل معــانيهــا فحــق حقيقــة
وليســت مجــازًا قــول أهــل التمــرُّد
فليــس كمثــل الله شــيء ولا لــه
سَمِــيّ وقــل لا كُفــو لله تهتــد
وذا كلــه معنــى شهــادة أنــه
إلــه الــورى حقًّــا بغيــر تــردد
فحقِّــق لهــا لفظًــا ومعنــى فــإنهــا
لنعــم الــرجــا يــوم اللقــا للمــوحــد
هــي العــروة الــوثقــى فكــن متمسكًــا
بهــا مستقيمًــا فــي الطــريــق المحمــدي

فكـــن واحـــدًا فـــي واحـــد ولـــواحـــد
تعـــالـــى ولا تشـــرك بـــه أو تنـــدد

* * *

ومـــن لـــم يقيِّـــدهـــا بكـــل شـــروطهـــا
كمـــا قـــالـــه الأعـــلام مـــن كـــل مهتـــد

فليـــس علـــى نهـــج الشـــريعـــة ســـالكًـــا
ولكـــن علـــى آراء كـــل ملـــدد

فـــأولهـــا: العلـــم المنـــافـــي لضـــده
مـــن الجهـــل، إن الجهـــل ليـــس بمسعـــد

فلـــو كـــان ذا علـــم كثيـــر وجـــاهـــلاً
بمـــدلـــولهـــا يـــومًـــا فبـــالجهـــل مـــرتـــد

وثـــانيهـــا: وهـــو القبـــول وضـــده
هـــو الـــرد فـــافهـــم ذلـــك القيـــد تـــرشـــد

كحـــال قـــريـــش حيـــن لـــم يقبلـــوا الهـــدى
وردوه لمـــا أن عتـــوا فـــي التمـــرد

وقـــد علمـــوا منهـــا المـــراد وأنهـــا
تـــدل علـــى تـــوحيـــده والتفـــرد

فقـــالـــوا كمـــا قـــد قـــالـــه الله عنهـــم
بســـورة ص[1] فـــاعلمـــن ذاك تهتـــد

فصـــارت بـــه أمـــوالهـــم ودمـــاؤهـــم
حـــلالاً وأغنـــامًـــا لكـــل مـــوحـــد

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وثــالثهـــا: الإخـــلاص، فـــاعلـــم وضـــده
هـــو الشـــرك بـــالمعبـــود فـــي كـــل مقصـــد
كمـــــا أمـــــر الله الكـــــريـــــم نبيـــــه
بســـورة تنـــزيـــل الكتـــاب الممجـــد

❋ ❋ ❋

ورابعهـــا: شـــرط المحبـــة، فلتكـــن
محبًـــا لمـــا دلَّـــت عليـــه مـــن الهـــدي
وإخـــلاص أنـــواع العبـــادة كلهـــا
كـــذا النفـــي للشـــرك المفنـــد والـــدد
ومـــن كـــان ذا حـــب لمـــولاه إنمـــا
يتـــم بحـــب الـــديـــن ديـــن محمـــد
فعـــاد الـــذي عـــادى لـــديـــن محمـــد
ووال الـــذي والاه مـــن كـــل مهتـــد
وأحبـــب رســـول الله أكمـــل مـــن دعـــا
إلـــى الله والتقـــوى وأكمـــل مـــرشـــد
أحـــب مـــن الأولاد والنفـــس بـــل ومـــن
جميـــع الـــورى والمـــال مـــن كـــل أتلـــد
وطـــارفـــه والـــوالـــديـــن كليهمـــا
بـــآبـــائنـــا والأمهـــات فتفتـــدي
وأحبـــب لحـــب الله مـــن كـــان مـــؤمنًـــا
وأبغـــض لبغـــض الله أهـــل التمـــرد
ومـــا الـــديـــن إلاَّ الحـــب والبغـــض والـــولا
كـــذاك البـــرا مـــن كـــل غـــاو ومعتـــد

❋ ❋ ❋

وخـــامسهـــا: فـــالانقيـــاد وضـــده
هـــو التـــرك للمـــأمـــور أو فعـــل مفســـد
فتنقـــاد حقًّـــا بـــالحقـــوق جميعهـــا
وتعمـــل بـــالمفـــروض حتمًـــا وتقتـــدي
وتتـــرك مـــا قـــد حـــرم الله طـــائعًـــا
ومستسلمًـــا لله بـــالقلـــب تـــرشـــد
فمـــن لـــم يكـــن لله بـــالقلـــب مسلمًـــا
ولـــم يـــك طـــوعًـــا بـــالجـــوارح ينقـــد
فليـــس علـــى نهـــج الشـــريعـــة ســـالكًـــا
وإن خـــال رشـــدًا مـــا أتـــى مـــن تعبـــد
وســـادسهـــا: وهـــو اليقيـــن، وضـــده
هـــو الشـــك فـــي الـــديـــن القـــويـــم المحمـــدي
ومـــن شـــك فليبكـــي علـــى رفـــض دينـــه
ويعلـــم أن قـــد جـــاء يـــومًـــا بمـــوئـــد
بهـــا قلبـــه مستقينًـــا جـــاء ذكـــره
عـــن السيـــد المعصـــوم أكمـــل مـــرشـــد
ولا تنفـــع المـــرء الشهـــادة فـــاعلمـــن
إذا لـــم يكـــن مستقينًـــا ذا تجـــرد
وســـابعهـــا: الصـــدق، المنـــافـــي لضـــده
مـــن الكـــذب الـــداعـــي إلـــى كـــل مفســـد
وعـــارف معنـــاهـــا إذا كـــان قـــابـــلاً
لهـــا عـــامـــلاً بـــالمقتضـــى فهـــو مهتـــد

وطـــابـــق فيهـــا قلبـــه للســـانـــه
وعـــن واجبـــات الـــديـــن لـــم يتبلَّـــد
ومـــا لـــم تقـــم هـــذي الشـــروط جميعهـــا
بقـــائلهـــا يـــومًـــا فليـــس علـــى الهـــدي»[1]

❑ ❑ ❑

(١) الدرر السنية ١/ ٥٨١ ــ ٥٨٣ .

المبحث العاشر

أحوال وأصناف الناطقين بكلمة التوحيد

قال سليمان بن سحمان:

«اعلم رحمك الله: أن كلمة الإخلاص، لا إلـه إلاَّ الله، هي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أُسِّست الملَّة، ونُصِبت القبلة، ولأجلها جُرِّدت سيوف الجهاد، وبها أمر الله جميع العباد فهي: فطرة الله التي فطر الناس عليها، ومفتاح عبوديَّته، التي دعا الأمم على ألسن رسله إليها، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وأساس الفرض والسنّة، فإذا عرفت هذا، فاعلم: أن لا إلـه إلاَّ الله، لا تنفع قائلها، إلاَّ بعد معرفة معناها، والعمل بمقتضاها وأنها لا تنفعه إلاَّ بعد الصدق، والإخلاص، واليقين، لأن كثيرًا ممن يقولها في الدرك الأسفل من النار.

شروط: لا إلـه إلاَّ الله

فلا بدّ في شهادة: أن لا إلـه إلاَّ الله، من اعتقاد بالجَنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، فإن اختل نوع من هذه الأنواع، لم يكن الرجل مسلمًا، فإذا كان الرجل مسلمًا وعاملاً بالأركان، ثم حدث منه قول أو فعل أو اعتقاد يناقض ذلك،

لا بدّ لهذه الشروط من تحققها على اللسان والقلب والجوارح

لم ينفعه قول: لا إلـه إلاَّ الله. وأدلة ذلك في الكتاب والسنّة، وكلام أئمة الإسلام، أكثر من أن تحصر.

وقد أخرج البخاري في صحيحه، بسنده عن قتادة، قال حدثنا: أنس بن مالك، أن النبي ﷺ ــ ومعاذ رضي الله عنه، رديفه على الرحل ــ قال: «يا معاذ»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ»، قال: لبَّيك يا رسول الله وسعديك، ثلاثًا، قال: «**ما من أحد يشهد ألا إلـه إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله، صدقًا من قلبه، إلاَّ حرم الله تعالى عليه النار**»، قال: يا رسول الله، أفلا أخبر الناس فيستبشروا؟ قال: «**إذا يتكلوا**»، فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا.

(متى يحرم التوحيد أصحابه على النار)

قال شيخ الإسلام، وغيره في هذا الحديث، ونحوه: أنه فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة، لقوله: «خالصًا من قلبه» غير شاك فيها، بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد: أن لا إلـه إلاَّ الله، خالصًا من قلبه، دخل الجنة، لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى، بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحالة نال ذلك.

فإنه قد تواترت الأحاديث: بأنه يخرج من النار، من قال لا إلـه إلاَّ الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيرًا ممن يقول «لا إلـه إلاَّ الله» يدخل النار، ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرَّم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم.

فهؤلاء كانوا يصلون، ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم

على النار من قال: «لا إلـه إلاَّ الله»، وشهد ألا إلـه إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال.

حال أكثر من ينطق بكلمة الإخلاص

وأكثر من يقولها، لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها، تقليدًا وعادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت، وفي القبور، أمثال هؤلاء، كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»، وغالب أعمال هؤلاء، إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم من أقرب الناس، من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف/ ٢٢].

(أحوال ومقامات الناطقين بكلمة التوحيد)

تعريف التوحيد الماحي للذنوب

وحينئذٍ: فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تامّ، لم يكن في هذا الحال مصرًّا على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه، يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذًا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرَّم الله، ولا كراهة لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين: لا يترك له ذنبًا إلاَّ محي عنه، كما يمحو الليل النهار.

فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مصر على ذنب أصلاً، فيغفر له ويحرم على النار.

وإن قالها على وجه، خلص به من الشرك الأكبر، دون الأصغر، ولم يأتِ بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث

البطاقة، فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة، بقدر ذنوبه.

وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته، ومات مصرًّا على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن قال: لا إلـه إلاَّ الله، وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصًا، لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص، فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلاَّ راجحة على سيئاته، ولا يكون مصرًّا على سيئات، فإن مات على ذلك دخل الجنة.

الذنوب توهن التوحيد والإخلاص وتضعفه

وإنما يخاف على المخلص: أن يأتي بسيئة راجحة، فيضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر، بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك، فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول لا إلـه إلاَّ الله، فيمتنع الإخلاص بالقلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي، أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن، من غير ذوق طعم وحلاوة.

السيئات تضعف الإيمان واليقين

فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك، بل يقولونها من غير يقين وصدق، ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة، تمنعهم من دخول الجنة، فإذا كثرت الذنوب، ثقل على اللسان قولها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غيره،

واطمأن إلى الباطل، واستحلى الرفث ومخالطة أهل الباطل، وكره مخالطة أهل الحق.

فمثل هذا: إذا قالها، قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدقه عمله.

قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال خيرًا قبل منه، ومن قال خيرًا وعمل شرًّا لم يقبل منه، وقال أبو بكر بن عبد الله المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام، ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه.

فمن قال لا إلـه إلاَّ الله ولم يقم بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوبًا، وكان صادقًا في قولها موقنًا بها، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة، ومات مصرًّا على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق ثابت، فإنه لا يموت مصرًّا على الذنوب، إما: ألا يكون مصرًّا على سيئة أصلاً، أو يكون توحيده المتضمِّن لصدقه ويقينه، رجح حسناته.

(الأسباب المؤدية إلى دخول النار للذين نطقوا بكلمة التوحيد)

والذي يدخل النار، ممن يقولها، إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام، المنافيين للسيئات أو لرجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات، رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك، بصدق ويقين تام، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم.

فقولها من مثل هؤلاء: لا يقوى على محو السيئات، فترجح

سيئاتهم على حسناتهم. انتهى ملخصًا»[1].

***

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

تعريف أصل الدين، الذي ليس للمشرك منه أدنى نصيب

«أصل دين الإسلام وقاعدته أمران: الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والتحريض على ذلك، والموالاة فيه، وتكفير من تركه. الثاني: الإنذار عن الشرك في عبادة الله، والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه، وتكفير من فعله.

(أنواع المخالفين لكلمة التوحيد، ممن نطقوا بها)

والمخالفون في ذلك أنواع:

فأشدهم مخالفة: من خالف في الجميع.

ومن الناس من عبد الله وحده، ولم ينكر الشرك، ولم يعاد أهله.

ومنهم: من عاداهم، ولم يكفرهم. ومنهم: من لم يحب التوحيد، ولم يبغضه.

ومنهم: من كفرهم، وزعم أنه مسبّة للصالحين.

ومنهم: من لم يبغض الشرك، ولم يحبه.

ومنهم: من لم يعرف الشرك، ولم ينكره.

ومنهم: من لم يعرف التوحيد، ولم ينكره.

ومنهم: وهو أشد الأنواع خطرًا، من عمل بالتوحيد لكن لم يعرف قدره، ولم يبغض من تركه، ولم يكفرهم.

ومنهم: من ترك الشرك وكرهه، ولم يعرف قدره، ولم يعاد

---

(١) الدرر السنية ٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥٥.

أهله ولم يكفرهم، وهؤلاء: قد خالفوا ما جاءت به الأنبياء من دين الله سبحانه وتعالى، والله أعلم»[1].

وقال عبد الرحمن بن حسن شارحًا لكلام إمامه وشيخه محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله السابق ذكره:

أنواع المخالفة في التوحيد

«ثم قال رحمه الله تعالى: والمخالف في ذلك أنواع، فأشدهم مخالفة من خالف في الجميع، فقبل الشرك واعتقده دينًا، وأنكر التوحيد واعتقده باطلاً، كما هو حال الأكثر، وسببه: الجهل بما دل عليه الكتاب والسنّة، من معرفة التوحيد، وما ينافيه من الشرك والتنديد، واتباع الأهواء وما عليه الآباء، كحال من قبلهم من أمثالهم من أعداء الرسل، فرموا أهل التوحيد، بالكذب، والزور، والبهتان، والفجور، وحجتهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء/ ٧٤].

وهذا النوع من الناس، والذي بعده، قد ناقضوا ما دلَّت عليه كلمة الإخلاص، وما وضعت له، وما تضمنته من الدين الذي لا يقبل الله دينًا سواه، وهو دين الإسلام، الذي بعث الله به جميع أنبيائه ورسله، واتفقت دعوتهم عليه كما لا يخفى فيما قصَّ الله عنهم في كتابه.

التوحيد لا يحصل إلَّا بنفي الشرك والكفر بالطاغوت

ثم قال رحمه الله: ومن الناس من عبد الله وحده، ولم ينكر الشرك، ولم يعاد أهله.

قلت: ومن المعلوم: أن من لم ينكر الشرك، لم يعرف التوحيد ولم يأتِ به، وقد عرفت: أن التوحيد لا يحصل إلَّا بنفي الشرك، والكفر بالطاغوت المذكور في الآية.

(١) الدرر السنية ٢/ ٢٢.

ثم قال رحمه الله تعالى: ومنهم من عاداهم ولم يكفرهم.

من لم يكفر المشرك بعد البيان له يكون كافرًا

فهذا النوع أيضًا: لم يأتِ بما دلَّت عليه لا إلـه إلاَّ الله من نفي الشرك وما تقتضيه من تكفير من فعله، بعد البيان إجماعًا، وهو مضمون سورة الإخلاص، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافرون/ ١].

وقوله في آية الممتحنة: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة/ ٤]، ومن لم يكفِّر من كفره القرآن، فقد خالف ما جاءت به الرسل من التوحيد، وما يوجبه.

ثم قال رحمه الله: ومنهم من لم يحب التوحيد، ولم يبغضه.

لا إسلام إلاَّ بمحبة التوحيد، فمحبة التوحيد شرط في قبوله، والإسلام لا يحصل بدونها

فالجواب: أن من لم يحب التوحيد، لم يكن موحِّدًا، لأنه هو الدين الذي رضيه الله تعالى لعباده، كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة/ ٣].

فلو رضي بما رضي به الله، وعمل به لأحبه، ولا بد من المحبة، لعدم حصول الإسلام بدونها، فلا إسلام إلاَّ بمحبة التوحيد، قال شيخ الإسلام، رحمه الله: الإخلاص: محبة الله، وإرادة وجهه، فمن أحب الله أحب دينه، وما لا فلا، وبالمحبة يترتب عليها ما تقتضيه كلمة الإخلاص، من شروط التوحيد.

ثم قال رحمه الله تعالى: ومنهم من لم يبغض الشرك، ولم يحبه.

بغض الشرك، شرط في صحة الإسلام

قلت: ومن كان كذلك، فلم ينفِ ما نفته لا إلـه إلاَّ الله من الشرك والكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه، فهذا ليس من الإسلام في شيء أصلاً، ولم يعصم دمه ولا ماله كما دلَّ عليه الحديث المتقدِّم.

لا يكون العبد موحدًا، حتى يتبرأ من الشرك وفاعله ويكفره

وقوله رحمه الله: ومنهم من لم يعرف الشرك، ولم ينكره.

قلت: من لم يعرف الشرك ولم ينكره، لم ينفه، ولا يكون موحِّدًا، إلاَّ من نفى الشرك وتبرأ منه وممن فعله، وكفَّرهم.

بالجهل بالشرك، لا يحصل شيء من مدلول لا إلـٰه إلاَّ الله

وبالجهل بالشرك، لا يحصل شيء مما دلَّت عليه، لا إلـٰه إلاَّ الله، ومن لم يقم بمعنى هذه الكلمة ومضمونها، فليس من الإسلام في شيء، لأنه لم يأتِ بهذه الكلمة ومضمونها، عن علم ويقين، وصدق وإخلاص، ومحبة وقَبول وانقياد، وهذا النوع ليس معه من ذلك شيء، وإن قال لا إلـٰه إلاَّ الله، فهو لا يعرف ما دلَّت عليه، ولا ما تضمنته.

ثم قال رحمه الله تعالى: ومنهم من لم يعرف التوحيد، ولم ينكره.

فأقول: هذا كالذي قبله، لم يرفعوا رأسًا بما خلقوا له من الدين الذي بعث الله به رسله، وهذه الحال حال من قال الله فيهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان/ ٤٤].

وقوله رحمه الله: ومنهم ـ وهو أشد الأنواع خطرًا ـ من عمل بالتوحيد ولم يعرف قدره، فلم يبغض من تركه، ولم يكفرهم.

شروط صحة التوحيد

فقوله رحمه الله: وهو أشد الأنواع خطرًا، لأنه لم يعرف قدر ما عمل به، فلم يجيء بما يصحح توحيده من القيود الثقال التي لا بدّ منها، لما علمت أن التوحيد يقتضي: نفي الشرك، والبراءة منه، ومعاداة أهله وتكفيرهم، مع قيام الحجة عليهم، فهذا قد يغتر بحاله، وهو لم يجيء بما عليه من الأمور التي دلَّت عليها كلمة الإخلاص، نفيًا وإثباتًا.

وكذلك قوله رحمه الله: ومنهم من ترك الشرك وكرهه، ولم يعرف قدره.

فهذا أقرب من الذي قبله، لكن لم يعرف قدر الشرك، لأنه لو عرف قدره لفعل ما دلَّت عليه الآيات المحكمات، كقول الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف/ ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة/ ٤].

فلا بد لمن عرف الشرك وتركه من أن يكون كذلك من الولاء والبراء، من العابد والمعبود، وبغض الشرك وأهله وعداوتهم، وهذان النوعان هما الغالب على أحوال كثير ممن يدَّعي الإسلام، فيقع منهم من الجهل بحقيقته، ما يمنع الإتيان بكلمة الإخلاص، وما اقتضته على الكمال الواجب الذي يكون به موحِّدًا، فما أكثر المغرورين الجاهلين بحقيقة الدين»[1].

وقال أيضًا رحمه الله **تعالى**:

قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف/ ١١٠].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الآية: أي كما أن الله واحد لا إلـه سواه، فكذلك ينبغي أن يكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرَّد بالإلـهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء، المقيَّد بالسنة.

(١) الدرر السنية ٢/ ٢٠٦ ــ ٢١٠.

أصل الدين: هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة

وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ والمرسلين قبله، هو: إفراده تعالى بأنواع العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء/ ٢٥].

أقسام المخالفين في التوحيد

والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام:

إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلهيته، ويدعو الناس إلى عبادته.

أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان.

أو مشرك يدعو غير الله ويتقرَّب إليه بأنواع العبادة أو بعضها.

أو شاكّ في التوحيد: أهو حق، أم يجوز أن يجعل لله شريك في عبادته؟

أو جاهل يعتقد: أن الشرك دين يقرب إلى الله.

الشرك هو الغالب على أكثر العوام

وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم مَن قبلهم، لما اشتدت غربة الدين، ونسي العلم بدين المرسلين»[1].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

«في الإشارة إلى ما تضمَّنته: لا إلـه إلاَّ الله من نفي الشرك وإبطاله، وتجريد التوحيد لله تعالى، والإشارة إلى بعض ما تنتقض به عرى الدين الذي بعث الله به المرسلين.

الإفراط كثيرًا ما يؤدي إلى التفريط

والباعث لذلك ما بلغني عن رجل كان قبل طروق الفتن يغلو في التكفير ويكفر بأشياء لم يكفر بها أحدًا من أهل العلم، ثم إنه بعد ذلك قال: من قال لا إلـه إلاَّ الله فهو المسلم المعصوم، وإن قال ما قال.

---

(١) فتح المجيد ص ٣٥٧، ٣٥٨.

(شروط الانتفاع بالكلمة العاصمة)

فأقول وبالله التوفيق: اعلم أن لا إلـه إلاَّ الله كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام.

وقد سمَّاها الله تعالى كلمة التقوى والعروة الوثقى، وهي كلمة الإخلاص التي جعلها إبراهيم الخليل عليه السلام كلمة باقية في عقبه، ومضمونها: نفي الإلـهية عما سوى الله، وإخلاص العبادة بجميع أفرادها لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف/ ٢٦، ٢٧].

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [يوسف/ ٣٨].

وقال بعدها: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف/ ٤٠].

وقال تعالى لخاتم رسله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ﴾ الآية [الرعد/ ٣٦].

وقال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ﴾ [هود/ ٢٦].

وقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات/ ٤، ٥].

تفاوت الناس في التوحيد اعتقادًا، وعلمًا وعملًا

وقد تفاوت الناس في هذه الكلمة بحسب حالهم علمًا وعملاً.

فمنهم من يقولها وهو يجهل مدلولها ومقتضاها، فلا يعرف الإلـه المنفي بأداة النفي، ولا الإلـهية المثبتة لله تعالى، فهذا لا تنفعه بلا ريب، تجده يأتي بما يناقضها وهو لا يدري.

واعلم أن لها شروطًا ثقالاً:

منها: العلم بمدلولها ومقتضاها وحقوقها ولوازمها ومكملاتها.

ومن شروطها: الصدق واليقين وإرادة وجه الله والكفر بما يُعبد من دون الله، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف/ ٨٦].

وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد/ ١٩].

وصحّت الأحاديث عن النبي ﷺ بذكر هذه الشروط كلها، ومن لم يكن كذلك لم تنفعه لا إلـه إلاَّ الله، لأن القول بلا علم هباء.

قال شيخ الإسلام: ومن فقد الدليل، ضلَّ السبيل.

وكذلك من يقولها وهو لا يجهل مضمونها ومقتضاها، لكن يمنعه من قصد ذلك واتباع الحق والعمل به موانع من آفات النفوس، فتجده ينكر التوحيد تارة ويبغض أهله ويحب الشرك وأهله، كحال الذين قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون/ ١].

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون/ ١].

فلو أنَّ مجرَّد القول ينفع بدون الإخلاص والصِّدق واليقين القلبي لنفع هؤلاء.

من شروط الكلمة العاصمة: البراءة من المشركين

فكذلك من يقول ظانًّا أنه أتى بمضمونها ومقتضاها، ويأتي بما يناقضها من موالاة المشركين ومظاهرتهم على المسلمين والاستبشار بنصرهم وظهورهم وغير ذلك من الأمور التي عدَّها العلماء من نواقض الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب/ ٢٦]، وقال تعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص/ ٨٦، ٨٧].

ومعنى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، أي: إلى توحيده واتباع أمره وترك نهيه، ثم قال: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص/ ٨٨].

فذكر أمورًا أربعة كله تنافي قول لا إلـه إلاَّ الله، يحقق ذلك نهي الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة أعدائه في أول سورة الممتحنة وفي غيرها، وقال: ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة/ ١].

وتدبَّر تلك الآيات وما رتب الله تعالى من الوعيد الأكيد والعذاب الشديد، ونفي الإيمان وحبوط الأعمال على هذه الأمور التي لا يعدها من وقعت منه كبير ذنب، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»[١].

* * *

(١) مجموعة الرسائل النجدية ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧.

كلمات منتقاة، مضيئة

● فاعلم أن الإلـه هو: المعبود، هذا هو تفسير هذه اللفظة بإجماع أهل العلم.

[الشيخان محمد بن عبد الوهاب، وسليمان بن عبد الله]

● العبادة لا تسمَّى عبادة إلَّا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمَّى صلاة إلَّا مع الطهارة.

فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، وعبادة الله لا تحصل إلَّا بالكفر بالطاغوت، والعبادة هي: التوحيد، لأن الخصومة كانت فيه.

[الشيخ محمد بن عبد الوهاب]

● العبادة لا تنفع مع الشرك، بل لا تسمَّى عبادة.

[الشيوخ: عبد الرحمن بن حسن،
وسليمان بن عبد الله، وعبد الله أبو بطين]

● وسمِّي دين الإسلام توحيدًا، لأن مبناه على أنَّ الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلـٰهيته وعبادته لا ندَّ له.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

• لا خلاف بين الأمة، أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب الذي هو: العلم، واللسان الذي هو: القول، والعمل الذي هو: تنفيذ الأوامر والنواهي. فإن أخلَّ بشيء من هذا لم يكن الرجل مسلمًا.

[الشيخان: محمد بن عبد الوهاب، وسليمان بن سحمان]

• التوحيد هو: الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله.

فالتوحيد الذي بعث الله به رسله، غريب في الناس جدًا، وأكثرهم لا يعرف حقيقته، ولا يعرف الشرك الأكبر المنافي له.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

• لقد نفىٰ التوحيد الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه حقنت الدماء والأموال، وانفصلت دار الإيمان من دار الكفر وصحَّت به الملَّة للعامة.

[الإمام ابن قيِّم الجوزية]

• النطق بالشهادتين من غير معرفة لمعناها، ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع.

[الشيخان: عبد الرحمن بن حسن، وسليمان بن عبد الله]

• الغاية المحمودة، التي بها كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم: عبادة الله وحده، وهي حقيقة لا إلـٰه إلاَّ الله، وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص، لم يكن من أهل النجاة والسعادة.

فكل من سوَّى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب، بحيث يحبه كما يحب الله، ويخشاه كما يخشى الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويدعوه كما يدعو الله، فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله، ولو كان مع ذلك عفيفًا في طعامه ونكاحه، وكان حليمًا شجاعًا.

[شيخ الإسلام ابن تيمية]

● فإن الرجل لو أقرَّ بما يستحقه تعالى من الصفات، ونزَّهه عن كل ما ينزَّه عنه، وأقرَّ بأنه خالق كل شيء، لم يكن موحِّدًا حتى يشهد أن: لا إلـٰه إلاَّ الله وحده، فيقرّ بأنَّ الله وحده هو الإلـٰه المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له.

[شيخ الإسلام ابن تيمية]

● وأكثر من يقول: لا إلـٰه إلاَّ الله، لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها تقليدًا وعادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتتن عند الموت وفي القبور، أمثال هؤلاء، كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته».

وغالب أعمال هؤلاء، إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف/ ٢٣]، ومن قالها: على وجه الكمال، المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مُصِرٍّ على ذنب أصلاً، فيغفر له ويحرم على النار...

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة، فيضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشىٰ عليه بذلك من الشرك الأكبر والأصغر...

والذي يدخل النار ممن يقولها، إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام، المنافيين للسيئات أو لرجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم.

[شيخ الإسلام ابن تيمية]

● ولا ريب أنه لو قال أحد من المشركين: لا إلـه إلَّا الله، ونطق أيضًا بشهادة: أن محمدًا رسول الله، ولم يعرف معنى الإلـه، ولا معنى الرسول، وصلىٰ وصام وحج، ولا يدري ما ذاك، إلَّا أنه رأى الناس يفعلونه، فتابعهم ولم يفعل شيئًا من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه.

وقد أفتىٰ بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر أو قبله، في شخص كان كذلك، كما ذكره صاحب «الدر الثمين في شرح المرشد المعين» من المالكية، ثم قال شارحه: وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

● اعلم رحمك الله تعالى: أن كلمة الإخلاص «لا إلـه إلَّا الله» لا تنفع قائلها إلَّا بمعرفة معناها، وهو نفي الإلـهية عما سوى الله، والبراءة من الشرك في العبادة، وإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة

الجهل بالشرك، لا يحصل به شيء مما دلَّت عليه: لا إلـه إلَّا الله، ومن لم يقم بمعنى هذه الكلمة ومضمونها، فليس من الإسلام في شيء.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● من صرف شيئًا مما لا يصلح إلَّا لله من العبادات لغير الله، فهو مشرك، ولو نطق بـ: لا إلـه إلَّا الله، إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

● والمشرك قد عكس مدلول لا إلـه إلاَّ الله، فأثبت ما نفته، ونفىٰ ما أثبتته من الإخلاص.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● لقد تبيَّن أنَّ مشركي هذه الأزمان، أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب، ومن قبلهم.

[الشيخان: عبد الرحمن بن حسن، وسليمان بن عبد الله]

❑ ❑ ❑

الفصل الثالث

كيفية الإيمان بالرسالة
وتحقيق أركانها ومقتضياتها

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول : نعمة بعثة الرسل، وحاجة الناس الماسّة إليها.

المبحث الثاني : علّة بعثته ودلائل نبوته ﷺ.

المبحث الثالث : أركان الشهادة بالنبوّة، وواجبات الأمة نحوها.

المبحث الرابع : مقتضيات الشهادة بالنبوّة ولوازمها.

المبحث الخامس : الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته يستلزم الإيمان برسوله ﷺ مع إفراده بالطاعة والاتباع، والحكم في كافة المنازعات.

المبحث السادس : كيف بلغ النبي ﷺ التوحيد، وصان جنابه من أيّ حدث دخيل عليه.

المبحث السابع : حكم من سبَّ النبي ﷺ، أو استهزأ بحكم من أحكامه، أو دفع شيئًا مما جاء به، أو سوَّغ لواحد من البشر الخروج عن شريعته.

المبحث الأول

نعمة بعثة الرسل، وحاجة الناس الماسّة إليها

قال الشيخ صالح الفوزان:

حاجة الناس إلى الرسل، أشد من حاجتهم للطعام والشراب

«وبَعْث الرسل نعمة من الله على البشرية؛ لأن حاجة البشرية إليهم ضرورية؛ فلا تنتظم لهم حال، ولا يستقيم لهم دين؛ إلاَّ بهم، فهو يحتاجون إلى الرسل أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين خلقه، في تعريفهم بالله وبما ينفعهم وما يضرهم، وفي تفصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه؛ فلا سبيل إلى معرفة ذلك إلاَّ من جهة الرسل؛ فإن العقل لا يهتدي إلى تفصيل هذه الأمور، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة/ ٢١٣].

بقاء الناس، مرهون ببقاء آثار الرسالة

وحاجة العباد إلى الرسالات: أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبيب؛ فإن غاية ما يحصل بعدم وجود الطبيب: تضرر البدن، والذي يحصل من عدم الرسالة: تضرر القلوب، ولا بقاء لأهل الأرض إلاَّ ما دامت آثار الرسالة موجودة فيهم، فإذا ذهبت آثار

الرسالة من الأرض؛ أقام الله القيامة.

وجوب الإيمان بالرسل

والرسل الذين ذكر الله أسماءهم في القرآن يجب الإيمان بأعيانهم، وهم خمسة وعشرون، منهم: ثمانية عشر ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ...﴾ إلى قوله ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام/ ٨٣، ٨٦]، والباقون ـ وهم سبعة ـ ذكروا في آيات متفرِّقة.

ومن لم يسمَّ في القرآن من الرسل؛ وجب الإيمان به إجمالاً؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر/ ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء/ ١٦٤].

إخلاص العبادة لله، والبراءة من الشرك: دين الأنبياء جميعًا

والمقصود: أن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد، وهو إخلاص العبادة لله، والنهي عن الشرك والفساد، وإن تنوعت شرائعهم حسب الظروف والحاجات، إلى أن ختموا بمحمد ﷺ، الذي عمَّت رسالته الخلق، وامتدت إلى آخر الدنيا، لا تُبدل ولا تُغير ولا تُنسخ، وهي صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان، ولا نبي بعده عليه الصلاة والسلام إلى آخر الزمان، وهو يأمر بما أمر به المرسلون من قبله من الإيمان، وإخلاص العبادة لله بما شرعه من الأحكام، وهو مصدق لإخوانه المرسلين، وإخوانه المرسلون قد بشروا به، خصوصًا أقرب الرسل إليه زمانًا، وهو المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، حين قال لقومه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف/ ٦].

وفي الكتب السابقة من بيان صفات هذا الرسول وخصائصه ما هو من أوضح الواضحات، وإن جحده من جحده من اليهود والنصارى حسدًا وتكبرًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة/ ١٤٦].

اللَّهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه»(١).

❑ ❑ ❑

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص ١٩٦، ١٩٧.

المبحث الثاني

علة بعثته، ودلائل نبوته ﷺ

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

ولما أراد سبحانه إظهار توحيده، وإكمال دينه، وأن تكون كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، بعث محمدًا خاتم النبيين، وحبيب رب العالمين، وما زال في كل جيل مشهورًا، وفي توراة موسى وإنجيل عيسى مذكورًا، إلى أن أخرج الله تلك الدرة، بين بني كنانة وبني زهرة، فأرسله على حين فترة من الرسل، وهداه إلى أقوم السبل، فكان له ﷺ من الآيات الدالة على نبوته قبل مبعثه ما يعجز أهل عصرها. فمن ذلك:

قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني أنه خرج منها نور أضاءت له بُصرى من أرض الشام».

(آيات مولده ﷺ)

وولد ﷺ ليلة الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل، وانشق إيوان كسرى ليلة مولده حتى سمع انشقاقه وسقط أربعة عشر

شرفة[1] وهو باق إلى اليوم آية من آيات الله، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك، وغاضت بحيرة ساوة، وكانت بحيرة عظيمة في مملكة العراق عراق العجم وهمدان تسير فيها السفن وهي أكثر من ستة فراسخ، فأصبحت ليلة مولده يابسة ناشفة كأن لم يكن بها ماء، واستمرت على ذلك، حتى بني مكانها مدينة ساوة، وهي باقية إلى اليوم، وأرسلت الشهب على الشياطين كما أخبر الله بقوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ الآية [الجن/ ٩].

بعض خصاله الخلقية ﷺ

وأنبته الله نباتًا حسنًا، وكان أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا وأعزهم جوارًا وأعظمهم حلمًا وأصدقهم حديثًا، حتى سمَّاه قومه «الأمين»؛ لِمَا جعل الله فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية.

ووصل بُصرى من أرض الشام مرتين، فرآه بحيرا الراهب فعرفه وأخبر عمَّه أنه رسول الله، ونصحه أن يرده، فردَّه مع غلمانه وقال لعمه: احتفظ به فلم نجد قدمًا أشبه بالقدم الذي بالمقام من قدمه.

واستمرت كفالة أبي طالب له كما هو مشهور. وبُغِّض إليه الأوثان ودين قومه فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك.

---

(١) كذا في الأصل، ولا بدَّ أن يكون صوابه: أربع عشرة شرفة منه، أو من شرفاته.
قاله الشيخ محمد رشيد رضا محقِّق الكتاب محل النقل.

(الأدلة العقلية والنقلية على صحة نبوّته ﷺ)

والدليل على أنه رسول الله ﷺ من العقل والنقل.

فأما النقل فواضح.

وأما العقل فنبَّه عليه القرآن.

من ذلك: أن ترك الله خلقه بلا أمر ولا نهي لا يناسب في حق الله، ونبَّه عليه في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام/ ٩١].

ومنه: أن قول الرجل: إني رسول الله إما أن يكون خير الناس، وإما أن يكون شرهم وأكذبهم. والتمييز بين ذلك سهل يعرف بأمور كثيرة، ونبه على ذلك بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ الآيات [الشعراء/ ٢٢١، ٢٢٢].

ومنه: شهادة الله بقوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد/ ٤٣].

ومنها: شهادة أهل الكتاب بما في كتبهم كما في هذه الآية.

إعجاز القرآن، ودلالته على صحة الرسالة

ومنها ــ وهي أعظم الآيات العقلية ــ: هذا القرآن الذي تحدَّاهم بسورة من مثله، ونحن إن لم نعلم وجه ذلك من جهة العربية، فنحن نعلمه من معرفتنا بشدة عداوة أهل الأرض له، علمائهم وفصحائهم، وتكريره هذا واستعجازهم به، ولم يتعرضوا لذلك على شدة حرصهم على تكذيبه وإدخال الشبهة على الناس.

ومنها: تمام ما ذكرنا وهو إخباره سبحانه أنه لا يقدر أحد أن يأتي بسورة مثله إلى يوم القيامة، فكان كما ذكر، مع كثرة أعدائه في كل عصر، وما أعطوا من الفصاحة والكمال والعلوم.

ومنها: نصره من اتبعه ولو كانوا أضعف الناس.

ومنها: خذلان من عاداه وعقوبته في الدنيا ولو كانوا أكثر الناس وأقواهم.

ومنها: أنه رجل أمّي لا يخط ولا يقرأ الخط، ولا أخذ عن العلماء ولا ادعى ذلك أحد من أعدائه، مع كثرة كذبهم وبهتانهم، ومع هذا أتى بالعلم الذي في الكتب الأولى كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت/ ٤٨]»[١].

(ذكر بعض خصائص الرسول ﷺ إجمالاً)

قال الشيخ صالح الفوزان يحفظه الله تعالى:

«للرسول محمد ﷺ خصائص اختصَّ بها عن غيره من الأنبياء، وخصائص اختصَّ بها عن أمته:

١ ـ أنه خاتم النبيين، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب/ ٤٠]، وقال ﷺ: «أنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي».

٢ ـ المقام المحمود، وهو الشفاعة العظمى، كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء/ ٧٩]، وكما في حديث الشفاعة الطويل المتَّفَق على صحَّته، أن الله يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيأتون آدم، ثم نوحًا، ثم موسى، ثم عيسى،

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٢٨، ٢٩.

ثم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكلهم يقول: اذهبوا إلى غيري، إلاَّ محمدًا ﷺ، فإنه يقول: أنا لها، فيخرّ ساجدًا إلى أن يؤذن له بالشفاعة، وبهذا يظهر فضله على جميع الخلق، واختصاصه بهذا المقام.

(عموم بعثته ﷺ للثقلين)

٣ ــ عموم بعثته إلى الثقلين الجن والإنس، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف/ ١٥٨].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ/ ٢٨]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان/ ١]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء/ ١٠٧]، ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف/ ٢٩]، وهذا مجمع عليه.

عموم أحكام رسالته ﷺ

والآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ فيها خطاب لجميع الخلق الجن والإنس، إذ كانت رسالته عامة للثقلين، وإن كان من أسباب النزول ما كان موجودًا في العرب، فليس شيء من الآيات مختصًّا بالسبب المعيَّن الذي نزل فيه باتفاق المسلمين، فلم يقل أحد من المسلمين: إن آيات الطلاق أو الظهار أو اللعان أو حدّ السرقة والمحاربين... وغير ذلك يختص بالشخص المعين الذي كان سبب نزول الآية.

العرب غير مختصين بحكم من الأحكام

والمقصود هنا: أن بعض آيات القرآن، وإن كان سببه أمورًا كانت في العرب، فحكم الآيات عام، يتناول ما تقتضيه الآيات لفظًا ومعنى، في أي نوع كان، ومحمد ﷺ بعث إلى الإنس والجن،

فدعوته ﷺ شاملة للثقلين الإنس والجن، على اختلاف أجناسهم، فلا يظن أنه خص العرب بحكم من الأحكام أصلاً، بل إنما علق الأحكام باسم مسلم وكافر، ومؤمن ومنافق، وبرّ وفاجر، ومحسن وظالم، وغير ذلك من الأسماء المذكورة في القرآن والحديث.

الأحكام منوطة: بالصفات المؤثرة فيها

وليس في القرآن ولا الحديث تخصيص العرب بحكم من أحكام الشريعة، وإنما علق بالصفات المؤثرة فيما يحبه الله وفيما يبغض، فأمر بما يحبه الله ودعا إليه بحسب الإمكان، ونهى عما يبغضه الله وحسم مادته بحسب الإمكان. لم يخص العرب بنوع من أنواع الأحكام الشرعية، إذ كانت دعوته لجميع البريَّة، لكن نزل القرآن بلسانهم، بل بلسان قريش، لأجل التبليغ، لأنه بلغ قومه أولاً، ثم بواسطتهم بلغ سائر الأمم، وأمره بتبليغ قومه أولاً، ثم بتبليغ الأقرب فالأقرب إليه، كما أمر بجهاد الأقرب فالأقرب.

وكما كان ﷺ مبعوثًا إلى الإنس، فهو مبعوث أيضًا إلى الجن، فقد استمع الجن لقراءته، وولَّوْا إلى قومهم منذرين، كما أخبر الله عز وجل، وهذا متفق عليه بين المسلمين.

وقد ذكر الله في القرآن من خطاب الثقلين ما يبيِّن هذا الأصل، كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [الأنعام/ ١٣٠]، وأخبر الله عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن/ ١١]، أي: مذاهب شتى، مسلمون وكفار، وأهل سنة وأهل بدعة، وقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الآية [الجن/ ١٤]، والقاسط: الجائر، يقال: قسط: إذا جار، وأقسط: إذا عدل.

قال شيخ الإسلام اين تيمية: «يجب على الإنسان أن يعلم

أن الله عزَّ وجل أرسل محمدًا ﷺ إلى جميع الثقلين الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته، وأن يحلِّلوا ما حلَّل الله ورسوله، ويحرموا ما حرَّم الله ورسوله، ويحبوا ما أحبه الله ورسوله، ويكرهوا ما كرهه الله ورسوله، وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن، فلم يؤمن به، استحق عقاب الله تعالى، كما يستحقه أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسول، وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين أهل السنة والجماعة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين».

العقاب، منوط بقيام الحجة

القرآن: المعجزة الكبرى

٤ ـ ومن خصائصه ﷺ القرآن العظيم الذي أذعن لإعجازه الثقلان، وأحجم عن معارضته مصاقيع الإنس والجان، واعترف بالعجز عن الإتيان بأقصر سورة من مثله أهل الفصاحة والبلاغة من سائر الأديان، وقد سبق تفصيل ذلك.

٥ ـ ومن خصائصه ﷺ المعراج إلى السماوات العلى، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، فكان قاب قوسين أو أدنى.

(ما اختص به ﷺ دون أمته، من الأحكام)

وأما الخصائص التي اختصَّ بها دون أمته، فقد قال القرطبي في «تفسيره»: «خصَّ الله تعالى رسوله من أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد في باب الفرض والتحريم والتحليل، مزية على الأمة، وهبة له، ومرتبة خص بها.

ففُرِضت عليه أشياء ما فُرِضت على غيره، وحُرِّمت عليه أشياء

لم تحرَّم عليهم، وحُلِّلَت له أشياء لم تحلَّل لهم، منها متفق عليه، ومنها مختلف فيه».

ثم ذكر هذه الخصائص، ومنها: التهجد بالليل، يقال: إن قيام الليل كان واجبًا عليه إلى أن مات، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل/ ١، ٢]، والمنصوص أنه كان واجبًا عليه ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء/ ٧٩].

ومنها: أنه إذا عمل عملاً أثبته.

ومنها: تحريم الزكاة عليه وعلى آله.

ومنها: أنه أُحل له الوصال في الصيام، وأحل له الزيادة على أربع نسوة.

ومنها: أنه أُحل له القتال بمكة.

ومنها: أنه لا يورث.

ومنها: بقاء زَوْجِيَّتِهِ بعد الموت، وإذا طلق امرأة، تبقى حرمته عليها، فلا تنكح... إلى غير ذلك من الخصائص النبوية»(١).

❑ ❑ ❑

(١) الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد ص ١٩٧ ـ ٢٠١.

المبحث الثالث
أركان الشهادة بالنبوّة، وواجبات الأمة نحوها

قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين يحفظه الله تعالى في معنى: شهادة أن محمدًا رسول الله:

«لمَّا كانت كلمة الشهادة عَلمًا على النطق بالشهادتين معًا، وكانتا متلازمتين لا تنفك إحداهما عن الأخرى، كان من الواجب على من أتى بكل منهما أن يعرف ما تدل عليه الكلمة، ويعتقد ذلك المعنى، ويطبقه في سيرته ونهجه.

شروط صحة الشهادة بالنبوّة

فبعد أن عرفت أن ليس المراد من «لا إلـه إلاَّ الله» مجرَّد التلفُّظ بها، فكذلك يقال في قرينتها، بل لا بد من التصديق بها، والالتزام بمعناها ومقتضاها، وهو الاعتقاد الجازم بأنه ﷺ مرسل من ربه عزّ وجلّ، قد حمَّله الله هذه الشريعة كرسالة، وكلَّفه بتبليغها إلى الأمة، وفرض على جميع الأمة تقبل رسالته والسير على نهجه، والبحث في ذلك يحتاج إلى معرفة أمور يحصل بها التأثر والتحقق لأداء هذه الشهادة والانتفاع بها، وهذه الأمور هي:

الأمر الأول: أهلية النبي ﷺ لهذه الرسالة:

قال الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص/ ٦٨].

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام/ ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [صَ/ ٤٧].

ونحو هذه الآيات التي تفيدنا بأن رسل الله من البشر، هم الذين فضّلهم واجتباهم وطهّرهم، حتى أصبحوا أهلاً لحمل رسالته، وأمناء على شرعه ودينه، ووسطاء بينه وبين عباده.

وقد ذكر الله عن بعض الأمم المكذبة للرسل أنهم قالوا لرسلهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم/ ١٠].

فكان جواب الرسل أن قالوا: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم/ ١١].

(خُلُقه ﷺ)

وحيث إن نبينا محمدًا ﷺ هو خاتم الرسل وأفضلهم، وقد خصَّه بما لم يحصل لغيره ممن قبله، فإنه بلا شك على جانب كبير من هذا الاصطفاء والاختيار الذي أصبح به مرسلاً إلى عموم الخلق من الجن والإنس، وقد قال الله تعالى له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم/ ٤].

وفي صحيح مسلم، ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان خلقه القرآن»، تعني: أنه يطبق ما فيه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال التي يشهد بحسنها وملاءمتها كل عاقل.

فلقد كان قبل نزول الوحي عليه، على جانب كبير من الأمانة والصدق والوفاء والعفاف ونحوها، حتى كان أهل مكة يعرفونه بالصادق الأمين، وقد تضاعفت وتمكّنت فيه تلك الأخلاق بعد

النبوّة، فكان يتحلّى بأعظم درجات الكرم والجود والحلم والصبر، والمروءة والشكر، والعدل والنزاهة، والتواضع والشجاعة.. إلخ، كما يوجد ذلك مدوّنًا بأمثلة رائعة في كتب السيرة والتأريخ، ولا يخالف في ذلك إلاَّ من أنكر المحسوسات.

وهكذا كان ﷺ مبرّءًا عن النقائص ومساوىء الأخلاق التي تزيل الحشمة وتسقط المروءة، وتلحق بفاعلها الإزراء والخسّة، كالبخل والشحّ، والظلم والجور، والكِبْر والكذب والجبن والعجز والكسل، والسرقة والخيانة ونحوها.

الأمر الثاني: عصمته من الخطايا:

العصمة من الكبائر، لا خلاف عليها بين الأمة

اتفقت الأمة على أن الأنبياء معصومون من كبائر الذنوب، لمنافاتها للاجتباء والاصطفاء؛ ولأن الله حمّلهم رسالته إلى البشر، فلا بد أن يكونوا قدوة لأممهم، وكلّفهم أن يحذّروا الناس من مقارفة الكفر والذنوب، والفسوق والمعاصي، فلو وقع منهم ظاهرًا شيء من هذه الخطايا، لتسلّط أعداؤهم بذلك على القدح فيهم، والطعن في شريحتهم، وذلك ينافي حكمة الله تعالى، فكان من رحمته أن حفظهم من فعل شيء من هذه المخالفات، وكلّفهم بالنهي عنها، وبيان سوء مغبّتها، كما جعلهم قدوة وأسوة في الزهد، والتقلّل من شهوات الدنيا التي تشغل عن الدار الآخرة، فأما صغائر الذنوب فقد تقع من أحدهم على وجه الاجتهاد، ولكن لا يقرّون عليها، فلا تكون قادحة في العدالة، ولا منافية للنبوّة، وإنما هي أمارة على أنهم بشر لم يصل أحدهم إلى علم الغيب، ولا يصلح أن يمنح شيئًا من صفات الربوبية.

علة عدم عصمتهم من صغائر الذنوب اجتهادًا

وقد ذكر المفسّرون وأهل العلم بعضًا مما وقع من ذلك،

كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام/ ٥٢].

وقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء/ ٧٣، ٧٤].

ونحو تلك الوقائع التي فعلها اجتهادًا لما يؤمله من مصلحة ظاهرة، علم الله تعالى أنها لا تتحقق.

فأما المعاصي والذنوب، فإن الله تعالى حماه من فعلها أو إقرارها؛ لمنافاة ذلك لصفات الرسالة والاختيار، ولمخالفة ما ورد عنه من التحذير عن الكفر والفسوق والعصيان، فأما تبليغ ما أوحي إليه من الشرع فقد ذكر العلماء المحقّقون اتفاق الأمة على عصمته؛ بل وعصمة الأنبياء فيما يبلغونه عن الله تعالى من الوحي والتشريع، بل إن الله جلَّ ذكره قد عصمه قبل النبوّة عن الشرك والخنا، ونحو ذلك.

اتفقت الأمة على: عصمة الأنبياء فيما يبلغونه عن الله

(كيف صنع الله نبيه ﷺ ليكون رسولاً خاتمًا للعالمين)

فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ما همَمت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به، وما همَمت بسوء حتى أكرمني الله برسالته». ذكره القاضي عياض في كتابه الشفا وغيره.

وقال ابن إسحاق في السيرة: فشبّ رسول الله ﷺ، يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ومعائبها، لما يريد به من كرامته ورسالته وهو على دين قومه، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلُقًا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارًا،

وأعظمهم خُلُقًا، وأصدقهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجل تنزّهًا وتكرمًا حتى ما سمّي في قومه إلاّ الأمين، لما جمع الله به في صغره وأمر جاهليته.

(الأمر الثالث: عموم رسالته)

بعض خصائصه ﷺ

اختُصَّ محمد ﷺ، دون الأنبياء بخصائص كثيرة، ذُكِرَ بعضُها في حديث جابر المتفق عليه بقوله: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة». وقال ﷺ: «بعثت إلى الأسود والأحمر» رواه مسلم.

الأدلة على عموم رسالته ﷺ

وعلى هذا فإن على جميع البشر أن يتّبعوه ويطيعوه، فإنهم جميعًا من أمته أمة الدعوة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ/ ٢٨]، أي: للناس كافة.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف/ ١٥٨].

وقد وردت الخطابات في القرآن لعموم الناس كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة/ ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النساء/ ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء/ ١٧٤]، فالإشارة إلى محمد ﷺ وما جاء به من ربه.

فهذه النصوص تبيّن أن جميع البشر مكلّفون باتباع رسالته، وملزمون بطاعته.

وقد اشتهر أيضًا أنه ﷺ مبعوث إلى الجن كما بعث إلى الإنس، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف/ ٢٩، ٣١].

وكذا قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن/ ١، ٢].

موقف أهل الكتاب المخزي من رسالته ﷺ

وقد زعم اليهود والنصارى ـ لعنهم الله ـ أن رسالة محمد ﷺ خاصة بالعرب، وذلك بعد أن اطمأنوا إلى صحة رسالته، وما تأيد به من المعجزات، وما حصل له من الأتباع، فلم يجدوا بدًّا من التصديق بأنه مرسل من ربه، ولكن حملهم الكبرُ وحبّ المناصب والمكاسب على ترك اتّباعه، وقد اعترفوا بأن ما أنزل إليه فهو وحي من الله تعالى لصدقه وصحة رسالته، ومع ذلك لم يتقبّلوا ما فيه من الأوامر الموجهة إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة/ ٤١، ٤٢]، ونحو ذلك من الآيات.

الأمر الرابع: تبليغه الرسالة:

قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة/ ٦٧].

وهذا تكليف من ربه تعالى، فلا بدَّ من حصوله مع أن هذا هو وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومحمد ﷺ من جملتهم، وقد قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورىٰ/ ٤٨].

وقال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور/ ٥٤].

وقد شهد له صحابته رضي الله عنهم بهذا البلاغ والبيان، فيقول أبو ذر رضي الله عنه: «توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه إلاَّ ذكر لنا منه علمًا».

وروى أحمد وابن ماجه عنه ﷺ قال: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلاَّ هالك».

وفي صحيح مسلم، وغيره: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن النبـي ﷺ قال: «إنه لم يكن نبـي قبلي، إلاَّ كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم».

الدعوة كانت للأقرب فالأقرب

وقد اشتهر أنه ﷺ بدأ بدعوة أهل بلده وقومه، ثم بدعوة العرب في أنحاء الجزيرة، ثم بمن وراءهم، فكان يرسل الرسل إلى القبائل في البوادي والقرى للدعوة إلى الله، وقَبول هذه الرسالة، ثم بعث الدعاة إلى اليمن والبحرين وغيرهما، ثم بعث كتبًا تتضمن الدعوة إلى هذه الشريعة إلى ملوك الفرس والروم وغيرهم، فما توفي حتى انتشرت دعوته، واشتهر أمره عند القريب والبعيد: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل/ ٣٦].

وهكذا قام صحابته من بعده بالدعوة إلى دينه، وقتال من أبـى وامتنع من قَبولها، حتى يدخل في الإِسلام أو يعطي الجزية، ويلتزم

الذلّ والصَّغار، حتى بلغت هذه الدعوة أقطار الأرض في أقصر مدة، كما ذُكِرَ في كتب التأريخ، ومع ذلك فإن من كان نائيًا في طرف البلاد، وقدر أنه لم يسمع بهذه الشريعة أصلاً فإن له حكم أهل الفترات، وهو مع ذلك مكلّف بأن يبحث وينقّب عن الدين الذي خلق له، وما يدين به الناس حوله.

الأمر الخامس: ختم النبوة:

لما كانت هذه الشريعة لجميع الخلق، وقد كلّف بها جميع العباد في أقطار البلاد، فإنما ذلك لكونها خاتمة الشرائع، وآخر الرسالات المنزلة من السماء، فيجب علينا الإيمان بأن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء وآخر الرسل، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب/ ٤٠].

وقد قرىء بفتح التاء وكسرها، وأصل الخاتم ما يختم به ما قبله، ومنه ما تختم به الرسائل حتى لا يضاف إليها شيء ليس منها، والمعنى أنه ﷺ آخر الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى الخلق، فيلزم من كونه خاتم الأنبياء أن يكون آخر الرسل.

وقد روى مسلم وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا؛ فأحسنه وأجمله إلاَّ موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة؛ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

وروى مسلم أيضًا: عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي،

وأنا العاقب الذي ليس بعده نبـي».

وفي سنن أبـي داود، وغيره في حديث ثوبان الطويل: قال النبـي ﷺ: «وأنه سيكون في أمتي كذّابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبـي، وأنا خاتم النبيين لا نبـي بعدي».

كل من ادعىٰ النبوّة بعده ﷺ، فهو كذاب أفاك

فيجب الإيمان بأنه ﷺ آخر الأنبياء، وأن من ادَّعى النبوة بعده فهو كاذب، وأن عيسى ابن مريم عليه السلام حين ينزل في آخر الزمان، إنما يحكم بشريعة محمد ﷺ، فهو كفرد من أفراد هذه الأمة، وإن كان ينزل عليه الوحي، لكنه لا يخرج عن هذا الشرع الشريف.

وعلى هذا فكل من زعم النبوة أو ادّعى الرسالة في هذه الأمة، فهو كذّاب أفّاك، ضالّ مضلّ، ولو أتى بمخرقة أو شعوذة، ولو سحر أعين الناس بأنواع من السحر والبهرج، الذي يروج على الرعاع والجهلة من العوام، كما جرى على يدي الأسود العنسي ومسيلِمة الكذّاب، من الأحوال الشيطانية، والترَّهات الباطلة التي يعلم كذبها كل ذي عقل سليم، وكذلك غيرهما ممن ادّعى النبوة وحصل له أتباع وشوكة، وفُتِنَ به بعض الناس، ومن آخرهم غلام أحمد القادياني، الذي انتَشر شرّه، وفُتِنَ بشبهته طوائف وأمم في الهند والسند وكثير من البلاد، وهكذا كل مدّع للنبوة إلى يوم القيامة، وآخرهم الدّجال الكذّاب الذي وردت السنة بأمره وبيان فتنته والتحذير من شرِّه، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء/ ٢٢١، ٢٢٢].

فهذا يدل على أن أولئك الكذّابين تنزّل عليهم الشياطين،

وتخيّل إليهم أنّ ما يأتيهم وحي من الله، ولكن سنّة الله في خلقه أن يجعل على الحق نورًا، وأن الخرافات والأكاذيب لا بدّ وأن ينكشف أمرها، ويتجلّى لأولي الألباب.

(واجب الأمة نحو نبيها ﷺ)

وبعد أن عرفنا صدقه ﷺ فيما جاء به، وصحة رسالته، ووجوب تصديقه، وذلك هو مدلول شهادة أن محمدًا رسول الله، التي تستلزم تصديقه ثم التعبد باتباعه، والإيمان بما يترتب على ذلك من الثواب وعلى تركه من العقاب، فإن من واجبنا أن نقوم بتحقيق ذلك وتطبيقه في واقع الحياة، وذلك يتمثل في أوامر وردت أدلتها في الكتاب والسنة وهي:

أولاً: الإيمان به ﷺ:

فقد أمر الله بذلك كما أمر بالإيمان بالله والملائكة والكتب، ورتّب الله تعالى على ذلك جزيل الثواب، وعلى تركه أليم العقاب.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء/ ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد/ ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ [التغابن/ ٨].

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأعراف/ ١٥٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣﴾ [الفتح/ ١٣]، وغيرها من الآيات في هذا المعنى.

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا: أن لا إلـه إلاَّ الله، ويؤمنوا بـي وبما جئت به».

وفسَّر ﷺ الإيمان في حديث جبريل المشهور بقوله: «أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر: خيره، وشره».

كيفية الإيمان بالنبوَّة (قول القلب، فعمله، فقول اللسان، فعمل الجوارح)

ولا شك أن الإيمان به ﷺ يستلزم تصديقه فيما جاء به، واعتقاد صحة رسالته، ذلك أن أصل الإيمان يقين القلب واطمئنانه بصحة الشيء، ثم التكلّم به عن معرفة وإيمان، ثم تطبيق ذلك بالعمل بمقتضاه، فباجتماع ذلك يتم الإيمان، ويعتبر وسيلة للنجاة. وبتخلّف تصديق القلب يبطل أثر الشهادة ولا تنفع قائلها، ولهذا كذّب الله المنافقين بقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون/ ١].

ثانيًا: الأمر بطاعته ﷺ والتحذير من معصيته:

لوازم التصديق بالنبوَّة

ولا شك أن طاعته من علامات الإيمان به، فإن التصديق الجازم بصدقه يستلزم طاعته فيما بلّغه عن الله تعالى، فمن خالفه في

ذلك أو شيء منه عنادًا أو تهاونًا، لم يكن صادقًا في شهادته بالرسالة، ولقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول ﷺ، في مواضع كثيرة من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء/ ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المائدة/ ٩٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴾ [النور/ ٥٤].

ومثل معنى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر/ ٧].

بل قد رتّب على طاعته ﷺ جزيل الثواب فقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران/ ١٣٢].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٧١].

وهكذا توعّد على معصيته بالعقوبة الشديدة: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء/ ١٣، ١٤].

وحكى عن أهل النار قولهم: ﴿ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٦٦].

وورد في الصحيح عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «مـن أطـاعنـي فقـد أطـاع الله، ومـن عصـانـي فقـد عصى الله».

ومعنى هذا أنه ﷺ إنما يأمر بما أوحى إليه، فطاعته في ذلك طاعة لربه، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء/ ٨٠].

وروى البخاري: عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يدخل الجنة إلاَّ من أبـى»، قالوا: يا رسول الله وكيف يأبـى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبـى».

حدّ الطـاعـة، الواجب الامتثال

ولا شك أن طاعته هي فعل ما أمر به، وتجنّب ما نهى عنه، والتسليم مع ذلك لما جاء به والرضى بحكمه وترك الاعتراض على شرعه أو التعقّب والانتقاد لحكمه.

ثالثًا: أمر الأمة باتِّباعه والاقتداء بسنَّته:

وقد رتَّب الله على ذلك الاهتداء والمغفرة، وجعله علامة على صدق المحبة لله تعالى، قال عز وجل: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف/ ١٥٨].

ولمَّا ادَّعى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه أنزل آية المحنة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران/ ٣١، ٣٢].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ

﴿...يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب/ ٢١].

محبة الله متوقفة على اتباع نبيه ﷺ، وعلامة اتباعه: السير على نهجه والاقتداء به ﷺ

ولا شك أن مما يجب على العباد محبة ربهم الذي خلقهم وأنعم عليهم، ولكن حصول هذه المحبة وقبولها متوقّف على اتّباع هذا النبي الكريم ﷺ، فقد جعل الله من ثواب اتّباعه محبة الله تعالى لمن اتّبعه، ومغفرته له، ولكن علامة هذا الاتباع، تقليده ﷺ والسير على نهجه، والاقتداء به في سيرته وأعماله وقرباته، وتجنب كل ما نهى عنه، والحذر من مخالفته، التي نهايتها الخروج عن التأسي به، كما في الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «فمن رغب عن سنتي فليس مني».

رابعًا: محبته الصادقة بالقلب والقالب:

بل تقديمها على ما سواها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة/ ٢٤].

فانظر كيف وبّخهم على تقديم شيء من هذه الأصناف الثمانية، التي تميل إليها النفس عادة، وتؤثر الحياة لأجلها على محبة الله ومحبة رسوله، وتوعّدهم بقوله «فتربصوا»... إلخ، أي: انتظروا أمر الله وهو أثر سخطه وغضبه، بما ينزل من العقوبة، وفي ذلك أبلغ دليل على وجوب محبة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ، وقد أكد ذلك النبي ﷺ في سنته، كقوله ﷺ في حديث أنس: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره

أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار». متفق عليه.

وفي الصحيحين أيضًا: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

ولمّا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: و الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلاَّ من نفسي، قال: لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال رضي الله عنه: و الله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال: «الآن يا عمر». رواه البخاري.

وقد ورد في الحديث أن من ثواب محبته ﷺ الاجتماع معه في الآخرة، وذلك لما سأله رجل عن الساعة فقال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها إلاَّ حبّ الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت»(١).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»، وكفى بذلك ثوابًا وأجرًا لهذه المحبة، ولكن المحبة الصادقة تستلزم الاقتداء به والتأدّب بآدابه، وتقديم سنته على رضى كل أحد، وتستلزم أيضًا محبة من يحبه ويواليه، وبغض من يبغضه ويعاديه، ولو كان أقرب قريب، فمن استكمل ذلك فقد صدق في هذه المحبة، ومن خالفه أو نقص شيئًا من ذلك نقصت محبته بقدر ذلك.

لوازم محبة النبي ﷺ

(١) رواه البخاري كما في الفتح ١٣/ ١٤٠ برقم (٧١٥٣) في الأحكام، باب «القضاء والفتيا في الطريق»، عن أنس رضي الله عنه. قاله محقق الكتاب محل النقل.

خامسًا: احترامه ﷺ، وتوقيره، وتعزيره:

كما ذكر في قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح/ ٩].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [الحجرات/ ١ ــ ٣].

فنهاهم عن التقدم بين يديه برأي، أو نظر يخالف ما جاء به، ونهاهم عن رفع الصوت بحضرته، أو الجهر له بالقول بدون مبرِّر، وتوعدهم على ذلك بحبوط العمل، وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور/ ٦٣]، أي: لا تنادوه باسمه العلم كما يدعو أحدهم الآخر، ولكن ادعوه بما تميّز به بأن تقولوا: يا نبي الله، أو يا رسول الله، وما ذاك إلاَّ لما خصّه الله به من الفضل والرفعة.

وفي تعزيره وتوقيره واحترامه تعظيم لسنته، ورفع لقدرها في نفوس أتباعه، مما يحصل به اتِّباعه وامتثال أمره وتجنّب نهيه.

سادسًا: وجوب التحاكم إليه والرضا بحكمه، ومنع الاعتراض عليه:

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء/ ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ [النور/ ٦٣].

وأجمعت الأمة على أن الرد والتحاكم بعده يكون إلى سنته، ففي هذه الآيات أعظم برهان على تحريم مخالفته، ومنع الاستبدال بسنته، فانظر كيف حذّر الذين يخالفون عن أمره بالفتنة وهي الشرك أو الزيغ، وبالعذاب الأليم، وكيف أقسم على نفي الإيمان عنهم حتى يحكموه في كل نزاع يحدث بينهم، ويسلّموا لقضائه، ولا يبقى في نفوسهم أي حرج أو تعنت مما قضى به بينهم، وكفى بذلك وعيدًا وتهديدًا لمن ترك سنَّته بعد معرفة حكمها تهاونًا واستخفافًا، واعتاض عنها بالعادات والآراء والقوانين الوضعية ونحوها»[١].

❑ ❑ ❑

---

(١) مجموع رسائل الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ١/ ١٠١ ــ ١٢٤.

المبحث الرابع

مقتضيات الشهادة بالنبوّة ولوازمها

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب التوحيد:

«وقول الرسول ﷺ: (وأن محمدًا عبده ورسوله)، أي: وشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أي: بصدق ويقين، وذلك يقتضي: اتباعه، وتعظيم أمره ونهيه، ولزوم سنته ﷺ؛ وأن لا تعارض بقول أحد، لأن غيره ﷺ يجوز عليه الخطأ، والنبي ﷺ قد عصمه الله تعالى وأمرنا بطاعته والتأسّي به، والوعيد على ترك طاعته بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب/ ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور/ ٦٣].

قال الإمام أحمد: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»[١].

(١) قرة عيون الموحّدين ص ١٥، ١٦.

وقال سليمان بن عبد الله:

«قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء/ ٦٤].

الغاية من إرسال الرسل: طاعتهم ومتابعتهم

قال ابن كثير: أي: إنما فرضت طاعته على من أرسله إليهم، وقال ابن القيم: هذا تنبيه على جلالة منصب الرسالة، وعظم شأنها، وأنه سبحانه لم يرسل رسله عليهم الصلاة والسلام إلاَّ ليطاعوا بإذنه، فتكون الطاعة لهم لا لغيرهم، لأن طاعتهم، طاعة مرسلهم، وفي ضمنه أن من كذب رسوله محمدًا ﷺ، فقد كذَّب الرسل. والمعنى أنك واحد منهم تجب طاعتك، وتتعيَّن عليهم كما وجبت طاعة من قبلك من المرسلين، فإن كانوا قد أطاعوهم كما زعموا وآمنوا بهم، فما لهم لا يطيعونك، ويؤمنون بك؟!

والإذن ههنا هو: الإذن الأمري لا الكوني، إذ لو كان إذنًا كونيًّا قدريًّا لما تخلَّفت طاعتهم، وفي ذكره نكتة وهي أنه بنفس إرساله تتعيَّن طاعته، وإرساله نفسه إذن في طاعته، فلا تتوقف على نص آخر سوى الإرسال بأمر فيه بالطاعة، بل متى تحققت رسالته وجبت طاعته، فرسالته نفسها متضمِّنة للإذن في الطاعة، ويصح أن يكون الإذن ههنا: إذنًا كونيًّا قدريًّا، ويكون المعنى: ليطاع بتوفيق الله وهدايته، فتضمنت الآية الأمرين الشرع والقدر، ويكون فيها دليل على أن أحدًا لا يطيع رسله إلاَّ بتوفيقه وإرشاده وهدايته، وهذا حسن جدًّا. والمقصود أن الغاية من الرسل هي طاعتهم ومتابعتهم، فإذا كانت الطاعة والمتابعة لغيرهم، لم تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم»(١).

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٨٠.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في ذات الآية:

«يخبر تعالى خبرًا، في ضمنه الأمر، والحث على طاعة الرسول، والانقياد له. وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين، ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به، ونهوا عنه، وأن يكونوا معظَّمين، تعظيم المطاع من المطيع.

الدليل على: عصمة الرسل

وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه. لأن الله، أمر بطاعتهم مطلقًا، فلولا أنهم معصومون، لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقًا.

وقوله: [بإذن الله]، أي: الطاعة من المطيع، صادرة بقضاء الله وقدره. ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان ــ إن لم يعنه الله ــ أن يطيع الرسول»[1].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى:

«قال ابن رجب: أما معنى الحديث ــ أي: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» ــ، فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب، حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه.

كره ما أنزل الله، أو اتباع ما يسخطه، محبط للعمل بالكلية

وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله تعالى، أو أحب ما كره الله، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد/ ٩].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٦٤.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٢٨﴾ [محمد/ ٢٨].

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً، وأن يكره ما كرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن ازدادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا كان ذلك فضلاً.

لوازم محبة الله ورسوله ﷺ

فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه، أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى بما يرضى به الله ورسوله، ويسخط ما يُسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض.

فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه، دلَّ ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة.

(تقديم الهوى على المشروع: منشأ كل البدع والفجور)

فجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص/ ٥٠]، وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وكذلك حب الأشخاص الواجب فيه أن يكون: تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

فيجب على المؤمن: محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والصديقين، والأنبياء والشهداء والصالحين عمومًا؛ ولهذا كان علامة وجود حلاوة الإيمان: «أن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله»، وتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عمومًا، وبهذا يكون الدين كله لله.

درجة الإيمان الكامل

و «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»، ومن كان حبّه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه، كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب، فتجب عليه التوبة من ذلك، والرجوع إلى اتباع ما جاء به الرسول ﷺ من تقديم محبة الله ورسوله، وما فيه رضى الله ورسوله على هوى النفس ومرادها. انتهى ملخَّصًا.

ومطابقة الحديث للباب ظاهرة من جهة أن الرجل لا يؤمن حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ في كل شيء حتى في الحكم وغيره. فإذا حكم بحكم أو قضى بقضاء، فهو الحق الذي لا محيد للمؤمن عنه، ولا اختيار له بعده»[1].

❑ ❑ ❑

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٨٥، ٣٨٦.

المبحث الخامس

الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيَّته يستلزم الإيمان برسوله ﷺ، مع إفراده بالطاعة والاتباع والحكم في كافة المنازعات

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب التوحيد:

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء/ ٦٠].

التسليم لحكم الرسول ﷺ: هو مقتضى الإقرار بالتوحيد، وإلاَّ كان المرء كاذبًا في إقراره

لما كان التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، مشتملاً على الإيمان بالرسول ﷺ، مستلزمًا له، وذلك هو الشهادتان، ولهذا جعلهما النبي ﷺ ركنًا واحدًا في قوله: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت مَن استطاع إليه سبيلاً»، نبَّه في هذا الباب على ما تضمَّنه التوحيد، واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع، إذ هذا

هو مقتضى شهادة أن لا إلـه إلاّ الله، ولازمها الذي لا بدّ منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن لا إلـه إلاّ الله، فلا بد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره الذي جاء من عنده على يد رسوله محمد ﷺ.

من نواقض الإيمان بالرسالة: مجرد العدول عن تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع

فمن شهد أن لا إلـه إلاّ الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول ﷺ في موارد النزاع، فقد كذب في شهادته.

وإن شئت قلت: لما كان التوحيد مبنيًّا على الشهادتين، إذ لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى لتلازمهما، وكان ما تقدم من هذا الكتاب في معنى شهادة أن لا إلـه إلاّ الله، التي تتضمّن حقّ الله على عباده، نبّه في هذا الباب على معنى شهادة أن محمدًا رسول الله، التي تتضمن حق الرسول ﷺ، فإنها تتضمن أنه عبد لا يُعبد، ورسول صادق لا يكذب، بل يطاع ويتبع، لأنه المبلِّغ عن الله تعالى.

صفات الرسول ﷺ التي يجب الإيمان بها

فله عليه الصلاة السلام منصب الرسالة، والتبليغ عن الله، والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ هو لا يحكم إلاّ بحكم الله ومحبته على النفس، والأهل والمال والوطن، وليس له من الإلـٰهية شيء، بل هو عبد الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن/ ١٩]، وقال ﷺ: «إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله».

(إن التحاكم في موارد النزاع إلى غير النبي ﷺ، دلالة صارخة على النفاق وأهله)

ومن لوازم ذلك: متابعته وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره، كالمنافقين الذين يدّعون الإيمان به، ويتحاكمون

إلى غيره، وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد وكمال المتابعة، وذلك هو كمال سعادته، وهو معنى الشهادتين.

إذا تبين هذا فمعنى الآية المترجم لها: أن الله تبارك وتعالى أنكر على من يدَّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء قبله، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر المصنف في سبب نزولها.

قال ابن القيم: والطاغوت: كل من تعدَّى به حدَّه من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو طاغوت إذ قد تعدَّى به حدَّه.

كل من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ، فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت

ومن هذا، كل من عبد شيئًا دون الله فإنما عبد الطاغوت، وجاوز بمعبوده حدّه فأعطاه العبادة التي لا تنبغي له، كما أن من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله ﷺ، فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت.

وتعلل تصديره سبحانه الآية منكرًا لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزله الله على رسوله ﷺ، وعلى من قبله ثم هو مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ، ويتحاكم إليه عند النزاع، وفي ضمن قوله: ﴿يزعمون﴾ نفي لما زعموه من الإيمان، ولهذا لم يقل: ﴿ألم تر إلى الذين آمنوا﴾، فإنهم لو كانوا من أهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ، ولم يقل فيهم «يزعمون»، فإن هذا إنما يقال غالبًا لمن ادّعى دعوى هو فيها كاذب، أو منزل منزلة الكاذب، لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها.

أهل الإيمان الحقيقي: لا يتحاكمون إلى غير الله ورسوله ﷺ

قال ابن كثير: والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة

وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا»[1].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

«قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء/ ٦٥].

لن يكون عبد من أهل الإيمان حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع موارد النزاع، ويقبل حكمه ظاهرًا وباطنًا

قال ابن القيم: أقسم سبحانه بأجلِّ مقسَم به، وهو نفسه عزَّ وجلّ، على أنه لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله حتى يحكم لرسوله ﷺ في جميع موارد النزاع، وفي جميع أبواب الدين. فإن لفظة «ما» من صيغ العموم، ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه، بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجًا، وهو الضيق والحصر من حكمه، بل يقبلون حكمه بالانشراح، ويقابلونه بالقَبول، لا يأخذونه على إغماض، و[لا] يشربونه على قذى، فإن هذا مناف للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضى، وانشراح صدر، ومتى أراد العبد شاهدًا فلينظر في حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلّد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها، ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة/ ١٤، ١٥].

فسبحان الله! كم من حزازة في نفوس كثير من النصوص، وبودهم أن لو لم ترد، وكم من حرارة في أكبادهم منها، وكم من شجى في حلوقهم من موردها، ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٧٦، ٣٧٧.

ضم إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء/ ٦٥]، فذكر الفعل مؤكدًا له بالمصدر القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع والانقياد لما حكم به طوعًا ورضى وتسليمًا، لا قهرًا أو مصابرة، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهًا، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليماته. انتهى.

وقد ورد في «الصحيح» أن سبب نزولها قصة الزبير لما اختصم هو والأنصاري في شراج الحرَّة، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإذا كان سبب نزولها مخاصمة في مسيل ماء قضى فيه رسول الله ﷺ بقضاء، فلم يرضه الأنصاري، فنفى تعالى عنه الإيمان بذلك، فما ظنك بمن لم يرض بقضائه ﷺ وأحكامه في أصول الدين وفروعه؟! بل إذا دعوا إلى ذلك تولَّوا وهم معرضون، ولم يكفهم ذلك حتى صدُّوا الناس عنه، ولم يكفهم ذلك حتى كفروا، أو بدَّعوا من اتبعه ﷺ وحكمه في أصول الدين وفروعه، ورضي بحكمه في ذلك، ولم يبغ عنه حولاً.

من أخطر علامات أهل البدع والأهواء

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ [النساء/ ٦٦].

تحكيم الرسول ﷺ في وسعهم، فما لهم لا يفعلونه؟!!

المعنى والله أعلم، أي: لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم، أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ [النساء/ ٦٦]، وهذا توبيخ لمن لم يحكم الرسول ﷺ في موارد الشجار، أي: نحن لم نكتب عليهم ذلك، بل إنما أوجبنا عليهم ما في وسعهم، فما لهم لا يحكِّمونك، ولا يرضون بحكمك؟!.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ

تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء/ ٦٦ ـ ٦٨].

قال ابن القيم: أخبر تعالى أنَّهم لو فعلوا ما يعظهم به، وهو أمره ونهيه المقرون بوعده ووعيده، لكان فعل أمره، وترك نهيه خيرًا لهم في دينهم ودنياهم، وأشد تثبيتًا لهم على الحق، وتحقيقًا لإيمانهم، وقوة لعزائمهم وإراداتهم، وثباتًا لقلوبهم عند جيوش الباطل، وعند واردات الشبهات المضلَّة، والشهوات المردية.

طاعة الرسول ﷺ تثمر: هداية القلب والثبات عليها، ومعصيته تورث: زيغ القلب واضطرابه

فطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ هي سبب ثبات القلب، وقوته قوة عزائمه وإراداته، ونفاذ بصيرته، وهذا دليل على أن طاعة الرسول ﷺ تثمر الهداية وثبات القلب عليها، ومخالفته تثمر زيغ القلب واضطرابه وعدم ثباته.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء/ ٦٧، ٦٨]، فهذه أربعة أنواع من الجزاء المرتب على طاعة الرسول ﷺ.

أحدها: حصول الخير المطلق بها.

الثاني: التثبت والقوة المتضمِّن للنصر والغلبة.

الثالث: حصول الأجر العظيم لهم في الآخرة.

والرابع: هدايتهم الصراط المستقيم. وهذه الهداية هي هداية ثانية أوجبتها طاعة الرسول ﷺ، فطاعته ﷺ ثمرة الهداية السابقة عليها، فهي محفوفة بهدايتين: هداية قبلها وهي سبب الطاعة، وهداية بعدها هي ثمرة لها، وهذا يدل على انتفاء هذه الأمور الأربعة عند انتفاء طاعة الرسول ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء/ ٦٩].

قال ابن القيم: فأخبر سبحانه أن طاعته وطاعة رسوله ﷺ توجب: مرافقة المنعَم عليهم، وهم أهل السعادة الكاملة، وهم أربعة أصناف: النبيون وهم أفضلهم، ثم الصدِّيقون وهم بعدهم في الدرجة، ثم الشهداء، ثم الصالحون.

فهؤلاء المنعَم عليهم النعمة التامة وهم السعداء الفائزون، ولا فلاح لأحد إلاَّ بموافقتهم والكون معهم، ولا سبيل إلى مرافقتهم إلاَّ بطاعة الرسول ﷺ، ولا سبيل إليها إلاَّ بمعرفة سنته وما جاء به، فدلَّ على أن من عدم العلم بسنته وما جاء به، فليس له إلى مرافقة هؤلاء سبيل، بل هو ممن يعض على يديه يوم القيامة، ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان/ ٢٧].

تحكيم غير الرسول ﷺ، أصل اعتقادي بنى الزنادقة عليه دينهم

قلت: ما لمن لم يحكِّم الرسول ﷺ في موارد النزاع إلى مرافقة هؤلاء المنعَم عليهم سبيل، وكيف يكون له سبيل إلى ذلك وعنده أن من حكَّم الرسول ﷺ في موارد النزاع، فهو إما زنديق أو مبتدع، وأنّى له بطاعة الله ورسوله، وهذا أصل اعتقاده الذي بني عليه دينه، ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون إذا حكَّموا غير الرسول ﷺ، ونبذوا حكمه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون»[(١)].

وقال الشيخ عبد الله بن حميد:

«وقد تكلَّفت الشريعة بحل جميع المشاكل وتبيينها وإيضاحها، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام/ ٣٨].

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٨١ ــ ٣٨٣.

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل/ ٨٩].

ففي هذه الآية أن القرآن فيه البيان لكل شيء، وأن فيه الاهتداء التام، وأن فيه الرحمة الشاملة، وأن فيه البشارة الصادقة للمتمسّكين به الخاضعين لأحكامه، قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة/ ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الأنعام/ ٤٤].

وقال ﷺ: «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلاّ هالك»، وقال ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله . . .» إلخ.

لا إيمان لمن لم يحكم الرسول ﷺ في النزاع والشجار

فكيف يجترىء من يدّعي الإيمان مع هذا البيان الواضح والآيات البينات والأحاديث الصحيحة على الرضى بالتحاكم إلى الطاغوت والإعراض عن شريعة الله، والله قد نفى الإيمان عمّن لم يحكم الرسول فيما وقع بينهم من التشاجر، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء/ ٦٥] »[١].

❑ ❑ ❑

المبحث السادس

كيف بلَّغ النبي ﷺ التوحيد، وصان جنابه من أي حدث دخيل عليه؟

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

«ولمَّا بلغ أربعين سنة بعثه الله بشيرًا ونذيرًا ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب/ ٤٦]، ولما أتى قومه بلا إلـه إلاَّ الله قالت قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [صٓ/ ٥].

قال الترمذي: حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر ابن قتادة وزيد بن مروان وغيرهم قالوا: قام رسول الله ﷺ ثلاث سنين مستخفيًا ثم أعلن في الرابعة، فدعا عشر سنين يوافي الموسم كل عام فيقول: «أيها الناس قولوا: لا إلـه إلاَّ الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فإذا متم كنتم ملوكًا في الجنة»، وأبو لهب وراءه يقول لا تطيعوه فإنه صابىء كذاب، فيردون عليه أقبح الرد.

ما زال النبي ﷺ يدعو إلى التوحيد، وينهى عن الشرك، حتى أزال الله به الجهل والجاهلية

ولما أمره الله بالهجرة هاجر وأظهر الله دينه على الدين كله، وقاتل جميع المشركين ولم يميز بين من اعتقد في نبي ولا ولي ولا شجر ولا حجر، وما زال يعلِّم الناس التوحيد، ويقمع من دعاة

الشرك كل شيطان مريد، حتى أزال الله الجهل والجهال وبان للناس من التوحيد ساطع الجمال.

(حسم النبي ﷺ كل وسائل ومواد الشرك، ليبقى التوحيد خالصًا)

وعن أنس قال: قال أناس: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال ﷺ: «يا أيها الناس أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجل»، وعن عبد الله بن الشخير قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلت: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله»، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم إنما أنا عبد الله ورسوله».

وما زال ﷺ معلّمًا لأصحابه هذا التوحيد، ومحذرًا من الشرك حتى أتاهم مرة وهم يتذكرون الدجّال فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف ما أخاف عليكم من المسيح الدجال»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الشرك الخفي. يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل»، وحتى قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله في شيء»، وحتى قال: «لا يقول أحدكم ما شاء الله وشاء فلان»، وحتى قال: «لا تقولوا لولا الله وفلان»، وحتى قال: «لا يقول أحدكم عبدي وأَمَتي»، وحتى قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر».

وحذّرهم من الشرك بالله في الأقوال والأعمال حتى قال: «إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور ومن تركه كان على الرّدى»،

وحتى قال: «خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»، وحتى أنه لم يترك النهي عند الموت والتحذير لنا من هذا الشرك، حتى قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وحتى قال: «دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب» الحديث، وحتى حذَّرهم عن الكفر بنعمة الله، قيل: هو قول الرجل هذا مالي ورثته من آبائي، وقال بعضهم هو كقوله: «الريح طيبة والملاح حاذق، ونحو ذلك»[1].

وقال سليمان بن عبد الله في شرحه على كتاب التوحيد:

«باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ

جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك»

منهاجه ﷺ أشد الشرائع في التوحيد، وأسمحها في العمل

الجناب: هو الجانب. واعلم أن في الأبواب المتقدمة شيئًا من حمايته ﷺ لجناب التوحيد، ولكن أراد المصنف هنا بيان حمايته الخاصة، ولقد بالغ ﷺ، وحذر وأنذر، وأبدأ وأعاد، وخصَّ وعمَّ في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها، فهي حنيفة في التوحيد، سمحة في العمل، قال بعض العلماء: هي أشد الشرائع في التوحيد والإبعاد عن الشرك، وأسمح الشرائع في العمل»[2].

وقال عبد الرحمن بن حسن تعليقًا على ذات الباب:

«الجناب: هو الجانب: والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٣٠، ٣١.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٢٣٤.

كون الرسول ﷺ منا، نعمة تستوجب الشكر

قوله: وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة/ ١٢٨ ـ ١٢٩].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول الله تعالى ممتنًا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة/ ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران/ ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة/ ١٢٨]، أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته. وذكر الحديث، قال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة/ ١٢٨]، قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية.

حرصه الكامل ﷺ على أمته

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة/ ١٢٨]، أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»، وفي الصحيح: «إن الدِّين يسر» وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة، يسيرة على من يسَّرها الله عليه.

وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة/ ١٢٨]، أي: على

هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلَّا وهو يذكر لنا منه علمًا. أخرجه الطبراني، قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقي من شيء يقرِّب من الجنة ويباعد من النار إلَّا وقد بيَّنته لكم».

وقوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة/ ١٢٨]، كما قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [الشعراء/ ٢١٥ ــ ٢١٧] وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿فإن تولوا﴾، أي: عما جئتكم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة/ ١٢٩].

قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبيَّن لهم ذرائعه الموصِّلَة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها، كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث الباب»[1].

وقال أيضًا رحمه الله في شرحه على كتاب التوحيد:

«قوله: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جَنابَ التَّوحيدِ وسَدِّهِ كلَّ طريقٍ يوَصِّل إلى الشِّرْكِ) قد تقدم فيما سلف من الأبواب قبل هذا.

(١) فتح المجيد ص ٢٤٨، ٢٤٩.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة/ ١٢٨]، ووجه الدلالة بالآية أنه ﷺ يعزّ عليه كل ما يؤثم الأمة ويشق عليهم، وأعظم ما يؤثم الأمة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره، ووسائله وما يقرب منه من كبائر الذنوب، وقد بالغ ﷺ في النهي عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لا يخفى، وقد كانت هذه حال أصحابه رضي الله عنهم في قطعهم الخيوط التي رقي للمريض فيها ونحو ذلك من تعليق التمائم»[(١)].

الشرك أعظم الذنوب إثمًا

❑ ❑ ❑

(١) قرة عيون الموحدين ص ١١٨ .

المبحث السابع

حكم من سبّ النبي ﷺ، أو استهزأ بحكم من أحكامه، أو دفع شيئًا مما جاء به، أو سوَّغ لواحد من البشر الخروج عن شريعته

قال عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

«وقال الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتاب (الصارم المسلول، على شاتم الرسول): قال الإمام إسحق بن راهويه أحد الأئمة يعدل بالشافعي وأحمد: أجمع المسلمون أن من سبَّ الله أو رسوله أو دفع شيئًا مما أنزل الله أنه كافر بذلك، وإن كان مقرًّا بكل ما أنزل الله.

وقال محمد بن سحنون أحد الأئمة من أصحاب مالك: أجمع العلماء على أن شاتم الرسول ﷺ كافر، وحكمه عند الأئمة القتل، ومن شك في كفره كفر. قال ابن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن على من سبَّه: القتل، وقال الإمام أحمد فيمن سبَّه: يقتل، قيل: فيه أحاديث؟ قال: نعم، منها: حديث الأعمى الذي قتل المرأة، وقول ابن عمر: من شتم النبي ﷺ قتل. وعمر بن عبد العزيز يقول: يقتل، وقال في رواية عبد الله: لا يستتاب، إن خالد ابن الوليد قتل رجلاً شتم النبي ﷺ ولم يستتبه. انتهى.

من شك في كفر ساب النبي فهو كافر

من سب النبي كفر، وإن كان هازلاً ولم يقصد معناه بقلبه، ولو كان مع ذلك مقرًا بكل ما أنزل الله

فتأمل رحمك الله تعالى كلام إسحاق بن راهويه ونقله الإجماع على أن من سبَّ الله أو سبَّ رسوله ﷺ، أو دفع شيئًا مما أنزل الله فهو كافر ــ وإن كان مقرًّا بكل ما أنزل الله ــ يتبين لك: أن من تلفَّظ بلسانه بسبِّ الله تعالى، أو بسبِّ رسوله ﷺ، فهو كافر مرتد عن الإسلام، وإن أقر بجميع ما أنزل الله، وإن كان هازلاً بذلك لم يقصد معناه بقلبه، كما قال الشافعي رضي الله عنه: من هزل بشيء من آيات الله فهو كافر، فكيف بمن هزل بسبِّ الله تعالى، أو بسبِّ رسوله ﷺ.

ولهذا قال الشيخ تقي الدين: قال أصحابنا وغيرهم: من سب الله كفر ــ مازحًا أو جادًا ــ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية، [التوبة/ ٦٥، ٦٦]، قال: وهذا هو الصواب المقطوع به. اهـ.»[1].

ولقد جاء في نواقض الإسلام العشرة للشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله:

الناقض الرابع: من اعتقد أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر.

الناقض الخامس: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به كفر لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد/ ٩].

---

(١) عقيدة الموحِّدين، رسالة الكلمات النافعة في المكفِّرات الواقعة ص ٢٣٨.

الناقض السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ، أو ثوابه، أو عقابه كفر، وذلك لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة/ ٦٥، ٦٦].

الناقض التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ فهو كافر، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝﴾ [آل عمران/ ٨٥]»[١].

وقال سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى في شرحه على كتاب التوحيد:

« (باب من هزل بشيء فيه ذكر الله، أو القرآن، أو الرسول)، أي: يكفر بذلك لاستخفافه بجناب الربوبية والرسالة، وذلك مناف للتوحيد. ولهذا أجمع العلماء على كفر من فعل شيئًا من ذلك، فمن استهزأ بالله، أو بكتابه، أو برسوله، أو بدينه، كفر ولو هازلًا لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعًا.

الإجماع على كفر المستهزئ بالله، أو بكتابه، أو برسوله، أو بدينه

قال: وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة/ ٦٥].

يقول تعالى مخاطبًا لرسوله ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ [التوبة/ ٦٥]، أي: سألت المنافقين الذين تكلموا بكلمة الكفر استهزاءً ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة/ ٦٥]، أي: يعتذرون بأنهم لم يقصدوا الاستهزاء والتكذيب، إنما قصدوا

---

(١) عقيدة الموحِّدين ص ٤٥٦، ٤٥٧.

الخوض في الحديث واللعب: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة/ ٦٥]، لم يعبأ باعتذارهم، إما لأنهم كانوا كاذبين فيه، وإما لأن الاستهزاء على وجه الخوض واللعب لا يكون صاحبه معذورًا وعلى التقديرين فهذا عذر باطل، فإنهم أخطؤوا موقع الاستهزاء.

لا يجتمع الاستهزاء بالله والإيمان به في قلب واحد

وهل يجتمع الإيمان بالله، وكتابه، ورسوله، والاستهزاء بذلك في قلب؟! بل ذلك عين الكفر، فلذلك كان الجواب مع ما قبله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة/ ٦٦].

الذي وقعوا في الاستهزاء في هذه الآية، كفروا به، مع عدم علمهم بكفرهم وقصدهم له؛ وقد كان من قبل إحداثهم الكفر، لديهم إيمانٌ ضعيفٌ، ولم يكونوا منافقين

قال شيخ الإسلام: فقد أمره أن يقول: كفرتم بعد إيمانكم. وقول من يقول: إنهم قد كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح، لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد: إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا ذلك إلاَّ لخواصهم، وهم مع خوضهم ما زالوا هكذا، بل لمَّا نافقوا وحذروا أن تنزل عليهم سورة تبيِّن ما في قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء، أي: صاروا كافرين بعد إيمانهم.

ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين إلى أن قال: قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة/ ٦٥]، فاعترفوا، ولهذا قيل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة/ ٦٦]، فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرًا، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر.

فتبين أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم، ولكن لم يظنوه كفرًا، وكان كفرًا كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه.

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة/ ٦٦]، قال ابن كثير: أي: لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم بأنهم كانوا مجرمين بهذه المقالة الفاجرة.

قيل: إن الطائفة مخشي بن حُمَير عفا الله عنه وتسمَّى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم مقتله، فقتل يوم اليمامة، ولم يعلم مقتله، ولا من قتله، ولا يدرى له عين ولا أثر.

وقيل: إن الطائفة زيد بن وديعة. والأول أشهر، ويحتمل أن الله عفا عنهما جميعًا.

الجهل ليس عذرًا في الكفر، وكذلك الشك من باب أولى

وفي الآية دليل على أن الرجل إذا فعل الكفر ولم يعلم أنه كفر لا يعذر بذلك، بل يكفر، وعلى أن الشاك كافر بطريق الأولى نبه عليه شيخ الإسلام.

(سبب نزول الآيات)

قال[١]: عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة، دخل حديث بعضهم في بعض، أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني: رسول الله ﷺ، وأصحابه القراء.

---

(١) أي شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتابه «التوحيد».

فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة لتنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة/ ٦٥]، ما يلتفت إليه وما يزيد عليه».

هذا الأثر ذكره المصنف مجموعًا من رواية ابن عمر، ومحمد ابن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة، وقد ذكره قبله كذلك شيخ الإسلام، فأما أثر ابن عمر فرواه ابن جرير، وابن أبـي حاتم، وغيرهما بنحو مما ذكره المصنف، وأما أثر محمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة فهي معروفة لكن بغير هذا اللفظ.

قوله: عن ابن عمر، هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ومحمد بن كعب هو محمد بن كعب بن سليم أبو حمزة القرظي المدني، قال البخاري: إن أباه كان ممن لم ينبت من بني قريظة، وهو ثقة عالم مات سنة عشرين ومئة. وزيد بن أسلم هو مولى عمر بن الخطاب، والد عبد الرحمن وإخوته يكنى أبا عبد الله، ثقة مشهور مات سنة ست وثلاثين ومئة. وقتادة هو ابن دعامة وتقدم.

قوله: دخل حديث بعضهم في بعض، أي: إن الحديث مجموع من رواياتهم، فلذلك دخل بعضه في بعض.

(المقالة التي كفروا بها)

قوله: إنه قال رجل في غزوة تبوك، لم أقف على تسمية القائل لذلك، أبهم اسمه في جميع الروايات التي وقفت عليها. ولكن قد ورد تسمية جماعة ممن نزلت فيهم الآية مع اختلاف الرواية فيما قالوه من الكلام. ففي بعض الروايات أنهم قالوا ما ذكره المصنف.

وعن مجاهد في الآية: قال رجل من المنافقين يحدثنا محمد أن ناقة فلان بواد كذا وكذا في يوم كذا وكذا وما يدريه بالغيب؟! رواه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وعن قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك، وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟! هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا عليّ الركب»، فأتاهم فقال: «قلتم كذا، وقلتم كذا»، قالوا: يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فأنزل الله فيهم ما تسمعون. رواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وفي رواية جابر بن عبد الله عن ابن مردويه: كان فيمن تخلَّف من المنافقين بالمدينة وداعة بن ثابت أحد بني عمرو بن عوف، فقيل له: ما خلَّفك عن رسول الله ﷺ، فقال: الخوض واللعب، فأنزل الله فيه وفي أصحابه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة/ ٦٥]، إلى ﴿مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

وسمى ابن عباس في رواية عند ابن مردويه منهم: وديعة ابن ثابت، ومخشي بن حمير، وأنهم قالوا: أتحسبون أن قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنكم غدًا تفرون في الجبال... القصة بكمالها.

فيحتمل أنهم قالوا ذلك كله، فإن المنافقين إذا خلوا إلى شياطينهم أخذوا في الاستهزاء بالله وآياته ورسوله والمؤمنين، فلا يبعد أنهم قالوا ذلك، فكلٌّ ذكرَ بعض كلامهم، والآية تعم ذلك.

وفي هذه الروايات ذكر أسماء القائلين لبعضهم ذلك، منهم: وديعة بن ثابت، وقيل: وداعة، وزيد بن وديعة ومخشي بن حمير الذي تاب الله عليه، لكنه لم يقل ذلك إنما حضره.

وفي بعض الروايات أن عبد الله بن أبي هو الذي قال ذلك، لكن رواه ابن القيم بأن ابن أُبـي تخلَّف عن غزوة تبوك.

وذكر ابن إسحاق أسماء الذين همُّوا بالفتك برسول الله ﷺ، فعدَّ جماعة، فيحتمل أنهم من المستهزئين، ويحتمل أنهم غيرهم، ولهذا قال تعالى في المستهزئين: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة/ ٦٦]، وفي الآخرين: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾ [التوبة/ ٧٤].

معنى القارىء في عرف السلف

قوله: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ القراء: جمع قارىء وهم عند السلف الذين يقرأون القرآن ويعرفون معانيه، أما قراءته من غير فهم لمعناه، فلا يوجد في ذلك العصر، وإنما حدث بعد ذلك من جملة البدع.

قوله: أرغب بطونًا، أي: أوسع بطونًا، الرغب والرغيب: الواسع، يقال: جوف رغيب، وواد رغيب، يصفونهم بسعة البطون، وكثرة الأكل، كما روى أبو نعيم عن شريح بن عبيد أن رجلاً قال لأبي الدرداء: ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم، وأعظم لقمًا إذا أكلتم، فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه شيئًا، وأخبر بذلك عمر بن الخطاب، فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال

ذلك، فأخذه بثوبه وخنقه، وقاده إلى النبي ﷺ، فقال الرجل: إنما كنا نخوض ونلعب.

قوله: فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق.

جواز: وصف الرجل بالنفاق إذا فعل أو قال ما يدل عليه

فيه المبادرة في الإنكار والشدة على المنافقين، وجواز وصف الرجل بالنفاق إذا قال أو فعل ما يدل عليه.

قوله: لأخبرن رسول الله ﷺ.

فيه أن هذا وما أشبهه لا يكون غيبة ولا نميمة، بل هو من النصح لله ورسوله، فينبغي الفرق بين الغيبة والنميمة، وبين النصيحة لله ورسوله، فذكر أفعال المنافقين والفساق لولاة الأمور، ليزجروهم، ويقيموا عليهم أحكام الشريعة ليس من الغيبة والنميمة. انتهى.

قوله: فوجد القرآن قد سبقه.

أي: جاءه الوحي من الله بما قالوه في هذه الآية: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة/ ٦٥].

وفيه دلالة على علم الله سبحانه، وعلى قدرته وإلهيته، وعلى أن محمدًا رسول الله.

قوله: فجاء ذلك الرجل، قد تقدَّم أنه ابن أبي كما رواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عمر، لكن رواه ابن القيم بأن ابن أُبي تخلَّف عن غزوة تبوك.

من فوائد الحديث أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به

وفي هذا الحديث من الفوائد: أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به، وأشدها خطرًا إرادات القلوب فهي كالبحر الذي لا ساحل له.

ويفيد الخوف من النفاق الأكبر، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة»[١].

• • •

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٤١٩ ــ ٤٢٢.

كلمات منتقاة، مضيئة

● بعث الرسل: نعمة من الله على البشرية، لأن حاجة البشرية إليهم ضرورية، فلا تنتظم لهم حال، ولا يستقيم لهم دين إلاَّ بهم.

فهم يحتاجون إلى الرسل أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب. . .

وحاجة العباد إلى الرسالات: أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبيب، فإن غاية ما يحصل بعدم وجود الطبيب: تضرُّر البدن، والذي يحصل من عدم الرسالة: تضرُّر القلب.

[الشيخ صالح الفوزان]

● ومن خصائصه ﷺ: القرآن العظيم، الذي أذعن لإعجازه الثقلان، وأحجم عن معارضته مصاقيع الإنس والجن، واعترف بالعجز عن الإتيان بأقصر سورة من مثله أهل الفصاحة والبلاغة من سائر الأديان.

[الشيخ صالح الفوزان]

● إن شهادة «محمد رسول الله»، تتضمن: حق الرسول ﷺ أنه عبد لا يعبد، ورسول صادق لا يكذب، بل يطاع ويتبع، لأنه المبلِّغ عن الله تعالى.

فله عليه الصلاة والسلام: منصب الرسالة، والتبليغ عن الله، والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ هو لا يحكم إلاَّ بحكم الله، ومحبته على النفس والأهل والمال والوطن، وليس له من الإلـٰهية شيء، بل هو عبد الله ورسوله. .

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

• الغاية من إرسال الرسل: أن يكونوا مطاعين، ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين، تعظيم المطاع من المطيع.

وفي هذا: إثبات عصمة الرسل، فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه.

لأن الله أمر بطاعتهم مطلقًا، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقًا.

[الشيخ عبد الرحمن السعدي]

• والمقصود: أن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد، وهو إخلاص العبادة لله، والنهي عن الشرك والفساد، وإن تنوعت شرائعهم حسب الظروف والحاجات، إلى أن ختموا بمحمد ﷺ، الذي عمَّت رسالته الخلق، وامتدت إلى آخر الدنيا، لا تبدل ولا تغير ولا تنسخ، وهي صالحة ومُصلحة لكل زمان ومكان، ولا نبي بعده عليه الصلاة والسلام إلى آخر الزمان، وهو يأمر بما أمر به المرسلون من قبله من: الإيمان، وإخلاص العبادة لله بما شرعه من الأحكام.

[الشيخ صالح الفوزان]

• إن التوحيد يستلزم: تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع، إذ هذا هو مقتضى شهادة أن «لا إله إلاَّ الله»، ولازمها الذي لا بد منه لكل مؤمن...

فمن شهد: أن لا إله إلاَّ الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول، في موارد النزاع، فقد كذب في شهادته.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

• أقسم سبحانه بأجلّ مقسم به، وهو نفسه عز وجل، على أنه: لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونوا من أهله، حتى يحكم لرسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع، وفي جميع أبواب الدِّين . . .

إن طاعة الرسول تثمر: الهداية وثبات القلب عليها، ومخالفته تثمر: زيغ القلب واضطرابه وعدم ثباته. [الإمام ابن قيّم الجوزية]

• فمن أحب الله ورسوله محبة صادق من قلبه، أوجب ذلك له: أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى بما يرضى به الله ورسوله، ويسخط بما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض. [الإمام ابن رجب الحنبلي]

• ولقد بالغ ﷺ، وحذر وأنذر، وأبدأ وأعاد، وخصَّ وعمّ، في حماية الحنيفية السمحة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

• أجمع المسلمون: أن من سبَّ الله، أو رسوله، أو دفع شيئًا مما أنزل الله، أنه كافر بذلك، وإن كان مقرًّا بكل ما أنزل الله.

[الإمام إسحاق بن راهويه]

• أجمع العلماء على أنَّ شاتم الرسول كافر، وحكمه عند الأمة: القتل، ومن شكَّ في كفره، كفر. [الإمام محمد بن سحنون]

• من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به، كفر. من اعتقد أنَّ بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، فهو كافر.

[شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

• ولا بقاء لأهل الأرض، إلاَّ ما دامت آثار الرسالة موجودة فيهم، فإذا ذهبت آثار الرسالة من الأرض، أقام الله القيامة. [الشيخ صالح الفوزان]

❑ ❑ ❑

الفصل الرابع

أصول الإيمان ومقتضياته ولوازمه

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول : الإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

المبحث الثاني : الإسلام والإيمان وحدود العلاقة بينهما.

المبحث الثالث : أصل الإيمان الذي لا يصح إلاَّ بتحقيقه.

المبحث الرابع : وجوب التباين بين أصل الإيمان وشعبه، وأصل الكفر وشعبه، ثابت بالكتاب والسنَّة.

المبحث الخامس : حكم الاستثناء في الإيمان.

المبحث السادس : كلما عظم الإيمان، اشتد الخوف من الكفر والنفاق.

تمهيد هام، لسبر أغوار قضية الإيمان

لقد أجمع علماء أهل السنَّة، جيلاً بعد جيل على أنَّ الإيمان: قول وعمل، وتمسك بالكتاب والسنَّة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بل وعدَّوا ذلك أصلاً من أصولهم، التي من باين واحدًا منها صار خارجًا عن صراطهم، وداخلاً في سبل أهل الأهواء والبدع.

ولقد انعقد الإجماع القديم على أن: الإيمان محله القلب والجوارح معًا؛ خلافًا لفرق المرجئة التي قصرته طائفة منهم على القلب، وبعضهم على اللسان، وبعضهم على القلب واللسان معًا.

وكون الإيمان محله القلب والجوارح، فالمقصود به: الإيمان المطلق، وكذا مطلق الإيمان، أي: الإيمان بكل درجاته ودوائره. فالإيمان المطلق هو: القيام بعبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من الشرك، مع القيام بالواجبات والانتهاء عن المحرَّمات.

وهذا الإيمان يستوجب لصاحبه دخول الجنات، والنجاة من النيران والعذاب.

ومطلق الإيمان هو:

القيام بالتوحيد، والبراءة من الشرك، مع القيام ببعض الواجبات وترك بعضها، بشرط أن لا يكون في فرض، يلزم من تركه

فساد الإيمان بالكلية، كترك الصلاة كسلاً، عند من يعدها كفرًا من علماء السلف والخلف.

وهذا الإيمان يجعل صاحبه في المشيئة الإلـٰهية، ويحرم عليه الخلود في النيران.

ومما تقدَّم، نستطيع الوقوف على: الحد البين الواضح المفرق بين أهل السنَّة والخوارج في قضية الإيمان، فكلاهما نصَّ: على أنَّ الإيمان محله القلب والجوارح، لكن أهل السنَّة فرَّقوا في هذا المقام بين الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان.

فإذا اقترف العبد معصية دون الشرك، خرج بها من الإيمان المطلق إلى مطلق الإيمان، ولا يبطل إيمانه بالكلية إلَّا بفعل ناقض من نواقض الإسلام.

أما الخوارج فقد اشترطت الإيمان المطلق لكل عبد حتى يصح إسلامه، فإذا نقضه بفعل كبيرة، أو ترك فريضة، فقد بطل إيمانه وفسد بكل درجاته ودوائره.

وبهذا انعقد إجماع أهل السنَّة على أن العاصي من الموحدين لا يخلد في النار، كما تواترت بذلك الآثار، خلافًا للخوارج والمعتزلة، وقد يدخلها بسبب ذنوبه، إن لم تدركه رحمة ربه تبارك وتعالى، ويمكث فيها ما شاء الله له ثم يخرج منها، وذلك خلافًا للغلاة من المرجئة التي نصبت راية النجاة من العذاب لكل العصاة من الموحدين زاعمة أن المعصية لا تضر مع الإيمان، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وعليه فإن إيمان العصاة من أهل القبلة، كإيمان الملائكة والنبيِّين والصدِّيقين...

ولقد دوّر السلف دائرة للإسلام، ودوَّروا داخلها دائرة للإيمان، ونصُّوا: على أن فعل الكبيرة يخرج صاحبه من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام إلَّا الكفر المبين والردَّة عن الدين.

المبحث الأول

الإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

«واعتقد: أن الإيمان قول باللسان، وعمل بالأركان، واعتقاد بالجَنان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وهو بضع وسبعون شعبة، أعلاها: شهادة أن لا إلـه إلَّا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق»[(١)].

وسئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله:

قال السائل: تفكَّرت في الإيمان وقوته وضعفه، وأن محلَّه القلب، وأن التقوى ثمرته ومركبة عليه، فبقوته تقوى، وبضعفه تضعف.

الإيمان بإجماع السلف محله: القلب والجوارح جميعًا

فأجاب: قولك إن الإيمان محله القلب؛ فالإيمان بإجماع السلف محله القلب والجوارح جميعًا، كما ذكر الله في سورة الأنفال وغيرها؛ وأما كون الذي في القلب والذي في الجوارح، يزيد وينقص، فذلك شيء معلوم، والسلف: يخافون على الإنسان إذا

---

(١) الدرر السنية ١/ ٣٣، وانظر لقول الشيخ محمد بن عبد اللطيف في ذات المعنى: الدرر ١/ ٥٧٥، ٥٧٦.

كان ضعيف الإيمان من النفاق، أو سلب الإيمان كله»[1].

أجمع الصحابة والتابعين: على أن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمهما الله تعالى:

«والمشهور عن السلف، وأئمة الحديث، أن الإيمان قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمَّى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين، ومن بعدهم ممن أدركهم»[2].

وقال الشيخ حسن ابن الشيخ حسين ابن الشيخ محمد رحمهم الله تعالى:

من خالف علمًا مشهورًا متواترًا بين أصحاب الثلاثة القرون الأولى، فهو مخالف مبتدع خارج عن سبيل الجماعة

قال ابن القيم رحمه الله: ونحن نحكي إجماعهم، كما حكاه حرب، صاحب الإمام أحمد، بلفظه، قال في مسائله المشهورة، هذا مذهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنَّة المتمسِّكين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مخالف مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن مذهب أهل السنَّة وسبيل الحق.

قال: وهو مذهب أحمد، وإسحاق بن إبراهيم، وعبد الله ابن مخلد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم ممن جالسنا، وأخذنا عنهم العلم، فكان من قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية، وتمسك بالكتاب والسنَّة؛ والإيمان: يزيد وينقص، ويستثنى في الإيمان غير أن لا يكون شكًّا، إنما هي سنة ماضية عند

(١) الدرر السنية ١/ ١٨٧.

(٢) الدرر السنية ١/ ٣٣٥.

العلماء، وإذا سئل الرجل: أمؤمن أنت؟ فإنه يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو مؤمن أرجو، ويقول: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله.

(أقوال الفرق في الإيمان)

أقوال المرجئة في: الإيمان

ومن زعم: أن الإيمان قول بلا عمل، فهو مرجىء؛ ومن زعم: أن الإيمان هو القول، والأعمال شرائع، فهو مرجىء، ومن زعم: أن الإيمان يزيد، ولا ينقص، فقد قال بقول المرجئة؛ ومن لم ير الاستثناء في الإيمان فهو مرجىء؛ ومن زعم: أن إيمانه كإيمان جبريل والملائكة، فهو مرجىء؛ ومن زعم: أن المعرفة تقع في القلب، وإن لم يتكلم بها، فهو مرجىء»[1].

وسئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى عن معنى أبيات من الشعر، قيلت في التوحيد فأجاب:

قول جهم في الإيمان، وحكمه عند السلف

«... **الثالثة**: هل يشترط في الواجب، النطق بالشهادتين؟ أو يصير مسلمًا بالمعرفة، فذكر[2]: أنه لا يصير مسلمًا إلاَّ بالنطق للقادر عليه، والمخالف في ذلك جهم ومن تبعه؛ وقد أفتى الإمام أحمد، وغيره من السلف، بكفر من قال: إنه يصير مسلمًا بالمعرفة، وتفرع على هذه مسائل؛ منها: من دعي إلى الصلاة فأبى مع الإقرار بوجوبها، هل يقتل كفرًا؟ أو حدًّا؟ ومن قال: يقتل حدًّا، من رأى: أن هذا أصل المسألة.

قول الكرامية في الإيمان

الرابعة: أن ابن كرَّام، وأتباعه، يقولون: إن الإيمان، قول

---

(١) الدرر السنية ١/ ٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) أي: صاحب الأبيات الشعرية.

باللسان، من غير عقيدة القلب، مع أنهم يوافقون أهل السنَّة، أنه مخلد في النار، فذكر أنه: لا بد مع النطق بتصديق القلب»[1].

وقال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين رحمه الله تعالى:

مذهب الأشاعرة في الإيمان

«ومذهب الأشاعرة: أن الإيمان مجرَّد التصديق، ولا يدخلون فيه أعمال الجوارح، قالوا: وإن سُمِّيت الأعمال في الأحاديث إيمانًا، فعلى المجاز، لا الحقيقة»[2].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

مذهب المعتزلة في الإيمان

«**وأما المعتزلة:** فهم الذين يقولون بالمنزلة بين المنزلتين؛ يعنون: أن مرتكب الكبيرة، يصير في منزلة بين الكفر والإسلام، فليس هو بمسلم، ولا كافر؛ ويقولون: إنه يخلد في النار، ومن دخل النار لم يخرج منها بشفاعة، ولا غيرها.

وأول من اشتهر عنه ذلك: عمرو بن عبيد، وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين الجماعة، فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة، وهم كانوا بالبصرة بعد موت الحسن البصري، وضم المعتزلة إلى ذلك: التكذيب بالقدر؛ ثم ضمُّوا إلى ذلك نفي الصفات؛ فيثبتون الاسم دون الصفة؛ فيقولون: عليم بلا علم؛ سميع بلا سمع؛ بصير بلا بصر؛ وهكذا سائر الصفات؛ فهم قدرية جهمية، وامتازوا[3]: بالمنزلة بين المنزلتين، وخلود عصاة الموحدين في النار.

---

(١) الدرر السنية ١/ ١١٠، ١١١.

(٢) الدرر السنية ١/ ٣٦٤.

(٣) الحق أن المعتزلة لم تتميز بقول عن بقية الفرق، إلاّ: بالمنزلة بين المنزلتين، وأما خلود عصاة الموحدين في النار، فقد شاركتهم فيه الخوارج.

وأما الخوارج: فهم الذين خرجوا على علي رضي الله عنه؛ وقبل ذلك: قتلوا عثمان رضي الله عنه؛ وكفروا عثمان، وعليًّا، وطلحة، والزبير، ومعاوية، وطائفتي علي ومعاوية، واستحلوا دماءهم.

مذهب الخوارج، في الإيمان

وأصل مذهبهم: الغلو الذي نهى الله عنه، وحذر عنه النبي ﷺ، فكفروا من ارتكب كبيرة؛ وبعضهم: يكفر بالصغائر: وكفروا عليًّا وأصحابه بغير ذنب، فكفَّروهم بتحكيم الحكمين: عمرو بن العاص، وأبي موسى الأشعري، وقالوا: لا حكم إلاَّ لله.

واستدلوا على قولهم بالتكفير بالذنوب، بعمومات أخطؤوا فيها، وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن/ ٢٣].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء/ ١٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء/ ٩٣]، وغير ذلك من الآيات.

الموت على التوحيد، شرط لحرمة صاحبه على الخلود في النيران

وأجمع أهل السنَّة والجماعة أن أصحاب الكبائر لا يخلدون في النار إذا ماتوا على التوحيد؛ وأن من دخل النار منهم بذنبه يخرج منها، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ.

اختلاف حدود المعاصي، دليل على تباين أحكامها، وأنها ليست على درجة واحدة

وأيضًا: فلو كان الزاني، وشارب الخمر، والقاذف، والسارق، ونحوهم: كفارًا مرتدين، لكان حكمهم في الدنيا القتل، الذي هو حكم الله في المرتدين؛ فلما حكم الله على الزاني البكر الجلد، وعلى السارق بالقطع، وعلى الشارب والقاذف بالجلد، دلَّنا حكم الله فيهم بذلك: أنهم لم يكفروا بهذه الذنوب، كما تزعمه الخوارج.

فإذا عرفت مذهبهم: أن أصله التكفير بالذنوب، وكفروا أصحاب رسول الله ﷺ، واستحلوا قتلهم، متقرِّبين بذلك إلى الله!

(الرد على الشبهة الدائمة اللصوق بأهل التوحيد دومًا والمعدة لهم سلفًا)

فإذا تبين لك ذلك، تبين لك: ضلال كثير من أهل هذه الأزمنة في زعمهم: أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ وأتباعه خوارج، ومذهبهم مخالف لمذهب الخوارج؛ لأنهم يوالون جميع أصحاب رسول الله ﷺ، ويعتقدون فضلهم على من بعدهم، ويوجبون اتباعهم، ويدعون لهم، ويضلِّلون من قدح فيهم، أو تنقَّص أحدًا منهم، ولا يكفرون بالذنوب، ولا يخرجون أصحابها من الإسلام، وإنما يكفرون من أشرك بالله، أو حسَّن الشرك؛ والمشرك: كافر بالكتاب، والسنَّة، والإجماع، فكيف يجعل هؤلاء مثل أولئك؟!

وإنما يقول ذلك: معاند يقصد التنفير للعامة؛ أو يقول ذلك جاهل بمذهب الخوارج، ويقوله تقليدًا؛ ولو قدَّرنا: أن إنسانًا يقع منه جراءة وجسرة على إطلاق الكفر، جهلاً منه؛ فلا يجوز أن ينسب إلى جميع الطائفة، وإنما ينسب إليهم ما يقوله شيخهم وعلماؤهم بعده، وهذا أمر ظاهر للمنصف، وأما المعاند المتعصب، فلا حيلة فيه...

لقد كفر جماعة من العلماء: من أخرج العمل عن الإيمان

ومذهب أهل السنَّة والجماعة أنَّ الإيمان تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، وقد كفر جماعة من العلماء من أخرج العمل عن الإيمان»[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) الدرر السنية ١/ ٣٦٠ ــ ٣٦٤.

المبحث الثاني

الإسلام والإيمان، وحدود العلاقة بينهما

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد رحمهم الله:

«الكلام في الإسلام والإيمان، في مقامات، الأول: فيما دلَّ عليه حديث عمر رضي الله عنه، في سؤال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ بقوله: «أخبرني عن الإسلام؟ فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله» الحديث، «قال: أخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره».

حد الإسلام والإيمان، عند الافتراق وعند الاقتران

فأخبر: أن الإسلام، هو: الأعمال الظاهرة، والإيمان، يفسر بالأعمال الباطنة، وبذلك يفسر كل منهما عند الاقتران، فإذا أفرد الإيمان، كما في كثير من آيات القرآن، دخل فيه الأعمال الظاهرة والباطنة، كما دل على ذلك كثير من الآيات، والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الآية [النساء/ ١٣٦]، فتناولت الآية: جميع الأعمال الباطنة والظاهرة، لدخولها في مسمَّى الإيمان.

لا يحصل الإسلام على الحقيقة، إلاَّ بالعمل بالأركان الخمسة

وأما الأركان الخمسة، فهي: جزء مسمَّى الإيمان، ولا يحصل الإسلام على الحقيقة إلاَّ بالعمل بهذه الأركان، والإيمان بالأصول الستة، المذكورة في الحديث، وأصول الإيمان المذكورة تتضمن: الأعمال الباطنة والظاهرة، فإن الإيمان بالله يقتضي: محبته، وخشيته، وتعظيمه، وطاعته بامتثال أمره وترك نهيه، وكذلك الإيمان بالكتب يقتضي: العمل بما فيها من الأمر والنهي، فدخل هذا كله في هذه الأصول الستة.

مقتضيات الإيمان

(الأدلة على أن الأعمال الباطنة والظاهرة داخلة في مسمَّى الإيمان)

ومما يدل على ذلك، قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال/ ٢]، إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال/ ٤].

فدلت هذه الآيات: على أن الأعمال الظاهرة والباطنة، داخلة في مسمَّى الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات/ ١٥]، فانتفاء الشك والريب من الأعمال الباطنة، والجهاد من الأعمال الظاهرة، فدل على أن الكل إيمان.

ومما يدل على أن الأعمال من الإيمان، قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ ﴾ [البقرة/ ١٤٣]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، ونظائر هذه الآية في الكتاب والسنَّة كثيرة، كقوله ﷺ في حديث وفد عبد القيس: «آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله

إلَّا الله، وأني رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وتؤدوا خُمس ما غنمتم»، ففسَّر الإيمان بالأعمال الظاهرة، لأنها جزء مسمَّاه، كما تقدم.

يوجد نقص من أعمال الإيمان يبطله، ونقص يؤثر في كماله الواجب

إذا عرفت أنَّ كلًّا من الأعمال الظاهرة والباطنة، من مسمَّى الإيمان شرعًا، فكل ما نقص من الأعمال، التي لا يخرج نقصها من الإسلام، فهو نقص في كمال الإيمان الواجب، كما في حديث أبي هريرة: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم، حين ينتهبها وهو مؤمن»، وقوله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»، ونفى الإيمان عمن لا يأمن جاره بوائقه.

الإيمان لا يطلق على المسلم المقترف كبيرة، إلاَّ مقيدًا

فالمنفي في هذه الأحاديث: كمال الإيمان الواجب، فلا يطلق الإيمان على مثل أهل هذه الأعمال إلَّا مقيدًا بالمعصية، أو بالفسوق، فيقال: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فيكون معه من الإيمان، بقدر ما معه من الأعمال الباطنة والظاهرة، فيدخل في جملة أهل الإيمان، على سبيل إطلاق أهل الإيمان، كقوله تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء/ ٩٢].

(تعريف الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان)

وأما: المؤمن الإيمان المطلق، الذي لا يتقيد بمعصية، ولا بفسوق، ونحو ذلك، فهو: الذي أتى بما يستطيعه من الواجبات، مع تركه لجميع المحرَّمات، فهذا هو الذي يطلق عليه: اسم الإيمان من غير تقييد، فهذا هو الفرق بين مطلق الإيمان، والإيمان المطلق، والثاني هو الذي لا يصر صاحبه على ذنب والأول هو المصِرُّ على بعض الذنوب.

أصل الإيمان، شرط لصحة الإسلام وتمامه

وهذا الذي ذكرته هنا، هو الذي عليه أهل السنَّة والجماعة في الفرق بين الإسلام والإيمان، وهو الفرق بين مطلق الإيمان، والإيمان المطلق، فمطلق الإيمان هو: وصف المسلم الذي معه أصل الإيمان، الذي لا يتم إسلامه إلَّا به، بل لا يصح إلَّا به، فهذا في أدنى مراتب الدين، إذا كان مصرًا على ذنب، أو تاركًا لما وجب عليه، مع القدرة عليه.

والمرتبة الثانية من مراتب الدين: مرتبة أهل الإيمان المطلق، الذين كمل إسلامهم وإيمانهم بإتيانهم بما وجب عليهم، وتركهم ما حرَّمه الله عليهم، وعدم إصرارهم على الذنوب، فهذه هي المرتبة الثانية، التي وعد الله أهلها بدخول الجنة والنجاة من النار، كقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية [الحديد/ ٢١]، فهؤلاء: اجتمعت لهم الأعمال الظاهرة والباطنة، ففعلوا ما أوجبه الله عليهم، وتركوا ما حرَّم الله عليهم، وهم السعداء أهل الجنة، والله سبحانه أعلم»(١).

وسئل أيضًا رحمه الله تعالى، عن الفرق بين الإسلام والإيمان، فأجاب:

قد فسَّر النبي ﷺ الإسلام والإيمان في حديث جبرائيل، وفسَّر الإسلام في حديث ابن عمر، وكلاهما في الصحيح، فقال: «الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، وقال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه،

(١) الدرر السنية ١/ ٣٣٠ ــ ٣٣٣.

ورسله، وباليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، وقال في حديث ابن عمر: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»، وفي رواية: «والحج، وصوم رمضان».

درجات الدين الثلاث، وحدود العلاقة بينهما

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام، فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسنًا، ولا كل مسلم مؤمنًا، كما دلت عليه الأحاديث، انتهى كلامه.

الأعمال داخلة في مسمى الإيمان بإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم

فإن قيل: قد فرّق النبي ﷺ في حديث جبرائيل بين الإسلام والإيمان، والمشهور عن السلف وأئمة الحديث: أن الإيمان قول، وعمل، ونيّة، وأنَّ الأعمال كلها داخلة في مسمَّى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم؟

فالجواب: أنَّ الأمر كذلك، وقد دلَّ على دخول الأعمال في الإيمان: الكتاب والسنَّة. أما الكتاب فكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال/ ٢]، وأما الحديث فكقوله في حديث أبي هريرة المتفق عليه: «الإيمان بضع وسبعون شُعبة، أعلاها قول لا إلـه إلاَّ الله، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان» وغير ذلك.

فمن زعم: أن إطلاق الإيمان على الأعمال الظاهرة مجاز، فقد خالف الصحابة، والتابعين، والأئمة.

العلاقة بين: الإسلام والإيمان عند الاجتماع، والافتراق

إذا عرفت ذلك، فاعلم أنه يجمع بين الأحاديث: بأن أعمال الإسلام داخلة في مسمَّى الإيمان، شاملاً لها، ففسرت بالإسلام، وهي جزء مسمَّى الإيمان، لكون الإيمان مثالاً لها ولغيرها، من الأعمال الباطنة والظاهرة، فإذا أفرد الإيمان في آية أو حديث، دخل فيه الإسلام، وإذا قرن بينهما فسر الإسلام بالأركان الخمسة، كما في حديث جبريل، وفسَّر الإيمان بأعمال القلب، لأنها أصل الإيمان ومعظمه، وقوته وضعفه: ناشىء عن قوة ما في القلب، من هذه الأعمال أو ضعفها.

أعمال القلوب: أصل الإيمان

وقد يضعف ما في القلب، من الإيمان بالأصول الستة، حتى يكون وزن ذرة، كما في الحديث الصحيح: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان».

ارتباط الظاهر، بالباطن

فبقدر ما في القلب من الإيمان، تكون الأعمال الظاهرة، التي هي داخلة في مسمَّاه، وتسمَّى إسلامًا وإيمانًا، كما في حديث وفد عبد القيس، حين قال لهم النبي ﷺ: «آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خُمس ما غنمتم»، فهذه الأعمال داخلة في الإيمان، وهي الإسلام، لأن الإيمان اسم لجميع الأعمال الظاهرة والباطنة، فمن ترك شيئًا من الواجبات، أو فعل شيئًا من المحرَّمات، نقص إيمانه بحسب ذلك، وهو دليل على نقصان أصل الإيمان، وهو إيمان القلب.

حدود العلاقة بين: الإسلام والإيمان والإحسان

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، في الكلام على الإسلام والإيمان والإحسان، وما بين الثلاثة من العموم

والخصوص: أما الإحسان: فهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإيمان، والإيمان: أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإسلام. فالإحسان: يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون: أخص من المؤمنين، والمؤمنون: أخص من المسلمين، انتهى، وهذا يبيِّن ما قرَّرنا.

الفرق بين: الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان

فحينئذ يتبين الإيمان الكامل، الذي صاحبه يستحق عليه دخول الجنة. والنجاة من النار، هو: فعل الواجبات، وترك المحرَّمات، وهو: الذي يطلق على من كان كذلك بلا قيد، وهو الإيمان: الذي يسميه العلماء: الإيمان المطلق.

إسم وحكم المؤمن العاصي، الذي لم ينقض أصل الدين

وأما من لم يكن كذلك، بل فرَّط في بعض الواجبات، أو فعل بعض المحرَّمات، فإنه لا يطلق عليه الإيمان إلَّا بقيد، فيقال: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو يقال: مؤمن ناقص الإيمان، لكونه ترك بعض واجبات الإيمان، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، أي: ليس موصوفًا بالإيمان الواجب، الذي يستحق صاحبه الوعد بالجنة، والمغفرة والنجاة من النار، بل هو تحت المشيئة: إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه على ترك ما وجب عليه من الإيمان، وارتكابه الكبيرة.

وقيل: هذا يوصف بالإسلام دون الإيمان، ولا يسمَّى مؤمنًا إلَّا بقيد، وهذا الذي يسميه العلماء مطلق الإيمان، أي: أنه أتى بالأركان الخمسة، وعمل بها باطنًا وظاهرًا، وهذا الذي قلنا من معنى الإسلام والإيمان، هو مذهب الإمام أحمد، وطائفة من السلف والمحققين، وذهب طائفة من أهل السنَّة أيضًا إلى أنَّ الإسلام والإيمان شيء واحد، وهو الدين، فيسمَّى إسلامًا وإيمانًا،

فهما اسمان لمسمًّى واحد، والأول أصح، وهو الذي نصره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتبه، فلا تلتفت إلى ما يخالف هذين القولين، والله أعلم[1].

وسئل أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وحمد بن ناصر، رحمهم الله تعالى: هل عندكم: أنه ما يلبث موحِّد في النار، أم لا؟

عصاة الموحدين، لا يخلدون في النار بإجماع الأمة

فأجابوا: الذي نعتقده دينًا، ونرضاه لإخواننا المسلمين مذهبًا، أن الله تبارك وتعالى: لا يخلِّد أحدًا فيها من أهل التوحيد، كما تظاهرت عليه الأدلة، من الكتاب والسنَّة وإجماع الأمة، قال الشيخ تقي الدين أبو العباس ابن تيمية رحمه الله: تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ «بأنه يخرج من النار من قال لا إلـه إلَّا الله، وفي قلبه من الإيمان ما يزن شعيرة»، وفي لفظ: «ذرة»، ولكنها جاءت مقيدة بالقيود الثقال، كقوله: «من قال: لا إلـه إلَّا الله خالصًا من قلبه»، وفي رواية: «صادقًا من قلبه». انتهى.

وهذا هو مذهب أهل السنَّة والجماعة، من أصحاب رسول الله ﷺ ومن اتبعهم بإحسان من سلف الأمة وأئمتها، ولا يخالف في ذلك إلَّا الخوارج والمعتزلة، القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار. والجواب عن الآيات التي احتجوا بها تحتاج إلى بسط طويل»[2].

❑ ❑ ❑

(١) الدرر السنية ١/ ٣٣٤ ــ ٣٣٧.

(٢) الدرر السنية ١/ ١٩٤.

من المعلوم من الدين بالضرورة: أنه يجب الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ، فالإيمان بالشريعة كلٌّ لا يتجزأ، ومن ثَمَّ كان من وقع في ردّ أي حكم من أحكامها، يكون كافرًا، ولو كان مقرًّا بكل ما أنزل الله فيها.

والإيمان والكفر، ضدان لا يجتمعان ولا يرتفعان، ولكل منهما أصل وشُعب. فأصل الإيمان: التوحيد، وشُعبه: الطاعات، وأصل الكفر: الشرك، وشُعبه: المعاصي.

فالضد من أصل الإيمان وشُعبه، يستحيل أن يجتمع مع ضده من أصل الكفر وشُعبه.

فالعبد إذا قامت به شُعبة من شُعب الكفر دون أصله، لا يكون كافرًا، وكذلك إذا قامت به شُعبة من شُعب الإيمان دون أصله، لا يصير مؤمنًا.

فحكم الكفر لا ينحل عن صاحبه، حتى يحقق أصل الإيمان لا شُعبه، وكذلك حكم الإيمان لا يفارق صاحبه، حتى يقوم به أصل الكفر لا شُعبه، وبعبارة أخرى: إن الإيمان لا يثبت لكافر، حتى ينخلع من أصل الكفر، لا شُعبه، كما أن الكفر لا يثبت على مؤمن، حتى يذهب عنه أصل الإيمان لا شُعبه.

والحاصل: أن للإيمان أصل، لا يتم ولا يصح الإسلام والإيمان إلاَّ به إجماعًا.

فأصل الإسلام والإيمان: القيام بمعنى (لا إله إلاَّ الله) إقرارًا وعلمًا وعملاً، ومدلول ذلك يتمثل في: عبادة الله وحده لا شريك له، والكفر بكل ما يُعبد من دونه، مع الإقرار والقبول لكافة أحكام الله تعالى.

وللإسلام والإيمان، علاقة وطيدة تربط بينهما، وعلى ضوء قواعدها، نستطيع الوقوف على أسماء وأحكام الكفر والإيمان.

فالإسلام قد يفسر بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة، إلَّا أنه لا يصح قبول أي واحد منهما بمعزل عن الآخر.

فالإسلام بدون إيمان نفاق أكبر، والإيمان بدون إسلام دعوى لا حقيقة لها: ومن ثمَّ كانت المؤثرات السلبية والإيجابية الظاهرة واحدة على كل منهما.

فإذا قام دليل صحيح منضبط على فساد الظاهر أو الباطن، قطعنا بفساد الإسلام والإيمان، هذا مع قولنا: إن الإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة فينبغي التفطن لهذا الموضع فإنه نافع جدًا، وبه نعلم حقيقة العلاقة الصحيحة المنضبطة بين الإسلام والإيمان.

والناس يتفاضلون في الإسلام والإيمان تفاضلاً عظيمًا، ويكونون فيه على درجات متفاوتة، بحسب ما قام في قلوبهم من: الصدق واليقين والإخلاص، وعلى جوارحهم من: الانقياد والطاعة والقبول والإذعان.

وبهذا يعلو جليًا: الفرق البين الواضح، بين الإيمان والكفر، والإسلام والشرك، والطاعة والمعصية، وأحكام كل واحد منهم.

والحاصل: أنَّ من سوَّى بين أصل الإيمان وشُعبه، وأصل الكفر وشُعبه، في الأسماء والأحكام، يكون قد خالف الكتاب والسنَّة وإجماع سلف الأمة، وأحلّ بنفسه البدعة، ودخلها من أوسع أبوابها، مترديًا في أودية هلاكها.

المبحث الثالث

أصل الإيمان الذي لا يصح إلاَّ بتحقيقه

قال الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن في أثناء كلام له عن تقرير الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله لقضية التوحيد والأدلة عليها:

«قال: الشيخ رحمه الله يوضح ذلك أنَّ أصل الإسلام وقاعدته شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، وهي أصل الإيمان بالله وحده، وهي أفضل شعب الإيمان، وهذا الأصل لا بدَّ فيه من العلم والعمل والإقرار، بإجماع المسلمين، ومدلوله: وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه، كائنًا من كان، وهذا هو الحكمة التي خلقت لها الجن والإنس، وأرسلت لها الرسل، وأنزلت بها الكتب، وهي: تتضمن كمال الذل والحب، وتتضمن كمال الطاعة والتعظيم، وهذا، هو دين الإسلام، الذي لا يقبل الله دينًا سواه، لا من الأولين، ولا من الآخرين.

الإقرار بالتوحيد، علمًا وعملاً، هو أصل الإيمان بإجماع المسلمين

قال رحمه الله: وقد جمع ذلك في سورتي الإخلاص، أي: العلم، والعمل، والإقرار، وقد اكتفى بعض أهل زماننا، بالإقرار وحده، وجعلوه غاية التوحيد، وصرفوا العبادة التي هي مدلول لا إلـه إلاَّ الله، للمقبورين، وجعلوها من باب التعظيم للأموات، وأن تاركها قد هضمهم حقهم، وأبغضهم، وعقَّهم، ولم يعرفوا أن

سبب الوقوع في الشرك: الجهل بحقيقة الإسلام

دين الإسلام، هو الاستسلام لله وحده، والخضوع له وحده، وأن لا يعبد بجميع أنواع العبادة سواه»[1].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

«إن الرسول ﷺ فرض الإيمان بما جاء به كله، لا تفريق فيه، فمن آمن ببعض، وكفر ببعض، فهو كافر حقًا، بل لا بد من الإيمان بالكتاب كله.

من وقع في رد أي حكم من أحكام الإسلام يكون كافرًا، ولو كان صائمًا، قائمًا، وتاركًا لكثير من المحرمات

فإذا عرفت أنَّ من الناس من يصلي ويصوم، ويترك كثيرًا من المحرمات، لكن لا يورثون المرأة، ويزعمون أن ذلك هو الذي ينبغي اتباعه، بل لو يورثها أحد عندهم، ويخلف عادتهم، أنكرت قلوبهم ذلك، أو ينكر عدة المرأة في بيت زوجها، مع علمه بقول الله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق/ ١] ويزعم أن تركها في بيت زوجها لا يصلح، وأن إخراجها عنه، هو الذي ينبغي فعله، وأنكر التحية بالسلام، مع معرفة أن الله شرعه، حبًّا لتحية الجاهلية لما ألفها، فهذا يكفر، لأنه آمن ببعض وكفر ببعض، بخلاف من عمل المعصية، أو ترك الفرض، مثل فعل الزنا، وترك بر الوالدين، مع اعترافه أنه مخطىء، وأن أمر الله، هو الصواب»[2].

الفرق بين: الردّ، وفعل المعصية المجرد

وقال الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى: قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

مجرّد الإتيان بلفظ الشهادة دون علم وعمل بحقيقتها لا يكون به المكلف مسلمًا، خلافًا لغلاة فرق الإرجاء

«ومجرد الإتيان بلفظ الشهادة، من غير علم بمعناها، ولا عمل بمقتضاها: لا يكون به المكلف مسلمًا، بل هو حجة على ابن

(١) الدرر السنية ١/ ٥١٨.

(٢) الدرر السنية ١/ ١٢٣.

آدم، خلافًا لمن زعم: أن الإيمان مجرد الإقرار، كالكرَّامية، ومجرد التصديق كالجهمية، وقد أكذب الله المنافقين، فيما أتوا به وزعموه من الشهادة، وأسجل على كذبهم، مع أنهم أتوا بألفاظ مؤكدة، بأنواع من التأكيدات، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون/ ١]، فأكَّدوا بلفظ الشهادة، وإن المؤكدة، واللام، وبالجملة الاسمية، فأكذبهم، وأكد تكذيبهم، مثل ما أكدوا به شهادتهم، سواء بسواء، وزاد التصريح باللقب الشنيع، والعلَم البشع الفظيع.

التصديق والعمل ركنا الإيمان

وبهذا تعلم: أن مسمَّى الإيمان، لا بد فيه من التصديق والعمل، ومن شهد أن لا إله إلاَّ الله، وعبد غيره، فلا شهادة له، وإن صلَّى، وزكَّى، وصام، وأتى بشيء من أعمال الإسلام، قال تعالى لمن آمن ببعض الكتاب ورد بعضًا: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾ الآية [البقرة/ ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ الآية [النساء/ ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ [المؤمنون/ ١١٧].

أنواع الكفر

والكفر نوعان: مطلق، ومقيد، فالمطلق هو: الكفر بجميع ما جاء به الرسول، والمقيد: أن يكفر ببعض ما جاء به الرسول، حتى إن بعض العلماء: كفَّر من أنكر فرعًا مجمعًا عليه، كتوريث الجد، أو الأخت، وإن صلَّى وصام، فكيف بمن يدعو الصالحين،

ويصرف لهم خالص العبادة ولبّها؟ وهذا مذكور في المختصرات، من كتب المذاهب الأربعة، بل كفروا ببعض الألفاظ التي تجري على ألسن بعض الجهال، وإن صلّى وصام من جرت على لسانه»[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى:

إخلاص: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح لله وحده، هو أصل الدين وجوهر التوحيد

«أما النطق بلا إلـه إلاَّ الله، من غير معرفة لمعناها، ولا يقين، ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل، قول القلب وقول اللسان، وعمل القلب والجوارح، فغير نافع بالإجماع»[٢].

وقال أيضًا رحمه الله، مبينًا الفرق بين: الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان، وبين مرتبتي الإسلام والإيمان، قال رحمه الله:

أصل الإيمان الذي لا يصح الإسلام ولا يتم إلاَّ بتحقيقه

«وهذا الذي ذكرته هنا، هو الذي عليه أهل السنة والجماعة، في الفرق بين الإسلام والإيمان، وهو الفرق بين مطلق الإيمان، والإيمان المطلق، فمطلق الإيمان هو: وصف المسلم الذي معه أصل الإيمان، الذي لا يتم إسلامه إلاَّ به، بل لا يصح إلاَّ به، فهذا في أدنى مراتب الدين، إذا كان مصرًّا على ذنب، أو تاركًا لما وجب عليه، مع القدرة عليه»[٣].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

الإيمان بالله وحده يعني: إفراده بالعبادة مع الانخلاع من الشرك

«والإيمان بالله وحده، هو: البراءة مما كانوا يعبدونه من الأصنام والأوثان وإخلاص العبادة لله، لا يرتاب في هذا مسلم.

---

(١) الدرر السنية ١/ ٥٢٢ ـ ٥٢٤.

(٢) فتح المجيد ص ٣٩.

(٣) الدرر السنية ١/ ٣٣٣.

فمن شك في أن هذا هو معنى لا إلـه إلاَّ الله، فليس معه من الإسلام ما يزن حبة خردل»(١).

الكفر بالطاغوت: ركن التوحيد، والتوحيد أساس الإيمان، وهو الذي تصلح به كافة الأعمال

وقال أيضًا رحمه الله تعالى: إن الكفر بالطاغوت: ركن التوحيد، كما في آية البقرة أي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٥٦]، فإذا لم يحصل هذا الركن، لم يكن موحِّدًا، والتوحيد: هو أساس الإيمان، الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه. اهـ»(٢).

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى:

«وأصل الإيمان بالله وحده: هو عبادته وحده لا شريك له، وقد فسَّره النبي ﷺ بذلك في حديث (وفد عبد القيس).

هذا هو الإيمان الذي اختصَّ به المؤمنون، وجحده المشركون، وفيه وقع النزاع، وله شرع الجهاد، وانقسم العباد»(٣).

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله تعالى:

«فلا بد في شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، من اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

فإن اختل نوع من هذه الأنواع، لم يكن الرجل مسلمًا، فإذا كان الرجل مسلمًا وعاملاً بالأركان، ثم حدث منه قول، أو فعل، أو اعتقاد، يناقض ذلك، لم ينفعه قول: لا إلـه إلاَّ الله، وأدلة ذلك في الكتاب والسنة، وكلام أئمة الإسلام أكثر من أن تحصر»(٤).

---

(١) مجموعة الرسائل ٤/ ٣٢٢.

(٢) فتح المجيد ص ٣٨٠، بتصرف بسيط.

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل ٣/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٤) الدرر السنية ٢/ ٣٥٠.

وقال أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحمد بن ناصر، رحم الله الجميع:

«وأما قول السائل: هل للتوحيد والإيمان مرتبتان، وحقيقتان، ومجازان، يقابل كل واحد واحدة من مراتب الشرك والكفران؟ يتعلق بأحدهما دون الآخر النقص والبطلان، ويخرج بفعل بعض قواعد الشرك، أو ترك بعض قواعد التوحيد، عن دائرة الإسلام، لا دائرة الإيمان، أو بالعكس؟

(مراتب الدين الثلاث)

فاعلم رحمك الله: أن العلماء ذكروا أن الدين على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة الإسلام، وهي المرتبة الأولى، التي يدخل فيها الكافر أول ما يتكلم بالإسلام، ويذعن وينقاد له.

المرتبة الثانية: مرتبة الإيمان، وهي أعلى من المرتبة الأولى، لأن الله تعالى نفى عمن ادعى الإيمان أول وهلة، وأثبت لهم الإسلام، فقال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات/ ١٤، ١٥].

فأنكر سبحانه عليهم ادعاءهم الإيمان، وأخبر أنهم لم يبلغوا هذه المرتبة إذ ذاك، وفي الحديث الصحيح، حديث سعد، لما قال للنبي ﷺ: ما لك عن فلان؟ فوالله لأراه مؤمنًا، فقال: أو مسلمًا.

المرتبة الثالثة:

الإحسان، وهي أعلى المراتب كلها، وقد تضمن حديث جبريل هذه المراتب كلها، لما سأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، فأخبره ﷺ بذلك، ثم قال: «هذا جبريل يعلمكم أمر دينكم». فقد ينفى عن الرجل الإحسان، ويثبت في الإيمان، وينفى عنه الإيمان، ويثبت في الإسلام، كما في قوله عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، ولا يخرجه عن مرتبة الإسلام إلاَّ الكفر بالله، والشرك المخرج من الملَّة.

أهل السنة لا يكفِّرون بالمعاصي ما لم تكن شركًا

وأما المعاصي والكبائر، كالزنى، والسرقة، وشرب الخمر، وأشباه ذلك، فلا يخرجه عن دائرة الإسلام عند أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج والمعتزلة، الذين يكفرون بالذنوب، ويحكمون بتخليده في النار.

(الأدلة على عدم تكفير العصاة من الموحِّدين)

واحتج أهل السنة والجماعة على ذلك بحجج كثيرة من الكتاب والسنَّة، وأقوال الصحابة، والتابعين، فمن ذلك ما رواه محمد بن نصر المروزي، الإمام المشهور، حدثنا إسحاق ابن إبراهيم، حدثنا وهب بن جرير بن حازم، حدثنا أبي، عن الفضيل، عن أبي جعفر محمد بن علي، أنه سئل عن قول النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، فقال أبو جعفر: هذا الإسلام، ودوّر دائرة واسعة، وهذا الإيمان، ودوّر دائرة صغيرة، في وسط الكبيرة، فإذا زنى أو سرق خرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يُخرج من الإسلام إلاَّ الكفر بالله. انتهى.

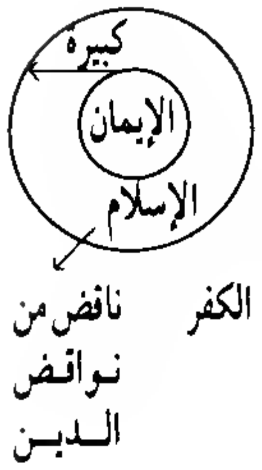

قال: وإن الله جعل اسم الإيمان، اسم ثناء وتزكية ومدحة،

وأوجب عليه الجنة، فقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب/ ٤٣، ٤٤].

وقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس/ ٢].

وقال: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد/ ١٢].

وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة/ ٧٢].

قالوا: وقد توعَّد الله بالنار أهل الكبائر، فدل ذلك: على أن اسم الإيمان زال عمَّن ألمَّ بكبيرة، قالوا: ولم نجده تعالى أوجب الجنة باسم الإسلام، فثبت: أنَّ اسم الإسلام ثابت له على حاله، واسم الإيمان زائل عنه.

فإن قيل: أليس ضد الإيمان الكفر؟

فالجواب: إن الكفر ضد أصل الإيمان، لأن للإيمان أصلاً، وفروعًا، فلا يثبت الكفر، حتى يزول أصل الإيمان، الذي هو ضد الكفر.

لا يثبت الكفر على مؤمن حتى يزول عنه أصل الإيمان، ولولا وجوده لكفر

فإن قيل: الذي زعمتم أن النبي ﷺ أزال عنه اسم الإيمان، هل بقي معه من الإيمان شيء؟

قيل: نعم، أصله ثابت، ولولا ذلك لكفر.

فإن قيل: كيف أمسكتم عن اسم الإيمان أن تسمُّوا به الفاسق، وأنتم تزعمون أن أصل الإيمان معه، وهو التصديق بالله ورسوله؟

قلنا: لأن الله ورسوله، وجماهير المسلمين، يسمُّون الأشياء بما علمت عليها من الأسماء، فيسمُّون الزاني: فاسقًا، والقاذف: فاسقًا، وشارب الخمر: فاسقًا، ولم يسمُّوا واحدًا من هؤلاء تقيًّا ولا

ورعًا، وقد أجمع المسلمون: أن فيه أصل التقوى والورع، وذلك أنه يتقي أن يكفر، أو يشرك بالله، وكذلك يتَّقي أن يترك الغسل من الجنابة، والصلاة، ويتقي: أن يأتي أمه، فهو في جميع ذلك متق.

وقد أجمع المسلمون من الموافقين والمخالفين: أنه لا يسمَّى تقيًا، ولا ورعًا إذا كان يأتي بالفجور، مع أن أصل التقوى والورع، باق. انتهى.

علة عدم إطلاق التقوى والورع على الفاسق والفاجر

يريد باق من ادِّعائه الأصل، كتورُّعه عن إتيان المحارم، ثم لا يسمُّونه متقيًا ولا ورعًا، مع إتيانه بعض الكبائر، بل يسمُّونه فاسقًا وفاجرًا، مع علمهم أنَّه قد اتَّقى بعض التَّقوى والورع، فمنعهم من ذلك أن اسم التقي، اسم ثناء وتزكية، وأن الله قد أوجب عليه المغفرة والجنة، قالوا: فلذلك لا نسمِّيه مؤمنًا ونسمِّيه فاسقًا وزانيًا، وإن كان في قلبه أصل اسم الإيمان، لأن الإيمان أصل أثنى الله به على المؤمنين، وزكَّاهم به، وأوجب لهم الجنة.

الدليل على أن عصاة المسلمين الموحدين مسلمون

ثم قال: مسلم، ولم يقل مؤمن، قالوا: ولو كان أحد من المسلمين الموحِّدين، يستحق أن لا يكون في قلبه إيمان وإسلام، كان أحق الناس به أهل النار الذين يخرجون منها، لأنه صح عن النبي ﷺ أن الله يقول: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، فثبت: أن شر المسلمين في قلبه إيمان.

عصاة المسلمين مسلمون، بشرط أن يقوموا بالأصل الذي يخرجون به من سائر ملل الكفر

ولما وجدنا الأمة تحكم بالأحكام التي ألزمها الله المسلمين، ولا يكفرونهم، ولا يشهدون لهم بالجنة: ثبت أنهم مسلمون تجري عليهم أحكام المسلمين، وأنهم لا يستحقون أن يسمُّوا مؤمنين، إذا كان الإسلام مثبتًا للملَّة، التي يخرج بها المسلم من جميع الملل، ويزول عنه اسم الكفر، ويثبت له أحكام المسلمين.

والمقصود: معرفة ما قدَّمناه، من أن للدين ثلاث مراتب، أولها الإسلام، وأوسطها الإيمان، وأعلاها الإحسان، ومن وصل إلى العليا، فقد وصل إلى التي قبلها، فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم، وأما المسلم: فلا يجب أن يكون مؤمنًا، وهذا التفصيل الذي أخبر به النبي ﷺ في حديث جبريل: جاء به القرآن، فجعل الأمة على هذه الأوصاف الثلاثة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر/ ٣٢].

فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان: هو الظالم لنفسه.

والمقتصد: هو المؤمن المطلق، الذي أدى الواجب، وترك المحرم.

والسابق بالخيرات: هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه.

وقد ذكر سبحانه تقسيم الناس في المعاد إلى هذه الثلاثة الأقسام في سورة: الواقعة، والمطففين، وهل أتى.

(الإسلام والإيمان والعلاقة بينهما)

وقال أبو سليمان الخطابي رحمه الله فأكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة، فأما الزهري فقال: الإسلام الكلمة، والإيمان العمل، واحتج بالآية، وذهب غيره: إلى أن الإسلام، والإيمان، شيء واحد، واحتج بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات/ ٣٥، ٣٦].

قال: والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام في هذا ولا يطلق، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمنًا في بعض الأحوال، ولا يكون مؤمنًا في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال، فكل مؤمن مسلم

وليس كل مسلم مؤمنًا، وإذا حملت الأمر على هذا، استقام لك تأويل الآيات، واتحد القول فيها، ولم يختلف شيء منها.

قال الشيخ تقي الدين: والذي اختاره الخطابي، وهو قول من فرق بينهما، كأبي جعفر، وحماد بن زيد، وعبد الرحمن ابن مهدي، وهو: قول أحمد بن حنبل، وغيره، وما علمت أحدًا من المتقدمين خالف هؤلاء، وجعل نفس الإسلام نفس الإيمان، ولهذا كان عامة أهل السنة على هذا الذي قاله هؤلاء، كما ذكره الخطابي، وكذلك ذكر أبو قاسم التيمي الأصبهاني، وابنه محمد، شارح مسلم، وغيرهما: أنه المختار عند أهل السنة، وأنه لا يطلق على السارق والزاني اسم مؤمن، كما دلَّ عليه النص.

عامة أهل السنة يفرقون بين: الإسلام والإيمان

إذا تمهَّدت هذه القاعدة، تبيَّن لك: أن الناس يتفاضلون في التوحيد تفاضلاً عظيمًا، ويكونون فيه على درجات بعضها أعلى من بعض، فمنهم: من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، كما دلت عليه النصوص الصريحة الصحيحة، ومنهم: من يدخل النار وهم العصاة، ويمكثون فيها على قدر ذنوبهم، ثم يخرجون منها لأجل ما في قلوبهم من التوحيد والإيمان، وهم في ذلك متفاوتون، كما في الحديث الصحيح، لقول النبي ﷺ: «أخرجوا من النار من قال لا إله إلاَّ الله، وفي قلبه من الخير ما يزن برَّة»، وفي لفظ: «شعيرة»، وفي لفظ: «ذرة»، وفي لفظ: «حبة خردل من إيمان».

لا ينجو من الخلود في النيران إلاَّ الموحدون

ومن تأمَّل النصوص: تبيَّن له أنَّ الناس يتفاضلون في التوحيد والإيمان تفاضلاً عظيمًا، وذلك بحسب ما في قلوبهم من الإيمان بالله، والمعرفة الصادقة، والإخلاص، واليقين، والله أعلم»[1].

---

(١) الدرر السنية ١/ ٢٠١ ــ ٢٠٧.

ولقد أصلّ الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن أصولاً ذهبية في قضية الإيمان ــ قد استقاها من الإمام العلامة ابن القيم الجوزية ــ لا يمكن الاستغناء عنها لمن أراد الوقوف على علل وأحكام الإيمان والكفر، فقال رحمه الله:

السنة هي المبينة لحدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ

«وهنا أصول، أحدها: أن السنة والأحاديث النبوية، هي المبينة للأحكام القرآنية، وما يراد من النصوص الواردة في كتاب الله، في: باب معرفة حدود ما أنزل الله، كمعرفة المؤمن، والكافر، والمشرك، والموحِّد، والفاجر، والبر، والظالم، والتقى، وما يراد بالموالاة، والتولي، ونحو ذلك من الحدود، كما أنها المبينة لما يراد من الأمر بالصلاة، على الوجه المراد، في عددها، وأركانها، وشروطها، وواجباتها، وكذلك: الزكاة، فإنه لم يظهر المراد من الآيات الموجبة، ومعرفة النصاب، والأجناس التي تجب فيها، من الأنعام، والثمار، والنقود ووقت الوجوب، واشتراط الحول في بعضها، ومقدار ما يجب في النصاب، وصفته، إلاّ ببيان السنة وتفسيرها.

وكذلك: الصوم والحج، جاءت السنة ببيانهما، وحدودهما، وشروطهما، ومفسداتهما، ونحو ذلك، مما توقف بيانه على السنة، وكذلك: أبواب الربا، وجنسه، ونوعه، وما يجري فيه، وما لا يجري، والفرق بينه وبين البيع الشرعي، وكل هذا البيان: أخذ عن رسول الله ﷺ برواية الثقات العدول عن مثلهم، إلى أن تنتهي السنة إلى رسول الله ﷺ، فمن: أهمل هذا وأضاعه، فقد سد على نفسه باب العلم والإيمان، ومعرفة معاني: التنزيل، والقرآن.

❑ ❑ ❑

المبحث الرابع

وجوب التباين بين أصل الإيمان وشعبه وأصل الكفر وشعبه، ثابت بالكتاب والسنّة

الأصل الثاني:

أن[1] الإيمان أصل، له شُعب متعدِّدة، كل شعبة منها تسمَّى إيمانًا، فأعلاها: شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق.

فمنها: ما يزول الإيمان بزواله إجماعًا، كشعبة الشهادتين، ومنها: ما لا يزول بزواله إجماعًا، كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبين هاتين الشعبتين شُعب متفاوتة، منها: ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها: ما يلحق بشعبة إماطة الأذى عن الطريق ويكون إليها أقرب، والتسوية بين هذه الشعب في اجتماعها، مخالف للنصوص، وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها.

تفاوت شعب الإيمان والكفر، في الأسماء والأحكام

وكذلك الكفر أيضًا، ذو أصل وشعب، فكما أنَّ شُعب الإيمان: إيمان، فشُعب الكفر: كفر، والمعاصي كلها من شُعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شُعب الإيمان، ولا يسوَّى بينهما في الأسماء والأحكام، وفرق بين من ترك الصلاة، أو الزكاة، أو الصيام، أو أشرك بالله، أو استهان بالمصحف، وبين من يسرق،

---

(١) ما زال النقل عن الشيخ عبد اللطيف متواصلاً.

ويزني، أو يشرب، أو ينهب، أو صدر منه نوع موالاة، كما جرى لحاطب، فمن سوَّى بين شُعب الإيمان في الأسماء والأحكام، أو سوَّى بين شُعب الكفر في ذلك، فهو مخالف للكتاب والسنة، خارج عن سبيل سلف الأمة، داخل في عموم أهل البدع والأهواء.

التسوية بين: شعب الكفر والإيمان في الأسماء والأحكام، سبيل أهل البدع والأهواء

(أركان الإيمان)

الأصل الثالث:

أن الإيمان مركب، من قول وعمل، والقول قسمان:

قول القلب، وهو: اعتقاده.

وقول اللسان وهو: التكلُّم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان:

عمل القلب وهو: قصده، واختياره، ومحبته، ورضاه وتصديقه.

وعمل الجوارح، كالصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد، ونحو ذلك من الأعمال الظاهرة.

فإذا زال تصديق القلب، ورضاه، ومحبته لله، وصدقه، زال الإيمان بالكلية.

لقد اختلف العلماء، في كفر تارك أحد المباني، إذا كانٍ مصدقًا به وقابلًا لحكمه، وإلاَّ وقع الإجماع على تكفيره

وإذا زال بشيء من الأعمال، كالصلاة، والحج، والجهاد، مع بقاء تصديق القلب وقَبوله، فهذا محل خلاف، هل يزول الإيمان بالكلية، إذا ترك أحد الأركان الإسلامية، كالصلاة، والحج، والزكاة، والصيام، أو لا يزول؟ وهل: يكفر تاركه أو لا يكفر؟ وهل: يفرق بين الصلاة، وغيرها، أو لا يفرق؟

أجمع أهل السنّة على: وجوب عمل القلب في الإيمان، خلافًا للمرجئة

فأهل السنة: مجمعون على أنه لا بد من عمل القلب، الذي هو: محبته، ورضاه، وانقياده، والمرجئة تقول: يكفي التصديق فقط، ويكون به مؤمنًا، والخلاف في أعمال الجوارح، هل يكفر أو لا يكفر، واقع بين أهل السنة، والمعروف عند السلف: تكفير من ترك أحد المباني الإسلامية، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والقول الثاني: أنه لا يكفر إلاَّ من جحدها.

والثالث: الفرق بين الصلاة وغيرها، وهذه الأقوال، معروفة.

وكذلك المعاصي والذنوب التي هي: فعل المحظورات، فرقوا فيها بين ما يصادم أصل الإسلام وينافيه، وما دون ذلك، وبين ما سمَّاه الشارع كفرًا وما لم يسمه، هذا ما عليه أهل الأثر، المتمسِّكون بسنة رسول الله ﷺ، وأدلة هذا مبسوطة في أماكنها.

الأصل الرابع:

كفر الجحود، مضاد للإيمان من كل وجه

أن الكفر نوعان: كفر عمل، وكفر جحود وعناد، وهو: أن يكفر بما علم أن الرسول ﷺ جاء به من عند الله، جحودًا وعنادًا، من: أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، التي أصلها توحيده، وعبادته وحده لا شريك له، وهذا مضاد للإيمان من كل وجه.

كفر العمل منه ما يضاد الإيمان بالكلية، ومنه بخلاف ذلك

وأما كفر العمل، فمنه ما يضاد الإيمان، كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي ﷺ، وسبِّه.

وأما الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة، فهذا كفر عمل، لا كفر اعتقاد، وكذلك قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض»، وقوله: «من أتى كاهنًا فصدَّقه، أو امرأة في

دبرها، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»، فهذا: من الكفر العملي، وليس كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي ﷺ وسبِّه، وإن كان الكل يطلق عليه: الكفر.

وقد سمَّى الله سبحانه من عمل ببعض كتابه، وترك العمل ببعضه، مؤمنًا بما عمل به، وكافرًا بما ترك العمل به.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة/ ٨٤].

إلى قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة/ ٨٥].

فأخبر تعالى: أنهم أقروا بميثاقه الذي أمرهم به والتزموه، وهذا يدل على تصديقهم به، وأخبر: أنهم عصوا أمره، وقتل فريق منهم فريقًا آخرين وأخرجوهم من ديارهم، وهذا كفر بما أخذ عليهم، ثم أخبر أنَّهم يفدون من أسر من ذلك الفريق، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم في الكتاب، وكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق، كافرين بما تركوه منه.

فالإيمان العملي: يضاده الكفر العملي، والإيمان الاعتقادي: يضاده الكفر الاعتقادي، وفي الحديث الصحيح: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، ففرق بين سبابه وقتاله، وجعل أحدهما فسوقًا، لا يكفر به، والآخر كفرًا، ومعلوم: أنه إنما أراد الكفر العملي لا الاعتقادي، وهذا الكفر: لا يخرجه من الدائرة الإسلامية، والملة بالكلية، كما لم يخرج الزاني، والسارق، والشارب، من الملة، وإن زال عنه اسم الإيمان.

(لا تُتلقَّى مسائل الكفر والإيمان إلاَّ من أقوال الصحابة)

وهذا التفصيل، قول الصحابة، الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله، وبالإسلام، والكفر، ولوازمهما، فلا تُتلقَّى هذه المسائل إلاَّ عنهم.

والمتأخِّرون لم يفهموا مرادهم، فانقسموا: فريقين.

فريق: أخرجوا من الملة بالكبائر، وقضوا على أصحابها بالخلود في النار.

وفريق: جعلوهم مؤمنين، كاملي الإيمان، فأولئك غلوا، وهؤلاء جفوا، وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى، والقول الوسط، الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل.

(الكفر والشرك والنفاق... ينقسم إلى أكبر وأصغر)

فها هنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وظلم دون ظلم، فعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة/ ٤٤]. قال: ليس هو الكفر الذي تذهبون إليه، رواه عنه سفيان، وعبد الرزاق، وفي رواية أخرى: كفر لا ينقل عن الملة، وعن عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

وهذا بيِّن في القرآن لمن تأمَّله، فإن الله سبحانه سمَّى الحاكم بغير ما أنزل الله كافرًا، وسمَّى الجاحد لما أنزل الله على رسوله كافرًا، وليس الكفران على حد سواء، وسمَّى الكافر ظالمًا في قوله: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة/ ٢٥٤].

وسمَّى من يتعدَّ حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع، ظالمًا، وقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق/ ١].

وقال يونس عليه السلام: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء/ ٨٧].

وقال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف/ ٢٣].

وقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص/ ١٦].

وليس هذا الظلم، مثل ذلك الظلم، وسمَّى الكافر فاسقًا، في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة/ ٢٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة/ ٩٩].

وسمَّى العاصي فاسقًا، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات/ ٦]، وقال في الذين يرمون المحصنات: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور/ ٤]، وقال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة/ ١٩٧]، وليس الفسوق، كالفسوق.

وكذلك الشرك شركان، شرك ينقل عن الملة، وهو الشرك الأكبر، وشرك لا ينقل عن الملة، وهو الشرك الأصغر، كشرك الرياء.

وقال تعالى في الشرك الأكبر: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة/ ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ [الحج/ ٣١].

وقال تعالى في شرك الرياء: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف/ ١١٠].

وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، وفي الحديث: «من حلف بغير الله، فقد أشرك».

ومعلوم: أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار، ومن هذا قوله ﷺ: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل».

فانظر: كيف انقسم الشرك، والكفر، والفسوق، والظلم، إلى ما هو كفر ينقل عن الملة، وإلى ما لا ينقل عن الملة.

وكذلك النفاق نفاقان: نفاق اعتقادي، ونفاق عملي. والنفاق الاعتقادي مذكور في القرآن، في غير موضع، أوجب لهم تعالى به الدرك الأسفل من النار، والنفاق العملي جاء في قوله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا اؤتمن خان». وكقوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

إذا استحكمت شعب النفاق وكملت، فقد ينسلخ صاحبها من الإسلام

قال بعض الأفاضل: وهذا النفاق قد يجتمع مع أصل الإسلام، ولكن إذا استحكم وكمل، فقد ينسلخ صاحبه من الإسلام بالكلية، وإن صلَّى وصام وزعم أنه مسلم، فإن الإيمان ينهى عن هذه الخلال، فإذا كملت للعبد ولم يكن له ما ينهاه عن شيء منها، فهذا لا يكون إلَّا منافقًا خالصًا. انتهى.

الأصل الخامس:

الكافر لا يعد مؤمنًا حتى يقوم بأصله، والمؤمن لا يصير كافرًا حتى يقوم بأصله

أنه لا يلزم من قيام شعبة من شُعب الإيمان بالعبد، أن يسمَّى مؤمنًا، ولا يلزم من قيام شعبة من شُعب الكفر، أن يسمَّى كافرًا وإن كان ما قام به كفر، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم،

أو من أجزاء الطب، أو من أجزاء الفقه، أن يسمَّى عالمًا، أو طبيبًا، أو فقيهًا، وأما الشعبة نفسها، فيطلق عليها اسم الكفر، كما في الحديث: «اثنتان في أمتي هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»، وحديث: «من حلف بغير الله فقد كفر»، ولكنه لا يستحق اسم الكفر على الإطلاق.

فمن عرف هذا، عرف فقه السلف، وعمق علومهم، وقلة تكلُّفهم.

وجوب التأسي بأصحاب النبي ﷺ، وهذا هو المخرج الوحيد

قال ابن مسعود: من كان متأسِّيًا، فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم أبرّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، فاعرفوا لهم حقهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

وقد كاد الشيطان بني آدم بمكيدتين عظيمتين، لا يبالي بأيهما ظفر، أحدهما: الغلو ومجاوزة الحد، والإفراط. والثاني: هو الإعراض، والترك، والتفريط.

التفريط والإفراط في هذا المقام العظيم

قال ابن القيِّم؛ لما ذكر شيئًا من مكائد الشيطان: قال بعض السلف: ما أمر الله تعالى بأمر إلاَّ وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيها ظفر، وقد اقتطع أكثر الناس إلاَّ القليل في هذين الواديين، وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وعدَّ رحمه الله كثيرًا من هذا النوع ــ إلى أن قال ــ وقصر بقوم، حتى قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم، كإيمان جبريل وميكائيل، فضلاً عن أبي بكر وعمر، وتجاوز بآخرين، حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة»[(١)].

---

(١) الدرر السنية ١/ ٤٧ ــ ٤٨٥.

المبحث الخامس
حكم الاستثناء في الإيمان

لقد انقسم المسلمون في حكم الاستثناء في الإيمان إلى ثلاثة أقوال:

منهم من يوجبه، ومنهم من يحرِّمه، ومنهم من يجوِّز الأمرين باعتبارين مختلفين، وهذا أصح الأقوال لاستمداد مشروعيته من القواعد الصحيحة المنضبطة لدى سلف الأمة في قضية الإيمان.

فالاستثناء في الإيمان لدى أهل السنة يعود إلى الموافاة، وإلى كماله الواجب، وأما الاستثناء فيه شكًّا فقد أجمعوا على حرمته.

وإذا قال واحد من السلف: أنا مؤمن من غير استثناء، فقد أراد بذلك: مطلق الإيمان، لا الإيمان المطلق، أو الإيمان المقيد، لا الإيمان الواجب أو المستحب، ولقد صدَّعت الموافاة على الإيمان: قلوب المؤمنين، وكان الواحد منهم، كلما عظم إيمانه، اشتد خوفه من النفاق والكفر، وسوء الخاتمة.

سئل الشيخ حمد بن عتيق، عن قول الفقهاء: من قال أنا مؤمن إن شاء الله، إن نوى به في الحال، يكفر، وإن نوى به في المآل، لم يكفر؟!

فأجاب:

هذا سؤال من لا يحسن السؤال، فإن ظاهره: أن جميع الفقهاء يقولون ذلك، ومن له خبرة بأقوال الفقهاء، تحقق أن هذه مجازفة عليهم وقول بلا علم، فإن كان بعض المتأخرين، من بعض أهل المذاهب قال ذلك، فهو: قول محدث، من أقوال أهل البدع، وأنا أذكر لك من كلام العلماء في الاستثناء في الإيمان، وهو قول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، ليتضح الخطأ من الصواب، ويعلم مَن الأولى بالحق في هذا الباب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى: وأما الاستثناء في الإيمان، بقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، فالناس فيه على ثلاثة أقوال:

منهم: من يوجبه.

ومنهم: من يحرمه.

ومنهم: من يجوِّز الأمرين، باعتبارين. وهذا: أصح الأقوال.

الذي قرروا: أن الإيمان شيء واحد، حرموا الاستثناء فيه، خاصة الحالي منه

فالذين يحرمونه، هم: المرجئة، والجهمية، ونحوهم، ممن يجعل الإيمان شيئًا واحدًا، يعلمه الإنسان من نفسه، كالتصديق بالرب، ونحو ذلك مما في قلبه، فيقول أحدهم: أنا أعلم أني مؤمن، كما أعلم أني قرأت الفاتحة، فمن استثنى في إيمانه، فهو شاك فيه عندهم.

لم يعلل أحد من السلف الاستثناء في الإيمان باعتبار الموافاة، وإن علله به كثير من المتأخرين من أصحاب الحديث

وأما الذين أوجبوا الاستثناء، فلهم فيه مأخذان، أحدهما: أن الإيمان، هو ما مات عليه الإنسان، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنًا، وكافرًا، باعتبار الموافاة، وما سبق في علم الله أنه يكون عليه، وهو: مأخذ كثير من المتأخرين، من الكلابية وغيرهم ممن

يريد أن ينصر ما استشهد عليه أهل السنَّة والحديث، من قولهم: أنا مؤمن إن شاء الله، ويريد مع ذلك أن الإيمان لا يتفاضل، ولا يشك الإنسان في الموجود منه، وإنما يشك في المستقبل، وهذا: وإن علل به كثير من المتأخِّرين من أصحاب الحديث، من أصحاب أحمد، ومالك، والشافعي، وغيرهم، فما علمت أحدًا من السلف علَّل به الاستثناء.

الفرق بين: المرجئة والكلابية في الاستثناء

قلت: فالمرجئة، والجهمية، يحرِّمون الاستثناء، في الحال والمآل، وهؤلاء: يبيحونه في المآل، ويمنعونه في الحال.

المأخذ الثاني في الاستثناء في الإيمان، يكون باعتبار العمل، لا القول

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والمأخذ الثاني في الاستثناء: أن الإيمان المطلق، يتضمن فعل ما أمر الله به كله، وترك المحرمات كلها، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن بهذا الاعتبار، فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين، القائمين بفعل جميع ما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه، وشهادته لها بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة، لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، وهذا: مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون، وإن جوَّزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر.

الاستثناء في العمل، لا القول

وروى الخلال عن أبي طالب قال: سمعت أبا عبد الله، يقول: لا نجد بدًا من الاستثناء، لأنهم إذا قالوا مؤمن، فقد جاءوا بالقول، فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول، وعن إسحاق بن إبراهيم قال: سمعت أبا عبد الله يقول: أذهب إلى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الإيمان لأن الإيمان قول وعمل، والعمل الفعل، فقد جئنا بالقول، ونخشى أن نكون فرطنا في العمل، فيعجبني أن يستثني

في الإيمان، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله، ومثل هذا كثير من كلام أحمد، وأمثاله.

تعريف الإيمان المطلق

وهذا مطابق لما تقدَّم من أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات، المستحق للجنة، إذا مات على ذلك، وأن المفرط بترك المأمور، أو فعل المحظور، لا يطلق عليه أنه مؤمن، وأن المؤمن المطلق، هو البر التقي ولي الله، فإذا قال: أنا مؤمن قطعًا، كان كقوله: أنا بر، تقي، ولي لله قطعًا.

أمؤمن أنت؟ سؤال محدث مبتدع مكروه

وقد كان أحمد، وغيره من السلف، مع هذا، يكرهون سؤال الرجل غيره: أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب، لأن هذا بدعة أحدثها المرجئة، ليحتجوا بها لقولهم، فإن الرجل يعلم من نفسه: أنه ليس بكافر، بل يجد قلبه مصدقًا لما جاء به الرسول، فيقول: أنا مؤمن، فلما علم السلف مقصودهم، صاروا يكرهون السؤال، ويفصِّلون الجواب.

إذا شهدنا لأنفسنا بالإيمان من غير استثناء، فالمراد به: الإيمان المقيد

وهذا: لأن لفظ الإيمان، فيه إطلاق وتقييد، فكانوا يجيبون بالإيمان المقيد الذي لا يستلزم أنه شاهد لنفسه بالكمال، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: أنا مؤمن بلا استثناء، إذا أراد ذلك، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء.

مطلق الإيمان لا يستثنىٰ فيه، ولكن في الإيمان المطلق

قلت: فظهر القول الثالث، الذي هو الصحيح، وهو: أنه إذا قال: أنا مؤمن، فإن أراد بذلك، الإيمان المقيد الذي لا يستلزم للكمال، جاز له ترك الاستثناء، وإن أراد المطلق، المستلزم للكمال، فعليه أن يستثني في ذلك.

قال الخلال: أخبرني حرب بن إسماعيل، وأبو داود، قال أبو داود: سمعت أحمد قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: إذا سئل المؤمن، أمؤمن أنت؟

لم يجبه ويقول: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني، وقال: إن شاء الله ليس يكره، ولا يدخل الشك، وقد أخبرني عن أحمد أنه قال: لا نشك في إيماننا، وأن السائل لا يشك في إيمان المسؤول، وهذا أبلغ، وهو إنما يجزم بأنه مقر مصدق بما جاء به الرسول، لا يجزم بأنه قائم بالواجب.

فعلم أن أحمد وغيره، من السلف، كانوا يجزمون، ولا يشكون في وجود ما في القلب من الإيمان، في هذه الحال، ويجعلون الاستثناء عائدًا إلى الإيمان المطلق، المتضمن فعل المأمور، هذا ملخص كلامه، في كتاب الإيمان.

وقال في موضع آخر: والناس لهم في الاستثناء ثلاثة أقوال:

منهم: من يحرمه، كطائفة من الحنفية، ويقولون: من يستثني فهو شاك.

ومنهم: من يوجبه، كطائفة من أهل الحديث.

ومنهم: من يجوِّزه، أو يستحبه، وهذا أعدل الأقوال، فإن الاستثناء له وجه صحيح، وتركه له وجه صحيح.

الاعتبارات الصحيحة للاستثناء

فمن قال: أنا مؤمن إن شاء الله، وهو يعتقد أن الإيمان، فعل جميع الواجبات، ويخاف أن لا يكون أتى بها، فقد أحسن.

ومن اعتقد: أن المؤمن المطلق، هو الذي يستحق الجنة، فاستثنى خوف سوء الخاتمة، فقد أصاب.

ومن استثنى أيضًا خوفًا من تزكية نفسه، أو مدحها، أو تعليقًا للأمر بمشيئة الله تعالى، فقد أحسن.

ومن جزم بما يعلمه من التصديق في ترك الاستثناء، فهو مصيب.

فتبيَّن بما ذكرناه من الكلام الذي قدمناه: أن هذا الإيراد قول غير معروف عند العلماء المقتدى بهم، فضلاً عن أن يكون الفقهاء كلهم قد قالوه، وإذا كان الأمر كذلك، وظهر كلام من يعتد به، وما هو الصواب منه، فلا حاجة بنا إلى معرفة الأقوال المبتدعة»[١].

❏ ❏ ❏

(١) الدرر السنية ١/ ٥٥١ ـ ٥٥٥.

المبحث السادس

كلما عظم الإيمان، اشتد الخوف من الكفر والنفاق

سئل الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله تعالى:

هل يجوز للإنسان أن يحدث نفسه بقول: أنا منافق؟ أنا أخشى الكفر؟ هل هذا شك في الدين؟ أم لا؟

أصحاب النبي ﷺ كانوا يخافون على أنفسهم النفاق

الجواب: قال البخاري، في صحيحه: قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبرائيل وميكائيل، وقال ابن القيم: تالله لقد قطع خوف النفاق، قلوب السابقين الأولين، لعلمهم بدقه، وجله، وتفاصيله، وجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم، حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين.

قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: يا حذيفة ناشدتك الله، هل سمّاني لك رسول الله ﷺ مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا، يعني: لا أفتح هذا الباب في تزكية الناس، ليس معناه: أنه لم يبرىء من النفاق غيره.

النفاق لا يأمنه إلاَّ منافق، ولا يخافه إلاَّ مؤمن

وكيف يكون ما هو من صفات السابقين الأولين، شكًّا في الدين؟ وعن الحسن البصري ــ في النفاق ــ ما أمنه إلاَّ منافق، ولا خافه إلاَّ مؤمن.

وقال ابن القيم رحمه الله: وبحسب إيمان العبد ومعرفته، يشتد خوفه أن يكون منهم، ولهذا: اشتد خوف سادة الأمة، وسابقيها على أنفسهم، أن يكونوا منهم، انتهى.

فكلما زاد الإيمان، اشتد الخوف من النفاق، وعلى حسب ضعف الإيمان يكون الأمن منه، وأما خوف الكفر فيكفي فيه قول الله تعالى، إخبارًا عن خليله إبراهيم: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم/ ٣٥]، وهو يدل على شدة خوفه من هذا الأمر، وفي الدعاء المأثور: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر، والفقر، وعذاب القبر، وأن أُردّ إلى أرذل العمر».

الخليل عليه السلام كان يخشى على نفسه وبنيه: الكفر وعبادة الأصنام، فكيف بنا نحن المغرورين

واعلم: أن كون الإنسان، يشتد خوفه من الكفر، والنفاق، ويكثر البحث عن أسبابهما ونحو ذلك، هو أمر غير التلفظ به، وكونه يقول: أنا منافق، فذاك لون، وهذا لون»[1].

• • •

(١) الدرر السنية ١/ ٥٥٧، ٥٥٨.

كلمات منتقاة، مضيئة

● الإيمان بإجماع السلف: محله القلب والجوارح جميعًا. . .
والسلف يخافون على الإنسان إذا كان ضعيف الإيمان، من النفاق، أو سلب الإيمان كله.

[الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب]

● المشهور عن السلف وأئمة الحديث: أن الإيمان قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمَّى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين، ومن بعدهم ممن أدركهم.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● الإيمان بالله يقتضي: محبته، وخشيته، وتعظيمه، وطاعته بامتثال أمره، وترك نهيه وكذلك الإيمان بالكتب يقتضي: العمل بما فيها من الأمر والنهي.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● أجمع أهل السنة والجماعة: أن أصحاب الكبائر، لا يخلدون في النار إذا ماتوا على «التوحيد»، وأن من دخل النار منهم بذنبه يخرج منها، كما تواترت الأحاديث بذلك عن النبي ﷺ.

[الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبوبطين]

● فمن سوَّى بين شعب الإيمان في الأسماء والأحكام، أو سوَّى بين شعب الكفر في ذلك، فهو مخالف للكتاب والسنة، خارج عن سبيل سلف الأمة، داخل في عموم أهل البدع والأهواء.

[الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن]

● لقد أفتى الإمام أحمد وغيره من السلف بكفر من قال: إن العبد يصير مسلمًا بالمعرفة فقط.

[شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

● وقد كفر جماعة من العلماء: من أخرج العمل عن الإيمان.

[الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين]

● مجرد الإتيان بلفظ الشهادة، من غير علم بمعناها، ولا عمل بمقتضاها، لا يكون به المكلف مسلمًا، بل هو حجة على ابن آدم، خلافًا لمن زعم أنَّ الإيمان مجرد الإقرار، كالكرَّامية، ومجرد التصديق كالجهمية.

إن مسمَّى الإيمان، لا بد فيه من التصديق والعمل، ومن شهد أن لا إله إلَّا الله، وعبد غيره، فلا شهادة له، وإن صلَّى وزكى وصام وأتى بشيء من أعمال الإسلام.

[شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

● إن أصل الإسلام وقاعدته: شهادة أن لا إله إلَّا الله، وهي أصل الإيمان بالله وحده، وهي أفضل شعب الإيمان.

وهذا الأصل، لا بد فيه من: العلم والعمل والإقرار بإجماع المسلمين، ومدلوله: وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه.

[شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

● أما النطق بـ : لا إلـه إلاَّ الله، من غير معرفة لمعناها ولا يقين، ولا عمل بما تقتضيه، من البراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل، قول القلب وقول اللسان، وعمل القلب والجوارح، فغير نافع بالإجماع.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● إن الكفـر بالطاغـوت: ركـن التوحيـد، فـإذا لـم يحصـل هـذا الركـن لـم يكن العبـد موحِّدًا، والتوحيـد هو أسـاس الإيمـان، الذي يصلـح بـه جميع الأعمال، وتفسد بعدمه.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● فلا بد من شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، من اعتقاد بالجَنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، فإذا اختل نوع من هذه الأنواع، لم يكن الرجل مسلمًا.

[الشيخ سليمان بن سحمان]

● من ترك شيئًا من الواجبات، أو فعل شيئًا من المحرمات، نقص إيمانه بحسب ذلك، وهو دليل على نقصان أصل الإيمان، وهو إيمان القلب...

إن أعمال القلب أصل الإيمان ومعظمه، وقوته وضعفه، ناشىء عن قوة في القلب من هذه الأعمال، أو ضعفها...

فبقدر مـا فـي القلـب من الإيمـان، تكـون الأعمـال الظاهـرة، التي هي داخلـة في مسمَّاه.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● ما أمن النفاق إلاَّ منافق، ولا خافه إلاَّ مؤمن.

[إمام التابعين: الحسن البصري]

● بحسب إيمان العبد ومعرفته، يشتد خوفه أن يكون من المنافقين ولهذا اشتدَّ خوف سادة الأمة وسابقيها على أنفسهم أن يكونوا منهم.

[شيخ الإسلام ابن قيِّم الجوزية]

● فكلما زاد الإيمان، اشتد الخوف من النفاق، وعلى حسب ضعف الإيمان يكون الأمن منه، وأما خوف الكفر، فيكفي فيه قول الله تعالى إخبارًا عن خليله إبراهيم: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم/ ٣٥].

[الشيخ حمد بن عتيق]

❑ ❑ ❑

الفصل الخامس

الطاغوت وصفة الكفر به

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : معنى الطاغوت وبعض أفراده.

المبحث الثاني : رؤوس الطواغيت وصفة الكفر بهم.

المبحث الثالث : تكفير الطاغوت وشيعته، والبراءة منهم، شرط في صحَّة الإسلام.

المبحث الرابع : الكفر بالطاغوت شطر التوحيد، والتوحيد أساس الإيمان وركنه الأعظم، والتحاكم إلى الطاغوت أو الحكم به، إيمان بالطاغوت وكفر بالله العظيم، ومروق من ملة المسلمين.

المبحث الأول

معنى الطاغوت وبعض أفراده

قال عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين:

«وأما تعريف الطاغوت: فهو مشتق من طغا، وتقديره طغووت، ثم قلبت الواو ألفًا، قال النحويُّون: وزنه فعلوت، والتاء زائدة، وقال الواحدي: قال جميع أهل اللغة: الطاغوت: كل ما عبد من دون الله، يكون واحدًا وجمعًا، ويذكر ويؤنث، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء/ ٦٠]، فهذا في الواحد.

وقال تعالى في الجمع: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة/ ٢٥٧].

وقال في المؤنث: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر/ ١٧]، قال: ومثله في أسماء الفلك يكون واحدًا وجمعًا ومذكرًا ومؤنثًا.

قال: قال الليث وأبو عبيدة والكسائي وجماهير أهل اللغة: الطاغوت كل ما عبد من دون الله، وقال الجوهري: الطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال، وقال مالك وغير واحد من السلف والخلف: كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، وقال بعض أفراد الطاغوت

عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما وكثير من المفسرين: الطاغوت الشيطان.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهو قول قوي جدًا، فإنه يشتمل كل ما عليه أهل الجاهلية من: عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها.

وقال الواحدي عند قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء/ ٥١]: كل معبود من دون الله فهو جبت وطاغوت؛ قال ابن عباس في رواية عطية: الجبت الأصنام، والطاغوت تراجمة الأصنام الذين يكونون بين أيديها يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس، وقال في رواية الوابي: الجبت الكاهن، والطاغوت الساحر.

وقال بعض السلف في قوله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء/ ٦٠]، إنه كعب بن الأشرف. وقال بعضهم: حيّ بن أخطب. وإنما استحقَّا هذا الاسم لكونهما من رؤوس الضلال، ولإفراطهما في الطغيان وإغوائهما الناس، ولطاعة اليهود لهما في معصية الله، فكل من كان بهذه الصفة فهو طاغوت.

التحاكم إلى غير الكتاب والسنة تحاكم إلى الطاغوت

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء/ ٦٠]، لما ذكر ما قيل إنها نزلت فيمن طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف أو إلى حاكم الجاهلية وغير ذلك، قال: والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة، لمن عدل عن الكتاب والسنَّة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا.

كل من نصبه الناس للحكم بينهم بأحكام الجاهلية فهو طاغوت

فتحصَّل من مجموع كلامهم رحمهم الله تعالى أن اسم «الطاغوت» يشمل كل معبود من دون الله، وكل رأس في الضلال يدعو إلى الباطل ويحسنه، ويشمل أيضًا كل من نصبه الناس للحكم بينهم بأحكام الجاهلية المضادة لحكم الله ورسوله، ويشمل أيضًا الكاهن والساحر وسدنة الأوثان إلى عبادة المقبورين وغيرهم بما يكذبون من الحكايات المضلَّة للجهَّال، الموهمة أن المقبور ونحوه يقضي حاجة من توجه إليه وقصده، وأنه فعل كذا وكذا مما هو كذب أو من فعل الشياطين، ليوهموا الناس أن المقبور ونحوه يقضي حاجة من قصده، فيوقعهم في الشرك الأكبر وتوابعه.

الشيطان: هو الطاغوت الأكبر

وأصل هذه الأنواع كلها وأعظمها الشيطان، فهو الطاغوت الأكبر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلَّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا»[1].

وقال سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى في شرح على كتاب التوحيد:

«وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النمل/ ٣٦].

قالوا: الطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد. وقد فسَّره السلف ببعض أفراده. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الطاغوت: الشيطان. وقال جابر رضي الله عنه: الطواغيت: كهان كانت تنزل عليهم الشياطين. رواهما ابن أبي حاتم. وقال مجاهد: الطاغوت: الشيطان في صورة الإنسان، يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم. وقال مالك: الطاغوت: كل ما عبد من دون الله.

من تحاكم الناس إليه ـ من دون الله ـ وكان صاحب أمرهم فهو: طاغوت

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٤٩٨ ـ ٥٠٠.

كل من عبد من دون الله وهو كاره، فليس بطاغوت

قلت: وهو صحيح، لكن لا بد فيه من استثناء من لا يرضى بعبادته.

وقال ابن القيم: الطاغوت ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع. فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله.

لقد أعرض أكثر الناس، عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت

فهذه طواغيت العالم، إذا تأمّلتها وتأمّلت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممّن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته.

ما خلقت الخليقة إلا لعبادة الله وحده، والكفر بما يعبد من دونه

وأما معنى الآية، فأخبر تعالى أنه بعث في كل أمة، أي: في كل طائفة وقرن من الناس رسولاً بهذه الكلمة: أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. أي: اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه، فلهذا خلقت الخليقة وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء/ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد/ ٣٦].

وهذه الآية هي معنى: لا إله إلاّ الله، فإنه تضمَّنت النفي والإثبات كما تضمَّنته لا إله إلاّ الله، ففي قوله: ﴿فاعبدوا الله﴾ الإثبات، وفي قوله: ﴿اجتنبوا الطاغوت﴾ النفي، فدلت الآية على أنه لا بدَّ في الإسلام من النفي والإثبات، فيثبت العبادة لله وحده، وينفي عبادة ما سواه وهو التوحيد الذي تضمَّنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون/ ١].

وهو معنى قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

التوحيد لا يصح إلاّ بالنفي والإثبات

قال ابن القيم: وطريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله، ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلاّ متضمّنًا للنفي والإثبات، وهذا حقيقة لا إلـه إلاّ الله. انتهى.

ويدخل في الكفر بالطاغوت بغضه وكراهته، وعدم الرضى بعبادته بوجه من الوجوه.

ودلت الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وأن أصل دين الأنبياء واحد وهو الإخلاص في العبادة لله، وإن اختلفت شرائعهم كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة/ ٤٨]، وأنه لا بد في الإيمان من العمل ردًّا على المرجئة»[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى:

كل من حكم بغير شرع الله، فهو طاغوت

«كل من حكم بغير شرع الله، فهو: طاغوت»[2].

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى:

التحاكم إلى شريعة الإسلام، ورفض التحاكم إلى ما سواها من الشرائع، هو مضمون شهادة: محمد رسول الله ﷺ

«والتحاكم إلى حكام الشرع الحاكمين بما يظهر لهم شرعًا ضروري لا غناء للمسلمين عنه، وهو دستور المسلمين،

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٣، ٣٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٦٣.

وعقيدتهم، كما أنه مضمون شهادة أن محمدًا رسول الله، وقد أكمل الله لنا الدين أصولاً وفروعًا، وشرع في كتابه وعلى لسان رسول ﷺ ما فيه الكفاية لفصل الخصومات والقيام بمصالح عباده وجميع منافعهم، وذلك هو الخير كله، وهو أحسن مآلاً وعاقبة من غيره.

الإيمان يقتضي: وجوب ردِّ جميع المنازعات إلى شرع الله سبحانه

فجميع ما تنازع فيه المسلمون يجب رده إلى الحاكمين بشرع الله، كما قال الله سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء/ ٥٩].

التحاكم إلى القوانين: تحاكم إلى الطاغوت

ولا يجوز استبدال الشريعة الإلـٰهية بالقوانين الوضعية، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وإسناد مثل هذه المشاكل إلى أهل القوانين من إسناد الأمر إلى غير أهله، لأنه من التحاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله بالكفر به في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠﴾ [النساء/ ٦٠].

وقد أنكر الله على من أعرض عن التحاكم إلى شرعه وعدل إلى القوانين والآراء التي لا مستند لها من الشريعة، فقال: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة/ ٥٠]، فمن حكَّم القوانين، فقد عدل عن الحق إلى ضده»[1].

---

(١) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ٢٧٤.

وقال الشيخ ابن عثيمين حفظه الله تعالى:

كل من خالف حكم الله سبحانه وتعالى: فهو طاغوت

«الطاغوت وهو كل ما خالف حكم الله تعالى ورسوله ﷺ، لأن ما خالف حكم الله ورسوله فهو طغيان واعتداء على حكم من له الحكم، وإليه يرجع الأمر كله، وهو الله. قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف/ ٥٤]»[1].

وسئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء:

السؤال الثالث من الفتوى رقم (٨٠٠٨):

سؤال مهم

س: ما معنى الطاغوت عمومًا، مع الإشارة إلى تفسير ابن كثير لآية النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾.

المراد هنا توضيح أمرين:

الأول: ما معنى الطاغوت عمومًا، وهل يدخل كما قال ابن كثير طاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه دون الله لكي نصل إلى تفسير الحاكم والمتحاكمين إليه حال كونه لا يحاكم بشرعه سبحانه.

الثاني: معنى قوله ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا﴾ قال بعضهم الإرادة هنا لا تحصل إلاَّ بالباطن ولا يعلم أحد به لذا فلا يحكم بكفر المتحاكم إلاَّ بتوافر شرط العلم بالإرادة الباطنية وهو غير حاصل، الإرادة محمولة على المعنى الظاهرة، الاستدلال بحديث الرسول ﷺ بالرضا والمتابعة، أي: ذلك صواب.

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ١/ ٣٩.

الحمد لله وحده والصلاة والسَّلام على رسوله وآله وصحبه . .

وبعد :

حد الطاغوت العام

ج : **أولاً** : معنى الطاغوت العام : هو كل ما عبد من دون الله مطلقًا، تقربًا إليه بصلاة أو صيام أو نذر أو ذبيحة أو لجوء إليه، فيما هو من شأن الله، لكشف ضر، أو جلب نفع، أو تحكيمًا له بدلاً من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ونحو ذلك .

النظم الموضوعة للتحاكم إليها، مضاهاة لتشريع الله، فهي داخلة في معنى الطاغوت

والمراد بالطاغوت في الآية : كل ما عدل عن كتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ، إلى التحاكم إليه من : نظم وقوانين وضعية، أو تقاليد وعادات متوارثة، أو رؤساء قبائل ليفصل بينهم بذلك، أو بما يراه زعيم الجماعة، أو الكاهن . ومن ذلك يتبين : أن النظم التي وضعت ليتحاكم إليها مضاهاة لتشريع الله داخلة في معنى الطاغوت .

لكن من عبد من دون الله وهو غير راض بذلك كالأنبياء والصالحين لا يسمَّى طاغوتًا وإنما الطاغوت الشيطان الذي دعاهم إلى ذلك وزينه لهم من الجن والإنس .

المقصود بمعنى : الإرادة في الآية

ثانيًا : المراد بالإرادة في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء/ ٦٠] : ما صحبه فعل، أو قرائن وأمارات تدل على القصد والإرادة، بدليل ما جاء في الآية التي بعد هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء/ ٦١]، ويدل على ذلك أيضًا : سبب النزول الذي ذكره ابن كثير وغيره في تفسير هذه

الآية، وكذلك المتابعة دليل الرضا، وبذلك يزول الإشكال القائل إن الإرادة أمر باطن فلا يحكم على المريد إلاَّ بعلمها منه وهو غير حاصل.

المتابعة: دليل الرضا

وبالله التوفيق، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز

السؤال الخامس من الفتوى رقم (٥٩٦٦):

س: متى نفرد شخصًا باسمه وعينه على أنه طاغوت؟

الحمد لله وحده والصلاة والسَّلام على رسوله وآله وصحبه..

وبعد:

ج: إذا دعا إلى الشرك، أو لعبادة نفسه، أو ادعى شيئًا من علم الغيب، أو حكم بغير ما أنزل الله متعمِّدًا ونحو ذلك، وقد قال ابن القيم رحمه الله: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

الحاكم بغير ما أنزل الله متعمدًا: طاغوت

وبالله التوفيق، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز»[١]

❏❏❏

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ١/ ٥٤٢، ٥٤٣.

المبحث الثاني

رؤوس الطواغيت، وصفة الكفر بها

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

الكفر بالطاغوت: أول فرض على ابن آدم

«اعلم رحمك الله تعالى أن أوّل ما فرض الله على ابن آدم: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل/ ٣٦].

كيفية الكفر بالطاغوت

فأما صفة الكفر بالطاغوت: فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتكفر أهلها وتعاديهم.

معنى الإيمان بالله

وأما معنى الإيمان بالله: فأن تعتقد أن الله هو الإلـه المعبود وحده دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم.

وهذه ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها، وهذه هي الأسوة التي أخبر الله بها في قوله: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة/ ٤].

والطاغوت عام، فكل ما عُبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير الله ورسوله فهو طاغوت. تعريف الطاغوت

والطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة:

(الأول): الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله، والدليل قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يس/ ٦٠]. رؤوس الطواغيت

(الثاني): الحاكم الجائر المغيِّر لأحكام الله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [النساء/ ٦٠]. المغير لأحكام الله: طاغوت

(الثالث): الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة/ ٤٤].

(الرابع): الذي يدَّعي علم الغيب من دون الله، والدليل قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن/ ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام/ ٥٩].

(الخامس): الذي يعبد من دون الله وهو راض بالعبادة، والدليل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء/ ٢٩].

الكفر بالطاغوت شرط في صحة الإيمان

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنًا بالله إلاَّ بالكفر بالطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

الرشد: دين محمد ﷺ، والغي: دين أبي جهل، والعروة الوثقى: شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، وهي متضمنة للنفي والإثبات، تنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى، وتثبت جميع أنواع العبادة كلها لله وحده لا شريك له»(١).

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمهما الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمات في بيان الطاغوت، ووجوب اجتنابه، قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

الكفر بالطاغوت، هو السبيل الوحيد للاستمساك بالعروة الوثقى

فبيَّن تعالى أنَّ المستمسك بالعروة الوثقى، هو الذي يكفر بالطاغوت، وقدم الكفر به على الإيمان بالله، لأنه قد يدعي المدعي أنه يؤمن بالله، وهو لا يجتنب الطاغوت، وتكون دعواه كاذبة.

من لم يكفر بالطاغوت، فقد خالف كافة الرسل

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل/ ٣٦]، فأخبر أن جميع المرسلين قد بعثوا باجتناب الطاغوت، فمن لم يجتنبه فهو مخالف لجميع المرسلين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر/ ١٧].

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٣٢٩، ٣٣٠، والدرر السنية ١/ ١٦١ ــ ١٦٣.

ففي هذه الآيات من الحجج على وجوب اجتنابه وجوه كثيرة.

صفة الكفر بالطاغوت

والمراد من اجتنابه هو: بغضه، وعداوته بالقلب، وسبّه وتقبيحه باللسان، وإزالته باليد عند القدرة، ومفارقته، فمن ادعى اجتناب الطاغوت ولم يفعل ذلك فما صدق.

(حقيقة الطاغوت وأنواعه)

وأما حقيقته والمراد به، فقد تعددت عبارات السلف عنه، وأحسن ما قيل فيه، كلام ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال: الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه، غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه في غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها، وتأملت أحوال الناس معها، رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله، إلى طاعة الطاغوت ومتابعته، انتهى.

وحاصله: أن الطاغوت ثلاثة أنواع؛ طاغوت حكم، وطاغوت عبادة، وطاغوت طاعة، ومتابعة، والمقصود في هذه الورقة هو: طاغوت الحكم، فإن كثيرًا من الطوائف المنتسبين إلى الإسلام، قد صاروا يتحاكمون إلى عادات آبائهم، ويسمون ذلك الحق بشرع الرفاقة، كقولهم شرح عجمان، وشرع قحطان، وغير ذلك، وهذا هو الطاغوت بعينه الذي أمر الله باجتنابه.

عادات الآباء المتحاكم إليها، هي الطاغوت بعينه

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاجه، وابن كثير في تفسيره: أن من فعل ذلك فهو كافر بالله، زاد ابن كثير يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله.

قال شيخ الإسلام: ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله، فهو كافر؛ ومن استحلَّ أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً، من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر، فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل.

وقد يكون العدل في دينها، ما رآها أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام، يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله، كسوالف البوادي، وكأوامر المطاعين في عشائرهم، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به، دون الكتاب والسنَّة، وهذا هو الكفر.

فإن كثيرًا من الناس أسلموا، ولكن مع هذا لا يحكمون إلاَّ بالعادات الجارية، التي يأمر بها المطاعون في عشائرهم، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلاَّ بما أنزل الله، فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله، فهم كفار، انتهى.

بيان رائع ومحكم لكلام شيخ الإسلام السالف

وفيه بيان: كفر الحاكم نفسه، والمتحاكمين على الوجه الذي ذكره، وكذا من لم يعتقد وجوب ما أنزل الله، وإن لم يكن حاكمًا ولا متحاكمًا، فتأمله؛ ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ [المائدة/ ٤٤].

(المشرع من دون الله كافر يجب قتاله حتى ينخلع من كفره)

وقال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة/ ٥٠]: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى، المشتمل على كل خير وعدل، الناهي عن كل شر، إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال، بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات.

وكما يحكم به التتار من السياسات، المأخوذة من جنكسخان، الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام، اقتبسها من شرائع شتى، من الملة الإسلامية، وفيه كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره، فصار في بنيه ـ شرعًا متبعًا ـ يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنَّة، ومن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في كثير ولا قليل، انتهى.

وما ذكرناه من عادات البوادي، التي تسمَّى «شرع الرفاقة» هو من هذا الجنس، من فعله فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير.

وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ الآيات [النساء/ ٦٠]... إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء/ ٦١].

مجرد العدول عن التحاكم إلى الرسول ﷺ: دليل صارخ على النفاق الأكبر، وإن زعم صاحبه الإيمان والإسلام

قال الشعبي: كان بين رجل من اليهود، ورجل من المنافقين خصومة، فقال اليهود: نتحاكم إلى محمد ﷺ، عرف أنه لا يأخذ الرشوة، ولا يميل في الحكم؛ وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، ويميلون في الحكم، ثم اتفقا على أنهما يأتيان كاهنًا في جهينة، فيتحاكمان إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ...﴾ الآية [النساء/ ٦٠].

وقيل نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى محمد ﷺ؛ وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف؛ ثم بعد ذلك ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض

برسول الله ﷺ، أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله، فنزلت الآية.

(ينبغي: قتل المتحاكمين إلى الطاغوت)

وهكذا ينبغي أن يفعل بالمتحاكمين إلى الطواغيت، فإذا كان هذا الخليفة الراشد، قد قتل هذا الرجل، بمجرد طلبه التحاكم إلى الطاغوت، فمن هذا عادته التي هو عليها، ولا يرضى لنفسه وأمثاله سواها، أحق وأولى أن يقتل، لردته عن الإسلام، وعموم فساده في الأرض.

أسس الصلاح، للخليفة

فإنه لا صلاح للخليقة إلاَّ بأن يكون الله معبودها، والإسلام دينها، ومحمد نبيها الذي تتبعه، وتتحاكم إلى شريعته، ومتى عدم ذلك عظم فسادها، وظهر خرابها.

لا يجتمع الإيمان بالله مع تحكيم غير شريعته

فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [النساء/ ٦٠]، بيان: بأن من زعم الإيمان بالله وبرسوله، وهو يحكم غير شريعة الإسلام، فهو كاذب منافق، ضال عن الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء/ ٦٥].

فأقسم بنفسه: أن الخلق لا يؤمنون، حتى يحكموا الرسول ﷺ، في جميع موارد النزاع، فإذا حكم انتفى الحرج باطنًا، وحصل التسليم الكامل ظاهرًا، فمن لم يحصل منه ذلك، فالإيمان منتف عنه.

الأدلة الشرعية متظاهرة على ذم التحاكم إلى غير الله تعالى

وقد تظاهرت الأدلة الشرعية، بالدلالة على ذلك؛ فذمَّ الله في كتابه من أعرض عن حكم رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝٤٩ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾ [النور/ ٤٨ـ ٥١].

(قد يحتج أهل الطواغيت: بالإكراه على أفعالهم)

واعلم: أنه ما دعا داع إلى حق، إلاَّ كان للشيطان شبهة عنده، يصد بها الناس عنه، ومن ذلك أنه إذا قيل لأهل الطاغوت: ارجعوا إلى حكم الله ورسوله، واتركوا أحكام الطواغيت؛ قالوا: إنا لا نفعل ذلك إلاَّ خوفًا من أن يقتل بعضنا بعضًا، فإني إذا لم أوافق صاحبي على التحاكم إلى «شرع الرفاقة» قتلني أو قتلته.

فالجواب أن نقول: يظهر فساد هذه الشبهة الشيطانية، بتقرير ثلاثة مقامات:

إضاعة أوامر الله، سبب الفساد في الأرض

المقام الأول: أن الفساد الواقع في الأرض، من قتل النفوس، ونهب الأموال إنما هو بسبب: إضاعة أوامر الله، وارتكاب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم/ ٤١].

قال المفسرون من السلف: (البر): أهل العمود من البوادي (والبحر): أهل القرى.

أخبر تعالى: أن ظهور الفساد في البادية، والحاضرة، سببه أعماله، فلو أنهم عبدوا ربهم، وحكموا نبيهم، لصلحت أحوالهم، ونمت أموالهم وأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ

﴿وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾ [الأعراف/ ٩٦].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت/ ٥١، ٥٢].

فأخبر أنَّ الرحمة في هذا القرآن، فمن اكتفى به عن أحكام الباطل، فهو المرحوم، ومن أعرض عنه إلى غيره، فهو الخاسر؛ فإذا أعرض الناس عن كتاب ربهم، وحكموا غير نبيهم، عاقبهم الله بأن يعادي بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)﴾ [المائدة/ ١٤].

بعض آثار غربة الإسلام

ولكن لمَّا عاد الإسلام غريبًا كما بدأ، صار الجاهلون به، يعتقدون ما هو سبب الرحمة، سبب العذاب، وما هو سبب الألفة والجماعة، سبب الفرقة والاختلاف، وما يحقن الدماء سببًا لسفكها، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾ [الأعراف/ ١٣١].

وكذلك الذين قالوا لأتباع الرسل: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩)﴾ [يس/ ١٨، ١٩].

فمن اعتقد أنَّ تحكيم شريعة الإسلام، يفضي إلى القتال والمخالفة، وأنه لا يحصل الاجتماع والأُلفة، إلَّا على حكام الطاغوت، فهو كافر عدو لله ولجميع الرسل، فإن هذا حقيقة ما عليه كفار قريش، الذين يعتقدون أن الصواب ما عليه آباؤهم، دون ما بعث الله به رسوله ﷺ.

المقام الثاني: أن يقال: إذا عرفت أن التحاكم إلى الطاغوت كفر، فقد ذكر الله في كتابه: أن الكفر أكبر من القتل، قال: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة/ ٢١٧].

وقال: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البقرة/ ١٩١].

والفتنة: هي الكفر؛ فلو اقتتلت البادية والحاضرة، حتى يذهبوا، لكان أهون من أن ينصبوا في الأرض طاغوتًا، يحكم بخلاف شريعة الإسلام التي بعث الله بها رسوله ﷺ.

فتنة الدنيا، ليست عذرًا يبيح الكفر

المقام الثالث: أن نقول: إذا كان هذا التحاكم كفرًا، والنزاع إنما يكون لأجل الدنيا، فكيف يجوز لك أن تكفر لأجل ذلك؟ فإنه لا يؤمن الإنسان، حتى يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وحتى يكون الرسول أحب إليه، من ولده ووالده والناس أجمعين.

فلو ذهبت دنياك كلها، لما جاز لك المحاكمة إلى الطاغوت لأجلها، ولو اضطرك مضطر وخيَّرك بين: أن تحاكم إلى الطاغوت، أو تبذل دنياك، لوجب عليك البذل، ولم يجز لك المحاكمة إلى الطاغوت.

والله أعلم، وصلَّى الله على محمد، وآله وسلَّم تسليمًا كثيرًا»[1].

---

(١) الدرر السنية ١٠/ ٥٠٢ ـ ٥١١.

سـؤال مهـم

وسئل العلاَّمة أو بطين:

«عمن لا يعرف الإيمان بالله، ولا معنى الكفر بالطاغوت، وهذه حالة الأكثر ممن لدينا يدَّعي الإسلام، ويلتزم شرائعه الظاهرة، ويزعم حب أهل الحق، وينتسب إليهم على الإجمال، وأما على التفصيل، فيبغض أهل التوحيد ويمقتهم، ويرى منهم الخطأ في الأمور التي تخالف عادته وما يعرفه، فيعتقد خلاف ما عرف خطأ.

لأن الذي في ذهنه أن ما عرف الناس عليه هو الدين، ولا يعرف دليلاً يرد عليه، ولا يرعوي ولا يلتفت إليه، لأنه يرى الدين ما تظاهر به المنتسبون، فما حال من هذا وصفه؟

ومنهم كثير يصرِّحون بالبغض والعداوة لأهل الحق، ويحرصون على اتباع عوراتهم، والوقوع في عثراتهم، ونرى مثل هؤلاء الواقع منهم هذا المذكور ـ مع عدم معرفة أصل الإسلام ـ كفارًا، لأنهم لم يعرفوا الإسلام أولاً، وثانيًا عادوا أهلها وأبغضوهم، ورأوا الدين ما عليه أكثر المنتسبين، فهل رأينا فيهم صواب أم لا؟

وبينوا حال الصنف الأول لنا أيضًا، هل يطلق عليهم الكفر أم لا؟ وفيمن يزعم أن النفاق لا يوجد في هذه الأمة، بعد زمن النبي ﷺ أو قريبًا منه، ثم بعد ذلك لا يوجد إلاَّ الإسلام المحض، ويحتج بما رواه البخاري عن عبد الله بن عقبة بن مسعود، قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن ناسًا يؤاخذون في الوحي وإن الوحي قد انقطع، فمن أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه، وليس لنا من سريرته من شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر

لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: إنما النفاق على عهد النبي ﷺ، فأما اليوم إنما هو: الكفر والإيمان، رواه البخاري. ما الجواب عن قول حذيفة؟ وعن قول عمر؟ وما علامات النفاق الذي يصير به الرجل في الدرك الأسفل من النار؟

فأجاب رحمه الله تعالى:

صفة الكفر بالطاغوت

حكم الصنفين المسؤول عنهما، الموصوفة حالهما، يرجع إلى شيء واحد، وهو: إن كان الرجل يقرُّ بأن هذه الأمور الشركية التي تفعل عند القبور وغيرها، من دعاء الأموات، والغائبين، وسؤالهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، والتقرب إليهم بالنذور والذبائح: أنَّ هذا شرك وضلال، ومن أنكره هو المحق، ومن زينه ودعا إليه فهو شر من الفاعل، فهذا يحكم بإسلامه، لأن هذا معنى الكفر بالطاغوت، والكفر بما يعبد من دون الله.

فإذا اعترف: أن هذه الأمور وغيرها من أنواع العبادة، محض حق الله تعالى، لا تصلح لغيره، لا ملَك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، فهذا حقيقة الإيمان بالله، والكفر بما يُعبد من دون الله.

قال النبي ﷺ: (من قال لا إله إلاَّ الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله تعالى) »[١].

❑ ❑ ❑

(١) الدرر السنية ١٠/ ٤٠٧ ـ ٤٠٩.

المبحث الثالث

تكفير الطاغوت وشيعته، والبراءة منهم، شرط في صحة الإسلام

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

«ومعنى الكفر بالطاغوت أن تبرأ من كل ما يعتقد فيه غير الله من جني أو إنسي أو شجر أو حجر أو غير ذلك، وتشهد عليه بالكفر والضلال، وتبغضه ولو كان أباك وأخاك.

فأما من قال أنا لا أعبد إلاَّ الله وأنا لا أتعرَّض السَّادة والقباب على القبور، وأمثال ذلك، فهذا كاذب في قول لا إلـه إلاَّ الله، ولم يكفر بالطاغوت»(١).

وقال رحمه الله:

البراءة من الطواغيت وتكفيرهم: شرط في صحة الإسلام

لا يصح دين الإسلام إلاَّ بالبراءة من الطواغيت وتكفيرهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٥٦]»(٢). اهـ.

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٣٣، ٣٤.

(٢) الدرر السنية ١٠/ ٥٣، بتصرف بسيط.

وقال أيضًا رحمه الله مبينًا الفرق بين الظلم الأكبر، والأصغر:

«وأين الظلم الذي إذا تكلّم الإنسان بكلمة منه، أو مدح الطواغيت، أو جادل عنهم خرج من الإسلام، ولو كان صائمًا قائمًا، من الظلم الذي لا يخرج من الإسلام، بل إما يؤدي إلى صاحبه بالقصاص، وإما أن يغفره الله، فبين الموضعين فرق عظيم»[١].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى: ـ بعد أن تكلم عن التوحيد وأنواعه وأدلته ـ:

«فالله الله إخواني: تمسكوا بأصل دينكم أوله وآخره، أسّه ورأسه، وهو: شهادة أن لا إلـٰه إلاَّ الله، واعرفوا معناها، وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين؛ واكفروا بالطواغيت، وعادوهم، وابغضوا من أحبهم، أو جادل عنهم، أو لم يكفرهم، أو قال: ما عليّ منهم، أو قال: ما كلّفني الله بهم، فقد كذب على الله وافترى، بل كلفه الله بهم، وفرض عليه الكفر بهم، والبراءة منهم، ولو كانوا: إخوانه وأولاده.

فالله الله، تمسكوا بأصل دينكم لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئًا. اللّـٰهُمَّ توفّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين»[٢].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

«وأنت يا من منَّ الله عليه بالإسلام، وعرف أن ما من إلـٰه إلاَّ الله، لا تظن أنك إذا قلت: هذا هو الحق، وأنا تارك ما سواه،

---

(١) الدرر السنية ١٠/ ٥٥ ـ ٦٦.

(٢) الدرر السنية ٢/ ١١٩، ١٢٠.

لا يحصل الدخول في الإسلام إلا ببغض المشركين ومعاداتهم

لكن لا أتعرَّض للمشركين، ولا أقول فيهم شيئًا، لا تظن: أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام، بل: لا بدّ من بغضهم، وبغض من يحبهم، ومسبَّتهم، ومعاداتهم؛ كما قال أبوك إبراهيم والذين معه: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة/ ٤].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل/ ٣٦].

ولو يقول رجل: أنا أتبع النبي ﷺ وهو على الحق، لكن: لا أتعرَّض اللَّات، والعزَّى، ولا أتعرَّض أبا جهل، وأمثاله، ما علي منهم؛ لم يصح إسلامه»[1].

وقال عبد الرحمن بن حسن:

الكفر بالطاغوت يستلزم: الجزم بتكفير المشركين

«من عرف معنى لا إله إلَّا الله، عرف: أن من شك، أو تردَّد في كفر من أشرك مع الله غيره، أنه لم يكفر بالطاغوت»[2]. اهـ.

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

«قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

---

(١) الدرر السنية ٢/ ١٠٩.

(٢) الدرر السنية ١١/ ٥٢٣، بتصرف بسيط.

فدلَّت الآية: على أنَّه لا يكون العبد مستمسكًا بلا إلـه إلاَّ الله إلاَّ إذا كفر بالطاغوت، وهي: العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن لم يعتقد هذا فليس بمسلم، لأنه لم يتمسك بلا إلـه إلاَّ الله.

فتدبَّر واعتقد ما ينجيك من عذاب الله، وتحقيق معنى: لا إلـه إلاَّ الله نفيًا وإثباتًا»[١].

❑ ❑ ❑

(١) الدرر السنية ١١/ ٢٦٣.

المبحث الرابع

الكفر بالطاغوت شطر التوحيد، والتوحيد أساس الإيمان وركنه الأعظم، والتحاكم إلى الطاغوت، أو الحكم به، إيمان بالطاغوت وكفر بالله العظيم، ومروق من ملة المسلمين

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في شرحه على كتاب التوحيد:

«باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء/ ٦٠].

الحكم بغير الكتاب والسنة، حكم بالطاغوت

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: والآية ذامَّة لمن عدل عن الكتاب والسنَّة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا.

من حاكم إلى غير كتاب الله، فقد حاكم إلى الطاغوت

وتقدم ما ذكره العلاَّمة ابن القيم رحمه الله تعالى في حدِّه للطاغوت، وأنه كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ فقد حاكم إلى الطاغوت، الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به.

فإنَّ التحاكم ليس إلاَّ إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ومن كان يحكم بهما، فمن تحاكم إلى غيرهما فقد تجاوز به حدَّه، وخرج عمَّا شرعه الله ورسوله ﷺ وأنزله منزلة لا يستحقها. وكذلك من عبد شيئًا دون الله فإنما عبد الطاغوت، فإن كان المعبود صالحًا صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس/ ٢٨ ـ ٣٠].

كل من عبد شيئًا من دون الله، فإنما عبد الطاغوت

وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ/ ٤٠، ٤١].

وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه، أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا، أو غير ذلك مما يتخذه المشركون أصنامًا على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته، ويتبرأوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائنًا من كان، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذي دعا إلى كل باطل وزيَّنه لمن فعله، وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله.

التوحيد هو: الكفر بكل طاغوت عبد من دون الله

فالتوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله، وكما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

﴿وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة/ ٤]، وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حدَّه وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

قال الإمام مالك رحمه الله: «الطاغوت ما عبد من دون الله».

من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله، فقد جعل لله شريكًا في طاعته

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكًا في الطاعة وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة/ ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء/ ٦٥].

من حكم بين الناس بغير ما أنزل الله فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وإن ادعى الإسلام والإيمان

فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعًا لما يهواه ويريده فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن.

الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، والتوحيد أساس الإيمان، والتحاكم إلى الطاغوت إيمان به

فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن قوله: «يزعمون» من نفي إيمانهم، فإن يزعمون إنما يقال غالبًا: لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: «وقد أُمروا أن يكفروا به»، لأن الكفر بالطاغوت: ركن التوحيد. كما في آية البقرة، فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحدًا، والتوحيد هو: أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه.

كما أن ذلك بيّن في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٥٦]، وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت: إيمان به.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ [النساء/ ٦٠]، يبيِّن تعالى في هذه الآية أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزيِّنه لمن أطاعه، ويبيِّن أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله، وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد، فدلَّ على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى.

ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنه من إرادة الشيطان.

الثاني: أنه ضلال.

الثالث: تأكيد بالمصدر.

الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه، وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلَّغه عبده الصادق الأمين. صلوات الله وسلامه عليه»[(١)].

وقال سليمان بن عبد الله في شرحه لكتاب التوحيد على ذات الباب:

إذا تبيَّن هذا فمعنى الآية المترجم لها: أن الله تبارك وتعالى

(١) فتح المجيد ص ٣٧٩ ــ ٣٨١.

أنكر على من يدَّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء قبله، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنَّة رسوله، كما ذكر المصنف في سبب نزولها.

قال ابن القيم: والطاغوت: كل من تعدَّى به حده من الطغيان وهو مجاوزة الحد.

فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ فهو: طاغوت. إذ قد تعدَّى به حده.

من دعا إلى: تحكيم غير الله تعالى، ورسوله ﷺ، فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت

ومن هذا كل من عبد شيئًا دون الله فإنما عبد الطاغوت، وجاوز بمعبوده حده فأعطاه العبادة التي لا تنبغي له، كما أن من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله ﷺ، فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت.

وتعلَّل تصديره سبحانه الآية منكرًا لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزله الله على رسوله ﷺ، وعلى من قبله، ثم هو مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ، ويتحاكم إليه عند النزاع، وفي ضمن قوله: ﴿يزعمون﴾ نفي لما زعموه من الإيمان، ولهذا لم يقل: ألم تر إلى الذين آمنوا، فإنهم لو كانوا من أهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ. ولم يقل فيهم: «يزعمون»، فإن هذا إنما يقال غالبًا لمن ادَّعى دعوى هو فيها كاذب، أو مُنزل منزلة الكاذب، لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها.

المؤمن الحقيقي لا يتحاكم إلى غير الله ورسوله

قال ابن كثير: والآية ذامَّة لمن عدل عن الكتاب والسنَّة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت ههنا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء/ ٦].

التحاكم إلى الطاغوت مناف للإيمان ومضاد له بالكلية

أي: بالطاغوت، وهو دليل على أنَّ التحاكم إلى الطاغوت مناف للإيمان مضاد له، فلا يصح الإيمان إلاَّ بالكفر به، وترك التحاكم إليه، فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء/ ٦٠].

المتحاكم إلى الطاغوت، غير مؤمن، بلا ولا مسلم

أي: لأن إرادة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ من طاعة الشيطان، وهو إنما يدعو أحزابه ليكونوا من أصحاب السعير. وفي الآية دليل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت، الذي هو ما سوى الكتاب والسنَّة من الفرائض، وأنَّ المتحاكم إليه غير مؤمن بل ولا مسلم»(١).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

«يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ [النساء/ ٦٠] بما جاء به الرسول، وبما قبله.

كل من حكم بغير شرع الله، فهو طاغوت

ومع هذا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء/ ٦٠]، وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو: طاغوت.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٧٧، ٣٧٨.

اختيار حكم الطاغوت، بدلا من حكم الله، يستحيل أن يجتمع مع الإيمان

والحال أنهم: ﴿ قَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء/ ٦٠]، فكيف يجتمع هذا والإيمان؟

فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه، في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن، واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك. وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء/ ٦٠] عن الحق»[١].

● ● ●

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٣٦٢، ٣٦٣.

كلمات منتقاة، مضيئة

- كل ما عبد من دون الله فهو: طاغوت.

[الإمام مالك، وغير واحد من السلف، والليث، وأبو عبيدة، والواحدي، والكسائي، وجماهير أهل اللغة]

- الطاغوت: الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم.

[الإمام مجاهد بن جبر]

- الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده، من: معبود، أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله.

[الإمام ابن قيِّم الجوزية]

- من رؤوس الطواغيت: الحاكم الجائر المغيِّر لأحكام الله.

[الشيخ محمد بن عبد الوهاب]

- كل من حاكم إلى غير كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ، فقد حاكم إلى الطاغوت، الذي أمر الله عباده المؤمنين أن يكفروا به.

فإنَّ التحاكم ليس إلاَّ إلى كتاب الله، وسنَّة نبيه ﷺ، ومن كان يحكم بهما، فمن تحاكم إلى غيرهما، فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله، وأنزله منزلة لا يستحقها. . .

إن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله ﷺ، فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت. . .

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء/ ٦٠]، أي: بالطاغوت. وهو دليل على أن التحاكم إلى الطاغوت مناف للإيمان ومضاد له، فلا يصح إيمان إلاَّ بالكفر به، وترك التحاكم إليه، فمن لم يكفر بالطاغوت، لم يؤمن بالله.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

● اسم «الطاغوت» يشمل: كل معبود من دون الله، وكل رأس في الضلالة، يدعو إلى الباطل ويحسنه، ويشمل أيضًا: كل من نصبه الناس للحكم بينهم بأحكام الجاهلية المضادة لحكم الله ورسوله، ويشمل أيضًا: الكاهن، والساحر، وسدنة الأوثان.

[الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين]

● كل من حكم بغير شرع الله فهو: طاغوت.

[الشيخ عبد الرحمن السعدي]

● المراد بالطاغوت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء/ ٦٠].

كل من عدل عن كتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ إلى التحاكم إليه، من: نظم، وقوانين وضعية، أو تقاليد وعادات متوارثة، أو رؤساء قبائل، ليفصل بينهم في ذلك، أو بما يراه زعيم الجماعة، أو الكاهن.

ومن ذلك يتبيَّن: أن النظم التي وضعت ليتحاكم إليها، مضاهاة لتشريع الله، داخلة في معنىٰ الطاغوت.

[الشيوخ: عبدالعزيز بن باز، عبدالرزاق عفيفي، عبد الله بن قعود، عبد الله بن غديان]

• فإن كثيرًا من الطوائف المنتسبين إلى الإسلام، قد صاروا يتحاكمون إلى عادات آبائهم، ويسمُّون ذلك الحق: بشرع الرفاقة، كقولهم: شرع عجمان، وشرع قحطان، وغير ذلك، وهذا هو الطاغوت بعينه الذي أمر الله باجتنابه.

[الشيخ سليمان بن سحمان]

• اعلم رحمك الله: أن أول ما فرض الله على ابن آدم: الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله. . . فأما صفة الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم.

[الشيخ محمد بن عبد الوهاب]

• لا يصح دين الإسلام، إلاَّ بالبراءة من الطواغيت وتكفيرهم.

فالله الله إخواني تمسَّكوا بأصل دينكم. . . واكفروا بالطواغيت، وعادوهم، وابغضوا من أحبهم، أو جادل عنهم، أو لم يكفرهم، أو قال: ما عليّ منهم، أو قال: ما كلفني الله بهم، فقد كذب على الله وافترى، بل كلَّفه الله بهم، وفرض عليه الكفر بهم، والبراءة منهم، ولو كانوا إخوانه وأولاده.

[الشيخ محمد بن عبد الوهاب]

● إن جميع المرسلين، قد بعثوا باجتناب الطاغوت، فمن لم يجتنبه، فهو مخالف لجميع المرسلين.

[الشيخ سليمان بن سحمان]

● فمن عرف معنى لا إلـه إلاَّ الله، عرف أنَّ مَن شكَّ، أو تردَّد، في كفر من أشرك مع الله غيره، أنه لم يكفر بالطاغوت.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● فإن الإيمان يقتضي: الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن، واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك.

[الشيخ عبد الرحمن السعدي]

● لا صلاح للخليقة إلاَّ بأن يكون الله معبودها، والإسلام دينها، ومحمد نبيها الذي تتبعه وتتحاكم إلى شريعته، ومتى عدم ذلك، عظم فسادها، وظهر خرابها.

[الشيخ سليمان بن سحمان]

❑ ❑ ❑

الفصل السادس

الحكم لله وحده

وحكم من بدَّل شرائع الإسلام، أو حَكَم بغير ما أنزل الله

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول : لا يصلح الإسلام إلاَّ بالعمل بشرائعه، والانقياد لأحكامه.

المبحث الثاني : الطاعة في التحليل والتحريم من أخصِّ خصائص العبادة، ومن ثَمَّ كان كل من قبلها من أي عبد فقد اتخذه ربًّا وإن لم يصلِّ له ويتقرَّب إليه.

المبحث الثالث : أمر الله المؤمنين بردِّ كل ما تنازعوا فيه من أصول دينهم وفروعه إلى الله ورسوله، ومن لم يفعل دلّ ذلك على كفره برب العالمين ومروقه من دين المسلمين. فحكم الله وحده شقيق عبادة الله وحده، وهما مضمونا الشهادتين، وعلى القيام بهذا المضمون فعلاً وتركًا، جُرِّدت سيوف الموحِّدين للجهاد.

المبحث الرابع : من أعظم الفساد في الأرض: التحاكم إلى غير الله ورسوله، ومن ثمّ كان إباء التحاكم إلى الكتاب والسنة، دليلاً قاطعًا على الكفر والنفاق والزندقة.

المبحث الخامس : من خرج عن حكم الله، وعدل إلى ما سواه من الأحكام الجاهلية، وجعل ذلك شريعة مقدمة أو مزاحمة لشريعة الله، فهو كافر يجب قتاله حتى يعود إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم في قليل ولا كثير سواه، وأي دولة تنتهج هذا النهج، تصبح دولة جاهلية كافرة ظالمة، يجب بغضها ومعاداتها، وتحرم مودتها موالاتها.

المبحث السادس : أيما طائفة امتنعت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، فإنها تقاتل عليها قتال كفر وردَّة عن الإسلام، وإن كانت مقرَّة بها، وناطقة بالشهادتين، وملتزمة لغيرها من الشرائع.

وبهذا نعلم: أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه، ليس بمسقط للقتال، بل القتال واجب حتى يكون الدين كله لله.

المبحث الأول

لا يصلح الإسلام إلاَّ بالعمل بشرائعه، والانقياد لأحكامه

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمهما الله تعالى:

من الأمور التي لا يصلح الإسلام إلاَّ بها، العمل بشرائعه وأحكامه، وبالقيام بذلك يقوم الدين وتستقيم الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦)﴾ الآية [النساء/ ٦٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾ [النساء/ ٥٨ ـ ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ﴾، الآية [الشورى/ ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)﴾ [الأحزاب/ ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور/ ٤٨ ـ ٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ الآية [القصص/ ٥٠].

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان/ ٤٣، ٤٤].

وفي هذا المعنى قال أبو تمام:

وعبادة الأهواء في تطويحها ... بالدين مثل عبادة الأوثان

الغالب على كثير من الناس، رد الحق لأجل الهوى

هذا هو الغالب على كثير من الناس: رد الحق لمخالفة الهوى ومعارضته بالآراء، وهذا من نقص الدين وضعف الإيمان واليقين»(١).

□□□

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٢٩٣، ٢٩٤.

المبحث الثاني

الطاعة في التحليل والتحريم من أخص خصائص العبادة، ومن ثمَّ كان كل من قبلها من أي عبد فقد اتَّخذه ربًّا، وإن لم يصلِّ له ويتقرَّب إليه

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى في شرحه على كتاب التوحيد:

«(باب) من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلَّ الله، أو تحليل ما حرَّمه الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله».

لما كانت الطاعة من أنواع العبادة، بل هي: العبادة، فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله عليهم السلام، نبَّه المصنف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها، وأنه لا يطاع أحد من الخلق، إلاَّ حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله، وإلاَّ فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً.

وجوب اختصاص الخالق بالطاعة وحده لا شريك له

لا يجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً

والمقصود هنا: الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقًا في ذلك غير الرسول ﷺ ــ فإنه لا ينطق

عن الهوى ـ فهو مشرك كما بينه الله تعالى في قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ [التوبة/ ٣١]، أي: علماءهم ﴿ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة/ ٣١]، وفسَّرها النبي ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال، وتحليل الحرام كما سيأتي في حديث عدي»[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في شرحه على كتاب التوحيد:

لا يشترط في الوقوع في الشرك: العلم والقصد

«قوله: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة/ ٣١].

فقلت: «إنا لسنا نعبدهم، قال: **أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه**؟ فقلت: بلى، قال: **فتلك عبادتهم**»، رواه أحمد والترمذي وحسَّنه.

هذا الحديث قد رُوي من طرق، فرواه ابن سعد وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي.

قوله: عن عدي بن حاتم أي: الطائي المشهور. وحاتم هو: ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج ـ بفتح الحاء ـ المشهور بالسخاء والكرم. قدم عدي على النبي ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة.

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٦٩.

الحذر الحذر: من شرك الطاعة

وفي الحديث دليل على أن: طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة/ ٣١]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام/ ١٢١].

وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلَّدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك.

ومنهم: من يغلو في ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره، أو يحرم، فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلاَّ المجتهد، وربما تفوَّهوا بذم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله في المسائل: فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية، فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها: ولاية، وعبادة الأحبار هي: العلم والفقه. ثم تغيَّرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين»[(١)].

وقال الشيوخ عبد العزيز بن باز، وعبد الرزاق عفيفي، وعبد الله بن غديان، وعبد الله بن قعود، رحمهم الله جميعًا:

ومن أنواع الشرك الأكبر: من يجعل لله ندًا في التشريع، بأن يتخذ مشرعًا له سوى الله، أو شريكًا لله في التشريع، يرتضي

(١) فتح المجيد ص ٣٧٧، ٣٧٨.

حكمه، ويدين به في التحليل والتحريم، عبادة وتقرُّبًا وقضاءً وفصلاً في الخصومات، أو يستحله وإن لم يره دينًا.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة/ ٣١]، وأمثال هذا من الآيات والأحاديث التي جاءت في: الرضا بحكم سوى حكم الله، أو الإعراض عن التحاكم إلى حكم الله، والعدول.

بعض أحكام المرتدين

وهذا النوع من الشرك، يرتدُّ به فاعله، أو معتقده عن ملة الإسلام، فلا يصلَّى عليه إذا مات، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يورث عنه ماله، بل يكون لبيت المسلمين، ولا تؤكل ذبيحته، ويحكم بوجوب قتله، ويتولى ذلك وليّ أمر المسلمين، إلاَّ أنه يستتاب قبل قتله، فإن تاب قبلت توبته، ولم يقتل، وعومل معاملة المسلمين(١). اهـ.

وسُئلت اللجنة العلمية:

فتوى رقم (٧٧٩٦)

س: لعلكم على علم بأن حكومتنا علمانية، لا تهتم بالدين، وهي تحكم البلاد على دستور اشترك في ترتيبه: المسلمون والمسيحيون.

هناك يرد السؤال: هل يجوز لنا أن نسمي الحكومة: بحكومة إسلامية، أو نقول إنها: كافرة؟

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة ١/ ٥١٦، ٥١٧، بتصرف يسير.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه. . . وبعد:

الحكومة التي تحكم بغير ما أنزل الله، ليست حكومة إسلامية

ج: إذا كانت تحكم بغير ما أنزل الله، فالحكومة غير إسلامية.

وبالله التوفيق، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الرئيس	نائب رئيس اللجنة	عضو	عضو
عبدالعزيز بن عبدالله بن باز»[1].	عبدالرزاق عفيفي	عبدالله بن غديان	عبدالله بن قعود

وسئل الشيخ ابن عثيمين حفظه الله تعالى: عن حكم من حكم بغير ما أنزل الله؟

فأجاب قائلاً:

الحكم بما أنزل الله من: توحيد الربوبية، ولهذا كان المشرعون من دون الله، أو معه سبحانه، أربابًا لمتَّبعيهم

أقول وبالله تعالى أقول وأسأله الهداية والصواب: إن الحكم بما أنزل الله تعالى من توحيد الربوبية، لأنه تنفيذ لحكم الله، الذي هو مقتضى ربوبيته، وكمال ملكه وتصرفه.

ولهذا سمَّى الله تعالى المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى: أربابًا لمتَّبعيهم، فقال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة/ ٣١].

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ١/ ٥٤٦، ٥٤٧.

فسمّى الله تعالى المتبوعين: أربابًا، حيث جعلوا مشرِّعين مع الله تعالى، وسمَّى المتَّبِعين: عبادًا، حيث أنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى.

وقد قال عدي بن حاتم لرسول الله ﷺ: إنهم لم يعبدوهم، فقال النبي ﷺ: «**بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**».

من حكم بغير ما أنزل الله، وأراد أن يكون التحاكم لغيره سبحانه، فليس بمؤمن، بل كافر، وظالم، وفاسق

إذا فهمت ذلك، فاعلم: أن من لم يحكم بما أنزل الله، وأراد أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله، وردت فيه آيات بنفي الإيمان عنه وآيات بكفره وظلمه وفسقه.

(فأما القسم الأول)

فمثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء/ ٦٠ ـ ٦٥].

فوصف الله تعالى هؤلاء المدّعين للإيمان، وهم منافقون بصفات:

الطاغوت: كل ما خالف حكم الله ورسوله ﷺ

الأولى: أنهم يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت، وهو: كل ما خالف حكم الله تعالى ورسوله ﷺ، لأن ما خالف حكم الله ورسوله، فهو طغيان واعتداء على حكم من له الحكم، وإليه يرجع الأمر كله، وهو الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف/ ٥٤].

الثانية: أنهم إذا دُعُوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول، صدُّوا وأعرضُوا.

الثالثة: أنهم إذا أصيبوا بمصيبة بما قدَّمت أيديهم، ومنها أن يعثر على صنيعهم، جاؤوا يحلفون أنهم ما أرادوا إلاَّ الإحسان والتوفيق، كحال من يرفض اليوم أحكام الإسلام ويحكم بالقوانين المخالفة لها، زعمًا منه أن ذلك هو الإحسان الموافق لأحوال العصر.

ثم حذر سبحانه هؤلاء المدَّعين للإيمان، المتَّصفين بتلك الصفات، بأنه سبحانه يعلم ما في قلوبهم، وما يكنُّونه من أمور تخالف ما يقولون، وأمر نبيه أن يعظهم ويقول لهم في أنفسهم: قولاً بليغًا، ثم بين أن الحكمة من إرسال الرسول: أن يكون هو المطاع المتبوع لا غيره من الناس، مهما قويت أفكارهم، واتسعت مداركهم، ثم أقسم تعالى بربوبيته لرسوله، التي هي أخص أنواع الربوبية، والتي تتضمن الإشارة إلى صحة رسالته ﷺ، أقسم بها قسمًا مؤكدًا، أنه لا يصلح الإيمان إلاَّ بثلاثة أمور:

الحكمة من إرسال الرسول: طاعته، ومتابعته وحده

الأول: أن يكون التحاكم في كل نزاع إلى رسول الله ﷺ.

الثاني: أن تنشرح الصدور بحكمه، ولا يكون في النفوس حرج وضيق منه.

شروط الإيمان بحكم الله سبحانه، ورسوله ﷺ

الثالث: أن يحصل التسليم التام بقَبول ما حكم به، وتنفيذه بدون توان أو انحراف.

(وأما القسم الثاني)

فمثل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة/ ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة/ ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة/ ٤٧]، وهل هذه الأوصاف الثلاثة تتنزَّل على موصوف واحد؟ بمعنى: أن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو: كافر ظالم فاسق، لأن الله تعالى وصف الكافرين بالظلم والفسق.

فقال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة/ ٢٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [التوبة/ ٨٤].

فكل كافر ظالم فاسق، أو هذه الأوصاف، تتنزَّل على موصوفين بحسب الحامل لهم على عدم الحكم بما أنزل الله؟

هذا هو الأقرب عندي، والله أعلم.

فنقول: من لم يحكم بما أنزل الله استخفافًا به، أو احتقارًا له، أو اعتقادًا أن غيره أصلح منه وأنفع للخلق، فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملَّة.

ومن هؤلاء: من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية، لتكون منهاجًا يسير الناس عليه، فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات المخالفة للشريعة الإسلامية، إلاَّ وهم يعتقدون أنها أصلح وأنفع للخلق.

وضع تشريعات للخلق مخالفة لتشريعات الله لتكون لهم منهاجًا، دليل: على كون صاحبها يعتقدها أكثر نفعًا وأصلح لهم

إذ من المعلوم بالضرورة العقلية، والجبلَّة الفطرية، أن

الإنسان لا يعدل عن منهاج إلى منهاج يُخالفه، إلاَّ وهو يعتقد: فضل ما عدل إليه، ونقص ما عدل عنه.

(صور الحكم بغير ما أنزل الله غير المكفِّرة)

ومن لم يحكم بما أنزل الله، وهو لم يستخف به، ولم يحتقره، ولم يعتقد أن غيره أصلح منه وأنفع للخلق، وإنما حكم بغيره تسلطًا على المحكوم عليه، أو انتقامًا منه لنفسه، أو نحو ذلك، فهذا ظالم، وليس بكافر، وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به، ووسائل الحكم.

ومن لم يحكم بما أنزل الله، لا استخفافًا بحكم الله، ولا احتقارًا، ولا اعتقادًا أن غيره أصلح وأنفع للخلق، وإنما حكم بغيره محاباة للمحكوم له، أو مراعاة لرشوة، أو غيرها من عرض الدنيا، فهذا فاسق وليس بكافر، وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به، ووسائل الحكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، إنهم على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدَّلوا دين الله، فيتبعونهم على التبديل، ويعتقدون تحليل ما حرَّم، وتحريم ما أحلّ الله، اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر وقد جعله الله ورسوله شركًا.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام، وتحريم الحلال ــ كذا[1] العبارة المنقولة عنه ــ ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في

---

(١) هكذا العبارة في الأصل من كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وفي ظاهرها اضطراب، وإن كان المعنى المراد، واضح ومعلوم.

معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب»(١).

وقال الشيخ صالح الفوزان، مبينًا ومحذرًا من شرك الطاعة:

طاعة العلماء والأمراء في التحليل والتحريم من دون الله: شرك أكبر

«اعلموا وفقني الله وإياكم أن من الشرك طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرَّم الله أو تحريم ما أحلّ الله:

قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة/ ٣١].

وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله! لسنا نعبدهم. قال: **«أليس يحلُّون لكم ما حرَّم الله، فتحلُّونه، ويحرِّمون ما أحلَّ الله، فتحرِّمونه؟»**. قال: بلى، قال النبي ﷺ: **«فتلك عبادتهم»**. رواه الترمذي وغيره.

الطاعة في تغيير أحكام الله وتبديلها، عبادة، وشرك أكبر مخرج من الملة

وقد فسَّر النبي ﷺ فيه: اتِّخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله بأنه ليس معناه: الركوع والسجود لهم، وإنما معناه: طاعتهم في تغيير أحكام الله وتبديل شريعته، بتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال، وأن ذلك يعد عبادة لهم من دون الله، حيث نصبوا أنفسهم شركاء لله في التشريع، فمن أطاعهم في ذلك، فقد اتخذهم شركاء لله في التشريع والتحليل والتحريم، وهذا من الشرك الأكبر، لقوله تعالى في الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا

والمطاعون في ذلك: أرباب معبودة من دون الله تعالى

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ١/ ٣٧ ـ ٤٢.

﴿وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة/ ٣١].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ۝١٢١﴾ [الأنعام/ ١٢١].

(طاعة الطواغيت المكفِّرة)

ومن هذا طاعة الحكام والرؤساء في تحكيم القوانين الوضعية المخالفة للأحكام الشرعية في تحليل الحرام، كإباحة الربا والزنى وشرب الخمر، ومساواة المرأة للرجل في الميراث، وإباحة السفور والاختلاط، أو تحريم الحلال، كمنع تعدد الزوجات... وما أشبه ذلك من تغيير أحكام الله واستبدالها بالقوانين الشيطانية، فمن وافقهم على ذلك ورضي به واستحسنه، فهو مشرك كافر والعياذ بالله.

الفرق بين اتباع النبي ﷺ، واتباع العلماء المتبعين لشريعته والمتقيدين بأحكامه

ومن ذلك تقليد الفقهاء باتباع أقوالهم المخالفة للأدلة إذا كانت توافق أهواء بعض الناس وما يشتهونه، كما يفعل بعض أنصاف المتعلِّمين من تلمُّس الرخص، والواجب أن يؤخذ من قول المجتهد ما وافق الدليل، ويطرح ما خالفه.

(وجوب طاعة النبي ﷺ، وعقوبة مخالفته)

قال الأئمة رحمهم الله: «كلٌّ يؤخذ من قوله ويُترك، إلاَّ رسول الله ﷺ».

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: «إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فهم رجال ونحن

رجال»، يريد رحمه الله أمثاله وأمثال الأئمة الكبار.

وقد استغلَّ هذه الكلمة بعض أنصاف المتعلِّمن، الذين جعلوا أنفسهم في مصافِّ الأئمة المجتهدين، وهم لا يزالون جهَّالاً، ولا شك أن الإمام أبا حنيفة لا يقصد مساواة العلماء بالجهال.

وقال مالك رحمه الله: «كلنا رادٌّ ومردود عليه، إلاَّ صاحب هذا القبر...»، يعني رسول الله ﷺ.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «إذا صحَّ الحديث، فهو مذهبي»، وقال: «إذا خالف قولي قول رسول الله ﷺ، فاضربوا بقولي عُرض الحائط».

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحَّته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور/ ٦٣]».

ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «يوشك أن ينزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!».

وجوب اتباع الأدلة، والوقوف عند حدودها

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله في «فتح المجيد»: «فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله، وفهم معنى ذلك: أن ينتهي إليه، ويعمل به، وإن خالفه من خالفه...».

إلى أن قال: «فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة،

فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إليه يذكر دليله، والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقًا إلى معرفة المسائل واستحضارها وتمييز الصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه».

وقال رحمه الله على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام/ ١٢١]: «وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلَّدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلَّد، وهو من هذا الشرك[1]، ومنهم من يغلو في ذلك، ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره أو يحرم، فعظمت الفتنة، ويقول: هو أعلم منا بالأدلة...». انتهى»[2].

❑ ❑ ❑

(١) أي: من الشرك الأكبر. قاله الشيخ صالح في هامشه على كتابه محل النقل.

(٢) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص ٨٣ ــ ٨٥.

المبحث الثالث

أمر الله المؤمنين بردّ كل ما تنازعوا فيه من أصول دينهم وفروعه إلى الله ورسوله، ومن لم يفعل دلّ ذلك على كفره برب العالمين ومروقه من دين المرسلين. فحكم الله وحده، شقيق عبادة الله وحده، وهما مضمونا الشهادتين، وعلى القيام بهذا المضمون فعلاً وتركًا، جُرِّدت سيوف الموحِّدين للجهاد

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي:

«قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء/ ٥٨، ٥٩].

الأمانات: كل ما ائتُمن عليه الإنسان، وأُمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة،

ولا ممطولاً بها. ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال، والأسرار، والمأمورات التي لا يطلع عليها إلاَّ الله.

وقد ذكر الفقهاء، أنَّ من ائتُمن أمانة، وجب عليه حفظها، في حرز مثلها، قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلاَّ بحفظها، فوجب ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء/ ٥٨]، دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلته، فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديًا لها.

الحكم بين الخلق في القليل والكثير، بل وفي كافة شؤون الحياة، لا يكون إلاَّ بشرع الله سبحانه

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء/ ٥٨]، وهذا يشمل الحكم بينهم في: الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والفاجر، والولي، والعدو. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو: ما شرعه الله على لسان رسوله، من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل، ليحكم به.

ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النساء/ ٥٨]، وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين، ودفع مضارِّهما، لأن شارعها السميع البصير، الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم من مصالح العباد، ما لا يعلمون، ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما.

وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم، إلاَّ بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية

الخالق، ولعل هذا هو السر في حذف الفعل، عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول فإن الرسول، لا يأمر إلاَّ بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله. وأما أولو الأمر، فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر بردِّ كل ما تنازع الناس فيه، من أصول الدين وفروعه إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله وسنَّة رسوله، فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومها، أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه.

ردّ التنازع إلى الكتاب والسنة: شرط في صحة الإيمان بهما، وإلا كان الكفر بالله والإيمان بالطاغوت

لأن كتاب الله وسنة رسوله، عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلاَّ بهما. فالرد إليهما، شرط في الإيمان، فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء/ ٥٩]، فدلَّ ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها.

[ذلك] أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء/ ٥٩]، فإن حكم الله ورسوله، أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس، في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم»[1].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله:

«قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء/ ٦٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٦١، ٣٦٢.

قال ابن القيم: أقسم سبحانه بأجلِّ مقسَم به، وهو نفسه عزَّ وجلّ، على أنه لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله حتى يحكم لرسوله ﷺ في جميع موارد النزاع، وفي جميع أبواب الدين، فإن لفظة «ما» من صيغ العموم، ولم يقتصر على هذا حتى ضمَّ إليه انشراح صدورهم بحكمه، بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجًا، وهو: الضيق والحصر من حكمه، بل يقبلون حكمه بالانشراح، ويقابلونه بالقبول، لا يأخذونه على إغماض، ولا يشربونه على قذى، فإن هذا مناف للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضى، وانشراح صدر.

لا يثبت لعبد الإيمان، حتى يحكم الرسول في جميع موارد النزاع، ويقابل حكمه بالانشراح والقَبول مع التسليم والانقياد به طوعًا ورضا

ومتى أراد العبد شاهدًا فلينظر في حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلَّد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة/ ١٤، ١٥].

محك، من محكات العبودية الصادقة

فسبحان الله! كم من حزازة في نفوس كثير من النصوص، وبودِّهم أن لو لم ترد، وكم من حرارة في أكبادهم منها، وكم من شجى في حلوقهم من موردها، ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء/ ٦٥]، فذكر الفعل مؤكدًا له بالمصدر القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع والانقياد لما حكم به طوعًا ورضى وتسليمًا، لا قهرًا أو مصابرة، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهًا، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليماته. انتهى»[1].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٨١، ٣٨٢.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى:

«واعتبار شيء من القوانين للحكم بها ولو في أقل قليل، لا شك أنه عدم رضا بحكم الله ورسوله، ونسبة حكم الله ورسوله إلى النقص وعدم القيام بالكفاية في حل النزاع وإيصال الحقوق إلى أربابها، وحكم القوانين إلى الكمال وكفاية الناس في حل مشاكلهم، واعتقاد هذا كفر ناقل عن الملَّة، والأمر كبير مهم وليس من الأمور الاجتهادية.

تحكيم شرع الله وحده، قرين عبادة الله وحده في الأحكام

وتحكيم الشرع وحده دون كل ما سواه شقيق عبادة الله وحده دون ما سواه، إذ مضمون الشهادتين أن يكون الله هو: المعبود وحده لا شريك له، وأن يكون رسوله ﷺ هو: المتبع المحكم ما جاء به فقط، ولا جُرِّدت سيوف الجهاد إلاَّ من أجل ذلك والقيام به فعلاً وتركا وتحكيمًا عند النزاع، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء/ ٦٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء/ ٥٩]»[1].

علة تجريد: سيوف الجهاد

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

أثمن شيء لدى المسلمين: القيام بمدلول الشهادتين فعلاً وتركًا

«وأي شيء عند المسلمين سوى أصل دينهم وهو شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله؟ مع ما يثمره ويتفرع عليه علمًا واعتقادًا وعملاً وبراءة مما يناقض ذلك؟

(١) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ٢٥١.

فعلى المسلمين تأمل جملتي أصل الدين وما تقتضيه الأولى «شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله» من إفراد الله بالعبادة، وما تقتضيه الثانية، «شهادة أن محمدًا رسول الله»، من إفراد الرسول ﷺ بالمتابعة وتحكيم ما جاء به والحكم بمقتضاه في القليل والكثير والنقير والقطمير، على الكبير والصغير، والمأمور والأمير»[1].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

«القوانين كفر ناقل عن الملَّة اعتقاد أنها حاكمة وسائغة. وبعضهم يراها أعظم، فهؤلاء، نقضوا شهادة أن محمدًا رسول الله، ولا إلـه إلاَّ الله أيضًا نقضوها، فإن من شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، لا مطاع غير الله، كما أنهم نقضوها بعبادة غير الله.

وأما الذي قيل فيه: كفر دون كفر، إذا حاكم إلى غير الله، مع اعتقاد أنه عاص وأن حكم الله هو الحق، فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها.

تحكيم القوانين، كفر ناقل عن الملة، وإن قال أصحابه: أخطأنا وحكم الشرع أعدل

أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر وإن قالوا: أخطأنا وحكم الشرع أعدل.

ففرق بين المقرِّر والمثبِت والمرجع، جعلوه هو المرجع. فهذا كفر ناقل عن الملَّة (تقرير)»[2].

وقال الشيخ صالح الفوزان يحفظه الله تعالى:

مقتضىٰ التوحيد والعبودية: إفراد الله بالحكم والتحاكم

«وكما لا تجوز طاعة العلماء في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فكذلك لا تجوز طاعة الأمراء والرؤساء في الحكم بين

---

(١) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ٢٥٦.

(٢) مجموع رسائل وفتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ٢٨٠.

الناس بغير الشريعة الإسلامية، لأنه يجب التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله في جميع المنازعات والخصومات وشؤون الحياة، لأن هذا هو مقتضى العبودية والتوحيد، لأن التشريع حق لله وحده، كما قال تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ [الأعراف/ ٥٤]، أي: هو الحَكَم وله الحُكْم، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى/ ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء/ ٥٩].

التحاكم إلى الأنظمة والقوانين البشرية: شرك بالله العظيم، وعبودية لأصحابها

فالتحاكم إلى شرع الله ليس لطلب العدل فقط، وإنما هو في الدرجة الأولى تعبُّد لله، وحق لله وحده، وعقيدة، فمن احتكم إلى غير شرع الله من سائر الأنظمة والقوانين البشرية، فقد اتخذ واضعي تلك القوانين والحاكمين بها شركاء لله في تشريعه، قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى/ ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام/ ١٢١]»(١).

❑ ❑ ❑

(١) الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد ص ٨٧، ٨٨.

المبحث الرابع

من أعظم الفساد في الأرض: التحاكم إلى غير الله ورسوله، ومن ثم كان إباء التحاكم إلى الكتاب والسنَّة، دليلاً قاطعًا على الكفر والنفاق والزندقة

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في شرحه على كتاب التوحيد:

«قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء/ ٦١]: بيَّن تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البُعد من الإيمان.

إباء التحاكم إلى الكتاب والسنة: دليل على النفاق، ومن أعمال المنافقين

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: هذا دليل على أن من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسنَّة، فأبى أنَّه من المنافقين.

قوله: «يصدون»، لازم وهو بمعنى يعرضون، لأن مصدره «صدودًا» فما أكثر من اتصف بهذا الوصف خصوصًا ممن يدَّعي العلم، فإنهم صدُّوا عمَّا توجبه الأدلة من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، إلى أقوال من يخطىء كثيرًا ممن ينتسب إلى الأئمة

الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنَّة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلاَّ به، فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريبًا، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع. والله المستعان.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ [البقرة/ ١١]. قال أبو العالية في الآية: يعني لا تعصوا في الأرض. لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله.

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ۝٧٠﴾ [يوسف/ ٧٠]، إلى قوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ۝٧٣﴾ [يوسف/ ٧٣]، فدلت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض.

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين وهو من الفساد في الأرض..

وفي الآية: التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى.

وفيها: التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذا جاءه، وهذا من الفساد في الأرض ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة، تخرج صاحبها عن الحق وتدخله في الباطل. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

فتدبَّر تجد ذلك في حال الأكثر إلاَّ من عصمه الله ومنَّ عليه بقوة داعي الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصرًا نافذًا عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف/ ٥٦]، قال أبو بكر بن عياش في الآية: إن الله بعث محمدًا ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد ﷺ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض.

الدعوة إلى غير شريعة الله، دعوة إلى الفساد في الأرض

وقال ابن القيم رحمه الله: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متَّبع غير رسول الله ﷺ، هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلاَّ بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلاَّ، وغيره إنما تجب طاعته

إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه: توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه: مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله. اهـ.

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلاَّ بتحكيم كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وهو سبيل المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء/ ١١٥]»[(١)].

وأرسل الشيوخ الفضلاء: محمد بن إبراهيم وعبد العزيز الشثري، وعبد اللطيف بن إبراهيم، وعمر بن حسن، وعبد العزيز بن باز، وعبد الله بن حميد، وعبد الله بن عقيل، وعبد العزيز بن رشيد، وعبد اللطيف بن محمد، ومحمد بن عودة، ومحمد بن مهيرع، رسالة إلى من يراها من المسلمين، داعين الله أن يسلك بهم جميعًا سبيل عباده المؤمنين، وأن يعيذهم من طريق المغضوب عليهم والضالين، آمين. . . ثم قالوا رحمهم الله جميعًا:

«سلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أما بعد: فالموجب لهذا هو نصيحتكم، ووصيتكم بتقوى الله، وترغيبكم فيما ينفعكم في الدنيا والآخرة، وتحذيركم

---

(١) فتح المجيد ص ٣٨١ ـ ٣٨٣.

مما يضركم في الدنيا والآخرة، عملاً بقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة/ ٢]، وقوله عزَّ وجلّ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر/ ١ ــ ٣].

فأمر سبحانه بالتعاون على البر والتقوى، وحذَّر من التعاون على الإثم والعدوان، وتوعَّد من خالف ذلك بشديد العقاب، وأخبر عزَّ وجلّ في هذه السورة القصيرة العظيمة أنَّ الناس «قسمان»: خاسرين ورابحين، وبيَّن أن الرابحين: هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتوصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

فمن اكتمل هذه الصفات الأربع فهو من الفائزين بالربح الكامل والسعادة الأبدية والعزة والنجاة في الدنيا والآخرة، ومن فاته شيء من هذه الصفات فاته من الربح بقدر ما فاته منها، وأصابه من الغبن والفساد بقدر ما معه من التقصير والغفلة والإعراض عن ما يجب عليه.

فاتقوا الله عباد الله وتخلَّقوا بأخلاق الرابحين، وتواصوا بها بينكم، واحذروا صفات الخاسرين، وأعمال المفسدين، وتعاونوا على تركها وتحذير الناس منها، تفوزوا بالنجاة والسلامة والعاقبة الحميدة.

وقد قال النبي ﷺ: **«الدِّيْنُ النَّصيحَةُ، الدِّيْنُ النَّصيحَةُ، الدِّيْنُ النَّصيحَةُ»**، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: **«لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**.

من أجلّ أمور المسلمين: التمسك بشريعة الله، والاستقامة عليها، ودعوة الناس إليها

فمن أهم الأمور التي يجب فيها التناصح والتواصي: تعظيم كتاب الله وسنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام، والتمسك بهما، ودعوة الناس إلى ذلك في جميع الأحوال، لأنه لا سعادة للعباد ولا هداية ولا نجاة في الدنيا والآخرة إلاَّ بتعظيم كتاب الله وسنَّة نبيه الأمين ﷺ اعتقادًا وقولاً وعملاً، والاستقامة على ذلك والصبر عليه حتى الوفاة، لأن الله سبحانه أمر عباده بطاعته وطاعة رسوله وعلق كل خير بذلك وتهدد من عصى الله ورسوله بأنواع العذاب والخزي في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور/ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور/ ٦٣]. وقال عزَّ وجلّ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء/ ١٣، ١٤].

ففي هذه الآيات المحكمات الأمر بطاعة الله ورسوله، والحث على اتباع كتابه، وتعليق الهداية والرحمة ودخول الجنات بطاعة الله واتباع كتابه العظيم، وتعليق الفتنة والعذاب المهين بمعصية الله والرسول.

فاحذروا أيها المسلمون ما حذركم الله منه، وبادروا إلى ما

أمركم به بإخلاص وصدق ورغبة ورهبة، تفوزوا بكل خير، وتسلموا من كل شر في الدنيا والآخرة.

ومن أعظم طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام التحاكم إلى شريعته والرضا بحكمها، والتواصي بذلك، والحذر كل الحذر مما خالفها، عملاً بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء/ ٦٥].

شروط الإيمان بحكم الله وقضاء رسوله ﷺ

أقسم الله سبحانه في هذه الآية الكريمة أن العباد لا يؤمنون حتى يحكِّموا الرسول ﷺ فيما شجر بينهم، وينقادوا لحكمه راغبين مسلمين من غير كراهية ولا حرج، وهذا يعم مشاكل الدين والدنيا، فهو ﷺ هو الذي يحكم فيها بنفسه في حياته وبسنَّته بعد وفاته، ولا إيمان لمن أعرض عن ذلك أو لم يرض به.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى/ ١٠]، فهو سبحانه الذي يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه في هذه الدار وذلك بما أوحى إلى رسوله ﷺ من القرآن والسنَّة، وفي يوم القيامة يحكم بين الناس بنفسه عزَّ وجلّ. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء/ ٥٩].

يأمر الله سبحانه في هذه الآية بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، لأنَّ في ذلك خير الدنيا والآخرة، وعزّ الدنيا والآخرة، والنجاة من عذاب الله يوم القيامة، ويأمر بطاعة أولي الأمر عطفًا على طاعة الرسول ﷺ من غير أن يعيد العامل، لأن أولي الأمر إنما تجب

طاعتهم فيما هو طاعة لله ولرسوله. وأما ما كان معصية لله ورسوله فلا تجوز طاعة أحد من الناس فيه كائنًا ما كان، لقول النبي ﷺ: «إنما الطَّاعة في المَعْرُوف»، وقال ﷺ: «لا طَاعَة للمخلُوق في معصية الخالق»، ثم أمر الله سبحانه عباده أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء/ ٥٩]، والرد إلى الله: هو الرد إلى كتابه الكريم، والرد إلى الرسول: هو الرد إليه في حياته عليه الصلاة والسلام، وإلى سنَّته بعد وفاته.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء/ ٥٩]، يرشد عباده إلى أن رد مشاكلهم كلها إلى الله والرسول خير لهم وأحسن عاقبة في العاجل والآجل.

فانتبهوا رحمكم الله، واعتصموا بكتاب الله وسنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام تفوزوا بالحياة الطيبة والسعادة الأبدية، كما قال الله سبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل/ ٩٧].

التحاكم إلى غير شريعة الله من أعظم النفاق، وأكبر شعائر الكفر والظلم والفسق

وإن من أقبح السيئات وأعظم المنكرات: التحاكم إلى غير شريعة الله من القوانين الوضعية، والنظم البشرية، وعادات الأسلاف والأجداد التي قد وقع فيها الكثير من الناس اليوم وارتضوها بدلاً من شريعة الله التي بعث بها رسوله محمدًا ﷺ.

ولا ريب أن ذلك من أعظم النفاق، ومن أكبر شعائر الكفر والظلم والفسوق وأحكام الجاهلية التي أبطلها القرآن، وحذر عنها الرسول ﷺ، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ

بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء/ ٦٠، ٦١].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة/ ٤٩، ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة/ ٣٣]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة/ ٤٥]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة/ ٤٧].

وهذا تحذير شديد من الله سبحانه لجميع العباد من الإعراض عن كتابه وسنَّة رسوله ﷺ، والتحاكم إلى غيرهما، وحكم صريح من الرب عزَّ وجلّ على من حكم بغير شريعته بأنه كافر وظالم وفاسق ومتخلِّق بأخلاق المنافقين وأهل الجاهلية.

من حكم بغير شريعة الإسلام، فهو كافر بصريح القرآن

فاحذروا أيها المسلمون ما حذَّركم الله منه، وحكِّموا شريعته في كل شيء، واحذروا ما خالفها، وتواصوا بذلك فيما بينكم وعادوا وابغضوا من أعرض عن شريعة الله، أو تنقَّصها، أو استهزأ بها أو سهَّل في التحاكم إلى غيرها، لتفوزوا بكرامة الله، وتسلموا من عقاب الله، وتؤدوا بذلك ما أوجب الله عليكم من موالاة أوليائه الحاكمين بشريعته، الراضين بكتابه وسنَّة رسوله ﷺ، ومعاداة أعدائه الراغبين عن شريعته المعرضين عن كتابه وسنَّة رسوله ﷺ.

ينبغي: معاداة أعداء الله، الراغبين عن شريعته

والله المسؤول أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم، وإن يعيذنا وإياكم من مشابهة الكفار والمنافقين، وأن ينصر دينه ويخذل أعداءه، إنه على كل شيء قدير.

وصلَّى الله على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين. حُرِّر في ١٢/ ١١/ ١٣٨٠ (ص/ف ٧٣٩ في ١٥/ ١١/ ١٣٧٥)»[١].

وقال الشيخ صالح الفوزان يحفظه الله تعالى:

نفيُ الله الإيمان عمّن تحاكم إلى غير شرعه

وقد نفى الله الإيمان عمَّن تحاكم إلى غير شرعه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء/ ٦٠].

إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء/ ٦٥].

(تحكيم القوانين: تحكيم للطاغوت، وإيمان به)

الفرق بين التشريع والحكم

فمن دعا إلى تحكيم القوانين البشرية، فقد جعل لله شريكًا في الطاعة والتشريع، ومن حكم بغير ما أنزل الله، يرى أنه أحسن أو مساو لما أنزل الله وشرعه، أو أنه يجوز الحكم بهذا، فهو كافر بالله، وإن زعم أنه مؤمن، لأن الله أنكر على من يريد التحاكم إلى غير شرعه، وكذَّبهم في زعمهم الإيمان، لأن قوله: ﴿يزعمون﴾: متضِّمن لنفي إيمانهم، لأن هذه الكلمة تقال غالبًا لمن يدَّعي دعوى

---

(١) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ٢٥٦ ـ ٢٦٠.

تحكيم القوانين: تحكيم للطاغوت

هو فيها كاذب، ولأن تحكيم القوانين تحكيم للطاغوت، والله قد أمر بالكفر بالطاغوت، وجعل الكفر بالطاغوت، ركن التوحيد، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٥٦].

من حكَّم القوانين لم يكن موحدًا

فمن حكَّم القوانين، لم يكن موحدًا، لأنه اتخذ لله شريكًا في التشريع والطاعة، ولم يكفر بالطاغوت الذي أمر أن يكفر به، وأطاع الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ [النساء/ ٦٠].

لا يأبى التحاكم إلى شرع الله، إلا منافق فاسد القلب، منتكس الفطرة

وقد أخبر الله عن المنافقين أنهم حينما يدعون إلى التحاكم إلى شرع الله يأبون ويعرضون، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النساء/ ٦١].

كما أخبر أنهم يرون الفساد صلاحًا، لانتكاس فطرهم، وفساد قلوبهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة/ ١١، ١٢]، فالتحاكم إلى غير الله من أعمال المنافقين، وهو من أعظم الفساد في الأرض»[١].

❑ ❑ ❑

---

(١) الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد ص ٨٨، ٨٩.

المبحث الخامس

من خرج عن حكم الله، وعدل إلى ما سواه من الأحكام الجاهلية، وجعل ذلك شريعة مقدَّمة، أو مزاحمة لشريعة الله، فهو كافر يجب قتاله حتى يعود إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم في قليل ولا كثير سواه، وأي دولة تنتهج هذا النهج، تصبح دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة، يجب بغضها ومعاداتها، وتحرم مودتها وموالاتها.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى:

«قال: وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة/ ٥٠].

قال ابن كثير: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير وعدل، الناهي عن كل شرّ، وعدَل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكزخان الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام اقتبسها من

شرائع شتى من الملّة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره، فصار في بنيه **شرعًا يقدِّمونه** على الحكم بالكتاب والسنة، ومن فعل ذلك، فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير.

قسمة الحكم ثنائية. إما حكم الله وحده، وإما حكم الجاهلية

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، أي: يريدون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝﴾ [المائدة/ ٥٠]، أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن وأيقن، وعلم أنَّه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، فإنه تعالى العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.
قلت: وفي الآية إشارة إلى أن من ابتغى غير حكم الله ورسوله، فقد ابتغى حكم الجاهلية كائنًا ما كان»[(١)].

وقال الشيخ صالح الفوزان بعد إيراده النقل السابق عن الإمام ابن كثير رحمهما الله تعالى:

قانون التتار، كالقوانين الوضعية اليوم، والدليل على كفر أصحابها

«ومثل القانون الذي ذكره عن التتار وحكم بكفر من جعله بديلاً من الشريعة الإسلامية: القوانين الوضعية التي جعلت اليوم في كثير من الدول هي مصادر الأحكام وألغيت من أجلها الشريعة الإسلامية، إلاَّ فيما يسمُّونه بالأحوال الشخصية.

والدليل على كفر من فعل ذلك آيات كثيرة: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝﴾ [المائدة/ ٤٤]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٨٤.

شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء/ ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة/ ٨٥].

وكما قلنا قريبًا: إنه يجب تحكيم الشريعة عقيدة ودينًا يدان الله به، لا من أجل طلب العدالة فقط»[١].

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الديار النجدية رحمه الله تعالى:

الحكم بغير شريعة الإسلام: سبيل الكفر والخروج من الإسلام

إنَّ الحكم بغير شريعة الإسلام بين الناس معناه: الكفر، والخروج من الإسلام والعياذ بالله[٢]. اهـ.

وقال أيضًا رحمه الله تعالى:

«فإن أحكام الجاهلية، اسم عام لجميع الأحكام الخارجة عن الكتاب والسنة، فكما لا يقر أحد على عبادة غير الله، فكذلك لا يقر على الحكم بغير ما جاء به الرسول ﷺ»[٣].

وقال الشيخ صالح الفوزان يحفظه الله:

كل حكم مخالف لحكم الله: فهو حكم الجاهلية

«وقد سمَّى الله كل حكم يخالف حكمه: بأنه حكم الجاهلية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة/ ٥٠]»[٤].

---

(١) الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد ص ٩٠.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ٢٦٣، بتصرف بسيط.

(٣) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ٣٢٠.

(٤) الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد ص ٨٩.

وقال أيضًا الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى في بيان مناطات وأنواع الكفر الأكبر والأصغر، والعلل المؤثرة فيهما، من قضية التشريع والحكم:

تنزيل القوانين الوضعية: منزلة الشريعة الإلهية، كفر أكبر مخرج من الملة

«إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، في الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين، مناقضة ومعاندة لقول الله عزَّ وجلّ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء/ ٥٩].

وقد نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عمَّن لم يحكِّموا النبي ﷺ فيما شجر بينهم نفيًا مؤكدًا بتكرار أداة النفي وبالقسم، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء/ ٦٥].

ولم يكتف تعالى وتقدّس منهم بمجرد التحكيم للرسول ﷺ حتى يضيفوا إلى ذلك عدم وجود شيء من الحرج في نفوسهم بقوله جل شأنه: ﴿لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء/ ٦٥]. والحرج: الضيق، بل لا بدَّ من اتساع صدورهم لذلك وسلامتها من القلق والاضطراب.

ولم يكتف تعالى أيضًا هنا بهذين الأمرين حتى يضموا إليهما (التسليم) وهو كمال الانقياد لحكمه ﷺ بحيث يتخلوا هاهنا من أي تعلق للنفس بهذا الشيء، ويسلموا ذلك إلى الحكم الحق أتم تسليم، ولهذا أكد ذلك بالمصدر المؤكد وهو قوله جل شأنه:

(تسليمًا) المبين أنه لا يكتفى ها هنا بالتسليم، بل لا بد من التسليم المطلق.

(الردّ المطلق إلى الله ورسوله: شرط في صحة الإيمان، وإلاَّ فالكفر والنفاق)

وتأمل ما في الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء/ ٥٩]، كيف ذكر النكرة وهي قوله: ﴿شَيۡءٖ﴾ في سياق الشرط وهو قوله جل شأنه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ المفيد العموم فيما يتصور التنازع فيه جنسًا وقدرًا.

ثم تأمل كيف جعل ذلك شرطًا في: حصول الإيمان بالله واليوم الآخر بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾، ثم قال جل شأنه: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾، فشيء يطلق الله عليه أنه خير لا يتطرق إليه شر أبدًا، بل هو خير محض عاجلاً وآجلاً.

ثم قال: ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾، أي: عاقبة في الدنيا والآخرة، فيفيد أن الرد إلى غير الرسول ﷺ عند التنازع شر محض، وأسوأ عاقبة في الدنيا والآخرة. عكس ما يقوله المنافقون ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢﴾ [النساء/ ٦٢]، وقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ [البقرة/ ١١]، ولهذا رد الله عليهم قائلاً: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ [البقرة/ ١٢].

لوازم القانونيين الكفرية

وعكس ما عليه القانونيون من حكمهم على القانون بحاجة العالم بل ضرورتهم إلى التحاكم إليه، وهذا سوء ظن صرف بما جاء به الرسول ﷺ، ومحض استنقاص لبيان الله ورسوله، والحكم

عليه بعدم الكفاية للناس عند التنازع وسوء العاقبة في الدنيا والآخرة، إن هذا لازم لهم.

وتأمل أيضًا ما في الآية الثانية من العموم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء/ ٦٥]، فإن اسم الموصول مع صلته من صيغ العموم عند الأصوليين وغيرهم، وذلك العموم والشمول هو من ناحية الأجناس والأنواع، كما أنه من ناحية القدر، فلا فرق هنا بين نوع ونوع، كما أنه لا فرق بين القليل والكثير.

وقد نفى الله الإيمان عمَّن أراد التحاكم إلى غير ما جاء به الرسول ﷺ من المنافقين كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء/ ٦٠].

التحاكم لغير الشريعة، لا يجتمع مع الإيمان في قلب عبد أصلاً لمنافاة كل منهما الآخر

فإن قوله عزَّ وجلّ: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ تكذيب لهم فيما ادَّعوه من الإيمان، فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ مع الإيمان في قلب عبد أصلاً، بل أحدهما ينافي الآخر.

من حكم، أو حاكم إلى غير الشريعة، فقد حكم بالطاغوت، وحاكم إليه

و (الطاغوت) مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد، فكل من حكم بغير ما جاء به الرسول ﷺ أو حاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ فقد حكم بالطاغوت وحاكم إليه، وذلك أنه من حد كل أحد أن يكون: حاكمًا بما جاء به النبي ﷺ فقط لا بخلافه، كما أنه من حد كل أحد أن يحاكم إلى ما جاء به النبي ﷺ، فمن حكم بخلافه، أو حاكم إلى خلافه فقط طغى وجاوز حده حكمًا أو تحكيمًا، فصار بذلك طاغوتًا لتجاوزه حده.

وتأمل قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء/ ٦٠]، تعرف منه: معاندة القانونيين وإرادتهم خلاف مراد الله منهم حول هذا الصدد، فالمراد منهم شرعًا والذي تعبدوا به هو: الكفر بالطاغوت لا تحكيمه ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة/ ٥٩].

ثم تأمل قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ﴾ [النساء/ ٦٠] كيف دلّ على أن ذلك ضلال، وهؤلاء القانونيون يرونه من الهدى، كما دلت الآية على أنه من إرادة الشيطان، عكس ما بتصور القانونيين من بعدهم من الشيطان، وأن أوضاعهم مصلحة للإنسان، فتكون على زعمهم مرادات الشيطان هي صلاح الإنسان، ومراد الرحمن، وما بعث به سيد ولد عدنان، معزولاً عن هذا الوصف ومنحى عن هذا الشأن.

(قسمة الحكم ثنائية: إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية)

وقد قال تعالى منكرًا على هذا الضرب من الناس ومقرّرًا ابتغاءهم أحكام الجاهلية وموضحًا أنه لا حكم أحسن من حكمه: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمًا لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ ۝﴾ [المائدة/ ٥٠]، فتأمل هذه الآية الكريمة، وكيف دلت على أن قسمة الحكم ثنائية، وأنه ليس بعد حكم الله تعالى إلاَّ حكم الجاهلية، الموضح أن القانونيين في زمرة أهل الجاهلية شاؤوا أم أبوا، بل هم أسوأ منهم حالاً، وأكذب منهم مقالاً، ذلك أن أهل الجاهلية لا تناقض لديهم حول هذا الصدد.

القانونيون هم: الكافرون حقًا

وأما القانونيون فمتناقضون حيث يزعمون الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ ويناقضون ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، وقد

قال الله تعالى في أمثال هؤلاء: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء/ ١٥١].

ثم انظر كيف ردت هذه الآية الكريمة على القانونيين ما زعموه من حسن زبالة أذهانهم ونحاتة أفكارهم بقوله عزَّ وجلّ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة/ ٥٠].

من خرج عن حكم الله وعدل إلى ما سواه من أحكام البشر، وجعل ذلك شريعة مقدمة على شريعة الله في الحكم، فهو كافر يجب قتاله حتى ينخلع من كفره

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم (جنكزخان)، الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملَّة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متَّبعًا يقدِّمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير.

قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ ﴾ [المائدة/ ٥٠]، أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة/ ٥٠]، أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به، وأيقن وعلم أنَّ الله أحكم الحاكمين وأرحم من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

وقد قال عزَّ شأنه قبل ذلك مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [المائدة/ ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المائدة/ ٤٩].

وقال تعالى مخيِّرًا نبيَّه محمدًا ﷺ بين الحكم بين اليهود والإعراض عنهم إن جاءوه لذلك: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة/ ٤٢]، والقسط هو: العدل، ولا عدل حقًا إلاَّ حكم الله ورسوله، والحكم بخلافه هو الجَور والظلم والضلال والكفر والفسوق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ [المائدة/ ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥﴾ [المائدة/ ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾ [المائدة/ ٤٧].

فانظر كيف سجَّل الله تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله بالكفر والظلم والفسوق، ومن الممتنع أن يسمي الله سبحانه وتعالى ــ الحاكم ــ بغير ما أنزل الله (كافرًا) ولا يكون كافرًا، بل هو كافر مطلقًا: إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد.

وما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية من رواية طاووس وغيره يدل: أن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر: إما كفر اعتقاد ناقل عن الملَّة، وإما كفر عمل لا ينقل عن الملَّة.

(أنواع الكفر الأكبر من الحكم بغير ما أنزل الله)

أما الأول: وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع:

أحدهما: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله، وهو معنى ما روي عن ابن عباس واختاره ابن جرير أن ذلك هو جحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي، وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم أنَّ من جحد أصلاً من أصول الدين، أو فرعًا مجمعًا عليه، أو أنكر حرفًا مما جاء به الرسول ﷺ قطعيًّا، فإنه كافر الكفر الناقل عن الملَّة.

والثاني: أن لا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقًا، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع: إما مطلقًا، أو بالنسبة إلى ما استجدَّ من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان وتغيُّر الأحوال.

وهذا أيضًا لا ريب أنه كفر لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان وصرف نحاتة الأفكار على حكم الحكيم الحميد.

شبهة، والرد عليها

وحكم الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان، وتطور الأحوال، وتجدد الحوادث، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلَّا وحكمها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ نصًّا أو ظاهرًا أو استنباطًا أو غير ذلك، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله.

وليس معنى ما ذكره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال ما ظنه من قلَّ نصيبهم أو عدم من معرفة مدارك الأحكام وعللها، حيث ظنوا أن معنى ذلك بحسب ما يلائم إراداتهم الشهوانية البهيمية،

وأغراضهم الدنيوية، وتصوراتهم الخاطئة الوبيَّة، ولهذا تجدهم يحامون عليها، ويجعلون النصوص تابعة لها منقادة إليها مهما أمكنهم، فيحرِّفون لذلك الكلم عن مواضعه.

وحينئذٍ معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان، مراد العلماء منه: ما كان مستصحبة فيه الأصول الشرعية، والعلل المرعيَّة، والمصالح التي جنسها مراد الله تعالى ورسوله ﷺ.

ومن المعلوم أنَّ أرباب القوانين الوضعية عن ذلك بمعزل، وأنهم لا يعولون إلاَّ على ما يلائم مراداتهم كائنة ما كانت، والواقع أصدق شاهد.

الثالث: أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله.

فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافرًا الكفر الناقل عن الملَّة، لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق، والمناقضة والمعاندة لقوله عزَّ وجلّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى/ ١١]، ونحوها من الآيات الكريمة الدالة على تفرُّد الرب بالكمال، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين في الذات والصفات والأفعال، والحكم بين الناس فيما يتنازعون فيه.

الرابع: أن لا يعتقد: كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله، فضلاً عن أن يعتقد كونه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله، فهذا كالذي قبله يصدق عليه ما يصدق عليه، لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القطعية تحريمه.

(علة كون التشريع من دون الله كفر أكبر، ولو قال صاحبه: أخطأت، وحكم الله أعظم وأفضل)

الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه ومشاقة لله ولرسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعدادًا، وإمدادًا وإرصادًا وتأهيلاً وتفريعًا وتشكيلاً وتنويعًا وحكمًا وإلزامًا ومراجع مستمَدَّات.

فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستمَدَّات، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلهذه المحاكم مراجع هي: القانون الملفَّق من شرائع شتى وقوانين كثيرة: كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة، وغير ذلك.

فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيَّأة مكملة مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتِّمه عليهم.

فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة لشهادة أن محمدًا رسول الله بعد هذه المناقضة؟!

وذكر أدلة جميع ما قدمنا على وجه البسط معلومة معروفة لا يحتمل ذكرها هذا الموضع.

فيا معشر العقلاء، ويا جماعات الأذكياء، وأولي النُّهى، كيف ترضون أن تجري عليكم أحكام أمثالكم، وأفكار أشباهكم، أو من هم دونكم ممن يجوز عليهم الخطأ، بل خطؤهم أكثر من صوابهم بكثير، بل لا صواب في حكمهم إلاَّ ما هو مستمد من

حكم الله ورسوله نصًا أو استنباطًا، تدعونهم يحكمون في أنفسكم، ودمائكم، وأبشاركم، وأعراضكم، وفي أهاليكم من أزواجكم وذراريكم، وفي أموالكم وسائر حقوقكم، ويتركون ويرفضون أن يحكموا فيكم بحكم الله ورسوله الذي لا يتطرق إليه الخطأ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟!

حرمة الخضوع والانقياد لأحكام المخلوقين، كحرمة عبادتهم والسجود لهم

وخضوع الناس ورضوخهم لحكم ربهم، خضوع ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه، فكما لا يسجد الخلق إلاَّ لله، ولا يعبدون إلاَّ إياه ولا يعبدون المخلوق، فكذلك يجب أن لا يرضخوا ولا يخضعوا أو ينقادوا إلاَّ لحكم الحكيم العليم، الحميد الرؤوف الرحيم، دون حكم المخلوق الظلوم الجهول، الذي أهلكته الشكوك والشهوات والشبهات، واستولت على قلوبهم الغفلة والقسوة والظلمات.

فيجب على العقلاء أن يربأوا بنفوسهم عنه لما فيه من الاستعباد لهم والتحكم فيهم بالأهواء والأغراض والأغلاط والأخطاء، فضلاً عن كونه كفرًا بنص قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة/ ٤٤].

السادس:

ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمُّونها «سلومهم» يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به ويحملون على التحاكم إليه عند النزاع، بقاء على أحكام الجاهلية، وإعراضًا ورغبة عن حكم الله ورسوله، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

مناط: كفر دون كفر، المراد من أقوال العلماء

وأما «القسم الثاني» من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج عن الملَّة فقد تقدَّم أنَّ تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة/ ٤٤]، قد شمل ذلك القسم، وذلك في قوله رضي الله عنه في الآية: كفر دون كفر، وقوله أيضًا: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه. اهـ.

وذلك أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى.

وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملَّة، فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة واليمين الغموس وغيرها، فإن معصية سمَّاها الله في كتابه كفرًا أعظم من معصية لم يسمِّها كفرًا.

نسأل الله أن يجمع المسلمين على التحاكم إلى كتابه انقيادًا ورضًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

[طبعت في مجلة لواء الإسلام]»[١]

وقال الشيوخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، وعبد الرزاق عفيفي، وعبد الله بن غديان:

من يؤثر الحكم بالقوانين الوضعية على الحكم بما أنزل الله، فهذا كافر وإن نطق بالشهادتين وصلَّى وصام[٢]. اهـ.

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ٢٨٤ ــ ٢٩١.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة ٢/ ٤٦، بتصرف بسيط.

(حكم البلدة التي تحكم بالقانون الوضعي)

وسئل الشيخ محمد بن إبراهيم رحمهما الله تعالى:

س: هل تجب الهجرة من بلاد المسلمين التي يحكم فيها بالقانون؟

البلدة التي تحكم بالقانون، ليست بلد إسلام

ج: البلد التي يحكم فيها بالقانون ليست بلد إسلام، تجب الهجرة منها، وكذلك إذا ظهرت الوثنية من غير نكير ولا غيِّرت فتجب الهجرة، فالكفر: بفشو الكفر وظهوره. هذه بلد كفر.

أما إذا كان قد يحكم فيها بعض الأفراد أو وجود كفريات قليلة لا تظهر فهي بلد إسلام.

[تقرير]

ما الذي سلط الأعداء على المسلمين؟

إذا كان نفس الشيء الذي نقمه الرسول هو المقدم عندهم، واستغنوا باسم الإسلام وصلاة ونحو ذلك.

إن في القرآن والسنة الشفاء والبيان.

شيء واضح بينه القرآن ووضحه في عدة مواضع أن المشركين مقرون بالربوبية، ثم آيات أُخَر عيَّنت الشيء الذي طلبوه، فهذا هو الذي أنكره القرآن عليهم من جهة العقيدة.

لو قال الحاكم بالقانون: أنا أعتقد أنه باطل، فهذا لا أثر له

ولعلك أن تقول: لو قال من حكم القانون: أنا أعتقد أنه باطل. فهذا لا أثر له، بل هو عزل للشرع، كما لو قال أحد: أنا أعبد الأوثان، وأعتقد أنها باطل.

وإذا قدر على الهجرة من بلاد تقام فيها القوانين وجب ذلك . [تقرير]»(١) .

يجب الهجرة من بلاد القوانين

وسئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: السؤال الثالث من الفتوى رقم (٥٢٣٦):

س : نحن نعيش تحت حكومة غير مسلمة وهي تحكّم القانون الوضعي. فهل لنا أن نرفع إليها قضايانا؟

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه. . . وبعد:

حرمة التحاكم إلى حكومة غير مسلمة

ج : لا يجوز للمسلم أن يتحاكم إلى حكومة غير مسلمة قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة/ ٤٤]، وهذا واضح ولله الحمد.

وبالله التوفيق وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبدالله بن قعود	عبدالله بن غديان	عبدالرزاق عفيفي	عبدالعزيز بن عبدالله بن باز»(٢)

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز في نقده لوثن القومية العربية:

اتخاذ أحكام وضعية، تخالف حكم القرآن: فساد عظيم، وكفر مبين، وردة سافرة

«**الوجه الرابع**: من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة إلى القومية العربية أن يقال: إن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها، يفضي بالمجتمع ولا بد إلى رفض حكم القرآن، لأن القوميين غير

---

(١) مجموع ورسائل وفتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ٦/ ١٨٨، ١٨٩.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة ١/ ٥٤٤، ٥٤٥.

المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكامًا وضعية تخالف حكم القرآن حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام.

وقد صرَّح الكثير منهم بذلك كما سلف. وهذا هو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء/ ٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة/ ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة/ ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة/ ٤٧].

الدولة التي لا تحكم بشرع الله، ولا تنصاع لأمره: دولة، جاهلية، ظالمة، فاسقة، بنص الآيات المحكمات

وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي: دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات، يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله، وتحرم عليهم مودتها وموالاتها، حتى تؤمن بالله وحده وتحكِّم شريعته كما قال عزَّ وجلّ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة/ ٤]»[1].

❑❑❑

(١) نقد القومية العربية ص ٥٠، ٥١.

المبحث السادس

أيما طائفة امتنعت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، فإنها تقاتل عليها: قتال كفر وردَّة عن الإسلام، وإن كانت مقرَّة بها، وناطقة بالشهادتين، وملتزمة لغيرها من الشرائع. وبهذا نعلم: أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال، بل القتال واجب، حتى يكون الدين كله لله

قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى:

«وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالى ــ لمّا سُئل عن قتل التتار مع التمسُّك بالشهادتين، ولما زعموا من اتِّباع أصل الإسلام ــ فقال:

كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم، فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه، كما

قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم، مع سابقة مناظرة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما، فاتفق الصحابة على القتال على حقوق الإسلام عملاً بالكتاب والسنَّة.

اتفق الصحابة: على القتال على حقوق الإسلام

وكذلك ثبت عن النبي ﷺ من عشرة أوجه الحديث عن الخوارج والأمر بقتالهم، وأخبر أنهم شر الخلق والخليقة، مع قوله: «**تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم**».

مجرَّد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال

فعلم: أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال، فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله، وحتى لا تكون فتنة، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب.

أيما طائفة امتنعت عن التزام شريعةٍ ظاهرة متواترة فإنها تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، بلا خلاف بين العلماء

فأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام، أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء والأموال، أو الخمر، أو الزنا، أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين، أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها، أو تركها، والتي يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرَّة بها.

وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء، وإنما اختلف العلماء في الطائفة الممتنعة إذا أصرت على ترك بعض السنن، كركعتي الفجر، أو الأذان، أو الإقامة عند من لا يقول بوجوبها، ونحو ذلك من الشعائر، فهل تقاتل الطائفة الممتنعة على تركها أم لا؟

فأما الواجبات أو المحرمات المذكورة ونحوها فلا خلاف في القتال عليها.

الفرق بين قتال البغاة، والممتنعين عن التزام الشرائع

وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين على الإمام أو الخارجين عن طاعته، كأهل الشام مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإن أولئك خارجون عن طاعة إمام معين أو خارجون عليه لإزالة ولايته، وأما المذكورون فهم خارجون عن الإسلام، بمنزلة مانعي الزكاة، وبمنزلة الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولهذا افترقت سيرته رضي الله عنه في قتاله أهل البصرة وأهل الشام، وفي قتاله لأهل النهروان، فكانت سيرته مع البصريين والشاميين سيرة الأخ مع أخيه ومع الخوارج بخلاف ذلك، وثبتت النصوص عن النبي ﷺ بما استقر عليه إجماع الصحابة من قتال الصدِّيق رضي الله عنه لمانعي الزكاة، وقتال علي للخوارج. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

فتأمَّل رحمك الله تعالى تصريح هذا الإمام في هذه الفتوى بأن من امتنع عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة، كالصلوات الخمس، والصيام، والزكاة، أو الحج، أو ترك المحرمات، كالزنا، أو تحريم الدماء والأموال، أو شرب الخمر، أو المسكرات، أو غير ذلك، أنه يجب قتل الطائفة الممتنعة عن ذلك حتى يكون الدين كله لله ويلتزموا جميع شرائع الإسلام، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائع الإسلام، وأن ذلك مما اتفق عليه الفقهاء من سائر الطوائف، الصحابة فمن بعدهم، وأن ذلك عمل بالكتاب والسنَّة.

قتال الممتنعين عن الشرائع سبيله: الكفر والخروج عن الإسلام

فتبيَّن لك أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه، ليس بمسقط للقتال، وأنهم يقاتلون: قتال كفر وخروج عن الإسلام، كما صرح به في آخر الفتوى بقوله: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين على الإمام بل هم خارجون عن الإسلام بمنزلة مانعي الزكاة. والله أعلم.

(المبيح لقتال مانعي الزكاة مجرد المنع، لا جحد الوجوب)

وقال الشيخ رحمه الله تعالى في آخر كلامه على كفر مانعي الزكاة والصحابة لم يقولوا: هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد لها؟

هذا لم يعهد عن الصحابة بحال، بل قال الصدِّيق لعمر رضي الله عنهما: والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلهم على منعها.

فجعل المبيح للقتال: مجرد المنع لا جحد الوجوب، وقد روي أن طوائف منهم كانوا يقرُّون بالوجوب لكن بخلوا بها، ومع هذا فسيرة الخلفاء سيرة واحدة وهي قتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، والشهادة على قتلاهم بالنار، وسمُّوهم جميعًا: أهل الردة.

وكان من أعظم فضائل الصدِّيق عندهم أن ثبته الله على قتالهم، ولم يتوقف كما توقف غيره حتى ناظرهم فرجعوا إلى قوله.

إدخال مانعي الزكاة في أهل الردة ثابت باتفاق الصحابة المستند إلى نصوص الكتاب والسنة

وأما قتال المقرين بنبوة مسيلمة، فهؤلاء لم يقع بينهم نزاع في قتالهم، وهذه حجة من قال إن قاتلوا الإمام عليها كفروا وإلاَّ فلا، فإن كفر هؤلاء وإدخالهم في أهل الردة قد ثبت باتفاق الصحابة المستند إلى نصوص الكتاب والسنَّة، بخلاف من لم يقاتل الإمام عليها، فإن في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل له: منع ابن جميل

فقال: «**ما ينقم ابن جميل إلاَّ أنه كان فقيرًا فأغناه الله**»، فلم يأمر بقتله ولا حكم بكفره. وفي السنن من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: «**ومن منعها فإنا آخذوها وشطر إبله**» الحديث، انتهى.

فتأمل كلامه وتصريحه بأن الطائفة الممتنعة عن أداء الزكاة إلى الإمام أنهم يقاتلون، ويحكم عليهم بالكفر والردَّة عن الإسلام، وتُسبى ذراريهم وتغنم أموالهم، وإن أقروا بوجوب الزكاة وصلوا الصلوات الخمس، وفعلوا جميع شرائع الإسلام غير أداء الزكاة، وأن ذلك ليس بمسقط للقتال لهم والحكم عليهم بالكفر والردة، وأن ذلك قد ثبت بالكتاب والسنَّة واتفاق الصحابة رضي الله عنهم. والله أعلم»[1].

● ● ●

---

(١) عقيدة الموحِّدين ـ الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨.

كلمات منتقاة، مضيئة

● من الأمور التي لا يصلح الإسلام إلاَّ بها، العمل بشرائعه وأحكامه، وبالقيام بذلك، يقوم الدين وتستقيم الأعمال.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● الطاعة، هي: العبادة، ويجب اختصاص الخالق سبحانه بها، ولا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً، فمن أطاع مخلوقًا في التحليل والتحريم، غير الرسول ﷺ ـ المبلغ عن الله ـ، فهو: مشرك.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

● طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله، عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● إن الحكم بما أنزل الله، من توحيد الربوبية، لأنه تنفيذ لحكم الله، الذي هو: مقتضى ربوبيته وكمال ملكه وتصرفه

ولهذا سمَّى الله تعالى المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى: أربابًا لمتَّبعيهم.

[الشيخ محمد الصالح العثيمين]

● تحكيم شرع الله وحده، شقيق عبادة الله وحده دون ما سواه، إذ مضمون الشهادتين: أن يكون الله هو المعبود وحده لا شريك له،

وأن يكون رسوله ﷺ هو: المتَّبع المحكم ما جاء به فقط. ولا جُرِّدت سيوف الجهاد إلاَّ من أجل ذلك، والقيام به فعلاً وتركًا وتحكيمًا عند النزاع.

[الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ]

● من أنواع الشرك الأكبر: من يجعل لله ندًا في التشريع، بأن يتخذ مشرعًا سوى الله، أو شريكًا له في التشريع، يرتضي حكمه، ويدين به في التحليل والتحريم: عبادة، وتقرُّبًا، وقضاءً، وفصلاً في الخصومات، أو يستحله وإن لم يره دينًا

وهذا النوع من الشرك، يرتد به فاعله، أو معتقده عن ملَّة الإسلام.

[الشيوخ: عبد العزيز بن باز، وعبد الرزاق عفيفي، وعبد الله بن غديان، وعبد الله بن قعود]

● وخضوع الناس ورضوخهم لحكم ربهم، خضوع ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه، فكما لا يسجد الخلق إلاَّ لله، ولا يعبدون إلاَّ إياه، ولا يعبدون المخلوق، فكذلك يجب أن لا يرضخوا، ولا يخضعوا، أو ينقادوا، إلاَّ لحكم الحكيم العليم، الحميد الرؤوف الرحيم، دون حكم المخلوق الظلوم الجهول.

[الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ]

● كتاب الله وسنة رسوله، عليهما بناء الدين، ولا يستقيم البناء إلاَّ بهما، فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء/ ٥٩].

فدلَّ ذلك على أنَّ من لم يرد إليهما مسائل النزاع، فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت.

[الشيخ عبد الرحمن السعدي]

● ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله، وعدل إلى ما سواه من الأحكام التي وضعها الرجال، بلا مستند من شريعة الله، حتى يصبح ما أحدثوه شرعًا مقدمًا على الحكم بالكتاب والسنَّة.

فمن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم في قليل ولا كثير سواه.

[الإمام الحافظ ابن كثير]

● ومثل القانون الذي ذكره الحافظ ابن كثير عن التتار، وحكم بكفر من جعله بديلاً من الشريعة الإسلامية: القوانين الوضعية التي جعلت اليوم في كثير من الدول، هي مصادر الأحكام وألغيت من أجلها الشريعة الإسلامية، إلاَّ فيما يسمونه بالأحوال الشخصية، والدليل على كفر من فعل ذلك آيات كثيرة.

[الشيخ صالح الفوزان]

● إن من أقبح السيئات، وأعظم المنكرات، التحاكم إلى غير شريعة الله، من القوانين الوضعية، والنظم البشرية، وعادات الأسلاف والأجداد، التي وقع فيها الكثير من الناس اليوم، وارتضوها بدلاً من شريعة الله، التي بعث الله بها رسوله محمدًا ﷺ.

ولا ريب أن ذلك من أعظم النفاق، ومن أكبر شعائر الكفر، والظلم، والفسوق. . .

لقد حكم الرب حكمًا صريحًا: على من حكم بغير شريعته بأنه كافر، وظالم، وفاسق، ومتخلِّق بأخلاق المنافقين وأهل الجاهلية.

[الشيوخ: محمد بن إبراهيم، وعبد العزيز الشثري، وعبد اللطيف بن إبراهيم، وعمر بن حسن، وعبد العزيز بن باز، وعبد الله بن حميد، وعبد الله ابن عقيل، وعبد العزيز بن رشيد، وعبد اللطيف ابن محمد، ومحمد بن عودة، ومحمد بن مهيرع]

● اعتبار شيء من القوانين للحكم بها، ولو في أقل القليل، لا شك أنه عدم رضا بحكم الله ورسوله، ونسبة حكم الله ورسوله إلى النقص، وعدم الكفاية في حل النزاع، وإيصال الحقوق إلى أربابها، وحكم القوانين إلى الكمال وكفاية الناس في حل مشاكلهم، واعتقاد هذا: كفر ناقل عن الملَّة.

[الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ]

● من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية، لتكون منهاجًا يسير الناس عليه، فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات المخالفة للشريعة الإسلامية، إلاَّ وهم يعتقدون: أنها أصل وأنفع للخلق.

إذ من المعلوم بالضرورة العقلية، والجبلة الفطرية: أن الإنسان، لا يعدل عن منهاج إلى منهاج يخالفه، إلاَّ وهو يعتقد فضل ما عدل إليه، ونقص ما عدل عنه.

[الشيخ ابن عثيمين]

● فالتحاكم إلى شرع الله، ليس لطلب العدل فقط، وإنما هو في الدرجة الأولى: تعبُّد لله، وحق لله وحده، وعقيدة، فمن احتكم إلى غير شريعة الله، من سائر الأنظمة والقوانين البشرية، فقد اتخذ واضعي تلك القوانين والحاكمين بها شركاء لله في تشريعه. . .

فمن دعا إلى تحكيم القوانين البشرية، فقد جعل لله شريكًا في الطاعة والتشريع.

[الشيخ صالح الفوزان]

● إن الحكم بغير شريعة الإسلام بين الناس، معناه: الكفر، والخروج من الإسلام. .

فإن «أحكام الجاهلية»، اسم عام لجميع الأحكام الخارجة عن الكتاب والسنَّة.

فكما لا يقرّ أحد على عبادة غير الله، فكذلك لا يقرّ على الحكم بغير ما جاء به الرسول ﷺ. . .

إنَّ من الكفر الأكبر المستبين: تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين، في الحكم به بين العالمين. . .

فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ، مع الإيمان في قلب عبد أصلاً، بل أحدهما ينافي الآخر.

[الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ]

● من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنَّة فأبىٰ كان من المنافقين. . .

فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ، هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلاَّ بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلاَّ.

[الإمام الحافظ ابن قيِّم الجوزية]

● من يؤثر الحكم بالقوانين الوضعية، على الحكم بما أنزل الله، فهذا كافر، وإن نطق بالشهادتين وصلَّى وصام.

[الشيوخ عبد العزيز بن باز.
وعبد الرزاق عفيفي، وعبد الله بن غديان]

● إذا قال من حكَّم القانون: أنا أعتقد أنه باطل، فهذا لا أثر له، بل هو عزل للشرع، كما لو قال أحد: أنا أعبد الأصنام، وأعتقد أنها باطل. . .

الذي قيل فيه: كفر دون كفر، إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاد أنه عاص، وأن حكم الله هو الحق، فهذا الذي يصدر منه: المرة، ونحوها.

أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع، فهو كفر، وإن قالوا: أخطأنا وحكم الشرع أعدل.

[الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ]

● فهذه المحاكم اليوم، في كثير من أمصار الإسلام، مهيَّأة، مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنَّة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم.

فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة لشهادة أن محمدًا رسول الله بعد هذه المناقضة!!!.

[الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ]

● إذا كانت الحكومة تحكم بغير ما أنزل الله، فالحكومة غير إسلامية.

لا يجوز للمسلم أن يتحاكم إلى حكومة غير مسلمة.

[الشيوخ: عبدالعزيز بن باز، وعبدالرزاق عفيفي، وعبد الله بن قعود، وعبد الله بن غديان]

● البلدة التي تحكم بالقانون، ليست بلد إسلام، وتجب الهجرة منها عند القدرة.

[الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ]

● وكل دولة لا تحكم بشرع الله، ولا تنصاع لحكم الله، فهي: دولة جاهلية، كافرة، ظالمة، فاسقة.

[الشيخ عبد العزيز بن باز]

● كـل طـائفـة ممتنعـة عـن شـريعـة مـن شـرائـع الإسـلام، الظـاهـرة المتواترة، فإنه يجب قتالها حتى يلتزموا شرائع الإسلام، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائعه، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء. . .

مجرد الاعتصام بالإسلام، مع عدم التزام شرائعه، ليس بمسقط للقتال، فالقتال واجب حتى يكون الدِّين كلّه لله، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب.

[شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية]

❑ ❑ ❑

الفصل السابع

حقيقة الولاء والبراء

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول : الأدلة الدالة من القرآن والسنة، والسيرة النبوية، وتاريخ المسلمين على وجوب البراءة من الشرك والمشركين.

المبحث الثاني : موالاة المسلمين والبراءة من المشركين، أصل من أصول الدين بالإجماع.

المبحث الثالث : البراءة من المشركين شرط لصحة التوحيد وقبوله، ومن ثمّ كانت موالاتهم ناقضة من نواقض التوحيد، وردّة عن ملّة المسلمين. ولقد عدّ العلماء مظاهرة المشركين، من أعظم أنواع المروق من الدين، والتي تستوجب جهاد أهلها.

المبحث الرابع : اعتزال أهل الشرك، والبراءة منهم، وتكفيرهم، واجب متحتم على الموحِّدين الحنفاء.

المبحث الخامس: موالاة المشركين وصوره المكفِّرة وغير المكفِّرة.

المبحث السادس: موالاة المشركين المنتسبين للملَّة، كموالاة المشركين المباينين لها.

المبحث السابع : إذا تعذر إقامة التوحيد، وإظهار البراءة من المشركين في بلد، أصبحت دار كفر وشرك، ووجب على الموحِّدين الهجرة منها ليتمكنوا من إقامة دينهم، وإظهار البراءة من أعدائهم.

المبحث الأول

الأدلة الدَّالة من القرآن والسنَّة، والسيرة النبوية وتاريخ المسلمين على وجوب البراءة من الشرك والمشركين

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في بيان الأمور التي تنقض التوحيد:

(الأمر الثالث): موالاة المشرك، والركون إليه، ونصرته، وإعانته باليد، أو اللسان، أو المال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص/ ٨٦].

وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص/ ١٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة/ ٩].

وهذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين في هذه الأمة، فانظر أيها السامع أين تقع من هذا الخطاب وحكم هذه الآيات.

ولما أعانت قريش بني بكر على خزاعة سرًّا وقد دخلوا في

صلح رسول الله ﷺ، انتقض عهدهم، وغضب رسول الله ﷺ لذلك غضبًا شديدًا، وتجهّز لحربهم، ولم ينبذ إليهم لما كتب لهم حاطب كتابًا يخبرهم بذلك. إخبارًا أنزل الله تعالى في ذلك هذه السورة بكمالها، ابتدأها بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة/ ١].

ثم أمر تعالى بالتأسّي بخليله عليه السلام وإخوانه من المرسلين بالعمل بدينه الذي بعثهم به فقال: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة/ ٤]، أي: من إخوانه المرسلين: ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة/ ٤].

أسس التوحيد

فذكر أمورًا خمسة لا يقوم التوحيد إلاَّ بها علمًا وعملاً، وعند القيام بهذه الخمسة ميّز الله الناس لما ابتلاهم بعدوهم، كما قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت/ ١ ـ ٣]، وحذّر تعالى عباده عن توليهم عدوهم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المائدة/ ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ

يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ الآية [النساء/ ١٣٨، ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة/ ٨٠، ٨١].

لقد رتب الله سبحانه على موالاة المشركين: حلول سخطه، والخلود في عذابه، وسلب الإيمان...

فتأمل ما في هذه الآيات وما رتَّب الله سبحانه وتعالى على هذا العمل من سخطه والخلود في عذابه، وسلب الإيمان وغير ذلك.

وذكر ابن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ [آل عمران/ ٢٨]. أنه ردة عن الإسلام.

وفي سورة محمد ﷺ ما يدل على ذلك، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [محمد/ ٢٥، ٢٦]. والسين حرف تنفيس تفيد: استقبال الفعل، فدل على أنهم وعدوهم ذلك سرًّا بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد/ ٢٦ ــ ٢٨]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود: بيان عظم هذا الذنب عند الله، وما رتب عليه من العقوبات عاجلاً وآجلاً. نسأل الله الثبات على الإسلام والإيمان، ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان.

وقد ذكر شيخنا رحمه الله تعالى في مختصر السيرة له: ذكر الواقدي أن خالد بن الوليد، لما قدم العارض، قدم مائتي فارس، فأخذوا مجَّاعة بن مرارة في ثلاثة عشر رجلاً من قومه بني حنيفة، فقال لهم خالد بن الوليد: ما تقولون في صاحبكم؟[1] فشهدوا أنه رسول الله، فضرب أعناقهم، حتى إذا بقي سارية بن عامر قال: يا خالد إن كنت تريد بأهل اليمامة خيرًا أو شرًّا فاستبق مجَّاعة، وكان شريفًا فلم يقتله، وترك سارية أيضًا، فأمر بهما فأوثقا في مجامع من حديد، فكان يدعو مجَّاعة وهو كذلك فيتحدث معه وهو يظن أن خالدًا يقتله، فقال: يا ابن المغيرة إن لي إسلامًا والله ما كفرت.

فقال خالد: إن بين القتل والترك منزلة وهي الحبس، حتى يقضي الله في أمرنا ما هو قاض، ودفعه إلى أم متمم زوجته، وأمرها أن تحسن أساره، فظن مجَّاعة أن خالدًا يريد حبسه ليخبره عن عدوه، وقال: يا خالد قد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام، وأنا اليوم على ما كنت عليه بالأمس، فإن يك كذاب قد خرج فينا فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام/ ١٦٤].

السكوت على المنكر، مع القدرة على إنكاره، دليل على الرضا به، فكيف بمن ظاهر وأعان عليه!!!

فقال: يا مجَّاعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس، وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه ـ وأنت من أعزّ أهل اليمامة ـ إقرارًا له ورضاء بما جاء به، فهل أبديت عذرًا فتكلَّمت فيمن تكلَّم؟ فقد تكلَّم: ثمامة فرد وأنكر، وتكلم اليشكري، فإن

---

(١) هو مسيلمة الكذاب لعنه الله.

قلت أخاف قومي فهلا عمدت إلي أو بعثت إلي رسولاً؟

فتأمل كيف جعل خالد سكوت مجّاعة: رضى بما جاء به مسيلمة وإقرارًا، فأين هذا ممن أظهر الرضا وظاهر وأعان وجدَّ وشمَّر مع أولئك الذين أشركوا مع الله في عبادته وأفسدوا في أرضه؟ فالله المستعان»[1].

وقال الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحم الله الجميع:

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: أوحى الله إلى نبي من الأنبياء أن قل لفلان العابد: أما زهدك في الدنيا فتعجَّلت به راحة نفسك، وأما انقطاعك إلي فتعززت به، فماذا عملت في ما لي عليك؟ قال: يا رب فما لك علي؟ قال: هل واليت لي وليًّا، أو عاديت لي عدوًّا؟

لا يستقيم الإسلام إلاَّ بموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه، وإلاَّ اختل نظام الإسلام، واضمحلت حقيقة التوحيد

وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال/ ٧٣]، قال بعض العلماء الفضلاء: الفتنة في الأرض: الشرك، والفساد الكبير: اختلاط المسلم بالكافر، والمطيع بالعاصي، فعند ذلك يختل نظام الإسلام، وتضمحل حقيقة التوحيد، ويحصل من الشر ما الله به عليم.

الولاء والبراء: وقود الجهاد

فلا يستقيم الإسلام، ويقوم قائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرتفع علم الجهاد، إلاَّ بالحب في الله والبغض فيه، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، والآيات الدالة على ذلك أكثر من أن تُحصر.

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٢٩١ ــ ٢٩٣.

وأما الأحاديث، فأشهر من أن تذكر، فمنها:

حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعًا: «**أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض فيه**»، وعن أبـي ذرّ رضي الله عنه: أفضل الإيمان: الحب في الله والبغض فيه، وفي حديث مرفوع: «اللَّـٰهُمَّ لا تجعل لفاجر عندي يدًا، ولا نعمة فيودّه قلبـي، فإني وجدت فيما أوحيته إلي: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة/ ٢٢].

المرء مع من أحب، ويحشر على دين خليله

وفي الصحيحين، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «المرء مع مَن أحبّ»، وقال ﷺ: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»، وعن أبـي مسعود البدري، رضي الله عنه مرفوعًا: «**لا تصاحب إلاّ مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي**»، وعن علي رضي الله عنه مرفوعًا: «**لا يحبّ رجل قومًا إلاّ حُشِر معهم**»، وقال ﷺ: «**تقربوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، والقوهم بوجوه مكفهرَّة، والتمسوا رضا الله بسخطهم، وتقرَّبوا إلى الله بالتباعد منهم**»، وقال عيسى عليه السلام: تحبَّبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقرَّبوا إلى الله بالبعد عنهم، واطلبوا رضا الله بسخطهم.

الولاء والبراء: أساس الإيمان

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: من أحبَّ في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، ولو كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك؛ يعني حتى تكون محبته وموالاته لله، وبغضه ومعاداته لله، قال رضي الله عنه: وقد صارت عامة مواخاة الناس، على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا.

فإذا كان هذا كلام ابن عباس، وهو في خير القرون، فما زاد الأمر بعده إلاَّ شدَّة وبعدًا عن الخير، كمال قال ﷺ: «**لا يأتي على الناس زمان، إلاَّ والذي بعده شر منه**».

جُلّ موالاة الناس اليوم على: الكفر، والشرك، والمعاصي

بل كانت موالاة الناس اليوم، ومحبتهم، ومعاشرتهم، على الكفر والشرك والمعاصي، فليحذر العبد كل الحذر من الانهماك مع أعداء الله، والانبساط معهم، وعدم الغلظة عليهم، أو أن يتخذهم بطناء وأصحاب ولايات، ويستنصح منهم، فإن ذلك موجب لسخط الله ومقته.

لا يجوز: إدناء المشركين من قبل المسلمين

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران/ ١١٨]، نهى الله عباده المؤمنين أن يتَّخذوا من الكفار واليهود، وأهل الأهواء والبدع، أصحابًا وأصدقاء، يفاوضونهم في الرأي، ويسندون إليهم أمورهم، وعن الربيع: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾، لا تستدخلوا المنافقين، ولا تتولُّوهم من دون المؤمنين، ويقال: كل من كان على خلاف مذهبك، لا ينبغي لك أن تخادنه وتعاشره وتركن إليه»[(١)].

❑ ❑ ❑

(١) الدرر السنية ٨/ ٤٤٧ ـ ٤٥٠.

المبحث الثاني

موالاة المسلمين، والبراءة من المشركين أصل من أصول الدين بالإجماع

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمهما الله تعالى:

التوحيد: عماد الإيمان

«إن أصل دين الإسلام وأساسه، وعماد الإيمان ورأسه، هو توحيد الله تعالى الذي بعث به المرسلين، وأنزل به كتابه المحكم المبين، قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ [هود/ ١، ٢].

وهذا هو مضمون شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله. فإن أصل دين الإسلام أن لا يعبد إلاَّ الله، وأن لا يعبد الله إلاَّ بما شرع، لا بالأهواء والبدع.

حدّ أصل الدين

وقد قال شيخنا رحمه الله تعالى إمام الدعوة الإسلامية، والداعي إلى الملَّة الحنيفية: أصل دين الإسلام وقاعدته أمران: الأمر بعبادة الله وحده، والتحريض على ذلك، والموالاة فيه، وتكفير من تركه، والنهي عن الشرك بالله في عبادته، والتغليظ فيه،

والمعاداة فيه، وتكفير من فعله. والمخالف في ذلك أنواع ذكرها رحمه الله تعالى»[1].

وقال أيضًا رحمه الله:

الشرك ينافي الإسلام، لنقضه لأصله من: التوحيد والإخلاص

«وعبادة أرباب القبور تنافي الإسلام، فإن أساسه التوحيد والإخلاص، ولا يقوم الإخلاص إلاَّ بنفي الشرك، والبراءة منه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٥٦]، وهذه الأعمال مع الشرك تكون ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم/ ١٨]، وتكون هباء منثورًا ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور/ ٣٩].

فلا إله إلاَّ الله، كيف خفي على هذا الشرك، حتى اتخذه دينًا تجب نصرته؟!

لا يكون المرء مسلمًا، إلاَّ بالتجرد من الشرك الأكبر، والبراءة منه، وممن فعله إجماعًا

وأجمع العلماء سلفًا وخلفًا، من الصحابة والتابعين، والأئمة، وجميع أهل السنة: أن المرء لا يكون مسلمًا إلاَّ بالتجرد من الشرك الأكبر، والبراءة منه وممن فعله، وبغضهم ومعاداتهم بحسب الطاقة والقدرة، وإخلاص الأعمال كلها لله»[2].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

«إن الإنسان لا يستقيم له دين، ولو وحد الله وترك الشرك، إلاَّ بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض»[3].

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٢٨٩.

(٢) الدرر السنية ١١/ ٥٤٥.

(٣) الدرر السنية ٨/ ٣٣٨.

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تعالى:

قال الإمام ابن القيم: وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر، إلاَّ من جرَّد توحيده لله، وتقرَّب بمقت المشركين إلى الله.

لا يستقيم الإسلام: إلا بمعاداة المشركين

فانظر رحمك الله إلى قول الإمام يتبين لك: أنَّ الإسلام لا يستقيم إلاَّ بمعاداة أهل هذا الشرك، فإن لم يعادهم فهو منهم وإن لم يفعله؟ والله أعلم[1]. اهـ.

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمهما الله تعالى:

«والمرء قد يكره الشرك، ويحب التوحيد، لكن يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك، وترك موالاة أهل التوحيد ونصرتهم، فيكون متبعًا لهواه، داخلاً من الشرك في شعب تهدم دينه وما بناه، تاركًا من التوحيد أصولاً وشعبًا، لا يستقيم معها إيمانه الذي ارتضاه، فلا يحب ولا يبغض لله، ولا يعادي ولا يوالي لجلال من أنشأه وسوَّاه، وكل هذا يؤخذ من شهادة لا إله إلاَّ الله»[2].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمهما الله تعالى:

ترك الشرك، والبراءة منه، وممن فعله، من شروط الإسلام العاصمة للدم والمال

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (وكفر بما يعبد من دون الله)، فهذا شرط عظيم لا يصح قول: لا إله إلاَّ الله إلاَّ بوجوده، وإن لم يوجد لم يكن من قال: لا إله إلاَّ الله معصوم الدم والمال، لأن هذا هو معنى: لا إله إلاَّ الله، فلم ينفعه القول بدون الإتيان بالمعنى الذي دل عليه، من: ترك الشرك، والبراءة منه، وممن فعله.

---

(١) عقيدة الموحِّدين، رسالة الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة ٢٣٤.

(٢) الدرر السنية ٨/ ٣٩٦.

فإذا أنكر عبادة كل ما يعبد من دون الله وتبرأ منه وعادى من فعل ذلك، صار مسلمًا معصوم الدم والمال، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة/ ٢٥٦]»(١).

سؤال عظيم القدر

وقال الشيخ حسين، والشيخ عبد الله، ابنا الشيخ محمد، رحمهم الله تعالى، في أثناء جواب لهما، المسألة الحادية عشرة: رجل دخل هذا الدين وأحبه، ولكن لا يعادي المشركين، أو عاداهم ولم يكفرهم، أو قال: أنا مسلم، ولكن لا أقدر أن أكفر أهل لا إلـٰه إلاَّ الله، ولو لم يعرفوا معناها، ورجل دخل هذا الدين وأحبه، ولكن يقول: لا أتعرض للقباب، وأعلم أنها لا تنفع ولا تضر، ولكن ما أتعرضها.

لا يكون الرجل مسلمًا، إلاَّ إذا عرف التوحيد، ودان به، وعمل بموجبه

الجواب: أن الرجل لا يكون مسلمًا، إلاَّ إذا عرف التوحيد ودان به، وعمل بموجبه، وصدق الرسول ﷺ فيما أخبر به، وأطاعه فيما نهى عنه وأمر به، وآمن به وبما جاء به، فمن قال: لا أعادي المشركين، أو عاداهم ولم يكفرهم، أو قال: لا أتعرض أهل لا إلـٰه إلاَّ الله، ولو فعلوا الكفر والشرك وعادوا دين الله، أو قال: لا أتعرض للقباب، فهذا لا يكون مسلمًا، بل هو ممن قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء/ ١٥٠، ١٥١].

أوجب الله سبحانه معاداة المشركين، ومنابذتهم، وتكفيرهم

والله سبحانه وتعالى: أوجب معاداة المشركين، ومنابذتهم وتكفيرهم، فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، تكملة رسائل الشيخ عبد الرحمن بن حسن ٢/ ٢٧، ٢٨.

مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المجادلة/ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآيات [الممتحنة/ ١]، والله أعلم»[١].

وقال عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين رحمه الله تعالى:

الولاء والبرء: هو مدلول الكلمة العاصمة

«إن موالاة الله بعبادته، والبراءة من كل معبود سواه، هو معنى: لا إلـه إلاّ الله، إذا تبين ذلك، فمن صرف لغير الله شيئًا من أنواع العبادة المتقدم تعريفها: كالحب، والتعظيم، والخوف، والرجاء، والدعاء، والتوكل، والذبح، والنذر، وغير ذلك، فقد عبد ذلك الغير، واتخذه إلهًا، وأشركه مع الله في خالص حقه، وإن فرّ من تسمية فعله ذلك تألهًا وعبادة وشركًا.

حقائق الأشياء لا تتغير بتغير أسمائها، وإلا انفتح باب الزندقة على مصراعيه

ومعلوم عند كل عاقل: أن حقائق الأشياء لا تتغير بتغير أسمائها، فلو سمّى الزنىٰ والربا والخمر بغير أسمائها، لم يخرجها تغيير الاسم عن كونها: زنًا وربًا وخمرًا، ونحو ذلك»[٢].

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن شارحًا لقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران/ ١١٠]:

الشرك حائل: بين العبد والإسلام

وأحق الناس بهذا الوصف وأولاهم به من دعا إلى توحيد الله، وخلع ما سواه من الأنداد والآلهة، وقرر أن دعاء عبد القادر وأمثاله هو الشرك الأكبر الذي يحول بين العبد وبين الإسلام والإيمان، وأن

---

(١) الدرر السنية ١٠/ ١٣٩، ١٤٠، ومجموعة الرسائل والمسائل النجدية ١/ ٣٨.

(٢) الدرر السنية ٢/ ٢٨٨ ــ ٢٩٩.

أهله ممن عدل بالله، وسوَّى برب العالمين سواه، بل قد وصلوا في عبادتهم للمشايخ والأولياء إلى غاية ما وصل إليها مشركو العرب كما يعرف ذلك من عرف الإسلام وما كانت عليه الجاهلية قبل ظهوره.

مقت المشركين، والبراءة منهم، وتكفيرهم، هو: حقيقة هذا الدين

فمقت هؤلاء المشركين وعيبهم وذمهم وتكفيرهم والبراءة منهم: حقيقة الدين، والوسيلة العظمى إلى رب العالمين، ولا طيب لحياة مسلم وعيشه إلاَّ بجهاد هؤلاء ومراغمتهم وتكفيرهم والتقرب إلى الله بذلك واحتسابه لديه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء/ ٨٨، ٨٩].

فهذا المقام الشريف والوصف المنيف هو الذي أنكرتموه[(١)] واستحللتم به أعراض المسلمين ورميتموهم لأجله بالعظائم، وإلى الله نمضي جميعًا وعنده تنكشف السرائر، وتبدو مخبئات الضمائر، ويعلم من عادى حزبه وأولياءه ووالى حربه وأعداءه، ماذا جنى على نفسه، وأي الفريقين أولى به، وأي الدارين أليق به، فالمرء مع من أحب ونصر ووالى شاء أم أبىٰ»[(٢)].

❑ ❑ ❑

(١) أي: الذين يجادلون عن الشرك والمشركين.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٣/ ٢٢٤.

المبحث الثالث

البراءة من المشركين شرط لصحة التوحيد وقَبوله، ومن ثمّ كانت موالاتهم ناقضة من نواقض التوحيد، وردَّة عن ملَّة المسلمين، ولقد عدَّ العلماء مظاهرة المشركين: من أعظم أنواع المروق من الدين، والتي تستوجب جهاد أهلها

سئل الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن رحمهم الله تعالى:

عمن كان في سلطان المشركين، وعرف التوحيد وعمل به، ولكن ما عاداهم، ولا فارق أوطانهم؟

تحقيق التوحيد يستلزم معاداة المشركين

فأجاب: هذا السؤال صدر عن عدم التعقل لصورة الأمر، والمعنى المقصود من التوحيد والعمل به، لأنه لا يتصور أنه يعرف التوحيد ويعمل به، ولا يعادي المشركين، ومن لم يعادهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به، والسؤال متناقض، وحسن السؤال مفتاح العلم.

الفرق بين: إظهار العداوة وإبطانها في الحكم

وأظن مقصودك: من لم يظهر العداوة ولم يفارق، ومسألة إظهار العداوة، غير مسألة وجود العداوة، فالأول يعذر به مع العجز

والخوف، لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[آل عمران/ ٢٨]، والثاني لا بد منه، لأنه يدخل في الكفر بالطاغوت، وبينه وبين حب الله ورسوله تلازم كلي، لا ينفك عنه المؤمن، فمن عصى الله بترك إظهار العداوة، فهو عاص لله.

حب الله يستلزم: بغض المشركين

فإذا كان أصل العداوة في قلبه، فله حكم أمثاله من العصاة، فإذا انضاف إلى ذلك ترك الهجرة، فله نصيب من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النساء/ ٩٧]، لكنه لا يكفر، لأن الآية فيها الوعيد لا التكفير»[١].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في نواقض الإسلام العشرة:

«الناقض الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة/ ٥١]»[٢].

وتحدث الشيخ عبد الرحمن بن حسن عن نواقض التوحيد ومبطلاته، فقال رحمه الله تعالى:

«وهذا التوحيد له أركان وفروع ومقتضيات وفرائض ولوازم لا يحصل الإسلام الحقيقي على الكمال والتمام إلَّا بالقيام بها علمًا وعملاً، وله نواقض ومبطلات تنافي ذلك التوحيد.

بعض نواقض التوحيد ومبطلاته

فمن أعظمها أمور ثلاثة:

(الأول): الشرك بالله في عبادته كدعوة غير الله، ورجائه

(١) الدرر السنية ٨/ ٣٥٩.

(٢) عقيدة الموحِّدين ص ٤٥٧.

والاستعانة به والاستغاثة به والتوكل عليه ونحو ذلك من أنواع العبادة، فمن صرف منها شيئًا لغير الله كفر ولم يصح له عمل.

الشرك: من أعظم محبطات الأعمال

وهذا الشرك هو أعظم محبطات الأعمال كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام/ ٨٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر/ ٦٥، ٦٦].

ففي هذه الآية نفي الشرك وتغليظه، والأمر بعبادة الله وحده.

ومعنى قوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ [الزمر/ ٦٦]، أي: لا غيره، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر عند العلماء قديمًا وحديثًا.

مودة المشرك: كفر، ولو لم يشرك صاحبها بنفسه

(الأمر الثاني من النواقض): انشراح الصدر لمن أشرك بالله ومودَّة أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ الآية [النحل/ ١٠٦]، إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المائدة/ ١٠٧]، فمن فعل ذلك، فقد أبطل توحيده ولو لم يفعل الشرك بنفسه، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية [المجادلة/ ٢٢].

المشابهة: مظنة المودة، ولهذا كانت محرمة

قال شيخ الإسلام: أخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يواد كافرًا، فمن وادّه فليس بمؤمن. قال: والمشابهة مظنة الموادة فتكون محرمة.

الموقف العملي لصحابة النبي ﷺ من: معاداة المشركين

قال العماد ابن كثير في تفسيره: قيل نزلت في أبي عبيدة حين قتل أباه يوم بدر، ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾، في الصديق يومئذٍ همَّ بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾، في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد ابن عمير، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر قتل قريبًا له يومئذٍ أيضًا، وحمزة وعلي

وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذٍ.

قال: وفي قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة/ ١١٩] سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله، عوَّضهم الله بالرضا عنهم ورضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم، ونوّه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك من أنهم حزب الشيطان ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [المجادلة/ ١٩].

(الأمر الثالث): موالاة المشرك، والركون إليه، ونصرته، وإعانته باليد، أو اللسان، أو المال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص/ ٨٦]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص/ ١٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة/ ٩]، وهذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين في هذه الأمة، فانظر أيها السامع أين تقع من هذا الخطاب وحكم هذه الآيات»[(١)].

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمهما الله تعالى: «قال شيخ الإسلام في اختياراته، من جمز[(٢)] إلى معسكر التتار، ولحق بهم، ارتد وحل دمه وماله»[(٣)].

---

(١) مجموعة الرسائل النجدية ٤/ ٢٨٩ ــ ٢٩١.

(٢) جمز: أي ذهب... وقد جاء في حديث ماعز رضي الله عنه: «فلما أذلقته الحجارة، جمز». أي: أسرع هاربًا من القتل. قاله: ابن منظور في لسان العرب، مادة: (جمز).

(٣) الدرر السنية ٨/ ٣٣٨.

وقال أيضًا رحمه الله:

«وبالجملة: فالذي يقوم بحرمة لا إلـه إلاَّ الله، هم الذين جاهدوا الناس عليها، ودعوهم إلى التزامها، علمًا وعملاً، كما هي طريقة رسل الله وأنبيائه، ومن تبعهم بإحسان، كشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى.

وأما من أباح الشرك بالله، وعبادة غيره، وتولى المشركين وذبَّ عنهم، وعادى الموحدين وتبرأ منهم، فهو الذي أسقط حرمة لا إلـه إلاَّ الله، ولم يعظمها ولا قام بحقها، ولو زعم أنه من أهلها القائمين بحرمتها»[1].

وقال الشيخ حمد بن عتيق:

موالاة أهل الشرك والانقياد لهم، ردة عن الدين

«قد دلّ القرآن والسنة على أن المسلم إذا حصلت منه موالاة أهل الشرك والانقياد لهم ارتد بذلك عن دينه.

فتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد/ ٢٥]، مع قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة/ ٥١]، وأمعن النظر في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء/ ١٤٠].

وأدلة هذا كثيرة، ولا تنسوا ما ذكر الله في سورة التوبة: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة/ ٦٦]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة/ ٧٤]، واذكر قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران/ ٨٠].

---

(١) الدرر السنية ١٢/ ٢٧٦.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ [الحج/ ٧٢]، في موضعين وقد علمت حالهم إذا دعوا إلى التوحيد. انتهى والله أعلم»[(١)].

وتحدث الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن بعض أنواع أعدائه الذين سلّ السيف عليهم، فقال رحمه الله:

حب المسلمين وبغض المشركين: أصل من أصول الدين

النوع الثالث: من عرف التوحيد وأحبه واتبعه وعرف الشرك وتركه، لكن يكره من دخل في التوحيد ويحب من بقي على الشرك، فهذا أيضًا كافر وفيه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾ [محمد/ ٩].

من أنواع الكفر الأكبر: القتال في صفوف المشركين، ضد الموحدين

النوع الرابع: من سلم من هذا كله لكن أهل بلده يصرحون: بعداوة التوحيد واتباع أهل الشرك ويسعون في قتالهم، وعذره أن ترك وطنه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده ويجاهد بماله ونفسه، فهذا أيضًا كافر، لأنهم لو أمروه بترك صيام رمضان ولا يمكنه ذلك إلاّ بفراق وطنه فعل، ولو أمروه أن يتزوج امرأة أبيه ولا يمكنه مخالفتهم إلاّ بذلك فعل.

وأما موافقته على الجهاد معهم بماله ونفسه مع أنهم يريدون قطع دين الله ورسوله ﷺ فأكبر مما ذكرناه بكثير، فهذا أيضًا كافر ممن قال الله فيهم: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ الآية [النساء/ ٩١].

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ١/ ٧٤٥، ٧٤٦.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه وسلَّم»(١).

وقد عدّ بعض علماء نجد ثلاثة أمور، كل واحد منها يوجب الجهاد لمن اتصف بها:

الأولى: الخروج عن طاعة ولي أمر المسلمين بغير حق.

من نواقض الإسلام: عدم تكفير المشركين، أو الشك في كفرهم

الثانية: عدم تكفير المشركين، أو الشك في كفرهم، لأن ذلك من نواقض الإسلام ومبطلاته، فمن اتصف به فقد كفر، وحلّ دمه وماله، ووجب قتاله حتى يكفر المشركين. ــ ثم عرضوا الأمر الثالث فقالوا ــ:

موالاة المشركين: ردة عن الدين، وتوجب جهاد أهلها

«**الأمر الثالث**: مما يوجب الجهاد لمن اتصف به، مظاهرة المشركين، وإعانتهم على المسلمين، بيد أو بلسان أو بقلب أو بمال، فهذا كفر مخرج من الإسلام، فمن أعان المشركين على المسلمين، وأمد المشركين من ماله، بما يستعينون به على حرب المسلمين اختيارًا منه، فقد كفر.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، في نواقض الإسلام، الثامن: مظاهرة المشركين، ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة/ ٥١].

بعض علل الجهاد

فمن اتصف بشيء من هذه الصفات، مما ينقض الإسلام، أو منع شيئًا من شعائر الإسلام الظاهرة، أو امتنع عن أداء شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة، فإنه يجاهد حتى يقر بذلك ويلتزمه»(٢).

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٣٠١.

(٢) الدرر السنية ٩/ ٢٨٩ ــ ٢٩٢.

المبحث الرابع

اعتزال أهل الشرك، والبراءة منهم، وتكفيرهم واجب متحتم على الموحِّدين الحنفاء

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمهما الله تعالى في معرض رده على من اتهم أئمة الدعوة ببدعة الاعتزال:

«فالمعتزلة الذين تقدم ذكر بدعتهم، لسنا ــ بحمد الله ــ في شيء من مقالاتهم، بل ننكرها عليهم، ونعتقد أنهم خالفوا ما تواترت به النصوص، وتظاهرت عليه أدلة القرآن، الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت/ ٤٢].

علة كون الشرك: أعظم الذنوب

وأما أهل الشرك بالله: فإنهم خالفوا ما خلقوا له، من توحيد الله، وما جاءت به الرسل، واتفقت دعوتهم، من أولهم إلى آخرهم عليه، فصار ذنبهم أعظم ذنب عصي الله به، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، فصرفوها لمخلوق لا يستحقها، وأكثر القرآن في الاحتجاج عليهم فيما فعلوه مما تظاهرت على النهي عنه نصوص الكتاب والسنة، وكل رسول بعثة الله ينهى أمته عنه أشد النهي.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء/ ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء/ ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾ [النساء/ ٧٢].

أوجب الله على الموحدين: اعتزال أهل الشرك، وتكفيرهم، والبراءة منهم

فالحنفاء أهل التوحيد اعتزلوا هؤلاء المشركين، لأن الله أوجب على أهل التوحيد: اعتزالهم، وتكفيرهم، والبراءة منهم، كما قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم/ ٤٨]، إلى قوله: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم/ ٤٩].

وقال: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة/ ٤].

وقال عن أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ الآية [الكهف/ ١٦].

لا يتم لأهل التوحيد توحيدهم، إلاَّ باعتزال أهل الشرك، وعداوتهم، وتكفيرهم

فلا يتم لأهل التوحيد توحيدهم، إلاَّ باعتزال أهل الشرك، وعداوتهم وتكفيرهم، فهم معتزلة بهذا الاعتبار، لأنهم اعتزلوا أهل الشرك، كما اعتزلهم الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام»(١).

❑ ❑ ❑

(١) الدرر السنية ١١/ ٤٣٣، ٤٣٤.

المبحث الخامس

موالاة المشركين وصوره المكفِّرة، والغير مكفِّرة

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله في أثناء رده على سؤال ورد عليه، يريد فيه صاحبه معرفة الحدّ الفاصل بين الولاء المكفر للمشركين، وغير المكفِّر، فقال رحمه الله تعالى:

«فالجواب: إن كانت الموالاة مع مساكنتهم في ديارهم، والخروج معهم في قتالهم، ونحو ذلك، فإنه يحكم على صاحبها بالكفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة/ ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء/ ١٤٠]. الموالاة المكفرة

وقال النبي ﷺ: «من جامع المشركين وسكن معهم فإنه مثلهم»، وقال: «أنا بريء من مسلم بين أظهر المشركين»، رواهما أبو داود.

وإن كانت الموالاة لهم في ديار الإسلام، إذا قدموا إليهم ونحو ذلك، فهذا عاص آثم متعرِّض للوعيد، وإن كانت موالاتهم لأجل دنياهم، يجب عليه من التعزير بالهجر والأدب ونحوه ما يزجر الموالاة الغير مكفرة

أمثاله، وإن كانت الموالاة لأجل دينهم فهو مثلهم، ومن أحبَّ قومًا حُشِر معهم.

ولكن ليتفكر السائل في قوله: حمية دنيوية يمكن هذا لإبلاغ المحبة في قلوبهم، وإلَّا فلو كان يبغضهم في الله ويعاديهم، لكان أقر شيء لعينه ما يسخطهم، ولكن كما قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدَّعي حبًّا له ما ذاك في إمكان»[1]

(اعتياد فعل الموالاة المحرمة سبيل الوقوع في الموالاة المكفِّرة)

سُئل الشيخ محمد بن عبد اللطيف، أقامه الله مناضلاً عن الدين الحنيف: رجلان تنازعا في السلام على الرافضة والمبتدعين، ومن ضاهاهم من المشركين، وفي مواكلتهم ومجالستهم، فقال أحدهما: هو جائز، لقول عالمي: إن أخذت فقد أخذ الصالحون، وإن رددت فقد رد الصالحون، ووفد على عمر بن عبد العزيز: كثيِّر عزَّة، وهو متَّهم بالتشيُّع، ورسول عمر وفد على جبلة الغساني بعد ردته.

وقال الآخر: لا يجوز، لدليل آيات الموالاة، ولقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه/ ٤٧]، والسلام على عباد الله الصالحين، وأن ترك السلام على الفاسق وأهل المعاصي سنة، وهؤلاء أشر حالاً وعقيدة منهم.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلَّا على الظالمين، كالمبتدعة والمشركين، والصلاة والسلام

---

(١) الدرر السنية ٨/ ١٥٩، ١٦٠.

على أشرف المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين، محمّد وآله وصحبه والتابعين.

أما بعد: فقد سألني من لا تسعني مخالفته، عن هذا السؤال المذكور أعلاه، بما عليه أهل التحقيق من أئمة الإسلام والهداة الأعلام، وما نعتقده في ذلك وندين الله به؟

(لا يستقيم الإسلام إلاّ بالولاء والبراء)

فنقول: اعلم وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى، أنه لا يستقيم للعبد إسلام ولا دين، إلاّ بمعاداة أعداء الله ورسوله، وموالاة أولياء الله ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [التوبة/ ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء/ ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة/ ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود/ ١١٣].

بعض صور الركون إلى الظالمين

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تميلوا إليهم في المودة ولين الكلام، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، وقال بعض العلماء: من مشى إليهم ولم ينكر عليهم، عُدَّ من الراكنين إليهم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة/ ١].

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة/ ٤].

لا يستقيم الإيمان إلاّ بالقيام بمعاداة أعداء الله

فالواجب على من أحب نجاة نفسه، وسلامة دينه، أن يعادي من أمره الله ورسوله بعداوته، ولو كان أقرب قريب، فإن الإيمان لا يستقيم إلاّ بذلك والقيام به، لأنه من أهم المهمات، وآكد الواجبات.

إذا عرفت هذا: فمواكلة الرافضي، والانبساط معه، وتقديمه في المجالس، والسلام عليه، لا يجوز، لأنه موالاة وموادة، والله تعالى قد قطع الموالاة، بين المسلمين والمشركين، بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران/ ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء/ ١٤٠]... والآيات في المعنى كثيرة كما تقدَّم.

الانبساط مع المشركين، يزيل العداوة والبغضاء

والسلام تحية أهل الإسلام بينهم، فإذا سلَّم على الرافضة، وأهل البدع، والمجاهرين بالمعاصي، وتلقَّاهم بالإكرام والبشاشة، وألان لهم الكلام، كان ذلك موالاة منه لهم، فإذا وادَّهم وانبسط لهم مع ما تقدَّم، جمع الشر كله، ويزول ما في قلبه من العداوة والبغضاء، لأن إفشاء السلام سبب لجلب المحبة، كما ورد في الحديث: «**ألا أدلكم على ما تحابون به**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**أفشوا السلام بينكم**»، فإذا سلَّم على الرافضة والمبتدعين،

وفسّاق المسلمين، خلصت مودته ومحبته في حقّ أعداء الله وأعداء رسوله.

(تحذير السلف من موادة أهل البدع والمعاصي)

وعن قتادة عن الحسن: ليس بينك وبين الفاسق حرمة، وقال الحسن: لا تجالس صاحب بدعة، فإنه يمرض قلبك، وقال النخعي: لا تجالسوا أهل البدع، ولا تكلّموهم، فإني أخاف أن ترتد قلوبكم.

فانظر رحمك الله إلى كلام السلف الصالح، وتحذيرهم عن مجالسة أهل البدع والإصغاء إليهم، وتشديدهم في ذلك، ومنعهم من السلام عليهم.

فكيف بالرافضة: الذين أخرجهم أهل السنَّة والجماعة من الثنتين والسبعين فرقة؟ مع ما هم عليه من الشرك البواح، من دعوة غير الله في الشدة والرخاء، كما هو معلوم من حالهم، ومواكلتهم والسلام عليهم ـ والحالة هذه ـ من أعظم المنكرات، وأقبح السيئات، فيجب هجرهم والبعد عنهم، والهجر مشروع لإقامة الدين، وقمع المبطلين، وإظهار شرائع المرسلين، وردع لمن خالف طريقتهم من المعتدين.

علة مشروعية هجر أهل المعاصي، المجاهرين بها

قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: «باب من لم يسلم على من ارتكب ذنبًا، ولم يرد سلامه، حتى تبيَّن توبته، وإلى متى تبين توبة العاصي».

قال ابن حجر في الفتح: وابتداء الكفار بالسلام، أجازه طائفة من العلماء ومنعه طائفة، قال: والحق مع المانعين، إلاَّ أن يترتب

عليه مصلحة دينية، وكذلك أهل البدع والمعاصي المجاهرين بها، يمنع من ابتدائهم بالسلام والرد عليهم، قال المهلَّب: ترك السلام على أهل المعاصي والبدع، سنة ماضية، وبه قال كثير من أهل العلم.

ترك السلام على أهل البدع والمعاصي: سنة ماضية

وقال النووي: وأما المبتدع، ومن اقترف ذنبًا عظيمًا ولم يتب منه، لا يسلَّم عليهم، ولا يرد عليهم السلام، كما قاله جماعة من أهل العلم، واحتج البخاري بقصة كعب، انتهى.

فانظر: يا طالب الحق، إلى ما قاله البخاري، واسستدل به، وإلى قول صاحب الفتح: والحق مع من منع، وإلى قول المهلب والنووي، ووازن بين أقوالهم، وبين قول من أجازه وأباحه وجادل عليه، تعرف أنه لا بصيرة له، ولا معرفة له بأصول الشرع وأقوال العلماء، وأما قول صاحب الفتح: إلَّا أن يترتب عليه مصلحة دينية، فالمصلحة هي أن يرجى بها إسلام غيره، أو تأليفه أو غير ذلك، وأما المصالح الدنيوية، فلا تترتب عليها الأمور الشرعية، ولا تناط بها أحكامها، ولا تجعل سلَّمًا وذريعة إلى الجمع بين ما فرَّق الله ورسوله بينهما.

الفرق بين: المصالح الدينية، والدنيوية، في تعليق الأحكام عليها

وقال البغوي رحمه الله في كتاب السنَّة: وأما هجر أهل المعاصي، وأهل الريب والبدع في الدين، فيشرع إلى أن تزول الريبة عن حالهم، وتظهر علامات توبتهم وأماراتها.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في الهدي النبوي: وفي نهي النبي ﷺ عن السلام على هؤلاء الثلاثة، يعني كعبًا وصاحبيه، من بين من تخلَّف عنه، دليل على صدقهم، وكذب المنافقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب ــ إلى أن قال ــ وفيه دليل

أيضًا: على هجران الإمام، والعالم، والمطاع، لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له ــ إلى أن قال ــ: وفي إشارة الناس للنبطي الذي يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ دون نطقهم له، تحقيق لمقصود الهجرة، وإلاَّ لو قالوا له صريحًا: كعب بن مالك، لم يكن ذلك سلامًا، ولا يكونون به مخالفين للنهي، لكن لفرط تحرِّيْهم وتمسكهم بالأمر، إذ لم يذكروه بصريح اسمه.

وقد يقال: إن في الحديث عنه بحضرته وهو يسمع، نوع مكالمة، لا سيما إذا جعل ذلك ذريعة إلى المقصود بالسلام، وهي ذريعة قريبة، فالمنع من ذلك من باب منع الحيل وسد الذرائع، وهذا أحسن وأفقه، انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

فانظر إلى قوله: وقد يقال: إن في الحديث عنه بحضرته، وهو يسمع، نوع مكالمة... إلخ، فإذا كان في ذكره باسمه نوع مكالمة، فكيف بمن ابتدأ المشرك والعاصي والمبتدع بالسلام، وأظهر له الإكرام، وأكثر عنه الجدال، والخصام؟!

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد سئل عن الهجر المشروع، ومن يجب هجره أو يجوز هجره، قال في أثناء كلامه: ولهذا كان النبي ﷺ يتألف أقوامًا ويهجر آخرين، وقد يكون المؤلفة قلوبهم أشر حالاً من المهجورين، كما أن الثلاثة الذين خُلِّفوا، كانوا خيرًا من المؤلفة قلوبهم، لكن أولئك كانوا سادة مطاعين في عشائرهم، وكانت المصلحة الدينية في تأليفهم، وهؤلاء كانوا مؤمنين، وفي هجرهم عزّ للدين، وتطهير لهم من ذنوبهم. انتهى كلامه رحمه الله.

فانظر: أيها المنصف بعين الإنصاف، واحذر التعصب والاعتساف إلى ما قاله شيخ الإسلام، من أن في هجرهم عزًّا للدين، هذا إذا كانوا مسلمين، لكنهم أصحاب معاص واقتراف لبعض الأوزار، فيجب هجرهم واعتزالهم حتى يقلعوا، وأما المشرك والمبتدع: فلا نزاع في هجرهما ولا خلاف فيه إلاَّ عند من قلَّ حظه ونصيبه، من العلم الموروث عن صفوة الرسل، صلوات الله وسلامه عليه.

لا نزاع في هجر المشرك، والمبتدع

(يجب الإنكار على أهل البدع والفسق الظاهر)

وقال أيضًا رحمه الله: ومن كان مبتدعًا ظاهر البدعة، وجب الإنكار عليه، ومن الإنكار المشروع: أن يهجر حتى يتوب ومن الهجر: امتناع أهل الدين من الصلاة عليه، لينزجر من يتشبه بطريقته ويدعو إليها، وقد أمر بمثل هذا: مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وغيرهما من الأئمة، انتهى.

وقال البخاري رحمه الله، في الأدب المفرد «باب لا يسلم على الفاسق» وذكر بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: لا تسلِّموا على شراب الخمر، وذكر بسنده أيضًا عن قتادة عن الحسن: ليس بينك وبين الفاسق حرمة، وذكر عن ابن أبي رزيق أنه سمع علي بن عبد الله بن عباس ينهى عن الشطرنج، ويقول: لا تسلموا على من لعب بها، وهي من الميسر.

ثم قال بعد ذلك: «باب ترك السلام على المتخلِّق ـ يعني بالطيب ـ وأصحاب المعاصي»، وذكر بسنده عن علي ابن

أبي طالب رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ على قوم فيهم رجل متخلِّق بخلوق(1)، فنظر إليهم وسلم عليهم، وأعرض عن الرجل، فقال الرجل: أعرضت عني يا رسول الله؟ قال: «**بين عينيك جمرة من النار**».

وذكر بسنده عن عبد الله بن وائل السهمي، عن أبيه عن جده، أن رجلاً أتى النبي ﷺ وفي يده خاتم من ذهب، فأعرض عنه، فلما رأى الرجل كراهيته للذهب ذهب فألقاه، وأخذ خاتمًا من حديد فلبسه، وأتى النبي ﷺ فقال: «**هذا شر، هذا حلية أهل النار**» فرجع فطرحه، ولبس خاتمًا من ورق، فسكت عنه النبي ﷺ.

مدىٰ امتثال الرعيل الأول رضي الله عنهم

وذكر بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: أقبل رجل من البحرين على النبي ﷺ فسلَّم عليه، فلم يرد عليه السلام، وفي يده خاتم من ذهب، وعليه جبة من حرير، فانطلق الرجل محزونًا فشكا إلى امرأته، فقالت لعل برسول الله: جبتك وخاتمك، فألقهما ثم اغد عليه، ففعل فرد عليه السلام، وقال: جئتك وأعرضت عني؟ قال: «**كان في يدك جمر من النار**».

هديُ السلف في معاملة الكفار والمشركين

ثم قال بعد ذلك: «باب إذا سلم على نصراني ولم يعرفه» قال: مرَّ ابن عمر رضي الله عنهما بنصراني، فسلَّم عليه، فرد عليه، فأُخبر أنه نصراني، فرجع فقال: رُدَّ عليَّ سلامي، ثم قال: «باب

---

(1) الخلوق: «طيب معروف، يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب، وتغلب عليه الحمرة والصفرة... وإنما نهى عنه لأنه من طيب النساء، وهن أكثر استعمالاً له». قاله ابن منظور في لسان العرب، مادة (خلق).

يضطر أهل الكتاب في الطريق إلى أضيقه»، وذكر بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا لقيتم المشركين فلا تبدؤوهم بالسلام، واضطروهم في الطريق إلى أضيقها**». انتهى.

فتأمل رحمك الله ما ذكره هذا الإمام، من الأحاديث والآثار الدالَّة على وجوب هجر أهل المعاصي، وأن ذلك هو هديه وسنَّته، فمن أعرض عنهما، ونبذهما وراء ظهره، فقد خاب سعيه وضل عمله، فلا نجاة للخلق ولا سعادة ولا كفاية ولا هداية، إلاَّ باتباع محمد ﷺ واتباع ما جاء به، ورفض ما خالفه، وهجر من نكب عن سنَّته، وإن كان الحبيب المواتيا ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر/ ١٢].

وفي كتاب محمد بن وضاح قال: قال أسد بن موسى: جاء في الأثر: من جالس صاحب بدعة نزعت منه العصمة، ووُكِّل إلى نفسه، وفي أثر آخر: من جالس صاحب بدعة، فقد أعان على هدم الإسلام، وقال الأوزاعي: كانت أسلافكم تشتد ألسنتهم على أهل البدع، وتشمئز منهم قلوبهم، ويحذرون الناس بدعتهم، وعن الحسن: لا تجالس صاحب بدعة، فإنه يمرض قلبك، وقال إبراهيم النخعي: لا تجالسوا أهل البدع، ولا تكلِّموهم، فإني أخاف أن ترتد قلوبكم، روى هذه الآثار ابن وضاح.

لقد نهى السلف: عن مجالسة أهل البدع، فكيف بمجالسة أهل الشرك، والركون إليهم!!!

قال إمام الدعوة الإسلامية، وناصر الملة الحنيفية، شيخ الإسلام والمسلمين، شيخنا: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه، وطيَّب ثراه، وجعل الجنة منقلبه ومأواه:

فإذا كان هذا كلام السلف في أهل البدع والضلال، والتحذير عن مجالستهم، مع كون بعضهم لم يخرج ببدعته عن الإسلام، فكيف الحال بمجالسة أهل الكفر والشرك والنفاق، الذين باينوا أهل الإسلام، وخالفوهم؟ انتهى.

فمن أكرم من تلك نحلته، وتلك طريقته، كان دليلاً على عدم فقهه، وبصيرته في دين الإسلام، وعدم فرقه بين عابدي الرحمن، وعابدي الأوثان، والضدان عنده يجتمعان، فلضعف بصيرته: نهج هذا المنهج، وأعرض عن الحق بعد ما اتضح وابلولج، فيخشى عليه أن يحشر يوم القيامة معهم، ويكون من جملتهم، كما كان في الدنيا من أصدقائهم ومعاشريهم، عياذًا بك اللَّـهُمَّ من تلك الأحوال والأعمال، التي تؤول بصاحبها إلى الخزي والوبال، وسوء المنقلب في الحال والمآل.

إذا كان العمل للآخرة مطية للدنيا، فسد الدين، وانهدم الإيمان

وأكثر الخلق إنما يحمله على الوقوع في تلك الورطات، الحرص على تحصيل الدنيا، والتقرب عند أهلها وتسليك حاله معهم، ولو فسد عليه دينه وانهدم إيمانه، نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، اللَّـهُمَّ يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك.

ـ وأخذ الشيخ يسرد الأدلة الدالة على حرمة موالاة المشركين حتى قال ـ:

حكم ساب الصحابة، ومناطاته

وأما حكم الرافضة ـ فيما تقدَّم ـ فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الصارم المسلول» ومن سبَّ الصحابة أو أحدًا منهم، واقترن بسببه أن جبرائيل غلط في الرسالة، فلا شك في كفره، بل لا شك في كفر من توقف في كفره، ومن قذف عائشة فيما برأها الله منه، كفر بلا خلاف ـ إلى أن قال ـ وأما من لعن أو قبَّح،

يعني الصحابة رضي الله عنهم، ففيه الخلاف، هل يفسق أو يكفر، وتوقف أحمد في تكفيره وقال: يعاقب ويجلد ويحبس، حتى يموت أو يتوب، قال رحمه الله: وأما من زعم أن الصحابة ارتدوا بعد موت النبي ﷺ إلاَّ نفرًا قليلاً لا يبلغون بضعة عشر، وأنهم فسقوا، فلا ريب أيضًا في كفر قائل ذلك، بل لا ريب في كفر من لم يكفره، انتهى كلامه رحمه الله.

حكم الرافضة اليوم، أشد من حكم أسلافهم

فهذا حكم الرافضة في الأصل، وأما الآن، فحالهم أقبح وأشنع، لأنهم أضافوا إلى ذلك الغلو في الأولياء والصالحين من أهل البيت وغيرهم، واعتقدوا فيهم النفع والضر في الشدة والرخاء، ويرون أن ذلك قربة تقربهم إلى الله، ودين يدينون به، فمن توقف في كفرهم والحالة هذه، وارتاب فيه، فهو جاهل بحقيقة ما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، فليراجع دينه قبل حلول رمسه[(١)].

(الخطر العظيم المترتب على: ذوبان الحدّ الفاصل بين الموحدين والمشركين في الموالاة والمعاداة)

ومن تأمل القرآن والسنَّة، وكلام محقِّقي سلف الأمة، علم يقينًا أن أكثر الخلق إلاَّ من شاء الله، قد أعرضوا عن واضح المحجة، وسلكوا طريق الباطل ونهجه، وجعلوا مصاحبة عباد القبور، وأهل البدع والفجور، دينًا يدينون به، وخلقًا حسنًا يتخلقون به، ويقولون فلان له عقل معيشي، يعيش به مع الناس، ومن كانت له غيرة، ولو قلت، فهو عندهم مرفوض ومنبوذ، كالأحلاس، فما أعظمها من بلية، وما أصعبها من رزية!

---

(١) الرمس، المقصود به هنا: الطمس، والدفن.

وأما حقيقة دعوة الرسول ﷺ وما جاء به من الهدى والنور، فعزيز والله من يعرفها أو يدريها، والعارف لها من الناس اليوم، كالشعرة البيضاء في الجلد الأسود، وكالكبريت الأحمر، أين العنقاء لتطلب؟ وأين السمندل ليجلب[1]؟ لم يبق إلاَّ رسوم قد درست، وأعلام قد عفت، وسفت عليها عواصف الهوى، وطمستها محبة الدنيا والحظوظ النفسانية، فمن فتح الله عين بصيرته، ورزقة معرفة للحق وتمييزًا له، فالينج بنفسه وليشح بدينه، ويتباعد عمن نكب عن الصراط المستقيم، وآثر عليه موالاة أهل الجحيم، نسأل الله السلامة والعافية.

من عقوبة الذنوب: موات القلوب، وانتكاسها

وأما مجرد السلام على الرافضة، ومصاحبتهم ومعاشرتهم، مع اعتقاد كفرهم وضلالهم، فخطر عظيم، وذنب وخيم، يخاف على مرتكبه من موت قلبه وانتكاسه، وفي الأثر: إن من الذنوب ذنوبًا عقوبتها موت القلوب، وزوال الإيمان، فلا يجادل في جوازه إلاَّ مغرور بنفسه، مستعبد لفلسه، فمثل هذا يقابل بالهجر، وعدم الخوض معه في هذه المباحث التي لا يدريها إلاَّ من تربَّى بين يدي أهل هذه الدعوة الإسلامية والطريقة المحمدية، وتلقى عنهم أصول دينه، لأن ضدهم لا يؤمن أن يلقي عليك شيئًا من الشبه الفاسدة، التي تشك في الدين وتوجب لك الحيرة، وما أحسن ما قيل: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

فلينظر كل عبد: عمّن يأخذ دينه

وأما قول المنازع: إن أخذت فقد أخذ الصالحون، وإن رددت فقد رد الصالحون، فهذا معاكسة وتصحيف، ليس الشأن في

---

(١) مثل يضرب للدلالة على الندرة والقلة.

أخذ الهدية أو ردها، إنما الشأن والنزاع في ابتداء الكفار والمبتدعين والعصاة بالسلام، وعدم النفرة منهم، ولا يستدل بهذا على جواز السلام والمواكلة، إلاَّ من هو جاهل بالأحكام الشرعية، والسيرة النبوية، وسيرته ﷺ وسيرة خلفائه، وأصحابه من بعده، ومن سلك منهاجهم من الصفوة، يخالف ما استدل به.

قياس بدأ المشركين بالسلام على قَبول هداياهم، قياس فاسد

وقبول الهدية نوع، والسلام نوع آخر، أما الهدية فقد قبلها ﷺ وقبلها أصحابه والسلف الصالح من بعدهم، ولا ينكر على من قبل، ولا على من رد، ولو كانت الهدية من مشرك، وأما ترك السلام والهجر، فالرسول ﷺ هجر مرتكب الذنب ولم يرد عليه، وكذلك في مكاتباته للمشركين، لا يبدؤهم بالسلام، كما يعرف ذلك من له خبرة بسيرته وهديه، كما مرَّ في الأحاديث الصحيحة الصريحة، التي لا تحتمل التأويل.

وأما الوفود والرسل، فكانوا يفدون عليه ﷺ ويعطيهم الجوائز، ويخاطبهم باللين، ويدعوهم بدعاية الإسلام، وهم على كفرهم، فلا يستدل بذلك على: جواز السلام على المشركين والمبتدعين، ومن يتولاهم من فسّاق المسلمين، إلاَّ من هو من أجهل الخلق بأصول الشريعة.

وأما شيخه الذي يدعي أنه على طريقته، فالمعروف عندنا من أخلاقه وسيرته: الغيرة والغلظة والشدة على أعداء الله وأعداء رسوله، والتحذير منهم ومن موالاتهم.

معالم ونصائح، للفوز والنجاة

وأما أنت أيها المنازع، فالواجب عليك تقوى الله تعالى، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، والاقتداء بالسلف الصالح، والاهتداء بهديهم، وعدم الانبساط مع من هبَّ ودبَّ، لأن الواجب

على المنتسب للطلب، والمتزيِّي بزيّ أهل العلم، أعظم مما يجب على غيره، فليكن لك بصيرة ونُهمة بمعرفة أصل الأصول، وزبدة دعوة الرسول، والبحث عما يضاد هذا الأصل وينقضه، أو ينقص كماله الواجب، والوقوف عند أوامر الرب ونواهيه، والبعد عن الرذائل والقبائح. فالحق مرحمة، والجدال والخصام ملحمة، فهذا آخر ما تيسر إيراده، وفيه الكفاية لمن أراد الله هدايته»[1].

❑ ❑ ❑

(١) الدرر السنية ٨/ ٤٣٧ ـ ٤٥٣.

المبحث السادس

موالاة المشركين المنتسبين للملَّة كموالاة المشركين المباينين لها

سُئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في الفتوى رقم (٢٧٨٧):

س: رجل يعيش في جماعة تستغيث بغير الله، هل يجوز له الصلاة خلفهم، وهل تجب الهجرة عنهم، وهل شركهم شرك غليظ، وهل موالاتهم كموالاة الكفار الحقيقيين؟

ج: إذا كانت حال من تعيش بينهم كما ذكرت من استغاثتهم بغير الله، كالاستغاثة بالأموات والغائبين عنهم من الأحياء، أو بالأشجار، أو الأحجار، أو الكواكب، ونحو ذلك، فهم مشركون شركًا أكبر يخرج من ملَّة الإسلام، لا تجوز موالاتهم كما لا تجوز موالاة الكفار، ولا تصح الصلاة خلفهم، ولا تجوز عشرتهم ولا الإقامة بين أظهرهم، إلاَّ لمن يدعوهم إلى الحق على بينة، ويرجو أن يستجيبوا له وأن تصلح حالهم دينيًّا على يديه، وإلاَّ وجب عليه: هجرهم، والانضمام إلى جماعة أخرى يتعاون معها على القيام بأصول الإسلام وفروعه وإحياء سنة رسول الله ﷺ، فإن لم يجد اعتزل الفِرَق كلها ولو أصابته شدة، لما ثبت عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير

لا تجوز الصلاة خلف المشركين، وتحرم موالاتهم

وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشرّ فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا من شرّ؟ قال: «نعم»، فقلت هل بعد هذا الشر من خير؟ قال: «نعم وفيه دخن»، قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يستنُّون بغير سنتي ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر»، فقلت: فهل بعد ذلك الخير من شرّ؟ قال: «نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»، فقلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «نعم هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: يا رسول الله فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» متفق عليه.

وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

اللجنة العلمية الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبدالله بن قعود	عبدالله بن غديان	عبدالرزاق عفيفي	عبدالعزيز بن عبدالله بن باز»[1]

السؤال الخامس من الفتوى رقم (٦٩٠١):

س: ما هي حدود الموالاة التي يكفر صاحبها وتخرجه من الملَّة، حيث نسمع أن من أكل مع المشرك، أو جلس معه، أو استضاء بنوره، ولو برى لهم قلمًا، أو قدم لهم محبرة، فهو مشرك، وكثيرًا ما نتعامل مع اليهود والنصارى نتيجة التواجد والمواطنة في مكان واحد.

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ١/ ٥٢ ـ ٥٣.

فما هي حدود الموالاة المخرجة من الملَّة، وما هي الكتب الموضحة ذلك بالتفصيل، وهل الموالاة من شروط لا إلـه إلاَّ الله؟

الحمـد لله وحـده والصـلاة والسـلام علـى رسـولـه وآلـه وصحبه... وبعد:

حد الولاء للمشركين المكفر هو محبتهم، ونصرتهم على المسلمين

ج: موالاة الكفار التي يكفر بها من والاهم هي محبتهم ونصرتهم على المسلمين، لا مجرد التعامل معهم بالعدل، ولا مخالطتهم لدعوتهم للإسلام، ولا غشيان مجالسهم، والسفر إليهم للبلاغ ونشر الإسلام.

وبـالله التـوفيـق، وصلَّـى الله علـى نبينـا محمـد وآلـه وصحبـه وسلَّم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الرئيس	نائب رئيس اللجنة	عضو	عضو
عبدالعزيز بن عبدالله بن باز	عبدالرزاق عفيفي	عبدالله بن غديان	عبدالله بن قعود

فتوى رقم (٢٥٤٠)

س: من فضلك يا شيخنا العزيز، قد دخل بيني وبين إخواني المسلمين مناقشة دين الإسلام، وهي أن بعض المسلمين في غانا يعظمون عطلات اليهود والنصارى، ويتركون عطلاتهم، حتى كانوا إذا جاء وقت العيد لليهود والنصارى يعطلون المدارس الإسلامية بمناسبة عيدهـم، وإن جـاء عيـد المسلميـن لا يعطلـون المـدارس الإسلامية، ويقولون: إن تتبعوا عطلات اليهود والنصارى سوف يدخلون دين الإسلام. يا شيخنا العزيز عليك أن تفهم لنا أفعلتهم هل هي صحيحة في الدين أم لا؟

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه . . . وبعد :

ج : **أولاً** : السنة : إظهار الشعائر الدينية الإسلامية بين المسلمين، وترك إظهارها مخالف لهدي الرسول ﷺ، وقد ثبت عنه أنه قال : «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**» ، الحديث .

لا يجوز للمسلم مشاركة الكفار في أعيادهم

ثانيًا : لا يجوز للمسلم أن يشارك الكفار في أعيادهم، ويظهر الفرح والسرور بهذه المناسبة، ويعطل الأعمال سواء كانت دينية أو دنيوية، لأن هذا من مشابهة أعداء الله المحرمة، ومن التعاون معهم على الباطل، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من تشبه بقوم فهو منهم» .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة/ ٢] .

وننصحك بالرجوع إلى كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فإنه مفيد جدًا في هذا الباب .

وبالله التوفيق، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم .

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبدالله بن قعود	عبدالله بن غديان	عبدالرزاق عفيفي	عبدالعزيز بن عبدالله بن باز»(١)

❑ ❑ ❑

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ٢/ ٤٦، ٤٧ .

المبحث السابع

إذا تعذر إقامة التوحيد، وإظهار البراءة من المشركين في بلد، أصبحت دار كفر وشرك، ووجب على الموحدين الهجرة منها، ليتمكنوا من إقامة دينهم، وإظهار البراءة من أعدائهم

سُئل الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمهما الله تعالى:

عما يقال في الهجرة من بين ظهراني المشركين، من البادية والحاضرة، وفضلها؟ وما الواجب منها؟ وما المستحب؟ وهل بين بادية نجد وغيرهم، كعنزة والظفير، ومن والاهم من بادية الشمال والجنوب، إلى ما لا يخفى على المسؤول؟

(حكم الهجرة، وفضلها، ودرجاتها)

بالهجرة: يسلم الدين، ويحفظ الإيمان

فأجاب: الهجرة من واجبات الدين، ومن أفضل الأعمال الصالحة، وهي سبب لسلامة دين العبد، وحفظ لإيمانه، وهي أقسام، هجر: المحرمات، التي حرمها الله في كتابه، وحرمها رسول الله ﷺ على جميع المكلفين، وأخبر أن: «**من هجرها فقد هجر ما حرمه الله عليه**»، وقد أخبر ﷺ فيما صح عنه: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه**».

وهذا أمر مجمل شامل لجميع المحرمات، القولية والفعلية.

(حكم الإقامة في ديار الكفر)

القسم الثاني: الهجرة من كل بلدة، تظهر فيها شعائر الشرك وأعلام الكفر، ويعلن فيها بالمحرمات، والمقيم فيها لا يقدر على إظهار دينه، والتصريح بالبراءة من المشركين وعداوتهم، ومع هذا يعتقد كفرهم، وبطلان ما هم عليه، لكن إنما جلس بين ظهرانيهم، شحًا بالمال والوطن، فهذا عاص ومرتكب محرمًا، وداخل في حكم الوعيد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء/ ٩٧ ـ ٩٩].

فلم يعذر الله إلاَّ المستضعف، الذي لا يقدر على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدر ما عرف سلوك الطريق وهدايته، إلى غير ذلك من الأعذار.

(حكم الخروج في صفوف المشركين لقتال المسلمين)

وقال ﷺ: «**من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله**»، فلا يقال إنه بمجرد المجامعة والمساكنة يكون كافرًا، بل المراد: أن من عجز عن الخروج من بين ظهراني المشركين، وأخرجوه معهم كرهًا، فحكمه حكمهم في القتل، وأخذ المال لا في الكفر، وأما إن خرج معهم لقتال المسلمين طوعًا واختيارًا، أو أعانهم ببدنه وماله، فلا شك أن حكمه حكمهم في الكفر.

أنواع من الهجر الواجب

ومن الهجر الواجب أيضًا: الهجرة من بين ظهراني الأعراب، المتظاهرين بالكفر والشرك، وارتكاب بعض المحرمات، وهو عاجز عن إظهار دينه، ولا قدرة له على الإنكار عليهم، فهذا هجرته فرض إذا قدر عليها، فإن تركها مع قدرته واستطاعته، فحكمه حكم من هو في بلدان المشركين المتقدم ذكرهم، فهؤلاء يعادون ويبغضون، على ما معهم من المعصية، ويحبون ويوالون على ما معهم من أصل الإسلام، وهجر هؤلاء ومن تقدم ذكرهم، إذا كان فيه مصلحة راجحة، وردع لهم وزجر لأمثالهم، ولم يترتب عليه مفسدة، فهو مشروع، والمسافر إليهم مرتكب أيضًا حرامًا، فيهجر بقدر ذنبه.

قال علماؤنا: المقيم بين ظهراني المشركين، والمسافر إليهم لأجل التجارة، مشتركون في التحريم، متفاوتون في العقوبة، فعقوبة المقيم أعظم من عقوبة المسافر، وهجر المقيم أغلظ من هجر المسافر، فيعاملون بالهجر والمعادة والموالاة، بحسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية.

بعض مناطات الهجرة المستحبة

وأما الهجرة المستحبة، وهي: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، إذا كان مظهرًا لدينه، وقد أمن الفتنة على نفسه ودينه، فهذا هجرته مستحبة، وكذلك من هو بين ظهراني بعض البوادي، الملتزمين لشرائع الإسلام، المتجنبين لما حرمه الله عليهم، من سفك الدماء ونهب الأموال وغيرها، ولا يوجد عندهم من يجاهر بالمعاصي، فالهجرة حينئذٍ من بينهم مستحبة، وفيها فضل عظيم وثواب جزيل، لتعلم الخير وإقامة الجمعة، وغير ذلك من المصالح، التي يعرفها من نور الله قلبه، ورزقه البصيرة.

وليعلم أن المؤمن تجب موالاته ومحبته، على ما معه من الإيمان، ويبغض ويعادى على ما معه من المعاصي، وهجره مشروع إن كان فيه مصلحة، وزجر وردع، وإلاَّ فيعامل بالتأليف، وعدم التنفير، والترغيب في الخير، برفق ولطف ولين، لأن الشريعة مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد، والله ولي الهداية.

ميزان الولاء والبراء في الإسلام

وقال الشيخ سعد بن حمد بن عتيق: وأما الانتقال من بلاد الإسلام إلى بلاد القبوريين، والتحيز إلى جماعة المشركين، وعدم المبالاة في ذلك، فمن المصائب العظام والدواهي الكبار التي وقع عليها كثير من الناس وتساهلوا فيها واستصغروها، وخف شأنها عند كثير من الناس، الذين ضعفت بصائرهم في دين الإسلام، وقلّ نصيبهم من معرفة ما بعث الله به نبينا محمدًا ﷺ وما كان عليه الصحابة، ومن تبعهم من الأئمة الأعلام.

الدليل على غربة الدين

وما زال الأمر بالناس، حتى صار النهي عن ذلك، والكلام في ذمّه وذمّ من فعله من المستنكر، عند الأكثر، وصاروا لا يرون بذلك بأسًا، وينسبون من ينهى عنه وينكره على من فعله، إلى الغلو في الدين، والتشديد على المسلمين.

(الأدلة على حرمة الإقامة بين أظهر المشركين، لا سيَّما عند العجز عن إقامة الدين)

وفي القرآن الكريم والسنَّة النبوية ما يدل ــ من في قلبه حياة ــ على المنع من ذلك، وكلام العلماء مرشد إلى ذلك، فإنهم صرَّحوا بالنهي عن إقامة المسلم بين أظهر المشركين من غير إظهار دينه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآية [هود/ ١١٣]، وقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المائدة/ ٨٠].

إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة/ ٨١].

الإجماع على: حرمة الإقامة بين أظهر المشركين مع عدم التمكن من إظهار الدين

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء/ ٩٧]، إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء/ ٩٦]، قال ابن كثير في الكلام على هذه الآية، وهذه الآية: عامة في كل من أقام بين أظهر المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو مرتكب حرامًا بالإجماع، ونص هذه الآية، والآيات في هذا المعنى كثيرة يعرفها من قرأ القرآن وتدبره.

الإدامة على أن مشابهة المشركين قد تؤول بأصحابها إلى وحدة المصير معهم، يوم تحديد المصائر

وفي الأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ ما يدل على ما دل عليه القرآن، مثل قوله ﷺ: «**من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله**»، وقوله ﷺ: «**ولا تستضيئوا بنار المشركين**». وحديث بهز ابن حكيم: «**أن تفر من شاهق إلى شاهق بدينك**».

قال ابن كثير معناه: لا تقاربوهم في المنازل، بحيث تكونوا معهم في بلادهم، بل تباعدوهم، وتهاجروا من بلادهم، ولهذا روى أبو داود فقال: «**لا تراءىٰ ناراهما**».

وفي قصة إسلام جرير لما قال: يا رسول الله، بايعني واشترط، فقال: «**أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتفارق المشركين**»، وعن عبد الله بن عمرو، أنه قال: من بنى بأرض المشركين، وصنع نيروزهم ومهرجانهم، وتشبّه بهم حتى يموت، حُشِر معهم يوم القيامة.

وكلام العلماء في المنع من الإقامة عند المشركين، وتحريم مجامعتهم، ووجوب مباينتهم، كثير معروف، خصوصًا أئمّة هذه الدعوة الإسلامية، كالشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأولاده، وأولادهم، وأتباعهم من أهل العلم والدين، ففي كتبهم من ذلك ما يكفي ويشفي من ﴿كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق/ ٣٧].

فمن ذلك ما قال الشيخ: عبد اللطيف، في بعض رسائله: إن الإقامة ببلد يعلو فيها الشرك، والكفر، ويظهر فيها دين الإفرنج، والروافض، ونحوهم من المعطلة للربوبية والألوهية، وترفع فيها شعائرهم، ويهدم الإسلام والتوحيد، ويعطل التسبيح والتكبير والتحميد، وتقلع قواعد الملة والإيمان، ويحكم بينهم بحكم الإفرنج واليونان، ويشتم السابقون من أهل بدر وبيعة الرضوان.

الغيرة على التوحيد: تقتضي البراءة من المشركين، والبعد عنهم

فالإقامة بين ظهرانيهم ـ والحالة هذه ـ لا تصدر عن قلب باشره حقيقة الإسلام والإيمان والدين، وعرف ما يجب من حق الله في الإسلام على المسلمين، بل لا يصدر عن قلب رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، فإن الرضا بهذه الأصول الثلاثة قطب رحى الدين، وعليه تدور حقائق العلم واليقين، وذلك يتضمن من محبة الله وإيثار مرضاته، والغيرة لدينه والانحياز إلى أوليائه، ما يوجب البراءة كل البراءة، والتباعد كل التباعد عمَّن تلك نحلته، وذلك دينه، بل نفس الإيمان المطلق في الكتاب والسنة، لا يجامع هذه المنكرات، انتهى كلامه رحمه الله.

وأما السؤال عن حكم المقيم في بلدان المشركين، من المنتسبين إلى الإسلام، فهذا الجنس من الناس مشتركون في فعل ما نهى الله عنه ورسوله، إلاَّ من عذره القرآن في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء/ ٩٨]، ثم هم مختلفون في المراتب، متفاوتون في الدرجات بحسب أحوالهم، وما يحصل منهم من موالاة المشركين والركون إليهم، فإن ذلك قد يكون كفرًا وقد يكون دونه، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام/ ١٣٢]»[(١)].

• • •

(١) الدرر السنية ٨/ ٤٥٥ ـ ٤٦٢.

كلمات منتقاة، مضيئة

● من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك.

ولن يجد عبد طعم الإيمان، ولو كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مواخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا.

[حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما]

● من بنى بأرض المشركين، وصنع نيروزهم ومهرجانهم، وتشبه بهم حتى يموت، حشر معهم يوم القيامة.

[الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما]

● نهى الله عباده المؤمنين، أن يتَّخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء والبدع، أصحابًا وأصدقاء، يفاوضونهم في الرأي، ويسندون إليهم أمورهم.

[الإمام القرطبي المفسر]

● لا يوجد مؤمن يوادّ كافرًا، فمن وادَّه فليس مؤمن.

[شيخ الإسلام ابن تيمية]

● ما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر، إلاَّ من جرد توحيده لله، وتقرَّب بمقت المشركين إلى الله.

[الإمام العلامة ابن قيِّم الجوزية]

● إن الإنسـان لا يستقيم لـه ديـن، ولـو وحَّـد الله وتـرك الشـرك، إلاَّ بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض.

[شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

● مظاهرة المشركين، ومعاونتهم على المسلمين، ناقض من نواقض الإسلام.

[شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

● إن الإسلام لا يستقيم إلاَّ بمعاداة أهل الشرك، فإن لم يعادهم فهو منهم وإن لم يفعله.

[الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب]

● من قال: لا أعادي المشركين، أو عاداهم ولم يكفرهم، أو قال: لا أتعرض أهل لا إلـه إلاَّ الله ولو فعلوا الكفر والشرك وعادوا دين الله، أو قال: لا أتعرض للقباب، فهذا لا يكون مسلمًا.

[الشيخان حسين وعبد الله ابنا محمد بن عبد الوهاب]

● لا يكون المرء مسلمًا، إلاَّ بترك الشرك، والبراءة منه، وممن فعله، فإذا أنكر عبادة كل ما يعبد من دون الله وتبرَّأ منه، وعادى من فعل ذلك، صار مسلمًا معصوم الدم والمال. . .

فالحنفاء أهل التوحيد، اعتزلوا هؤلاء المشركين لأن الله أوجب على أهل التوحيد اعتزالهم وتكفيرهم والبراءة منهم. . .

عبادة القبور تنافي الإسلام، فإن أساسه: التوحيد والإخلاص، ولا يقوم الإخلاص إلاَّ بنفي الشرك والبراءة منه.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● والمرء قد يكره الشرك ويحب التوحيد، لكن يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك، وترك موالاة أهل التوحيد ونصرتهم، فيكون متبعًا لهواه، داخلاً من الشرك في شعب تهدم دينه وما بناه، تاركًا من التوحيد أصولاً وشعبًا، لا يستقيم معه إيمانه الذي ارتضاه.

[الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن]

● لا يستقيم للعبد إسلام ولا دين، إلاَّ بمعاداة أعداء الله ورسوله، وموالاة أولياء الله ورسوله...

فمقت المشركين وعيبهم، وذمهم، وتكفيرهم، والبراءة منهم، هو حقيقة الدين، والوسيلة العظمى لرب العالمين...

لا يتصور: أن يعرف التوحيد ويعمل به، من لا يعادي المشركين.

[الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن]

● من خرج مع المشركين، لقتال المسلمين، طوعًا واختيارًا، وأعانهم ببدنه وماله، فلا شك أن حكمه حكمهم في الكفر.

[الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن]

● قد دلّ القرآن والسنة: على أن المسلم إذا حصلت منه موالاة أهل الشرك، والانقياد لهم، ارتد بذلك عن دينه.

[الشيخ حمد بن عتيق]

● فمن أعان المشركين على المسلمين، وأمدَّ المشركين من ماله بما يستعينون به على حرب المسلمين اختيارًا منه، فقد كفر.

[بعض علماء نجد]

• موالاة الكفار التي يكفر بها من والاهم: هي محبتهم ونصرتهم على المسلمين، لا مجرد التعامل معهم بالعدل، ولا مخالطتهم لدعوتهم للإسلام...

لا تجوز موالاة المشركين المرتدين، كما لا تجوز موالاة الكفار الأصليين، ولا تصح الصلاة خلفهم، ولا تجوز عشرتهم، ولا الإقامة بين أظهرهم، إلاَّ لمن يدعوهم إلى الحق على بيِّنة.

[الشيوخ: عبد الله بن قعود، وعبد الله بن غديان،
وعبد الرزاق عفيفي، وعبد العزيز بن باز]

• لا تجالس صاحب بدعة، فإنه يمرض قلبك.

[الإمام الحسن البصري]

• لا تجالسوا أهل البدع، ولا تكلِّموهم، فإني أخاف أن ترتدَّ قلوبكم.

[الإمام إبراهيم النخعي]

• كانت أسلافكم تشتد ألسنتهم على أهل البدع، وتشمئز منهم قلوبهم، ويحذرون الناس بدعتهم.

[الإمام الأوزاعي]

• فإذا كان هذا كلام السلف في أهل البدع والضلال، والتحذير عن مجالستهم، مع كون بعضهم لم يخرج ببدعته عن الإسلام، فكيف الحال بمجالسة أهل الشرك والكفر والنفاق، الذين باينوا أهل الإسلام وخالفوهم.

[شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

• إن مما يوجب الجهاد لمن اتَّصف به: مظاهرة المشركين وإعانتهم على المسلمين، بيد، أو بلسان، أو بقلب، أو بمال، فهذا كفر مخرج من الإسلام.

[بعض علماء نجد]

• كل من أقام بين أظهر المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو مرتكب حرامًا بالإجماع.

[الإمام الحافظ ابن كثير]

• يجب الهجرة من كل بلدة تظهر فيها شعائر الشرك وأعلام الكفر ويعلن فيها بالمحرمات، والمقيم فيها لا يقدر على إظهار دينه والتصريح بالبراءة من المشركين وعداوتهم.

[الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن]

• الانتقال من بلاد الإسلام إلى بلاد القبوريين، والتحيز إلى جماعة المشركين، وعدم المبالاة في ذلك، فمن المصائب العظام والدواهي الكبار التي وقع فيها كثير من الناس.

[الشيخ سعد بن حمد بن عتيق]

• فلا يستقيم الإسلام، ويقوم قائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرتفع علم الجهاد، إلاَّ بالحب في الله والبغض فيه، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه.

والآيات الدالة على ذلك أكثر من أن تحصر، وأما الأحاديث فأشهر من أن تذكر.

[الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن]

❑ ❑ ❑

الفصل الثامن

الأسماء والصفات
ومنهج السلف في الإيمان بها

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : منهج السلف الصالح في الإيمان بأسماء الله وصفاته.

المبحث الثاني : دلالة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا على أنه المعبود وحده بلا شريك.

المبحث الثالث : كيف فتح التأويل في الأسماء والصفات باب الزندقة والإلحاد.

المبحث الرابع : الرد على الفرق الضالة في باب الأسماء والصفات.

المبحث الأول

منهج السلف الصالح
في الإيمان بأسماء الله وصفاته

نؤمن بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا، ونثبتهما على وجه يليق بجلاله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وهكذا الشأن في كل صفات الرب سبحانه، نؤمن بألفاظها ونثبت حقائقها ونفوض في كيفياتها، لأنه لا يعلم كيف هو إلاَّ هو سبحانه، ولأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فكما نثبت ذاتًا بلا كيفية فكذلك نثبت صفاتها بلا كيفية.

والقول الشامل في هذا: أنا نصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، لا نتجاوز في ذلك دلائل التنزيل بفهم وبيان حامليه من الصحابة الكرام، ومن سار على دربهم، واقتفى أثرهم:

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تعالى في بيان عقيدته لأهل القصيم:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أُشْهِدُ اللّـٰهَ ومَن حَضَرني مِن الملائكة، وأُشْهِدكم: أَنِّي أعتقد ما اعتقَدَتْه الفرقة الناجية، أهل السنَّة والجماعة، من الإيمان بالله،

وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، بل أعتقد أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أُحَرِّف الكلم عن مواضعه، ولا ألحد في أسمائه وآياته، ولا أكيف، ولا أمثل صفاته تعالى بصفات خلقه، لأنه تعالى لا سميَّ له، ولا كفؤ له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه.

ضوابط مهمة، في الإيمان بأسماء الله وصفاته سبحانه

فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثًا، فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتمثيل، وعما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات/ ١٨٠ ـ ١٨٢]»[١].

وقال الشيخ محمد بن عبد اللطيف رحمهما الله تعالى:

«ومما نعتقده وندين الله به: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، ونؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته، ونثبت ذلك على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وننزه الله عما لا يليق بجلاله، تنزيهًا بلا تعطيل، ونعتقد أن الله سبحانه وتعالى مستو على عرشه، عال على خلقه، وعرشه فوق السماوات، وهو: بائن عن مخلوقاته، ولا يخلو مكان من علمه، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه/ ٥]، فنؤمن باللفظ، ونثبت حقيقة الاستواء، ولا نكيف ولا نمثل، لأنه لا يعلم كيف هو، إلاَّ هو.

---

(١) الدرر السنية ١/ ٢٩، ٣٠.

الفرق بين: أهل السنة، وأهل التفويض، في أسس الإيمان بالأسماء والصفات

قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله وبقوله نقول، وقد سأله رجل عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. فأثبت مالك رحمه الله الاستواء، ونفى علم الكيفية، وكذلك اعتقادنا في جميع أسماء الرب وصفاته، من الإيمان باللفظ، وإثبات الحقيقة، ونفي علم الكيفية، والقول الشامل في ذلك: أنَّا نصف الله بما وصف به نفسه، ووصف به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث، فمن شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى/ ١١].

لا نتجاوز القرآن والحديث في الإثبات والنفي

فسبحان من لا سميَّ له، ولا كفو له، وهو أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثًا من خلقه.

ونؤمن بما ورد، من أن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: «هل من سائل فأعطيه سؤله؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه» . . .

وبالجملة: فعقيدتنا في جميع الصفات، الثابتة في الكتاب والسنَّة، عقيدة أهل السنَّة والجماعة، نؤمن بها، ونمرُّها كما جاءت، مع إثبات حقائقها وما دلت عليه، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تعطيل ولا تبديل ولا تأويل»[١].

(١) الدرر السنية ١/ ٥٧١ ـ ٥٧٦.

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى:

«إن مذهبنا في أصول الدين، مذهب أهل السنَّة والجماعة، وطريقتنا، طريقة السلف، التي هي الطريق الأسلم، بل والأعلم والأحكم، خلافًا لمن قال طريق الخلف أعلم.

المنهج: في الأسماء والصفات

وهي: أنا نقرّ آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها، ونكل معناها مع اعتقاد حقائقها إلى الله تعالى، فإن مالكًا ــ وهو من أجلّ علماء السلف ــ لما سئل عن الاستواء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه/ ٥]، قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[(١)].

وتحدَّث الشيخ صالح الفوزان يحفظه الله تعالى عن منهج أهل السنَّة والجماعة في أسماء الله وصفاته، وقواعدهم الجليلة فيها فقال:

الفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق، كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق

«منهج السلف الصالح أهل السنَّة والجماعة، الذين هم الفرقة الناجية في أسماء الله وصفاته: إثباتها كما جاءت في الكتاب والسنَّة، مع اعتقاد ما دلت عليه، وأنها على ظاهرها، ولا يلزم من إثباتها تشبيه الله بخلقه، تعالى الله عن ذلك، لأن صفات الخالق تخصه وتليق به، وصفات المخلوقين تليق بهم وتخصهم، ولا تشابه بين الصفتين، كما أنه لا تشابه بين ذات الخالق سبحانه وذات المخلوق.

---

(١) الدرر السنية ١/ ٢٢٦.

ومذهب أهل السنَّة والجماعة في ذلك ينبني على أسس سليمة وقواعد مستقيمة، وهذه الأسس هي:

أسماء الله وصفاته، توقيفية

أولاً: أن أسماء الله وصفاته توقيفية، بمعنى أنهم لا يثبتون لله إلاَّ ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو أثبته له رسوله في سنَّته من الأسماء والصفات، ولا يثبتون شيئًا بمقتضى عقولهم وتفكيرهم، ولا ينفون عن الله إلاَّ ما نفاه عن نفسه في كتابه، أو نفاه رسوله في سنَّته، لا ينفون عنه بموجب عقولهم وأفكارهم، فهم لا يتجاوزون الكتاب والسنَّة، وما لم يصرح الكتاب والسنَّة بنفيه ولا إثباته: كالعرض والجسم والجوهر، فهم يتوقفون فيه، بناء على هذا الأصل العظيم.

(أهل السنَّة برءاء من التفويض، والرد على المفوِّضة)

ثانيًا: أن ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فهو حق على ظاهره، ليس فيه أحاج ولا ألغاز، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، فأهل السنَّة يثبتون ألفاظ الصفات ومعانيها، فليس ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ من المتشابه الذي يفوَّض معناه، لأن اعتبار نصوص الصفات مما لا يفهم معناه يجعلها من الكلام الأعجمي الذي لا يفهم، والله تعالى قد أمرنا بتدبر القرآن كله، وحضَّنا على تعقله وتفهمه، وإذا كانت نصوص الصفات مما لا يفهم معناه، فيكون الله قد أمرنا بتدبر وتفهم ما لا يمكن تدبره وتفهمه، وأمرنا باعتقاد ما لم يوضحه لنا، تعالى الله عن ذلك.

ينبغي التفريق بين: المعنى والكيف

إذًا، فمعاني صفات الله تعالى معلومة يجب اعتقادها، وأما كيفيتها فهي مجهولة لنا، لا يعلمها إلاَّ الله تعالى، ولهذا يقول الإمام

مالك بن أنس رضي الله عنه لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه/ ٥]، كيف استوى؟ قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

قول الإمام مالك: قاعدة ذهبية مطردة في جميع الصفات

وما قال الإمام مالك في الاستواء هو قاعدة في جميع الصفات، وهو قول أهل السنَّة والجماعة قاطبة، فمن نسب إلى السلف أنهم يفوِّضون معاني الأسماء والصفات، ويجعلون نصوصها من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه، فقد كذب عليهم، لأن كلامهم يخالف ما يقوله هذا المفتري.

الإثبات لا يستلزم: التمثيل والتشبيه

ثالثًا: السلف يثبتون الصفات إثباتًا بلا تمثيل، فلا يمثِّلونها بصفات المخلوقين، لأن الله ليس كمثله شيء، ولا كفء له، ولا ندَّ له، ولا سميَّ له، ولأن تمثيل الصفات وتشبيهها بصفات المخلوقين ادعاء لمعرفة كيفيتها، وكيفيتها مجهولة لنا مثل كيفية الذات، لأن العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، والله تعالى لا يعلم كيفية ذاته إلاَّ هو.

الكلام في الصفات: فرع عن الكلام في الذات

والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فكما أن لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فكذلك له صفات لا تشبه الصفات ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى/ ١١]، أي: لا يشبهه أحد لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فيجب الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنه لا أحد أعلم من الله بالله، ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة/ ١٤٠]، فهو أعلم بنفسه وبغيره.

كما يجب الإيمان بما وصفه به رسول الله ﷺ، لأنه لا أحد بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال الله في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم/ ٣].

فيلزم كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، وينزِّه ربه جلَّ وعلا من أن تشبه صفته صفة الخلق.

لوازم التأويل الفاسدة

فمن قدَّم بين يدي الله ورسوله وتجرَّأ على الله، فنفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات العظيمة وما وصفه به رسول الله ﷺ وقال: هذا الذي وصفت به نفسك ووصفك به رسولك لا يليق بك وفيه من النقص كذا وكذا، فأنا أؤوِّله وألغيه وآتي ببدله من تلقاء نفسي، كما قال بعضهم:

وكلُّ نصٍّ أوهم التشبيها ... أوِّله أو فوِّض وَرُمْ تنزيها

بئس للظالمين بدلا

فلا أرجع إلى كتابك ولا إلى سنَّة نبيّك في ذلك، لأن ما فيهما يوهم التشبيه، وإنما أرجع إلى قواعد المتكلمين وأقاويل الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية!! فهل يكون يا عباد الله هذا مؤمنًا بالله وبكتابه وسنَّة رسوله؟! هل يكون هذا معظِّمًا لربه؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

أهل السنة وسط، بين المشبهة، والمعطلة

رابعًا: وكما أنَّ أهل السنَّة والجماعة يثبتون لله الصفات التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله على وجه يليق بجلاله ولا يشبهونه بخلقه، فهم ينزهونه عن النقائص والعيوب تنزيهًا لا يفضي بهم إلى التعطيل بتأويل معانيها أو تحريف ألفاظها عن مدلولها بحجة التنزيه، فمذهبهم في ذلك وسط بين طرفي التشبيه والتعطيل، تجنبوا التعطيل في مقام التنزيه، وتجنبوا التشبيه في مقام الإثبات.

الإجمال: في نفي النقائص، والتفصيل في إثبات صفات الكمال

خامسًا: وطريقة أهل السنَّة والجماعة فيما يثبتون لله من الصفات وما ينفون عنه من النقص هي طريقة الكتاب والسنَّة، وهي الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات، كما في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى/ ١١]، فأجمل

في النفي وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وفصل في الإثبات وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

نفي النقص، يستلزم إثبات ضده من الكمال

وكل نفي في صفات الله، فإنه يتضمن إثبات الكمال، وليس هو نفيًا محضًا، لأن النفي المحض ليس فيه مدح لأنه عدم محض والعدم ليس بشيء.

ومن أمثله النفي المتضمن لإثبات الكمال، قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف/ ٤٩]، أي: لكمال عدله سبحانه.

وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة/ ٢٥٥]، أي: لكمال قدرته وقوته.

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة/ ٢٥٥]، أي: لكمال حياته وقيُّوميته.

وهكذا كل نفي عن الله، فإنه يتضمن إثبات ضد المنفي من الكمال والجلال.

هذا، ونسأل الله البصيرة في دينه والعمل بطاعته ومعرفة الحق والعمل به»(١).

❑ ❑ ❑

(١) الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد ص ١٤٩ ـ ١٥٢.

المبحث الثاني

دلالة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا على أنه المعبود وحده بلا شريك

أسماء الله الحسنى، وصفاته العلا يدلّان: على كماله وجلاله وعظمته، وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وأن العبادة لا يصلح منها شيء لملَك مقرَّب، ولا نبيٍّ مرسل فضلاً عمَّن دونها، ومن ثمّ نستطيع الجزم بأن المشركين لم يقدروا الله حق قدره، لما وقعوا في عبادة غيره، وعدلوا به سواه، مع أن الفرق بين عبادة الخالق وعبادة المخلوق، كالفرق بين الخالق وأسمائه وصفاته، والمخلوق وأسمائه وصفاته.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه التوحيد، وعبد الرحمن بن حسن رحمهم الله جميعًا في شرحه عليه:

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر/ ٦٧].

[الشرح]

المشرك، ما قدّر ربه حق قدره، وإن ادعىٰ خلاف ذلك، لأن الشرك تنقُّصٌ بالله وأسمائه وصفاته

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر/ ٦٧]، أي: من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية الكريمة.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى: «ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته».

قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظَّموه حق عظمته. وقال محمد بن كعب: لو قدّروه حقَّ قدره ما كذَّبوه. وقال علي بن أبي طلحة: ناقلاً عن ابن عباس: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدَّر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدِّر الله حق قدره.

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف؛ وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف، وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب قال: ورواه البخاري في غير موضع من صحيحه. والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه.

عظمة الواحد القهار وجبروته وقهره سبحانه

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع، والسماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه

لقول الحبر. قال: وأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر/ ٦٧].
وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به.

* * *

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر». ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر/ ٦٧].

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع» [أخرجاه].

[الشرح]

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس قال: «مرَّ يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السماوات على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ، والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصابعه، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر/ ٦٧]، وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به، وقال: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه. ثم قال

البخاري: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن، أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض**»؟ تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى عن عبيد الله، عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول أنا الملك**». تفرد به أيضًا من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة بن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد الرب تعالى نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم. فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرنَّ به. اهـ.

* * *

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟

أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون»؟

وروي عن ابن عباس قال: «**ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلاَّ كخردلة في يد أحدكم**».

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلاَّ كدراهم سبعة ألقيت في ترس**».

وقال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسي في العرش إلاَّ كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**».

وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام. والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم» أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله.

ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله.

قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى. قال: وله طرق.

[الشرح]

قوله: ولمسلم عن ابن عمر ـ الحديث كذا في رواية مسلم. قال الحميدي وهي أتم، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه.

وأخرجه البخاري من حديث عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه»، وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم.

(دلالة صفات الله على كماله، وعظمته، وقدرته، ووحدانيته، في ربوبيته وألوهيته)

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله، وعظيم قدرته، وعظم مخلوقاته.

وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرف وتدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له في ربوبيته وإلـٰهيته وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنَّة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله، على ما يليق بعظمته وجلاله، وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات، التي تدل على عظمته، وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلو كان هذا حقًّا بلغه أمينه أمته، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلّغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وتلقّى الصحابة رضي الله عنهم عن نبيّهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله، فآمنوا به وآمنوا بكتاب الله، وما تضمنه من

البراهين الباهرة، في دحض مذهب المؤولة

الحق: مذهب متوارث

صفات ربهم جلَّ وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران/ ٧].

وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدِّثين والفقهاء، كلهم وصف(١) الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، ولم يجحدوا شيئًا من الصفات، ولا قال أحد منهم: أن ظاهرها غير مراد، ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، فصنَّفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنَّة والجماعة.

(الأدلة الدالة على: علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه)

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنَّة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة، مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السماوات مستو على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر/ ١٠].

وقوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران/ ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء/ ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج/ ٣، ٤].

---

(١) هكذا بالأصل، ولعلها: وصفوا.

وقوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة/ ٥].

وقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل/ ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [البقرة/ ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف/ ٥٤].

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ الآيـــة [يونس/ ٣]، فذكر التوحيدين في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾ [الرعد/ ٢].

وقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [طه/ ٤، ٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان/ ٥٨، ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة/ ٤، ٥].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد/ ٤]، فذكر عموم علمه، وعموم قدرته، وعموم إحاطته، وعموم رؤيته.

وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك/ ١٦، ١٧].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت/ ٤٢].

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الجاثية/ ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ [غافر/ ٣٦، ٣٧]، انتهى كلامه رحمه الله.

(الرد على المؤوِّلة، والمفوِّضة)

وقلت: وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى، فيما صنَّفوه في الرد على نفاة الصفات، من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين.

فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه/ ٥]، قالت: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان،

والجحود به كفر»، رواه ابن المنذر، واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح. وقال: وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال: لما سئل ربيعة ابن أبي عبد الرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق.

الكيف: سبيل الإحاطة، ومن ثَمَّ كان العلم به مستحيلاً في حق الله سبحانه وأسمائه وصفاته

قال ابن وهب: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾ [طه/ ٥]، كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضاء، وقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال كيف؟ و «كيف» عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه»، رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضًا، ولفظه قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

تبديع بالعين

وقال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية، قال البخاري في صحيحه: قال مجاهد: استوى علا على العرش. وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾ [طه/ ٥]، أي: ارتفع. وقال محمد ابن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾ [طه/ ٥]، أي: علا وارتفع.

معنى الاستواء

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسوَّمينا

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي ابن الحسين بن شقيق، قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماواته على العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية».

معرفة المؤمنين لربهم سبحانه وتعالىٰ

قال الدارمي: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك: قيل له: «كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه».

وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا ــ والتابعون متوافرون ــ نقول: إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنَّة.

الله سبحانه استوىٰ على عرشه حقيقة بإجماع المسلمين

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأصول: أجمع المسلمون من أهل السنَّة على أن الله استوى على عرشه بذاته؛ وقال في هذا الكتاب أيضًا: أجمع أهل السنَّة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماء وعلمه في كل مكان، ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد/ ٤] ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء. وهذا لفظه في كتابه.

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا ولم يكيِّفوا، كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

(أول من أنكر الصفات وموقف السلف منه)

وقال الحافظ الذهبي: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر الله فوق عرشه: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات.

وقتله خالد بن عبد الله القسري وقصته مشهورة، فأخذ هذه المقالة عنه: الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل: الأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والليث بن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى؛ فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني محمد بن علي الجوهري ـ ببغداد ـ حدثنا إبراهيم ابن الهيثم، حدثنا محمد بن كثير المصيصي، سمعت الأوزاعي يقول: كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنَّة من صفاته. أخرجه البيهقي في الصفات ورواته أئمة ثقات.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا ردَّها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى/ ١١]. اهـ. من فتح الباري.

* * *

علمه سبحانه، الـذي أحـاط بكـل شـيء

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**هل تدرون كم بين السماء والأرض؟** قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **بينهما مسيرة خمسمائة سنة. ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم**»، أخرجه أبو داود وغيره.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر/ ٦٧].

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود، الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأوّلوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر ذلك للنبي ﷺ صدَّقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ، لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين وأن السماوات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين، والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: كخردلة في كف أحدكم.

التاسعة: عظم الكرسي، بالنسبة إلى السماء.

العاشرة: عظم العرش، بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات أسفله وأعلاه خمسمائة سنة، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[الشرح]

قوله: عن العباس بن عبد المطلب ساقه المصنف رحمه الله مختصرًا، والذي في سنن أبي داود: عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال: «**ما تسمون هذه**»؟ قالوا: السحاب. قال: والمزن، قالوا: و «**المزن**». قال: و «**العنان**»، قالوا: والعنان، ـ قال أبو داود: لم أتقن العنان جيِّدًا ـ قال: **هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض**؟ قالوا: لا ندري. قال: **إن بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء التي فوقها كذلك، حتى عدّ سبع سماوات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم**

العرش بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، ثم الله تعالى فوق ذلك»، وأخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب.
وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن.

وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه: «ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام»، ولا منافاة بينهما. لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة على سير البريد، لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يومًا باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد. وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقَّفه. هذا آخر كلامه.

قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدَّم في الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

صفاته الحسنىٰ سبحانه، دالة على تفرده بالألوهية

وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما، ولا عبرة بقول من ضعَّفه لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها وصرفها عن ظواهرها.

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله وعظم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها رسول الله ﷺ، وعلى كمال قدرته وأنه هو المعبود وحده لا شريك له دون كل ما سواه. وبالله التوفيق.

والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين»[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) فتح المجيد ص ٤٩٣ ـ ٥٠٢.

المبحث الثالث

كيف فتح التأويل في الأسماء والصفات باب الزندقة والإلحاد

لقد فتح جمهور المتأخِّرين باب التأويل في الأسماء والصفات، طالبين به تنزيه رب العالمين عن مشابهة المخلوقين. ومما لا شك فيه أن هذا المراد من أعز مقاصد التشريع، بل وقد اتفقت على وجوب اعتقاده: كافة الكتب والرسل، وسائر الملل والنحل، لكن هذا المراد الأعظم لا يقع صحيحًا إلاَّ باتباع أمر الله فيه مع بيان نبيه ﷺ عنه، وإلاَّ فالضلال والحيرة والتهوك والتيه. . .

ولما لم يسلك هؤلاء هذا المسلك، وينتهجوا هذا المنهج لتحقيق هذا المطلب الأعظم، وقعوا فيما فرّوا منه وأشنع، ولا أدلّ على ذلك من فتحهم بابًا للزندقة والإلحاد، فولج منه أربابهما لتأويل الأوامر والنواهي، قياسًا منهم على تأويل آيات الصفات، إذ المراد من آيات التوحيد أجلى وأعلى من المراد من الأوامر والنواهي من غير شك ولا ريب، وإن شئت فقل: هو من المعلوم بالضرورة من أصول كافة الديانات.

فإذا جاز التأويل في جانب التوحيد، جاز التأويل في جانب الأوامر والنواهي من باب أولى.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالة بعث بها إلى عبد الله بن محمد يعظه فيها باتباع الحق وإن قلَّ أهله، وترك الباطل وإن كثر أهله:

طرق أهل الكلام في إثبات أصول الدين

«ومما يهوِّن عليك مخالفة من خالف الحق، وإن كان من أعلم الناس وأذكاهم، وأعظمهم جاهًا، ولو اتبعه أكثر الناس: ما وقع في هذه الأمة من افتراقهم في أصول الدين، وصفات الله تعالى، وغالب من يدَّعي المعرفة، وما عليه المتكلِّمون، وتسميتهم طريقة رسول الله ﷺ حشوًا، وتشبيهًا، وتجسيمًا، مع أنك إذا طالعت في كتاب من كتب الكلام ــ مع كونه يزعم أن هذا واجب على كل أحد، وهو أصل الدين ــ تجد الكتاب من أوله إلى آخره، لا يستدل على مسألة منه بآية من كتاب الله، ولا حديث عن رسول الله، اللهم إلاَّ أن يذكره ليحرِّفه عن مواضعه.

وهم معترفون أنَّهم لم يأخذوا أصولهم من الوحي، بل من عقولهم، ومعترفون أنَّهم مخالفون للسلف في ذلك، مثل ما ذكر في فتح الباري، في مسألة الإيمان، على قول البخاري: وهو قول وعمل، ويزيد وينقص، فذكر إجماع السلف على ذلك، وذكر عن الشافعي أنه نقل الإجماع على ذلك، وكذلك ذكر أن البخاري نقله، ثم بعد ذلك حكى كلام المتأخِّرين، ولم يرده.

فإن نظرت في كتاب التوحيد في آخر الصحيح: فتأمل تلك التراجم، وقرأت في كتب أهل العلم من السلف، ومن أتباعهم من الخلف، ونقلهم الإجماع على وجوب الإيمان بصفات الله تعالى، وتلقيها بالقبول، وأن من جحد شيئًا منها، أو تأوَّل شيئًا من النصوص، فقد افترى على الله، وخالف إجماع أهل العلم، ونقلهم

علم الكلام، بدعة وضلالة، بالإجماع

الإجماع: أن علم الكلام بدعة وضلالة، حتى قال أبو عمر ابن عبد البر: أجمع أهل العلم في جميع الأعصار والأمصار، أن أهل الكلام أهل بدع وضلالات، لا يعدون عند الجميع من طبقات العلماء، والكلام في هذا يطول.

والحاصل: أنهم عمدوا إلى شيء أجمع المسلمون كلهم، بل وأجمع عليه أجهل الخلق بالله عبدة الأوثان، الذين بعث فيهم النبي ﷺ، فابتدع هؤلاء كلامًا من عند أنفسهم، كابروا به العقول أيضًا، حتى إنكم لا تقدرون تغيرون عوامكم عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، ثم مع هذا كله تابعهم جمهور من يتكلم في علم

الحق دائمًا غريب

هذا الأمر، إلاَّ من سبقت لهم من الله الحسنى، وهم: كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود يبغضونهم الناس، ويرمونهم بالتجسيم.

(الرد على المؤوِّلة مع بيان لوازمهم الفاسدة)

هذا، وأهل الكلام وأتباعهم، من أحذق الناس وأفطنهم، حتى إن لهم من الذكاء والحفظ والفهم ما يحيِّر اللبيب، وهم وأتباعهم مقرُّون أنَّهم مخالفون للسلف، حتى إنَّ أئمة المتكلِّمين لمّا

كيف فتحت المؤولة باب الزندقة والانحلال

ردوا على الفلاسفة في تأويلهم في آيات الأمر والنهي، مثل قولهم، المراد بالصيام: كتمان أسرارنا، والمراد بالحج: زيارة مشائخنا، والمراد بجبريل: العقل الفعال، وغير ذلك من إفكهم، ردوا عليهم الجواب: بأن هذا التفسير خلاف المعروف بالضرورة من دين الإسلام، فقال لهم الفلاسفة: أنتم جحدتم علو الله على خلقه، واستواءه على عرشه، مع أنه مذكور في الكتب على ألسنة الرسل، وقد أجمع عليه المسلمون كلهم، وغيرهم من أهل الملل، فكيف

يكون تأويلنا تحريفًا؟! وتأويلكم صحيحًا؟! فلم يقدر أحد من المتكلِّمين أن يجيب عن هذا الإيراد.

والمراد: أن مذهبهم مع كونه فاسدًا في نفسه، مخالفًا للعقول، وهو أيضًا مخالف لدين الإسلام والكتاب والرسول، وللسلف كلهم، ويذكرون في كتبهم أنهم مخالفون للسلف، ثم مع هذا: راجت بدعتهم على العالم والجاهل، حتى طبقت مشارق الأرض ومغاربها.

وأنا أدعوك إلى التفكُّر في هذه المسألة، وذلك: أن السلف قد كثر كلامهم، وتصانيفهم في أصول الدين، وإبطال كلام المتكلِّمين، وتفكيرهم.

وممن ذكر هذا من متأخِّري الشافعية: البيهقي، والبغوي، وإسماعيل التيمي، ومن بعدهم، كالحافظ الذهبي، وأما متقدموهم: كابن سريج، والدارقطني، وغيرهما، فكلهم على هذا الأمر، ففتش في كتب هؤلاء، فإن أتيتني بكلمة واحدة أنَّ منهم رجلًا واحدًا لم ينكر على المتكلِّمين ولم يكفِّرهم، فلا تقبل منِّي شيئًا أبدًا، ومع هذا كله، وظهوره غاية الظهور، راج عليكم حتى ادَّعيتم أنَّ أهل السنَّة هم المتكلِّمون، والله المستعان»[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) الدرر السنية ١/ ٥٠ ـ ٥٣.

المبحث الرابع

الرد على الفرق الضالة
في باب الأسماء والصفات

واستعرض الشيخ صالح الفوزان مناهج الفرق الضالة المعوجة، في أسماء الله تعالى وصفاته، ودحض مفترياتهم، وأبان عجزها وعوارها، فقال يحفظه الله:

(منهج الجهمية وتلاميذهم في أسماء الله وصفاته)

الإيمان بالله تعالى: يتضمن الإيمان بأسمائه وصفاته

الجهمية: عارضت المنقول بعقولها الفاسدة وأهل السنة: نظروا بعقولهم في أدلة الوحي المقدمة لديهم على كل حال

يجب على المسلم إثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته على وفق ما جاء في الكتاب والسنَّة، لأن هذا يدخل في باب الإيمان بالله عزَّ وجلّ، وهو مذهب أهل السنَّة والجماعة، متخذين كتاب الله وسنَّة رسوله الدليل المرجع في ذلك، عكس ما عليه الجهمية وتلاميذهم من المعتزلة والأشاعرة الذين ينفون ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، أو ينفون بعضًا منها ويثبتون البعض الآخر تحكمًا منهم، ويجعلون مرجعهم في ذلك ما قرَّرته عقولهم القاصرة أو قرَّره لهم أئمة الضلال، وفرق بين من جعل دليله الكتاب والسنَّة ومن جعل دليله نحاتة الأفكار وزبالة الأذهان، كما يقوله واحد منهم:

وكُلُّ نَصٍّ أوهَمَ التَّشْبيها ... أَوِّلْهُ أَوْ فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيها

هذا تعاملهم مع نصوص الكتاب والسنَّة في باب أسماء الله وصفاته، التأويل: هو صرف هذه النصوص عمَّا دلت عليه من المعاني الجليلة إلى ما تقرِّره عقولهم من الأفكار العقيمة والآراء الباطلة، وما عجزت عنه عقولهم فوَّضوه واعتقدوا خلاف ما يدل عليه، سبحانك ربي! ما أعظم شأنك! وما أحلمك على عبادك. تعريف التأويل

إنهم نفوا عنك ما أثبتَّه لنفسك من صفات الكمال ونعوت الجلال، وخالفوا كتابك، وقدموا ما أملته عليهم عقولهم على ما أنزلته في كتابك، نفوا عنك أسماءك وصفاتك، ونفوا عن كتابك حجِّيته وهدايته.

(الرد الباهر على النفاة والمعطلة)

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في هؤلاء: «ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به، وإنما رمز إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغزة، ولم يصرح به وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيل الباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه، بل أراد منهم أن يحملوا كلامه على ما لا يعرفونه من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق لوازمهم الفاسدة

باللفظ الصريح الذي عبَّر به هو وسلفه، فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبيِّن وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظنّ السوء.

ومن ظن أنه هو وسلفه عبَّروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المتهوِّكين والحيارى هو الحق والهدى، فهذا من أسوأ الظن بالله...».

إلى أن قال: «ومن ظن أنه لا سمع له ولا بصر ولا علم ولا إرادة ولا كلام يقول به، وأنه لم يكلم أحدًا من الخلق، ولا يتكلم أبدًا، ولا قال ولا يقول، ولا له أمر ولا نهي يقوم به، فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه بائنًا من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه...». انتهى كلامه رحمه الله.

وهو يعني به أولئك الذين نفوا ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، ومعلوم أن من نفى عن الله صفات الكمال، فقد أثبت له أضدادها من صفات النقص، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ثم يلزم من هذا أن يكون هؤلاء الضلال أعلم بالله وما يستحقه من الله، لأنهم نفوا عنه ما أثبته لنفسه، وزعموا أنه لا يليق به، وأي ضلال أعظم من هذا؟ وأي جرأة على الله أعظم من هذه الجرأة؟!

ويلزم من ذلك أيضًا أن يكونوا أعلم بالله من رسول الله ﷺ، لأن رسول الله ﷺ أثبت لله هذه الصفات، وهم نفوها وقالوا: إنها لا تليق بالله! وأي ضلال أعظم من هذا الضلال لو كانوا يعقلون؟! كيف يكون هؤلاء الجهال الضلال أعلم بالله من نفسه ــ تعالى الله عمّا يقولون ــ والله تعالى يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه/ ١١٠]، ولا أحد من الخلق أعلم بالله وما يستحقه وما يليق به من رسول الله ﷺ؟!

(الرد على من زعم: أن الإثبات يستلزم التشبيه)

إن الذي حمل الجهمية وأتباعهم على نفي صفات الله عزّ وجلّ هو جهلهم بالله وسوء أفهامهم، حيث ظنوا أنه يلزم من إثبات هذه الصفات التي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله، يلزم منها التشبيه، لأنهم يرون هذه الصفات في المخلوقين، ولا يفرِّقون بين صفات الخالق وصفات المخلوق، ولم يفهموا من صفات الخالق إلاَّ ما فهموا من صفات المخلوقين، ولم يعلموا أن صفات الخالق سبحانه تخصه وتليق به وصفات المخلوقين تخصهم وتليق بهم، ولا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق، كما أنه لا تشابه بين ذات الخالق وذوات المخلوقين، كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى/ ١١]، فأثبت لنفسه السمع والبصر، ونفى عنه مشابهة الأشياء، فدل على أن إثبات الصفات لا يلزم منه المشابهة بين الخالق والمخلوق.

صفات الخالق تخصه وتليق به، وصفات المخلوق تخصه وتليق به، وبهذا استحال التشبيه

وهذا هو الأصل الذي سار عليه أهل السنَّة والجماعة في إثبات أسماء الله وصفاته، أثبتوا له ما لنفسه بلا تمثيل ونزَّهوه عمّا نزَّه نفسه عنه بلا تعطيل.

الجهمية أساتذة: المعتزلة والأشاعرة

أما الجهمية وتلاميذهم من المعتزلة والأشاعرة، فإنهم بنوا مذهبهم على أصل باطل أصَّلوه من عند أنفسهم، وهو أن إثبات هذه الصفات يقتضي التشبيه، فيلزم حيال النصوص الواردة بذلك أحد أمرين عندهم: إما تأويلها عن ظاهرها، وإما تفويضها مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، ولهذا يقول ناظم عقيدتهم:

مذهب قائم على الوهم

وكُلُّ نَصٍّ أَوهَمَ التَّشْبِيها ... أَوِّلْهُ أَوْ فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيها

سبحانك ربي عمَّا يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

وقد أجرى الله الحق على لسان هذا الناظم، حيث قال: «وكل نص أوهم التشبيها»، فبيَّن أن مذهبهم مبني على الوهم لا على الحق، لأنهم توهَّموا أن هذه النصوص تقتضي التشبيه، فراحوا يؤوِّلونها.

وهل الوهم يا عباد الله تعارض به النصوص وتبنى عليه عقيدة؟!

إن الوهم أقل درجة من الظن، والله تعالى يقول في الظن: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم/ ٢٨].

(الرد على المنحرفين عن منهج السلف في أسماء الله وصفاته من المشبِّهة والمعطلة)

المنحرفون عن منهج السلف في أسماء الله وصفاته طائفتان: المشبِّهة والمعطلة.

١ ـ المشبِّهة:

وهؤلاء شبَّهوا الله بخلقه، وجعلوا صفاته من جنس صفات المخلوقين، ولذلك سموا بـ (المشبِّهة)، وأول من قال هذه المقالة

هو هشام بن الحكم الرافضي وبيان بن سمعان التميمي الذي تنسب إليه البيانية من غالية الشيعة، فالمشبِّهة غلوا في إثبات الصفات، حتى أدخلوا في ذلك ما نفاه الله ورسوله ممَّا لا يليق به سبحانه من صفات النقص، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا. ومن هؤلاء هشام بن سالم الجواليقي، وداود الجواربي.

وقد نفى الله في كتابه مشابهته لخلقه، ونهى عن ضرب الأمثال له، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى/ ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم/ ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص/ ٤]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل/ ٧٤]، فمن شبَّه صفات الله بصفات خلقه، لم يكن عابدًا لله في الحقيقة، وإنما يعبد وثنًا صوَّره له خياله ونحته له فكره، فهو من عبَّاد الأوثان، لا من عبَّاد الرحمن.

المشبّه في حقيقة أمره: يعبد وثنًا

قال العلامة ابن القيم:

لَسْنَا نُشَبِّهُ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا ... إنَّ المُشَبِّهَ عَابِدُ الأوثَانِ

ومن شبَّه صفات الله بصفات خلقه، فهو مشابه للنصارى الذين يعبدون المسيح ابن مريم عليه السلام.

وجه الشبه بين: المشبه، والنصراني

يقول العلامة ابن القيم:

مَنْ مَثَّلَ اللَّهَ العَظِيمَ بِخَلْقِهِ ... فَهُوَ النَّسِيبُ لِمُشْرِكٍ نَصرانِي

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري رحمهما الله: «مَن شبَّه الله بخلقه، فقد كفر، ومن نفى ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه».

٢ ـ المعطلة:

وهؤلاء نفوا عن الله ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من صفات الكمال، زاعمين أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم، فهم على طرفي نقيض مع المشبِّهة.

أساتذة التعطيل الحقيقيون

ومذهب التعطيل مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلَّال الصابئين.

وأول من حُفظ عنه مقالة التعطيل في الإسلام هو: الجعد ابن درهم في أوائل المئة الثانية، وأخذ هذا المذهب الخبيث عنه: الجهم بن صفوان وأظهره، وإليه نسبت الجهمية، ثم انتقل هذا المذهب إلى المعتزلة والأشاعرة، وهذه أسانيد مذهبهم، ترجع إلى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة، وهم في هذا التعطيل متفاوتون.

فالجهمية: ينفون الأسماء والصفات.

والمعتزلة: يثبتون الأسماء مجردة عن معانيها وينفون الصفات.

والأشاعرة: يثبتون الأسماء وسبع صفات فقط هي: العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، وينفون بقية الصفات.

شبه كافة الفرق

وشبهة الجميع فيما نفوه من الصفات أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم بزعمهم، لأنه لا يشاهد موصوف بها إلَّا هذه الأجسام، والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى/ ١١]، فيتعين نفي الصفات وتعطيلها، تنزيهًا لله عن التشبيه بزعمهم، ولهذا يسمون من أثبتها مشبهًا.

ووقفوا من النصوص الدالة على إثباتها موقفين:

آل موقف هؤلاء المبتدعة من الأسماء والصفات، إلى التفويض أو التأويل

الموقف الأول: الإيمان بألفاظها وتفويض معانيها، بأن يسكتوا عن تفسيرها، ويفوِّضوه إلى الله، مع نفي دلالتها على شيء من الصفات، وسموا هذه الطريقة طريقة السلف، وقالوا: هي الأسلم.

الموقف الثاني: صرف هذه النصوص عن مدلولها إلى معان ابتدعوها، وهذا ما يسمونه بطريقة التأويل، وسمَّوه طريقة الخلف، وقالوا: هي الأعلم والأحكم.

الرد الوافر عليهم

والرد على شبهتهم أن نقول: لا ريب أن التمثيل قد نطق القرآن الكريم بنفيه عن الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى/ ١١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم/ ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص/ ٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة/ ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل/ ٧٤]، لكن مع نفيه سبحانه عن نفسه مشابهة المخلوقين أثبت لنفسه صفات الكمال، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى/ ١١]، فجمع في هذه الآية الكريمة بين نفي التشبيه عنه وإثبات صفتي السمع والبصر لنفسه، فدل على أن إثبات الصفات لا يقتضي التشبيه، إذ لا تلازم بينهما.

لا تلازم بين: الإثبات والتشبيه

وهكذا في كثير من آيات القرآن الكريم نجد إثبات الصفات مع نفي التشبيه جنبًا إلى جنب، وهذا هو مذهب السلف الصالح، يثبتون الصفات، وينفون عنه التشبيه والتمثيل.

المبتدعة جمعوا بين: التشبيه أولاً، والتعطيل ثانيًا

ومن زعم أن إثبات الصفات لا يليق بالله، لأنه يقتضي التشبيه، فإنما جرَّه إلى ذلك سوء فهمه، حيث فهم أن إثبات الصفات يلزم منه التشبيه، فأداه هذا الفهم الخاطىء إلى نفي ما أثبته الله عزَّ وجلّ لنفسه، فكان هذا الجاهل مشبِّهًا أولاً ومعطِّلاً ثانيًا، وارتكب ما لا يليق بالله ابتداء وانتهاء، ولو كان قلبه طاهرًا من أقذار التشبيه، لكن المتبادر عنده والسابق إلى فهمه، أن صفات الله عزَّ وجلّ بالغة من الكمال والجلال ما يقطع أوهام علائق التشبيه والمشابهة بين صفات الخالق وصفات المخلوقين، فيكون قلبه مستعدًا للإيمان بصفات الله على وجه يليق به، مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، أما من توهَّم أنَّ صفات الله تشبه صفات المخلوقين، فإنه لم يعرف الله حق معرفته، ولم يقدره حق قدره، ولهذا وقع فيما وقع فيه من ورطة التعطيل، وصار يسمِّي من أثبت لله صفات الكمال ونزَّهه عن صفات النقص على مقتضى الكتاب والسنَّة، صار يسمِّيه مشبِّهًا ومجسِّمًا، نظرًا لما قام بقلبه من توهُّم أنَّ صفات الله تشبه صفات خلقه، ولم يدر أن هذا الوصف أليق به، فهو الذي شبَّه أوَّلاً، ثم عطَّل ثانيًا، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله.

(صفات الخالق تليق بكماله وغناه، وصفات المخلوق تليق بعجزه وفقره)

قال إمام الأئمة وناصر السنَّة أبو بكر محمد بن خزيمة رحمه الله في الرد على الجهمية وتلاميذهم ممن زعم أن إثبات الصفات لله عزَّ وجلّ يقتضي التشبيه، وننقل كلامه مختصرًا في هذا الموضوع:

قال رحمه الله: «وزعمت الجهمية عليهم لعائن الله أن أهل السنَّة ومتَّبعي الآثار، القائلين بكتاب ربهم وسنَّة نبيهم ﷺ، المثبتين لله عزَّ وجلّ من صفاته ما وصف الله به نفسه في محكم تنزيله، المثبت بين الدفتين، وعلى لسان نبيه المصطفى ﷺ بنقل العدل عن العدل، موصولاً إليه: مشبهة، جهلاً منهم بكتاب ربنا وسنَّة نبينا ﷺ وقلة معرفتهم بلغة الذين بلغتهم خوطبنا...».

الفرق بين: وجه الخالق سبحانه، ووجه المخلوق، وهكذا الشأن في كافة الصفات

إلى أن قال: «نحن نقول وعلماؤنا جميعًا من جميع الأقطار: إن لمعبودنا عزَّ وجلّ وجهًا كما أعلمنا الله في محكم تنزيله، فذَوَّاهُ بالجلال والإكرام، وحكم له بالبقاء، ونفى عنه الهلاك، ونقول: إن لوجه ربنا عزَّ وجلّ من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابه، لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره...

ونقول: إن لبني آدم وجوهًا كتب الله عليها الهلاك، ونقول: إن أوجه بني آدم محدثة مخلوقة، لم تكن، فكوَّنها الله بعد أن لم تكن مخلوقة، أوجدها بعد ما كانت عدمًا، وإن جميع وجوه بني آدم فانية غير باقية، تصير جميعًا ميتًا ثم رميمًا، ثم ينشئها الله بعدما صارت رميمًا، ثم تصير إما إلى جنة منعَّمة فيها أو إلى النار معذَّبة فيها.

فهل يخطر يا ذوي الحجا ببال عاقل مركب فيه العقل، يفهم لغة العرب، ويعرف خطابها، ويعلم التشبيه، أن هذا الوجه شبيه بذاك الوجه، وهل ها هنا أيها العقلاء تشبيه وجه ربنا جلَّ ثناؤه الذي هو كما وصفنا وبيَّنَّا صفته من الكتاب والسنَّة بتشبيه وجوه بني آدم التي ذكرناها ووصفناها... ولو كان تشبيهًا من علمائنا، لكان كل قائل: إن لبني آدم وجهًا، وللخنازير والقردة والسباع والحمير

والبغال والحيات والعقارب وجوهًا، قد شبه وجوه بني آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب وغيرها مما ذكرت، ولست أحسب أن أعقل الجهمية المعطلة عند نفسه لو قال له أكرم الناس عليه: وجهك يشبه وجه الخنزير والقرد والكلب والحمار والبغل ونحو هذا، إلاَّ غضب...».

إلى أن قال رحمه الله: «فإذا كان ما ذكرنا على ما وصفنا، ثبت عند العقلاء، وأهل التمييز أن من رمى أهل الآثار القائلين بكتاب ربهم وسنَّة نبيهم ﷺ بالتشبيه، فقد قال الباطل والكذب والزور والبهتان، وخالف الكتاب والسنَّة، وخرج عن لسان العرب...».

إلى أن قال رحمه الله: «والمعطلة من الجهمية تنكر كل صفة لله وصف بها نفسه في محكم تنزيله، أو على لسان نبيه ﷺ، لجهلهم بالعلم، وذلك أنهم وجدوا في القرآن أن الله قد أوقع أسماءً من أسماءِ صفاته على بعض خلقه، فتوهَّموا لجهلهم بالعلم أن من وصف الله بتلك الصفة التي وصف الله بها نفسه قد شبهه بخلقه.

الجهل: سبيل الابتداع

فاسمعوا يا ذوي الحجا ما أبيِّنُ من جهل هؤلاء المعطلة:

أقول: وجدت الله وصف نفسه في غير موضع من كتابه، فأعلم عباده المؤمنين أنه سميع بصير، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى/ ١١]، وذكر عزَّ وجلّ الإنسان، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان/ ٢].

وأعلمنا جلَّ وعلا أنه يرى، فقال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥]، وقال لموسى وهارون عليهما

السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه/ ٤٦]، فأعلم عزَّ وجلّ أنه يرى أعمال بني آدم، وأن رسوله وهو بشر يرى أعمالهم أيضًا، وقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل/ ٧٩]، وبنو آدم يرون أيضًا الطير مسخَّرات في جو السماء.

وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود/ ٣٧]، وقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور/ ٤٨]، فثبت ربنا لنفسه عينًا، وثبت لبني آدم أعينًا، فقال: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ [المائدة/ ٨٣]، فقد أخبرنا ربنا أن له عينًا وأن لبني آدم أعينًا.

وقال لإبليس لعنه الله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص/ ٧٥]، وقال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة/ ٦٤]، فثبت ربنا جلَّ وعلا لنفسه يدين وخبَّرنا أنَّ لبني آدم يدين.

أفيلزم عند هؤلاء الفسقة أن من يثبت ما أثبته الله في هذه أن يكون مشبهًا خالقه بخلقه؟! حاش لله أن يكون هذا تشبيهًا كما ادعوا لجهلهم بالعلم...»، انتهى كلامه.

هذا مما ردَّ به إمام الأئمة محمد بن خزيمة على الجهمية وتلاميذهم، وهو رد مفحم، لا يستطيعون الإجابة عنه، وقد رد عليهم أيضًا كبار الأئمة، من أمثال الإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم، ولا تزال ردودهم والحمد لله بأيدي أهل السنَّة والجماعة.

ونسوق من ذلك نموذجًا من رد شيخ الإسلام ابن تيمية على طائفة من هؤلاء زعمت أن النصوص التي وردت في الكتاب والسنَّة في صفات الله عزَّ وجلّ هي من قبيل المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ولا يعلم معناه إلَّا هو، فهذه النصوص بزعمهم ليست على ظاهرها،

لأن ظاهرها عندهم التشبيه بل لها معنى لا يعلمه إلاَّ الله، فيفوِّضون معناها إلى الله، ويزعمون أن هذه طريقة السلف، وقد كذبوا على السلف ونسبوا إليهم ما هم برءاء منه، لأن عقيدة السلف إثبات صفات الله عزَّ وجلّ كما دل عليها الكتاب العزيز والسنَّة النبوية، وأنها على ظاهرها، ويفسِّرون معناها على ما يليق بجلال الله، ولا يفوِّضونها، بل وهي عندهم من المحكم لا من المتشابه.

(الرد على المفوضة، وبيان لوازمهم الشنيعة)

قال رحمه الله: «وأما على قول أكابرهم (يعني: نفاة الصفات): إن معاني هذه النصوص لا يعلمه إلاَّ الله، وإن معناها الذي أراده الله بها هو ما يوجب صرفها عن ظواهرها، فعلى قول هؤلاء يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل الله عليهم من هذه النصوص، ولا الملائكة، ولا السابقون الأوَّلون، وحينئذٍ، فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن أو كثير مما وصف الله به نفسه لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلامًا لا يعقلون معناه...».

إلى أن قال رحمه الله: «ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء، إذا كان الله أنزل القرآن، وأخبر أنه جعله هدى وبيانًا للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبيِّن للناس ما نزَّل إليهم، وأمر بتدبُّر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه، وهو ما أخبر به الرب عن صفاته، أو عن كونه خالقًا لكل شيء، وهو بكل شيء عليم، أو عن كونه أمر ونهي، ووعد وتوعد، أو ما أخبر به عن اليوم الآخر: لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل، ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بيَّن للناس ما نُزِّلَ إليهم ولا بلَّغ البلاغ المبين.

لم يؤثر عن واحد من أئمة السلف: إدخال الأسماء والصفات تحت المتشابه من الشريعة

وقال رحمه الله نافيًا هذا القول عن السلف: «وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله، فنقول: ما الدليل على ذلك؟ فإنِّي ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة ولا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية يعني: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران/ ٧] الآية)، ونفى أن يعلم أحد معناه، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم، وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة، قالوا في أحاديث الصفات: تمر كما جاءت، ونهوا عن تأويلات الجهمية، وردوها، وأبطلوها، التي مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه، ونصوص أحمد والأئمة قبله بيِّنة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية، يقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها، فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا، وأن لا يسكت عن بيانه وتفسيره، بل يبيِّن ويفسِّر باتِّفاق الأئمَّة من غير تحريف له عن مواضعه، أو إلحاد في أسماء الله وآياته».

الفرق بين: تفسير السلف للصفات، وتفسير النفاة

هذا ما قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وحكاه عن الأئمة والسلف، أنهم لا يجعلون نصوص الصفات من المتشابه الذي لا يفهم معناه ويجب تفويضه، بل كانوا يعلمون معاني هذه النصوص ويفسِّرونها، وإنما يفوِّضون علم كيفيتها إلى الله عزَّ وجلّ، كما قال الإمام مالك وغيره: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

(مذهب السلف في الاستواء)

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف/ ٥٤]، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت، من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى/ ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة، منهم: نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري، قال: مَن شبَّه الله بخلقه، فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه، فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى...». انتهى.

هذا مذهب السلف في أسماء الله وصفاته، وهو إثباتها كما جاءت في الكتاب والسنة، من غير تشبيه لها بصفات المخلوقين، ومن غير تعطيل ونفي لها، بل إثبات بلا تشبيه، وتنزيه لله بلا تعطيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى/ ١١]، فمن نسب إلى السلف أن مذهبهم التفويض، فقد كذب وافترى عليهم ورماهم بما هم بريئون منه.

نسأل الله العفو والعافية»[1].

(حكم تأويل الصفات)

قال الشيخان حسين وعبد الله ابنا محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعًا في مسألة وردت عليهما، ضمن مسائل كثيرة:

«(المسألة الرابعة عشرة) في إنكار الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه مثل: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح/ ١٠]، ثم يقول: يد الله: قدرته، أو يؤوِّل الاستواء: بالاستيلاء أو يقول: الله في كل مكان، لا يخلو منه مكان، فهل هذا كافر أم لا؟

(الجواب): أن من اعتقد هذا الاعتقاد فهو مبتدع ضال جاهل، قد خالف العقيدة السلفية التي درج عليها النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان كالأئمة الأربعة ومن اتبعهم من العلماء، وأما التكفير بذلك فلا يحكم بكفره إلَّا إذا عرف أن عقيدته هذه مخالفة لما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان. والله أعلم»[2].

• • •

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص ١٥٣ ــ ١٦٥.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ص ١/ ٤١.

كلمات منتقاة، مضيئة

● لقد تعرَّف سبحانه وتعالى إلى عباده، بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرِّف وتدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له، في ربوبيَّته وإلـٰهيته. . .

أحاديث الصفات: تدل على عظمة الله وكماله، وعظم مخلوقاته، وأنه المتصف: بصفات الكمال، التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ، وعلى كمال قدرته، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له، دون كل ما سواه.

[الشيخ عبد الرحمن بن حسن]

● ما قدّر المشركون الله حق قدره، حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، والقادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته.

[الإمام الحافظ ابن كثير]

● من الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، على لسان رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، بل أعتقد أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أحرِّف الكلم عن مواضعه، ولا أُلحد في أسمائه وآياته، ولا أكيِّف، ولا أمثِّل صفاته تعالى بصفات خلقه، لأنه تعالى لا سميَّ له، ولا كفؤ له، ولا ندَّ له، ولا يقاس بخلقه.

[شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب]

• ونؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته، ونثبت ذلك على ما يليق بجلاله، وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وننزه الله عما لا يليق بجلاله، تنزيهًا بلا تعطيل. . .

والقول الشامل في ذلك: أنا نصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث.

فمن شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر. . .

وبالجملة: فعقيدتنا في جميع الصفات الثابتة في الكتاب والسنة، عقيدة أهل السنة والجماعة، نؤمن بها، ونمرها كما جاءت، مع إثبات حقائقها وما دلت عليه، من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تعطيل، ولا تبديل، ولا تأويل.

[الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن]

• إن أسماء الله وصفاته: توقيفية، بمعنى: أنهم لا يثبتون لله إلاَّ ما أثبته لنفسه في كتابه، وأثبته له رسوله في سنته من الأسماء والصفات، ولا يثبتون شيئًا بمقتضى عقولهم وتفكيرهم، ولا ينفون عن الله إلاَّ ما نفاه عن نفسه في كتابه، ونفاه عنه رسوله في سنَّته، لا ينفون عنه بموجب عقولهم وأفكارهم، فهم لا يتجاوزون الكتاب والسنة، وما لم يصرح الكتاب والسنة بنفيه ولا إثباته، كالعرض، والجسم، والجوهر، فهم يتوقَّفون فيه، بناء على هذا الأصل العظيم.

[الشيخ صالح الفوزان]

• من شبَّه الله بخلقه، فقد كفر ومن نفى ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله: تشبيه.

[الشيخ الإمام نعيم بن حماد]

● والكلام في الصفات، فرع عن الكلام في الذات، فكما أن لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فكذلك له صفات لا تشبه الصفات. . .

وطريقة أهل السنة والجماعة فيما يثبتون لله من الصفات، وما ينفون عنه من النقص، هي طريقة الكتاب والسنة، وهي الإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات.

وكل نفي في صفات الله، فإنه يتضمن: إثبات الكمال، وليس هو نفيًا محضًا، لأنَّ النفي المحض، ليس فيه مدح، لأنه عدم محض، والعدم ليس بشيء.

[الشيخ صالح الفوزان]

● أجمع العلماء من أهل السنة: على أن الله استوى على عرشه بذاته. . .

أجمع المسلمون من أهل السنة، أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد/ ٤]، ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، وأن الله فوق السموات بذاته، مستو على عرشه، كيف شاء.

[الإمام أبو عمر الطلمنكي]

● الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر.

[أم المؤمنين، أم سلمة رضي الله عنها]

● استوى على العرش: علا على العرش.

[الإمام مجاهد بن جبر]

● الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

[إمام دار الهجرة، الإمام مالك بن أنس]

● كنا والتابعون متوافرون، نقول: إن الله تعالى ذكره، بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة.

[الإمام الأوزاعي]

● نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته، على العرش استوى، بائن من خلقه.

[إمام الزهاد: عبد الله بن المبارك]

● وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين وكلام سائر الأئمة، مملوء كلها بما هو نص أو ظاهر: أن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش، فوق السماوات، مستو على عرشه.

[شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحرَّاني]

● ونعتقد أن الله سبحانه وتعالى، مستو على عرشه، عال على خلقه، وعرشه فوق السماوات، وهو بائن من مخلوقاته، ولا يخلو مكان من علمه.

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه/ ٥]، فنؤمن باللفظ، ونثبت حقيقة الاستواء، ولا نكيف، ولا نمثل، لأنه لا يعلم كيف هو إلاَّ هو.

[الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن]

● أجمع أهل العلم في جميع الأعصار والأمصار: أن أهل الكلام، أهل بدع وضلالات، لا يعدون عند الجميع من طبقات العلماء.

[الإمام أبو عمر بن عبد البر]

❑ ❑ ❑

الفصل التاسع
القضاء والقدر
ومنهج السلف في الإيمان به

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : قواعد السلف الذهبية في الإيمان بالقضاء والقدر.
المبحث الثاني : وجوب التسليم لقضاء الله ومقدوراته العامة.
المبحث الثالث : الفرق بين أهل السنَّة والجبرية والقدرية في الإيمان بالقضاء والقدر.
المبحث الرابع : ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر.

المبحث الأول

قواعد السلف الذهبية في الإيمان بالقضاء والقدر

إن الإيمان بربوبية الله لا يقبل حتى يتم الإيمان بقضائه وقدره.

والله سبحانه قدَّر الإيمان والطاعات وأسبابها وأحبها، والكفر والمعاصي وأسبابها وكرهها.

وقدرة الله الشاملة، وعلمه التام، وخلقه لكل شيء، وحكمته البالغة، أصول الإيمان بالقدر والتسليم له.

والشر في مقدورات الله راجع إلى مفعولاته، لا إلى ذاته المقدسة وصفاته العلا، ويكون بسبب ظلم العبد وبغيه وجهله، ومن ثم يستحيل إضافة الشر إليه سبحانه.

ولا يتم الإيمان بالقدر حتى يتيقن العبد أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه، إذ المقادير قد كتبت قبل الخلق بخمسين ألف عام، ثم رفعت الأقلام وجفَّت الصحف.

ولا نجاة من النيران ولا قَبول للطاعات قبل القيام بهذا الأصل وتحقيقه وفق مراد الرب سبحانه وبيان رسوله ﷺ بفهم صحابته الكرام نقلة وحيه وشريعته.

ولا يعني الإيمان بالقدر والتسليم: له القعود عن أخذ الأسباب، وفعل السنن، المؤدية إلى حصول النفع واجتناب الضر، بل ينبغي فعل الأسباب والأخذ بالسنن، مع الاعتماد والتوكل على الله حتى يتم للعبد توحيده وتتحقَّق له عبوديته المخلوق من أجلها.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في شرحه لكتاب التوحيد:

«باب ما جاء في منكري القدر

[الشرح]

معنى القدر في اللغة والشرع

أي: من الوعيد والقدر بالفتح والسكون: ما يقدره الله من القضاء. ولما كان توحيد الربوبية لا يتم إلاَّ بإثبات القدر، قال القرطبي: القدر مصدر قدرت الشيء بتخفيف الدال أقدره وأقدره قدرًا وقدرًا إذا حصلت بمقداره، ويقال فيه: قدرت أقدر تقديرًا مشدد الدال، فإذا قلنا: إن الله تعالى قدر الأشياء، فمعناه: أنه تعالى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجد على نحو ما سبق في علمه، فلا محدث في العالم العلوي والسفلي، إلاَّ هو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته، هذا هو المعلوم من دين السلف الماضين، الذي دلَّت عليه البراهين.

كيفية الإيمان بالقدر

ذكر المصنف ما جاء في الوعيد فيمن أنكره تنبيهًا على وجوب الإيمان، ولهذا عده النبي ﷺ من أركان الإيمان كما ثبت في حديث جبريل عليه السلام لما سئل عن الإيمان، فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»،

قال: صدقت.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»، قال: **وعرشه على الماء**.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل شيء بقدر حتى العجز والكَيس**»، رواهما مسلم في صحيحه.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إلـه إلاّ الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، والبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**»، رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم في مستدركه، والأحاديث في ذلك كثيرة جدًّا قد أفردها العلماء بالتصنيف.

أصول الإيمان بالقدر

قال البغوي في «شرح السنَّة»: الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد خيرها وشرها، كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات/ ٩٦]، فالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية كلها بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته، غير أنه يرضى الإيمان والطاعة ووعد عليهما الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية وأوعد عليهما بالعقاب.

قال الله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم/ ٢٧].

القدر سر من أسرار الله، لا يجوز الخوض فيه عن طريق العقل، بل بالتسليم التام لعلم الله وحكمته

قال: والقدر سرّ من أسرار الله تعالى لم يطلع عليه ملكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلاً، ولا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق، فجعلهم فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف/ ١٧٩]، وقد سئل رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، قال: طريق مظلم، فلا تسلكه، فأعاد السؤال، فقال: بحر عميق لا تلجه، فأعاد السؤال، فقال: سر الله خفي عليك فلا تفشه.

(أصول أهل السنَّة في كيفية الإيمان بالقضاء والقدر، مع استعراض لمذهب القدرية ولوازمه الفاسدة، وبيان بطلانه)

قال شيخ الإسلام: مذهب أهل السنة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنَّة، وكان عليه السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان وهو أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلاَّ بمشيئته وقدره، لا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو قادر على كل شيء، ولا يشاء شيئًا إلاَّ وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدر

أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون.

مذهب غلاة القدرية

وغلاة القدرية ينكرون علمه المتقدم وكتابته السابقة، ويزعمون أنه أمر ونهى، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، بل الأمر أُنُف، أي: مستأنف، وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وبعد إمارة معاوية ابن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبني أمية في آخر عصر عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وغيرهما من الصحابة.

وكان أول من ظهر ذلك عنه بالبصرة: معبد الجهني، فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرؤوا منهم وأنكروا مقالتهم، ثم لما كثر خوض الناس في القدر صار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم والكتاب السابق، ولكن ينكرون عموم مشيئة الله وعموم خلقه وقدرته، ويظنون أنه لا معنى لمشيئته إلَّا أمره، فما شاء فقد أمر به، وما لم يشأ لم يأمر به، فلزمهم أنه قد يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء.

لوازم مذهب القدرية الفاسدة والرد عليها

وأنكروا أن يكون الله خالقًا لأفعال العباد، أو قادرًا عليها، أو أن يخص بعض عباده من النعم مما يقتضي إيمانهم به وطاعتهم له.

وزعموا أن نعمته التي بما[1] يمكن الإيمان والعمل الصالح على الكفار كأبي جهل وأبي لهب مثل نعمته بذلك على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، بمنزلة رجل دفع إلى والديه بمال قسمه بينهم بالسوية، ولكن هؤلاء أحدثوا أعمالهم الصالحة، وهؤلاء أحدثوا

---

(١) هكذا في الأصل، ولعلها «بها».

أعمالهم الفاسدة من غير نعمة خصَّ الله بها المؤمنين، وهذا قول باطل، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات/ ١٧].

الله تعالى: منّ على المؤمنين بالهداية، فآمنوا

وقال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجرات/ ٧، ٨].

مراتب الإيمان بالقضاء والقدر

وقال ابن القيم ما معناه: مراتب القضاء والقدر أربع مراتب:

الأولى: علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

الثانية: كتابة ذلك عنده في الأزل قبل خلق السموات والأرض.

الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود، فلا خروج لكائن كما لا خروج له عن علمه.

الرابعة: خلقه لها وإيجاده وتكوينه، فالله خالق كل شيء، وما سواه مخلوق.

قال: وقال ابن عمر، والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، رواه مسلم.

(لا شك في كفر من أنكر عموم علم الله لأعمال العباد قبل وقوعها)

[الشرح]

قوله: وقال ابن عمر: هو عبد الله بن عمر بن الخطاب.

قوله: لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله لما قبله الله منه... إلخ. هذا قول ابن عمر لغلاة القدرية الذين أنكروا أن يكون الله تعالى عالمًا بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم، وإنما يعلمها بعد كونها منهم كما تقدم عنهم. قال القرطبي: ولا شك في تكفير من يذهب إلى ذلك، فإنه جحد معلومًا من الشرع بالضرورة، ولذلك تبرأ منهم ابن عمر، وأفتى بأنهم لا تقبل منهم أعمالهم ولا نفقاتهم، وأنهم كمن قال الله فيهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة/ ٥٤]، وهذا المذهب قد ترك اليوم، فلا يعرف من ينسب إليه من المتأخرين من أهل البدع المشهورين.

فقال شيخ الإسلام لما ذكر كلام ابن عمر هذا: وكذلك كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسائر أئمة المسلمين فيهم كثير، حتى قال فيهم الأئمة، كمالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل وغيرهم: إن المنكرين لعلم الله المتقدم ينكرون القدر.

وقوله: ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، رسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

فجعل النبي ﷺ في هذا الحديث كأنه لما سئل عن الإسلام، ذكر أركان الإسلام الخمسة لأنها أصل الإسلام، ولما سئل عن الإيمان أجاب بقوله: «أن تؤمن بالله» إلى آخره. فيكون المراد حينئذٍ بالإيمان جنس تصديق القلب، وبالإسلام جنس العمل، والقرآن والسنَّة مملوءان بإطلاق الإيمان على الأعمال، كما هما مملوءان بإطلاق الإسلام على الإيمان الباطن، مع ظهور دلالتهما أيضًا على الفرق بينهما، ولكن حيث أفرد أحد الاسمين دخل فيه الآخر، وإنما يفرق بينهما حيث فرق بين الاسمين، ومن أراد تحقيق ما أشرنا إليه فليراجع كتاب «الإيمان» الكبير لشيخ الإسلام.

الإسلام والإيمان كلمتان إذا افترقتا في الذكر اجتمعتا في المعنى، وإذا اجتمعتا في الذكر افترقتا في المعنى

إذا تبيَّن هذا، فوجه استدلال ابن عمر بالحديث من جهة أن النبي ﷺ عد الإيمان بالقدر من أركان الإيمان، فمن أنكره لم يكن مؤمنًا، إذ الكافر بالبعض كافر بالكل، فلا يكون مؤمنًا متقيًا، والله لا يقبل إلاَّ من المتقين.

الإيمان بالقدر ركن، من أركان الإيمان

وهذا قطعة من حديث جبريل عليه السلام، وقد أخرجه مسلم بطوله أول كتاب الإيمان في «صحيحه» من حديث يحيى بن معمر عن ابن عمر، ولفظه: عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أنَّ صاحبي سيكل الكلام إليّ، فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن ويتقفَّرون العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر،

تكفير عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما للقدرية دون سؤال منه عن توفر شروط التكفير لدى المتأخرين. فإن قال قائل لعله سئل ولم ينقل نقول وبذلك يمكن هدم الدين بالكلية بلعله كذا ولم ينقل كذا!!!

وأن الأمر أنف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، وذكر الحديث.

وقوله: خيره وشره، أي: خير القدر وشره، أي: أنه تعالى قدَّر الخير والشر قبل خلق الخلق، وأن جميع الكائنات بقضائه وقدره وإرادته، لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان/ ٢]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات/ ٩٦]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر/ ٤٩]، وغير ذلك.

(شبهة وجوابها)

فإن قلت: كيف قال: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»، وقد قال في الحديث: «**والشر ليس إليك**».

قيل: إثبات الشر في القضاء والقدر إنما هو بالإضافة إلى العبد، والمفعول إن كان مقدرًا عليه، فهو بسبب جهله وظلمه وذنوبه، لا إلى الخالق فله في ذلك من الحِكَم ما تقصر عنه أفهام البشر، لأن الشر إنما هو بالذنوب وعقوباتها في الدنيا والآخرة، فهو شر بالإضافة إلى العبد، أما بالإضافة إلى الرب سبحانه وتعالى، فكله خير وحكمة، فإنه صادر عن حكمه وعلمه، وما كان كذلك

فهو خير محض بالنسبة إلى الرب سبحانه وتعالى، إذ هو موجب أسمائه وصفاته، ولهذا قال: «والشر ليس إليك»، أي: تمتنع إضافته إليك بوجه من الوجوه، فلا يضاف الشر إلى ذاته وصفاته، ولا أسمائه ولا أفعاله، فإن ذاته منزهة عن كل شر، وصفاته كذلك، إذ كلها صفات كمال، ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل، لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله، فتستحيل إضافة الشر إليه، فإنه ليس شر في الوجود إلَّا الذنوب وعقوبتها، وكونها ذنوبًا تأتي من نفس العبد، فإن سبب الذنب الظلم والجهل، وهما في نفس العبد، فإنه ذات مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمر خارج عن نفسه، فمن أراد الله به خيرًا أعطاه الفضل فصدر منه الإحسان والبر والطاعة، ومن أراد به شرًا أمسكه عنه وخلاَّه ودواعي نفسه وطبعه وموجبها، فصدر عنه موجب الجهل والظلم من كل شرّ وقبيح، وليس منعه من ذلك شرًّا، ولله في ذلك الحكمة التامَّة، والحجَّة البالغة، فهذا عدله، وذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهو العلي الحكيم. وهذا معنى كلام ابن القيم، وهو الحق.

يستحيل: إضافة الشر إلى الله تعالى، وذلك لمقتضىٰ أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا

سبب الذنوب: الجهل والظلم؛ وهما من ذات العبد، ويترتب عليهما: شر المقدور، ولله في ذلك الحكمة التامة والحجة البالغة

وحاصله: أن الشر راجع إلى مفعولاته، لا إلى ذاته وصفاته، ويتبيَّن ذلك بمثال ولله المثل الأعلى. لو أن ملكًا من ملوك العدل كان معروفًا بقمع المخالفين وأهل الفساد، مقيمًا للحدود والتعزيرات الشرعية على أرباب أصحابها، لعدُّوا ذلك خيرًا يحمده عليه الملوك، ويمدحه الناس ويشكرونه على ذلك، فهو خير بالنسبة

الشر راجع إلى مفعولات الله سبحانه، لا إلى ذاته وصفاته

إلى الملوك، يمدح ويثنى به ويشكر عليه، وإن كان شرًا بالنسبة إلى من أقيم عليه، فرب العالمين أولى بذلك، لأن له الكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات.

وأيضًا فلولا الشر هل كان يعرف الخير، فإن الضد لا يعرف إلاَّ بضده، فإن لم تحط به خبرًا فاذكر كلام ابن عقيل[1] في الباب الذي قبل هذا، وأسلم تسلم، والله أعلم.

* * *

قال وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات على غير هذا فليس مني**».

[الشرح]

قوله: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان إلى آخره، ابنه هذا هو الوليد بن عبادة كما صرَّح به الترمذي في روايته، وفيه أن للإيمان

---

(١) قال ابن عقيل: الواحد من العوام إذا رأى مراكب مقلَّدة بالذهب والفضة، ودارًا مشيَّدة مملوءة بالخدم والزينة؛ قال: انظر إلى إعطائهم مع سوء أفعالهم، ولا يزال يلعنهم ويذم معطيهم حتى يقول: فلان يصلي الجماعات والجمع، ولا يؤذي الذر، ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال، ويحج ويجاهد، ولا ينال خلة بقلبه، ويظهر الإعجاب، كأنه ينطق: إنه لو كانت الشرائع حقًا، لكان الأمر بخلاف ما ترى، وكان الصالح غنيًا، والفاسق فقيرًا؟. اهـ.

للإيمان طعم يُذاق، فهنيئًا لأصحابه

طعمًا، وهو كذلك، فإن له حلاوة وطعمًا، من ذاقه تسلَّى به عن الدنيا وما عليها، وقد قال النبي ﷺ: «**ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان. . .**»، الحديث.

وإنما يكون العبد كذلك إذا كان مؤمنًا بالقدر، إذ يمتنع أن توجد الثلاث فيه وهو لا يؤمن بالقدر بل يكذب به ويرد على الله كلامه وعلى الرسول ﷺ مقالته، فإن المحبة التامة تقتضي المتابعة التامة، فمن لم يؤمن بالقدر، لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يجد حلاوة الإيمان ولا طعمه، بل إن كان منكرًا للعلم القديم، فهو كافر كما تقدم.

المحبة التامة تقتضي المتابعة التامة

ولهذا روي عن بعض الأئمة القدرية الكبار بإسناد صحيح أنه قال لما ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «حدثني الصادق المصدوق، الحديث؛ لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا لأجبته، ولو سمعت عبد الله ابن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، وذكر كلمة بعدها.

شؤم البدعة: قد يؤدي إلى الكفر والانسلاخ من الملة

فهذا كفر صريح نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه.

لا يتم الإيمان بالقدر حتى يسلم العبد لخيره وشره

وقد بين في الحديث كيفية الإيمان بالقدر: أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهذا كما قال النبي ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه: **لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره حتى أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن لصيبه**»، رواه الترمذي.

والمعنى: أن العبد لا يؤمن حتى يعلم أنَّ ما يصيبه ــ إنَّما أصابه في القدر، أي: ما قدر عليه من الخير والشر ــ لم يكن

ليخطئه، أي: يجاوزه فلا يصيبه، وأن ما أخطأه من الخير والشر في القدر، أي: لم يقدر عليه ـ لم يكن ليصيبه، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد/ ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة/ ٥١]. . .

القلم بعد خلقه كتب كل كائن إلى قيام الساعة

قوله: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. قال شيخ الإسلام: وكذلك في حديث ابن عباس وغيره، وهذا يبين أنه إنما أمره حينئذٍ أن يكتب مقدار هذا الخلق إلى قيام الساعة، لم يكن حينئذٍ ما يكون بعد ذلك.

قوله: من مات على غير هذا لم يكن مني، أي: لأنه إذا كان جاحدًا للعلم القديم فهو كافر، كما قال كثير من أئمة السلف: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقرُّوا به خُصموا، وإن جحدوا كفروا. يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ، فقد كذَّب القرآن، فيكفر بذلك، كما نص عليه الشافعي وأحمد وغيرهما، وإن أقرُّوا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد وشاءها وأرادها بينهم إرادة كونية قدرية، فقد خصموا، لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه. وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور.

القدرية الأول لا نزاع في تكفيرهم، أما من جاء بعدهم فقد وقع فيهم نزاع مشهور بين أهل العلم

وبالجملة فهم أهل بدعة شنيعة، والرسول ﷺ بريء منهم، كما هو بريء من الأوَّلين، وقد بيض المصنف آخر هذا الحديث ليعزوه، وقد رواه أبو داود وهذا لفظه، ورواه أحمد والترمذي وغيرهما.

قال: وفي رواية لابن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «**فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار**».

قوله: وفي رواية لابن وهب. هو الإمام الحافظ عبد الله ابن وهب بن مسلم القرشي مولاهم المصري الفقيه، ثقة إمام مشهور عابد، له مصنفات، منها «الجامع» وغيره، مات سنة سبع وتسعين ومائة وله اثنان وسبعون سنة.

صاحب البدعة أكثر عرضة للوعيد من أصحاب الكبائر

قوله: «أحرقه الله بالنار»، أي: لكفره أو بدعته إن كان ممن يقر بالعلم السابق وينكر أفعال العباد، فإن صاحب البدعة متعرِّض للوعيد كأصحاب الكبائر، بل أعظم.

* * *

(لا نجاة من النار، ولا قَبول للطاعات قبل تحقيق الإيمان بالقدر)

قال: وفي «المسند» و «السنن» عن أبي الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعلَّ الله يذهبه من قلبي. فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان، وزيد ابن ثابت، كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح رواه الحاكم في «صحيحه».

[الشرح]

قوله: وفي «المسند» أي «مسند الإمام أحمد» و «السنن»، أي: «سنن أبي داود» وابن ماجه فقط، بمعنى ما ذكر المصنف،

وفيه زيادة اختصرها المصنف، ولفظ ابن ماجه: حدثنا علي ابن محمد، حدثنا إسحاق بن سليمان، قال: سمعت أبا سنان عن وهب بن خالد الحمصي عن أبـي الديلمي قال: وقع في نفسي شيء من هذا القدر خشيت أن يفسد عليّ ديني وأمري، فأتيت أبـي ابن كعب فقلت: يا أبا المنذر إنه قد وقع في قلبـي شيء من هذا القدر، فخشيت على ديني وأمري، فحدثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني.

قَبول الطاعات متوقف على الإيمان بالقدر

فقال: لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهبًا أو مثل جبل أحد تنفقه في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن متَّ على غير هذا دخلت النار، ولا عليك أن تأتي يا أخي عبد الله بن مسعود فتسأل، فأتيت عبد الله فسألته، فذكر مثل ما قال أبـي، وقال لي: لا عليك أن تأتي حذيفة، فسألته، فقال مثل ما قال: ائت زيد بن ثابت فاسأله، فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولم رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم ولو كان مثل أحد أو مثل جبل أحد ذهبًا تنفقه في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر كله، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإنك إن متَّ على غير هذا دخلت النار**»، هذا حديث ابن ماجه.

من لم يمت على أن: ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، دخل النار

ولفظ أبـي داود كما ذكره المصنف إلاَّ أنه قال: ثم أتيت

عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبـي ﷺ بمثل ذلك.

قوله: عن أبـي الديلمي. هو عبد الله بن فيروز الديلمي. وفيروز قاتل الأسود العنسي الكذاب. وعبد الله هذا ثقة من كبار التابعين، بل ذكره بعضهم في الصحابة، والديلمي نسبة إلى جبل الديلم، وهو من أبناء الفرس الذين بعثهم كسرى إلى اليمن.

قوله: وقع في نفسي شيء من القدر، أي: شك أو اضطراب يؤدي إلى شك فيه، أو جحد له.

قوله: لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك، هذا تمثيل على سبيل الفرض لا تحديد، إذ لو فرض إنفاق ملء السماء والأرض كان ذلك.

قول: حتى تؤمن بالقدر، أي: بأن جميع الأمور الكائنة خيرها وشرها، وحلوها ومرِّها، ونفعها وضرِّها، وقليلها وكثيرها، وكبيرها وصغيرها، بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وأمره، كما ذكر عن علي رضي الله عنه»[1].

❑ ❑ ❑

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٤٦٢ ـ ٤٧١.

المبحث الثاني
وجوب التسليم لقضاء الله ومقدوراته العامة

ينبغي: التسليم التام لمقدورات الله سبحانه بكل ما فيها من خير وشر، فالقيام بالشكر لما فيها من النعم، والصبر على ما بها من النقم.

وهذا مفرق طريق بين: المؤمنين والمنافقين في اعتقادهم، ومنهجهم، وسلوكهم، وصفاتهم.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب في كتابه التوحيد، والشيخ عبد الرحمن بن حسن، رحم الله الجميع، في شرحه عليه:

«باب ما جاء في اللَّو»

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران/ ١٥٤].

[الشـرح]

قوله باب ما جاء في اللَّو، أي: من الوعيد والنهي عن الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات، مما لا يمكن استدراكه.

فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة وهو الصبر وجوب التسليم للقدر

على ما أصاب العبد مما يكره. والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة. وأدخل المصنف رحمه الله تعالى أداة التعريف على «لوّ»، وهذه في هذا المقام لا تفيد تعريفًا كنظائرها، لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر:

رأيت الوليد بن اليزيد مباركًا شديدًا بأعباء الخلافة كاهله

وقوله: وقول الله عزَّ وجلّ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران/ ١٥٤].

قاله بعض المنافقين يوم أحد، لخوفهم وجزعهم وخورهم.

* * *

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران/ ١٦٨].

[الشرح]

(الفرق بين المؤمن والمنافق ساعة نزول البلاء)

قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلاّ ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلاّ كالحلم، لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران/ ١٥٤]، لقول معتب.

رواه ابن أبي حاتم.

قال الله تعالى ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ

﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران/ ١٥٤]، أي: هذا قدر مقدَّر من الله عزَّ وجلّ وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران/ ١٦٨].

قال العماد ابن كثير: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران/ ١٦٨]، أي: لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران/ ١٦٨]، أي: إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي لكم أن لا تموتوا، والموت لا بد آت إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: «نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبـي وأصحابه»، يعني أنه هو الذي قال ذلك.

وأخرج البيهقي عن أنس أن أبا طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافِّنا يوم أحد، فجعل يسقط سيفي وآخذه ويسقط وآخذه. قال: والطائفة الأخرى ــ المنافقون ــ ليس لها هم إلَّا أنفسهم، أجبن قوم، وأرعبه، وأخذله للحق، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران/ ١٥٤]، إنما هم أهل ريب وشك بالله عزَّ وجلّ.

قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران/ ١٥٤]، يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران/ ١٥٤].

نوع من النفاق، ينبغي على كل مؤمن أن يحذره

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لما ذكر ما وقع من عبد الله ابن أبي في غزوة أحد قال: فلما انخذل يوم أُحد وقال: «يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان»؟ أو كما قال... انخذل معه خلق كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك. فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل(١). فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام (الذي يثابون عليه)، ولم يكونوا من المؤمنين حقًّا الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة، ولا من المنافقين حقًّا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة.

إيمان كثير من المسلمين ــ آنذاك ــ لا يثبت على المحنة، وعلامته: ترك الفرائض وانتهاك المحارم

وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم إذا ابتلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيرًا وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالبًا، وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة.

وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهو مؤمنون بالرسل باطنًا وظاهرًا، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا، فقيل لهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٤]،

إذا أطلق الإيمان في الكتاب والسنة، فالمراد به الإيمان المطلق

أي: الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقًّا، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنّة.

(١) يشير شيخ الإسلام رحمه الله تعالى إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة: ١٩، ٢٠].

فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب، انتهى.

قوله: وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة.

إذا ظهر الأعداء، علت راية النفاق

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن في الدين، وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. والله المستعان.

* * *

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل. فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان**».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي عن التصريح عن قول: «لو»، إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع، مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز.

[الشرح]

قوله: في الصحيح، أي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احرص ـ الحديث».

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث، وتمامه: عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك**»، أي: في معاشك ومعادك، والمراد: الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة، ويكون العبد في حال فعله السبب مستعينًا بالله وحده دون كل ما سواه ليتم له سببه وينفعه، ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك، لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلاَّ إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى. ففعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد. فإذا جمع بينهما تم له مراده بإذن الله.

التوكل على الله وحده، وفعل السبب مع عدم الركون إليه يتم بهما المراد بإذن الله

قوله: ولا تعجزن، النون نون التوكيد الخفيفة. نهاه ﷺ عن العجز وذمه، والعجز مذموم شرعًا وعقلاً، وفي الحديث: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني**»(١). فأرشد ﷺ في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا. ولكن يقول:

العجز مذموم شرعًا وعقلاً

---

(١) رواه أحمد والترمذي ـ وحسَّنه ـ والحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري، وتعقَّبه الذهبي بأنَّ فيه ابن أبي مريم، وهو واه. وهذا من حديث شداد بن أوس. وهو عندهم بدون كلمة «الأماني»، قاله محقق الكتاب محل النقل، فجزاه الله خيرًا.

قدَّر الله وما شاء فعل، أي: هذا قدر الله والواجب التسليم للقدر والرضى به، واحتساب الثواب عليه.

قوله: فإن «لو» تفتح عمل الشيطان، أي: لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضى، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد/ ٢٢، ٢٣].

الصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض

(منزلة الصبر في الإسلام)

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»، وقال الإمام أحمد: «ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن».

قال شيخ الإسلام رحمه الله ــ وذكر حديث الباب بتمامه ــ ثم قال في معناه: لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرَّين، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله، والأمر يقتضي الوجوب، وإلاَّ فالاستحباب، ونهى عن العجز، وقال: «**إن الله يلوم على العجز**»، والعاجز ضد الذين هم ينتصرون، فالأمر بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في مواضع كثيرة، وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أُمر بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه ويستعين الله ولا يعجز، وأمر أصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه، ولهذا قال بعض العقلاء ــ ابن المقفع وغيره ــ الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه.

لا تعجز عن المأمور، ولا تجزع من المقدور

وهذا في جميع الأمور، لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمره الله به، وأحبه له. فإن الله لم يأمره إلاَّ بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفسًا إلاَّ وسعها، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله.

واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين: فالأفعال مثل قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [المائدة/ ١٦٠].

ومثل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء/ ٧].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى/ ٤٠].

ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة/ ٨١] إلى آيات كثيرة من هذا الجنس، والله أعلم.

والقسم الثاني: ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب. كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء/ ٧٩] والآية قبلها، فالحسنة في هاتين الآيتين: النعم، والسيئة: المصائب. هذا هو الثاني من القسمين. وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره في هذا الموضع ولعل الناسخ أسقطه، والله أعلم.

لا يجوز الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية، أو ترك الطاعة

ثم قال رحمه الله: فإن الإنسان ليس مأمورًا أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه وارض وسلِّم، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا

بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن/ ١١]، ولهذا قال آدم لموسى: «أتلومني على أمر قدَّره الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ فحجَّ آدم موسى»، لأن موسى قال له: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة»؟ فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنبًا. وأما كونه لأجل الذنب ـ كما يظنه طوائف من الناس ـ فليس مرادًا بالحديث، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس، انتهى.

قال العلاَّمة ابن القيم رحمه الله: فتضمَّن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان.

أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة.

الله سبحانه يحب أن يرىٰ أثر صفاته في عبيده

الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو: القوي، ويحب المؤمن القوي، وهو: وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف، يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها: محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

ينبغي: الحرص على ما ينفع

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص: هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودًا وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصًا، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه من غير حرص فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

الاستعانة بالله، طريق تحقيق العبودية

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه، أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام «إياك نعبد وإياك نستعين»، فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى، ولا يتم إلاَّ بمعونته، فأمره أن يعبده وأن يستعين به.

فالحريص على ما ينفعه، المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمَّة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها إليه.

قاعدة ذهبية في الإيمان بالقدر

فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان: عجز، وهو مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة من «لو» ههنا بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده، ولهذا قال: «**فإن غلبك أمر لا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»، فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول المطلوب وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدًا، بل هو أشد إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهرًا وباطنًا في حالتي حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق»[(١)].

❏❏❏

---

(١) فتح المجيد ص ٤٤٨ ـ ٤٥٣.

المبحث الثالث

الفرق بين أهل السنَّة والجبرية والقدرية في الإيمان بالقضاء والقدر

أهل السنَّة والجماعة وسط ـ كعادتهم ـ في الإيمان بالقدر بين: القدرية مجوس هذه الأمة، الذين قرَّروا: أن الله لم يخلق أفعال العباد ولا شاءها منهم، والجبرية الذين حكموا: بأن العبد مجبور مقهور على أفعاله، شأنه كشأن ورقة حملتها الرياح، فطارت بها كيفما شاءت، دون إرادة منها ولا مشيئة لفعلها.

أما أهل السنَّة والجماعة فداروا مع النصوص حيث دارت، وقرَّروا من خلالها أن الله خالق لأفعال عباده، وجعل لهم مشيئة وإرادة عليهما ترتب: الثواب والعقاب، والمدح والذم، والكفر والإيمان، ودخول الجنة أو المكث في النيران. . .

ولقد جاءت رسالة إلى العلامة أبـي بطين، يستفهم فيها صاحبها عن مذهب القدرية قائلاً:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من جمعان بن ناصر إلى جناب الشيخ المكرم عبد الله ابن عبد الرحمن (أبـي بطين) سلَّمه الله تعالى.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، امتعنا الله بحياتك، المرجو من إحسانك الإفادة عن القدرية ومذهبهم، وعن المعتزلة ومذهبهم، وعن الخوارج ومذهبهم، أثابك الله الجنة بمنه وكرمه.

فأجاب رحمه الله بقوله: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد، فالجواب وبالله التوفيق: قد فسر النبي ﷺ الإيمان في حديث جبريل بالاعتقاد الباطن فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، والأحاديث في إثبات القدر كثيرة جدًّا، والقدر الذي يجب الإيمان به على درجتين:

درجتي الإيمان بالقدر

الدرجة الأولى: الإيمان بأنَّ الله سبق في علمه ما يعمله العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجادهم، ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو من أهل النار، وأعد لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم، وإنه كتب ذلك عنده وأحصاه وإن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

والدرجة الثانية: الإيمان بأن الله خلق أفعال العباد كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وشاءها منهم، فهذه الدرجة يثبتها أهل السنَّة والجماعة وينكرها جميع القدرية يقولون: إن الله لم يخلق أفعال العباد ولا شاءها منهم بل هم الذين يخلقون أفعال أنفسهم من خير وشر وطاعة ومعصية.

والدرجة الأولى نفاها غلاة القدرية كمعبد الجهني وعمرو ابن عبيد، ونص أحمد الشافعي على كفر هؤلاء.

وأما من قال إن الله لم يخلق أعمال العباد ولم يشأها منهم مع إقرارهم بالعلم، ففي تكفيرهم نزاع مشهور بين أهل العلم.

حقيقة الإيمان بالقدر

فحقيقة القدر الذي فرض علينا الإيمان به أن نعتقد: أن الله سبحانه وتعالى علم ما العباد عاملون قبل أن يوجدهم وأنه كتب ذلك عنده وأن أعمال العباد خيرها وشرها مخلوقة لله واقعة بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قال الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر/ ٣١]، وقال ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام/ ١٣٧]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة/ ٢٥٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام/ ١٠٧]، فهذه الآيات ونحوها صريحة في أن أعمال العباد خيرها وشرها وضلالهم واهتداءهم كل ذلك صادر عن مشيئته.

كل أعمال العباد صادرة عن مشيئة الله

وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس/ ٧، ٨]، وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج/ ١٩ ــ ٢١]، فدل ذلك على أن الله سبحانه هو الذي جعلها فاجرة أو تقية، وأنه خلق الإنسان هلوعًا، خلقه متصفًا بالهلع.

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن/ ٢]، ففي هذه الآية بيان أن الله خلق المؤمن وإيمانه والكافر وكفره. وقد صنف البخاري رحمه الله تعالى كتاب (خلق أفعال العباد) واستدل بهذه الآيات أو بعضها على ذلك، وفي الحديث. «إن الله خلق كل صانع وصنعته».

الأدلة: على تقدم علم الله لجميع المقدورات

أما الأدلة على تقدم علم الله سبحانه بجميع الكائنات قبل إيجادها، وكتابته ذلك، ومنها السعادة والشقاوة، وبيان أهل الجنة وأهل النار قبل أن يوجدهم فكثيرة جدًا، كقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ

﴿ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد/ ٢٢]، وقال النبي ﷺ: «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»، وفي حديث آخر: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة**». والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا.

بيان مذهب القدرية والجبرية

فهؤلاء الذين وصفنا قولهم بأن الله لم يخلق أفعال العباد ولا شاءها منهم هم القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة، وقابلتهم طائفة أخرى غلوا في إثبات القدر وهم يسمون الجبرية فقالوا: إنَّ العبد مجبور مقهور على ما يصدر منه، لا قدرة له فيه ولا اختيار، بل هو كغصن الشجرة الذي تحركه الريح.

سبب تسمية السلف للجبرية: بالقدرية

والذي عليه أهل السنَّة والجماعة الإيمان بأن أفعال العباد مخلوقة لله صادرة عن مشيئته وهي أفعال لهم وكسب لهم باختيارهم، فلذا ترتب عليها الثواب والعقاب، والسلف يسمون الجبرية: قدرية لخوضهم في القدر.

ولهذا ترجم الخلال في كتاب السنَّة فقال: الرد على القدرية وقولهم إن الله جبر العباد على المعاصي، ثم روى عن بقية قال: سألت الزبيدي والأوزاعي عن الجبر فقال الزبيدي: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب.

الوقوف على مصطلاحات القران والسنة فقط، للتعبير بها في كافة قضايا الاعتقاد

وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن ولا السنَّة فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء والقدر والجبل والخلق، فهذا يعرف من القرآن والحديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فهذان الجوابان اللذان ذكرهما هذان الإمامان في عصر تابعي التابعين من أحسن الأجوبة. أما الزبيدي فقال ما تقدم وذلك لأن الجبر في اللغة: إلزام الإنسان بغير رضاه كما يقول الفقهاء: هل تجبر المرأة على النكاح أم لا، وإذا عضلها الولي ماذا تصنع؟ فقال: الله أعظم من أن يجبر أو يعضل لأن الله قادر على أن يجعل العبد مختارًا راضيًا لما يفعله مبغضًا تاركًا لما يتركه، فلا جبر على أفعاله الاختيارية ولا عضل عما يتركه لكراهته أو عدم إرادته.

تعريف الجبر في اللغة

وروي عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى أنه أنكر الجبر وقال: الله سبحانه جبل العباد، وقال الراوي عنه: أراد قوله ﷺ لأشج عبد القيس: «**بل جبلت عليها**»، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله، يعني الحلم والأناة.

وقال المروزي للإمام أحمد: إن رجلاً يقول أن الله جبر العباد، فقال: لا نقول هكذا وأنكر هذا وقال: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر/ ٣١]»[1].

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى:

«ونعتقد: أن الخير والشر، كله بمشيئة الله تعالى، ولا يكون في ملكه إلاّ ما أراد، فإن العبد لا يقدر على خلق أفعاله، بل له كسب، رتب عليه الثواب فضلاً، والعقاب عدلاً»[2].

الثواب والعقاب، مرتب على كسب الإنسان

❑ ❑ ❑

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٢/ ١٧١ ـ ١٧٤.

(٢) الدرر السنية ١/ ٢٢٦، ٢٢٧.

المبحث الرابع

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

قال الشيخ صالح الفوزان يحفظه الله:

«إن من أعظم ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر: صحة إيمان الشخص بتكامل أركانه، لأن الإيمان بذلك من أركان الإيمان الستَّة التي لا يتحقق إلَّا بها؛ كما دل على ذلك الكتاب والسنَّة.

طمأنينة القلب وارتياحه، من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر: طمأنينة القلب وارتياحه، وعدم القلق في هذه الحياة عندما يتعرض الإنسان لمشاق الحياة؛ لأن العبد إذا علم أن ما يصيبه فهو مقدَّر لا بد منه ولا رادَّ له، واستشعر قول الرسول ﷺ: «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»؛ فإنه عند ذلك تسكن نفسه ويطمئن باله؛ بخلاف من لا يؤمن بالقضاء والقدر؛ فإنه تأخذه الهموم والأحزان، ويزعجه القلق، حتى يتبرَّم بالحياة، ويحاول الخلاص منها، ولو بالانتحار؛ كما هو مشاهد من كثرة الذين ينتحرون فرارًا من واقعهم وتشاؤمًا من مستقبلهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالقضاء والقدر؛ فكان تصرفهم ذلك نتيجة حتمية لسوء اعتقادهم.

وقد قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد/ ٢٢، ٢٣].

فأخبرنا سبحانه: أنه قدر ما يجري من المصائب في الأرض وفي الأنفس؛ فهو مقدر ومكتوب، لا بد من وقوعه، مهما حاولنا دفعه، ثم بيَّن أن الحكمة من إخباره لنا بذلك لأجل أن نطمئن؛ فلا نجزع ونأسف عند المصائب، ولا نفرح عند حصول النعم فرحًا ينسينا العواقب، بل الواجب علينا الصبر عند المصائب، وعدم اليأس من روح الله، والشكر عند الرخاء، وعدم الأمن من مكر الله، ونكون مرتبطين بالله في الحالتين.

قال عكرمة رحمه الله: «ليس أحد إلاَّ وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكرًا والحزن صبرًا».

الإيمان بالقضاء والقدر، لا يعني: التواكل، وترك الأخذ بالأسباب

وليس معنى هذا أن العبد لا يتخذ الأسباب الواقية من الشر والجالبة للخير، وإنما يتكل على القضاء والقدر؛ كما يظن بعض الجهال، هذا من أكبر الغلط والجهل؛ فإن الله أمرنا باتخاذ الأسباب، ونهانا عن التكاسل والإهمال، ولكن إذا اتخذنا السبب، وحصل لنا عكس المطلوب؛ فعلينا أن لا نجزع؛ لأن هذا هو القضاء المقدر، ولو قدِّر غيره؛ لكان.

ولهذا يقول النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تجزعن، وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا؛ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان**»، رواه مسلم.

وعلى العبد مع هذا أن يحاسب نفسه ويصحح أخطاءه؛ فإنه

لا يصيبه شيء إلَّا بسبب ذنوبه؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى/ ٣٠].

ومن ثمراته: الثبات واليقين، عند مواجهة الأزمات

ومن ثمرات الإِيمان بالقضاء والقدر: الثبات عند مواجهة الأزمات، واستقبال مشاق الحياة بقلب ثابت ويقين صادق لا تزلزله الأحداث ولا تهزه الأعاصير؛ لأنه يعلم أن هذه الحياة دار ابتلاء وامتحان وتقلب؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك/ ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد/ ٣١].

كم جرى على رسول الله ﷺ وعلى صحابته من المحن والشدائد، لكنهم واجهوها بالإِيمان الصادق والعزم الثابت، حتى اجتازوها بنجاح باهر، وما ذاك إلَّا لإِيمانهم بقضاء الله وقدره، واستشعارهم لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة/ ٥١].

ومن ثمراته: تحويل المحن إلى منح، وأجر

ومن ثمرات الإِيمان بالقضاء والقدر: تحويل المحن إلى منح والمصائب إلى أجر؛ كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التغابن/ ١١]؛ قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلِّم».

ومعنى الآية الكريمة: من أصابته مصيبة، فعلم أنها من قدر الله، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله؛ هدى الله قلبه، وعوَّضه عما فاته من الدنيا: هدى في قلبه ويقينًا صادقًا، وقد يخلف الله عليه ما كان أخذ منه أو خيرًا منه، وهذا في نزول

المصائب التي هي من قضاء الله وقدره، لا دخل للعبد في إيجادها؛ إلَّا من ناحية أنه تسبب في نزولها به حيث قصر في حق الله عليه بفعل أمره وترك نهيه؛ فعليه أن يؤمن بقضاء الله وقدره، ويصحح خطأه الذي أصيب بسببه.

(لا يحتج بالقضاء والقدر على فعل المعاصي، بل على نزول المصائب)

وبعض الناس يخطئون خطأً فاحشًا عندما يحتجون بالقضاء والقدر على فعلهم للمعاصي وتركهم للواجبات! ويقولون: هذا مقدَّر علينا! ولا يتوبون من ذنوبهم؛ كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام/ ١٤٨]، وهذا فهم سيِّء للقضاء والقدر؛ لأنه لا يحتج بهما على فعل المعاصي والمصائب، وإنما يحتج بهما على نزول المصائب؛ فالاحتجاج بهما على فعل المعاصي قبيح؛ لأنه ترك للتوبة، وترك للعمل الصالح المأمور بهما، والاحتجاج بهما على المصائب حسن؛ لأنه يحمل على الصبر والاحتساب.

ومن ثمراته الزاهرة: الجهاد في سبيل الله

ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر: أنه يدفع الإنسان إلى العمل والإنتاج والقوة والشهامة، فالمجاهد في سبيل الله يمضي في جهاده ولا يهاب الموت؛ لأنه يعلم أن الموت لا بد منه، وأنه إذا جاء لا يؤخر، لا يمنع منه حصون ولا جنود ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء/ ٧٨]، ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران/ ١٥٤].

وهكذا حينما يستشعر المجاهد هذه الدفعات القوية من

الإيمان بالقدر، يمضي في جهاده حتى يتحقق النصر على الأعداء وتتوفر القوة للإسلام والمسلمين.

ومن ثمراته: حسن التوكل المؤدي لكمال العمل

وكذلك بالإيمان بالقدر يتوفر الإنتاج والثراء، لأن المؤمن إذا علم أن الناس لا يضرونه إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليه، ولا ينفعونه إلاَّ بشيء قد كتبه الله له، فإنه لن يتواكل، ولا يهاب المخلوقين، ولا يعتمد عليهم، وإنما يتوكل على الله، ويمضي في طريق الكسب، وإذا أصيب بنكسة، ولم يتوفر له مطلوبه، فإن ذلك لا يثنيه عن مواصلة الجهود، ولا يقطع منه باب الأمل، ولا يقول: لو أنني فعلت كذا، كان كذا وكذا، ولكنه يقول: قدر الله وما شاء فعل، ويمضي في طريقه متوكلاً على الله، مع تصحيح خطئه، ومحاسبته لنفسه، وبهذا يقوم كيان المجتمع وتنظيم مصالحه.

وصدق الله حيث يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق/ ٣].

والحمد لله رب العالمين»[١].

• • •

(١) الإرشاد إلى تصحيح الاعتقاد ٣٠١ ــ ٣٠٤.

كلمات منتقاة، مضيئة

● لو كان للعبد مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر.

[الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما]

● لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك، حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لكنت من أهل النار.

[الصحابة الأجلاء: أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين].

● يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم: أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك.

[الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي الله عنه]

● إن توحيد الربوبية لا يتم إلاَّ بالإيمان بالقدر.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

● الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد: أن الله تعالى خالق أعمال العباد خيرها وشرها، وكتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات/ ٩٦]،

فالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، كلها بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته، غير أنه يرضى الإيمان والطاعة ووعد عليها الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية وأوعد عليهما العقاب.

[الإمام البغوي]

● مراتب الإيمان بالقدر أربع مراتب:

الأولى: علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

الثانية: كتابة ذلك عنده في الأزل قبل خلق السموات والأرض.

الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود، فلا خروج لكائن، كما لا خروج له عن علمه.

الرابعة: خلقه لها وإيجاده وتكوينه، فالله خالق كل شيء وما سواه مخلوق.

[الإمام ابن قيِّم الجوزية]

● إن الله تعالى علم مقادير الأشياء وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه.

فلا محدث في العالم العلوي والسفلي، إلاَّ هو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته، هذا المعلوم من دين السلف الماضين، الذي دلت عليه البراهين.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

● لا يضاف الشر إلى ذات الله وصفاته ولا أسمائه ولا أفعاله، فإن ذاته منزهة عن كل شر، وصفاته كذلك إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا

عيب، وأفعاله حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله، فتستحيل إضافة الشرّ إليه.

[الإمام ابن قيِّم الجوزية]

● ونعتقد أن الخير والشر كله بمشيئة الله تعالى، ولا يكون في ملكه إلاَّ ما أراد، فإن العبد لا يقدر على خلق أفعاله بل له كسب، رتب عليه الثواب فضلاً والعقاب عدلاً.

[الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب]

● لا نشك في تكفير من أنكر أن يكون الله عالمًا بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم، فإنه جحد معلومًا من الدين بالضرورة.

[الإمام القرطبي]

● إن النبي ﷺ عدّ الإيمان بالقدر من أركان الإيمان، فمن أنكره لم يكن مؤمنًا، إذ الكافر بالبعض كافر بالكل.

[الشيخ سليمان بن عبد الله]

● ليس أحد إلاَّ وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكرًا، والحزن صبرًا.

[إمام من أئمة التابعين: عكرمة]

● الإيمان بالقضاء والقدر، لا يحتج به على فعل المعاصي والمصائب، وإنما يحتج به على نزول المصائب، فالاحتجاج به على فعل المعاصي قبيح، لأنه ترك للتوبة، وترك للعمل الصالح المأمور بهما، والاحتجاج به على المصائب حسن، لأنه يحمل على الصبر والاحتساب.

[الشيخ صالح الفوزان]

❑ ❑ ❑

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة: الغرض من البحث وأهميته ومنهجه	٥
ترجمة الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى	٢٣
الباب الأول: الإسلام والتوحيد والإيمان، وفيه مقدمة وتسعة فصول . .	٤٣
المقدمة: أحوال المشركين بين التبديل والتغيير	٤٥
الغرض من المقدمة	٤٧
المبحث الأول: لقد ملأ الشرك الأرض قاصيها ودانيها	٤٩
أحوال من غربة الدين في ديار المسلمين	٥٠
المنهج الذي ينبغي الوقوف عليه في وقت الغربة	٥٧
حال المشركين الشاهد عليهم بالكفر والمروق	٥٩
أسباب انتشار الشرك وغلبته على النفوس	٦٣
لا يستقيم الإسلام إلاَّ بمعاداة المشركين	٦٥
المبحث الثاني: لقد دار الناس مع أسماء قد خلت من حقائقها ومدلولاتها، ولم يقفوا مع المعاني التي تعلقت بها الأحكام، فعاد بذلك الشرك والتنديد	٦٧
جمهور أهل البسيطة قد غرق في بحار الشرك.	٧٢
مناسك حج المشاهد	٧٤

الموضوع	الصفحة

الغرض من ذكر هذه المقدمة مرة أخرى ٧٦
كلمات منتقاة مضيئة ٧٩
الفصل الأول: حقيقة الإسلام وشروط قبوله ٨١
المبحث الأول: حقيقة الإسلام الفارقة بين الموحدين المسلمين والمشركين الكافرين ٨٣
تعريف الإسلام ٨٣
مجرد الإتيان بلفظ الشهادة من غير علم بمعناها ولا عمل بمقتضاها لا يكون به المكلف مسلماً ٨٥
المبحث الثاني: شروط صحة الإسلام وقبوله ٨٧
دين الله يكون بالقلب واللسان والجوارح ٨٧
شروط الانتفاع بكلمة التوحيد ٨٩
الإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يكفي في الإسلام ٨٩
الإجماع على كفر من عبد غير الله ولو كان مصلِّياً صائماً ٨٩
التوحيد قولاً واعتقاداً وعملاً هو الحد الفاصل بين المسلمين والكافرين . ٩٠
المبحث الثالث: البراءة من الشرك وأهله شرط في صحة الإسلام وقبوله بالإجماع ٩٢
لا يصح الإسلام إلاَّ بالبراءة من الطواغيت وتكفيرهم ٩٣
من عرف التوحيد وأبى التعرُّض للمشركين بالبغض والمعاداة لا يكون مسلماً ٩٤
صفة الكفر بالطاغوت ٩٦
حكم معاداة المشركين وتكفيرهم ٩٦
الإجماع على كفر من عبد غير الله سبحانه ٩٧
كلمات منتقاة مضيئة ٩٨
الفصل الثاني: حقيقة التوحيد وأركانه ومقتضياته وأنواعه ٩٩

الموضوع	الصفحة

مدخل مفيد لفهم قضية التوحيد ١٠١
المبحث الأول: معنى الإلـه ١٠٢
الإلـه هو المعبود ١٠٣
إذا صح التوحيد صحت الأعمال وإلا فلا ١٠٤
المبحث الثاني: حد العبادة وكيفية القيام بها ١٠٧
العبادة أقصى باب الخضوع والتذلل، وأساسها التوحيد لله سبحانه ١١٠
الشرك يفسد العبادة ١١١
عبادة الله وحده، هي الغاية من إرسال الرسل ١١٣
كيف يتحقق توحيد العبادة ١١٣
المبحث الثالث: من شروط صحة العبادة: الكفر بالطاغوت، والانخلاع من الشرك مع البراءة من أهله ١١٥
اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة ١١٧
المبحث الرابع: أركان التوحيد ١١٩
التوحيد: هو الكفر بكل طاغوت ١٢٠
المبحث الخامس: حقيقة التوحيد، وأنواعه، وحدود العلاقة بينها ١٢١
الإسلام مبناه على التوحيد ١٢١
الشرك في الألوهية، هو سبب سفك دماء المشركين ١٢٣
تعريف توحيد الألوهية ١٢٤
تحقيق التوحيد هو أول واجب على المكلف، وأول ما يدخل به المرء في الإسلام ١٢٧
خصائص توحيد الألوهية ١٢٧
القرآن كله كتاب توحيد ١٢٩
تعريف الإسلام ١٢٩
التوحيد طريق النجاة الوحيد ١٣٠

الموضوع	الصفحة

لولا النبوات لكان الناس أمة واحدة ١٣٢
أدلَّة القرآن في تقرير توحيد الألوهية ١٣٢
توحيد الربوبية يستلزم: توحيد الألوهية، وهو الحجة عليه ١٣٤
كيفية تحقيق التوحيد ١٣٥
الشرك له حقيقة، لا دخل له باعتقاد العبد لها ١٣٥
لا خلاف بين الأمة: أنَّ التوحيد يكون بالقول والعلم والعمل ١٣٨
المبحث السادس: كمال الله من جميع الوجوه أوجب له سبحانه وحدانيته
في ربوبيته وألوهيته ١٤٣
التوحيد يجب لله: عقلاً وفطرة وشرعاً ١٤٥
قبح الشرك مستقر في الفطر والعقول ١٤٥
المبحث السابع: أصول التوحيد العاصمة من الشرك والتنديد، قد اتفقت
عليها الرسالات وتطابقت عليها النبوات ١٤٧
أصول الدين ثابتة بالعقل والنقل، ولا مجال للاجتهاد فيها ١٤٧
أصول التوحيد التي اتفقت عليها جميع النبوات ١٤٨
كيف نستطيع التفريق بين دين المسلمين، وأديان المشركين ١٥٠
المبحث الثامن: التوحيد أساس دعوة النبيين والمرسلين ١٥٣
التوحيد مفتاح دعوة كافة الرسل ١٥٤
المبحث التاسع: شروط وأركان «لا إلـه إلاَّ الله» ١٥٦
لا بدَّ في الشهادتين: من العلم واليقين والعمل بمدلولهما ١٥٦
الرد على غلاة المرجئة ١٥٧
مشركي هذا الزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي قريش ١٥٩
النطق بكلمة التوحيد، من غير علم بمعناها ولا عمل بمقتضاها غير نافع
بالإجماع ١٦٠
مدلول كلمة التوحيد ١٦٠

الموضوع	الصفحة

كل عمل صادر عن تأله القلب فهو من العبادة ١٦١
الإقرار بتوحيد الربوبية، لم يفرق يوماً بين المسلمين والمشركين ١٦٢
كلمة التوحيد لا تنفع المشرك بحال ١٦٣
مشركو زماننا أعظم شركاً من مشركي قريش ١٦٥
من لم يكن مخلصاً كان مشركاً، ومن لم يكن صادقاً كان منافقاً ١٦٧
المشرك نفى ما أثبتته الكلمة العاصمة، وأثبت ما نفته ١٧٠
النفي والإثبات في كلمة التوحيد ١٧١
الشرك وأنواعه ١٧٣
المراد من كلمة التوحيد: معناها لا مجرَّد التلفُّظ بها ١٧٤
أنواع الناطقين بالتوحيد وأحكامهم ١٧٨
قيود «لا إلـه إلاَّ الله» ١٧٨
الإقرار بكلمة التوحيد دون القبول لما دلت عليه، لا يعصم الدماء
والأموال ١٧٩
حقيقة الإسلام ١٨٣
شعر عظيم في معنى «لا إلـه إلاَّ الله» وبيان شروطها ١٨٤
المبحث العاشر: أحوال وأصناف الناطقين بكلمة التوحيد ١٩٠
متى يحرم التوحيد أصحابه على النار؟ ١٩١
حال أكثر من ينطق بكلمة التوحيد ١٩٢
أحوال ومقامات الناطقين بكلمة التوحيد ١٩٢
تعريف التوحيد الماحي للذنوب ١٩٢
السيئات تضعف الإيمان واليقين ١٩٣
أنواع المخالفين لكلمة التوحيد، ممن نطقوا بها ١٩٥
بالجهل والشرك، لا يحصل شيء من مدلول «لا إلـه إلاَّ الله» ١٩٨
الشرك غالب على أكثر العوام ٢٠٠

الموضوع	الصفحة
تفاوت الناس في التوحيد اعتقاداً وعلماً وعملاً	٢٠١
كلمات منتقاة مضيئة	٢٠٤
الفصل الثالث: كيفية الإيمان بالرسالة، وتحقيق أركانها ومقتضياتها	٢٠٩
المبحث الأول: نعمة بعثة الرسل، وحاجة الناس الماسَّة إليها	٢١١
بقاء الناس، مرهون ببقاء آثار الرسالة	٢١١
التوحيد وترك الشرك، دين الأنبياء جميعاً	٢١٢
المبحث الثاني: علة بعثته، ودلائل نبوته ﷺ	٢١٤
آيات مولده ﷺ	٢١٤
الأدلة العقلية والنقلية على صحة نبوته ﷺ	٢١٦
ذكر بعض خصائص الرسول ﷺ إجمالاً	٢١٧
عموم بعثته ﷺ للثقلين	٢١٨
عموم أحكام رسالته ﷺ	٢١٨
الأحكام منوطة بالصفات المؤثرة فيها	٢١٩
القرآن: المعجزة الكبرى	٢٢٠
ما اختصَّ به ﷺ من الأحكام، دونه أمته	٢٢٠
المبحث الثالث: أركان الشهادة بالنبوة، وواجبات الأمة نحوها	٢٢٢
خلقه ﷺ	٢٢٣
عصمة الأنبياء من الكبائر، لا خلاف عليها بين الأمة	٢٢٤
كيف صنع الله نبيه ﷺ ليكون رسولاً خاتماً للعالمين	٢٢٥
عموم رسالته ﷺ	٢٢٦
الأمر بتبليغه بالرسالة ﷺ	٢٢٧
واجب الأمة نحو نبيّها ﷺ	٢٣١
كيفية الإيمان به ﷺ	٢٣٢
الأمر بطاعته ﷺ، والتحذير من معصيته	٢٣٢

الموضوع	الصفحة
لوازم التصديق بالنبوة	٢٣٢
محبته الصادقة ﷺ بالقلب والقالب	٢٣٥
احترامه ﷺ وتوقيره وتعزيره	٢٣٧
المبحث الرابع: مقتضيات الشهادة بالنبوة ولوازمها	٢٣٩
الغاية من إرسال الرسل	٢٤٠
لوازم محبة الله سبحانه، ومحبة رسوله ﷺ	٢٤٢
تقديم الهوى على المشروع منشأ كل المعاصي	٢٤٢
المبحث الخامس: الإيمان بالله يستلزم الإيمان بنبيِّه ﷺ، مع إفراده بالطاعة والاتباع والحكم	٢٤٤
التحاكم إلى غير النبي ﷺ دلالة صارخة على النفاق	٢٤٥
الإيمان بالنبي ﷺ يستلزم تحكيمه في جميع موارد النزاع	٢٤٧
ثمار طاعة الرسول ﷺ	٢٤٩
المبحث السادس: كيف بلغ النبي ﷺ التوحيد	٢٥٢
نهي النبي ﷺ عن كل وسائل الشرك	٢٥٣
الشرك أعظم الذنوب إثماً	٢٥٧
المبحث السابع: حكم من سبَّ النبي ﷺ، أو سوغ لأحد الخروج عن شريعته	٢٥٨
لا يجتمع الاستهزاء بالله، والإيمان به في قلب واحد	٢٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾	٢٦١
جواز وصف الرجل بالنفاق، إذا فعل أو قال ما يدل عليه	٢٦٦
كلمات منتقاة مضيئة	٢٦٨
الفصل الرابع: أصول الإيمان ومقتضياته ولوازمه	٢٧١
مقدمة مهمة	٢٧٣
المبحث الأول: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية	٢٧٥

الموضوع	الصفحة

الإيمان بالإجماع محله بالقلب والجوارح ٢٧٥
أقوال الفرق في الإيمان ٢٧٧
مذهب الخوارج، والردّ عليه ٢٧٩
الردّ على الشبهة الدائمة اللصوق بأهل التوحيد دوماً ٢٨٠
المبحث الثاني: الإسلام والإيمان وحدود العلاقة بينهما ٢٨١
لا يحصل الإسلام على الحقيقة إلاَّ بالقيام بالأركان الخمسة ٢٨٢
الأدلة على أنَّ الأعمال الباطنة والظاهرة داخلة في مسمى الإيمان ٢٨٢
تعريف الإيمان المطلق ومطلق الإيمان ٢٨٣
أصل الإيمان شرط لصحة الإسلام وتمامه ٢٨٤
درجات الإيمان الثلاث ٢٨٥
العلاقة بين الإيمان والإسلام، عند الاجتماع والافتراق ٢٨٦
ارتباط الظاهر بالباطن ٢٨٦
عصاة الموحدين لا يخلدون في النار بإجماع الأمة ٢٨٨
المبحث الثالث: أصل الإيمان الذي لا يصح إلاَّ بتحقيقه ٢٩١
مجرد الإتيان بلفظ الشهادة دون علم وعمل بحقيقتها لا يكون به المكلف مسلماً، خلافاً لغلاة فرق الإرجاء ٢٩٢
التصديق والعمل ركنا الإيمان ٢٩٣
أنواع الكفر ٢٩٣
مراتب الدين الثلاث ٢٩٦
الأدلة على عدم تكفير العصاة من الموحدين ٢٩٧
لا يثبت الكفر على مؤمن، حتى يزول عنه أصل الإيمان ٢٩٨
الإسلام والإيمان والعلاقة بينهما ٣٠٠
لا ينجو من الخلود في النيران إلاَّ الموحِّدون ٣٠١
أصول مهمة في قضية الإيمان ٣٠٢

الموضوع	الصفحة

المبحث الرابع: وجود التباين بين أصل الإيمان وشعبه، وأصل الكفر وشعبه ثابت بالكتاب والسنَّة ٣٠٣
أجمع أهل السنة على وجوب عمل القلب في الإيمان ٣٠٥
كفر الجحود مضاد للإيمان من كل وجه ٣٠٥
كفر العمل منه ما يضاد الإيمان بالكلية، ومنه بخلاف ذلك ٣٠٥
لا تتلقى مسائل الكفر والإيمان إلاَّ من أقوال الصحابة ٣٠٧
الكفر والشرك والنفاق، ينقسم إلى أكبر وأصغر ٣٠٧
الكافر لا يعد مؤمناً حتى يقوم بأصله، والمؤمن لا يصير كافراً حتى يقوم بأصله ٣٠٩
المبحث الخامس: حكم الاستثناء في الإيمان ٣١١
اعتبارات الاستثناء لدى السلف ٣١٢
تعريف الإيمان المطلق ٣١٤
متى نشهد لأنفسنا بالإيمان من غير استثناء ٣١٤
الاعتبارات الصحيحة للاستثناء ٣١٥
المبحث السادس: كلما عظم الإيمان، اشتدَّ الخوف من الكفر والنفاق . ٣١٧
خوف أصحاب النبي ﷺ من النفاق ٣١٧
النفاق لا يأمنه إلاَّ منافق، ولا يخافه إلاَّ مؤمن ٣١٨
خوف الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه من الكفر وعبادة الأصنام ... ٣١٨
كلمات منتقاة مضيئة ٣١٩
الفصل الخامس: الطاغوت وصفة الكفر به ٣٢٣
المبحث الأول: معنى الطاغوت وبعض أفراده ٣٢٥
التحاكم إلى غير الكتاب والسنَّة، تحاكم إلى الطاغوت ٣٢٦
كل من نصبه الناس للحكم بينهم بأحكام الجاهلية، فهو طاغوت ٣٢٧
لقد أعرض أكثر الناس عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ٣٢٨

الموضوع	الصفحة

التحاكم إلى شريعة الإسلام دون غيرها من شرائع الجاهلية، هو مقتضى الشهادة بالرسالة ٣٢٩
كل من خالف حكم الله، فهو طاغوت ٣٣١
النظم الموضوعة للتحاكم إليها، مضاهاة لتشريع الله، فهي داخلة في معنى الطاغوت ٣٣٢
الحاكم بغير ما أنزل الله متعمداً: طاغوت ٣٣٣
أول فرض على ابن آدم: الكفر بالطاغوت ٣٣٤
كيفية الكفر بالطاغوت ٣٣٤
تعريف الطاغوت ٣٣٥
رؤوس الطواغيت ٣٣٥
الكفر بالطاغوت شرط في صحة الإيمان ٣٣٦
حقيقة الطاغوت وأنواعه ٣٣٧
المشرع من دون الله كافر يجب قتاله حتى ينخلع من كفره ٣٣٨
لا يجتمع الإيمان بالله مع تحكيم غير شريعته سبحانه ٣٤٠
تظاهر الأدلة على ذم التحاكم إلى غير الله تعالى ٣٤١
قد يحتج أهل الطواغيت: بالإكراه على أفعالهم ٣٤١
بعض آثار غربة الإسلام ٣٤٢
فتنة الدنيا ليست عذراً يبيح الكفر ٣٤٣
صفة الكفر بالطاغوت ٣٤٥
المبحث الثالث: تكفير الطاغوت وشيعته، والبراءة منهم، شرط في صحة الإسلام ٣٤٦
حكم مدح الطواغيت، أو الجدال عنهم ٣٤٧
الكفر بالطاغوت سبيل الانخلاع من الشرك ٣٤٧
لا يحصل الدخول في الإسلام إلاَّ ببغض المشركين ومعاداتهم ٣٤٨

الموضوع	الصفحة
الكفر بالطاغوت يستلزم تكفير المشركين	٣٤٨
المبحث الرابع: الكفر بالطاغوت شطر التوحيد، والتحاكم إلى الطاغوت أو الحكم به، إيمان بالطاغوت وكفر بالله العظيم	٣٥٠
الحكم بغير الكتاب والسنَّة حكم بالطاغوت	٣٥٠
التوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبد من دون الله	٣٥١
مَن دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ، فقد جعل لله شريكاً في طاعته	٣٥٢
كل من حكم بغير شريعة الله فهو طاغوت	٣٥٥
كلمات منتقاة مضيئة	٣٥٧
الفصل السادس: الحكم لله وحده، وحكم من بدل شرائع الإسلام، أو حكم بغير ما أنزل الله	٣٦١
المبحث الأول: لا يصلح الإسلام إلاَّ بالعمل بشرائعه، والانقياد لأحكامه	٣٦٣
الغالب على كثير من الناس ردّ الحق لأجل الهوى	٣٦٤
المبحث الثاني: الطاعة في التحليل والتحريم من أخصّ خصائص العبادة، ومن ثَمَّ كان كل من قبلها من أي عبد فقد اتخذه ربًّا، وإن لم يصل له ويتقرَّب إليه	٣٦٥
شرك الطاعة	٣٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾	٣٦٨
بعض أحكام المشركين	٣٦٨
الحكومة التي تحكم بغير ما أنزل الله، حكومة غير إسلامية	٣٦٩
الحكم بما أنزل الله من توحيد الربوبية	٣٦٩
الطاغوت: كل ما خالف حكم الله ورسوله ﷺ	٣٧١
شروط الإيمان بحكم الله ورسوله ﷺ	٣٧١

الموضوع	الصفحة

صور الحكم بغير ما أنزل الله الغير مكفرة ٣٧٣
متى تكون الطاعة من دون الله مكفرة، ومتى تكون غير مكفرة ٣٧٤
طاعة الطواغيت المكفرة ٣٧٥
وجوب اتباع الأدلة والوقوف عند حدودها ٣٧٦
المبحث الثالث: أمر الله الناس بردِّ كل ما تنازعوا فيه من أصول دينهم وفروعه إلى الله ورسوله، ومن لم يفعل دلَّ ذلك على كفره برب العالمين ومروقه من دين المرسلين ٣٧٨
ردّ التنازع إلى الكتاب والسنَّة، شرط في صحة الإيمان ٣٨٠
شرح قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. . . ﴾ الآية ٣٨٠
تحكيم شرع الله وحده، قرين عبادة الله وحده ٣٨٢
تحكيم القوانين كفر ناقل عن الملة ٣٨٣
مقتضى التوحيد والعبودية: إفراد الله بالحكم والتحاكم ٣٨٣
المبحث الرابع: من أعظم الفساد في الأرض: التحاكم إلى غير الله ورسوله، ومن ثمَّ كان إباء التحاكم إلى الكتاب والسنَّة دليلاً قاطعاً على الكفر والنفاق والزندقة ٣٨٥
إباء التحاكم إلى الشريعة دليل على النفاق ٣٨٥
الدعوة إلى غير شريعة الله، دعوة إلى الفساد في الأرض ٣٨٧
من أجل أمور المسلمين: التمسُّك بشريعة الله، ودعوة الناس إليها ٣٩٠
التحاكم إلى غير شريعة الله، من أعظم شعائر الكفر والنفاق ٣٩٢
من حكم بغير شريعة الله، فهو كافر بصريح القرآن ٣٩٣
يجب بغض ومعاداة أعداء الله ٣٩٣
تحكيم القوانين، تحكيم للطاغوت وإيمان به ٣٩٤
الفرق بين التشريع والحكم ٣٩٤
من حكم القوانين لم يكن موحداً ٣٩٥

الموضوع	الصفحة
المبحث الخامس: من خرج عن حكم الله إلى ما سواه من أحكام الجاهلية، فهو كافر يجب قتاله حتى توبته، وأي دولة تفعل ذلك تصبح دولة كافرة ظالمة فاسقة	٣٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾	٣٩٦
قانون التتار، كالقوانين الوضعية اليوم	٣٩٧
كل من خالف حكم الله سبحانه، فهو حكم الجاهلية	٣٩٨
تنزيل القوانين منزلة الشريعة، كفر أكبر مخرج من الملة	٣٩٩
الردّ المطلق إلى الله ورسوله، شرط في صحة الإيمان، وإلاَّ فالكفر والنفاق	٤٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ...﴾ الآية	٤٠٠
قسمة الحكم ثنائية، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية	٤٠٢
القانونيون هم الكافرون حقًّا	٤٠٢
أنواع الكفر الأكبر من الحكم بغير ما أنزل الله	٤٠٥
شبهة والرد عليها	٤٠٥
علة كون التشريع من دون الله كفر أكبر، ولو قال صاحبه: أخطأت وحكم الله أعظم وأفضل	٤٠٧
مناط كفر دون كفر المراد من أقوال العلماء	٤٠٩
حكم البلدة التي تحكم بالقانون الوضعي	٤١٠
البلدة التي تحكم بالقانون، ليست بلد إسلام	٤١٠
البلدة التي لا تحكم بشرع الله، دولة جاهلية بنص الآيات المحكمات	٤١٢
المبحث السادس: حكم الطائفة الممتنعة عن شريعة ظاهرة متواترة	٤١٣
مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام بشرائعه، ليس بمسقط للقتال	٤١٤
الفرق بين قتال الممتنعين عن الشرائع، وقتال البغاة	٤١٥
المبيح لقتال مانعي الزكاة: مجرد المنع لا جحد الوجوب	٤١٦

الموضوع	الصفحة

إدخال مانعي الزكاة في أهل الردة، ثابت باتفاق الصحابة ٤١٦

كلمات منتقاة مضيئة ٤١٨

الفصل السابع: حقيقة الولاء والبراء ٤٢٥

المبحث الأول: الأدلة الدالة على وجوب البراءة من الشرك والمشركين . ٤٢٧

أسس التوحيد ٤٢٨

عاقبة موالاة المشركين ٤٢٩

السكوت عن المنكر مع القدرة، منكر، فكيف بمن ظاهر وأعان عليه .. ٤٣٠

لا يستقيم الإسلام إلاّ بالموالاة والمعاداة ٤٣١

أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ٤٣٢

جل موالاة الناس الناس اليوم: على الكفر والمعاصي ٤٣٣

لا يجوز إدناء المشركين من قبل المسلمين ٤٣٣

المبحث الثاني: موالاة المسلمين والبراءة من المشركين، أصل من أصول الدين بالإجماع ٤٣٤

لا يكون المرء مسلماً إلاّ بالتجرد من الشرك الأكبر والبراءة منه وممن فعله إجماعاً ٤٣٥

أوجب الله سبحانه: معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم ٤٣٧

حقائق الأشياء لا تتغير بتغير أسمائها ٤٣٨

المبحث الثالث: البراءة من المشركين شرط لصحة التوحيد وقبوله، ومن ثمّ كانت موالتهم ردة عن دين المسلمين ٤٤٠

التوحيد يستلزم معاداة المشركين ٤٤٠

بعض نواقض التوحيد ومبطلاته ٤٤١

المشابهة مظنة المودة، ولهذا كانت محرمة ٤٤٢

من قفز من معسكر المسلمين إلى أعدائهم ولحق بهم، ارتدّ وحلّ دمه وماله ٤٤٣

الموضوع	الصفحة

الأدلة على كفر من تولى المشركين ٤٤٤
القتال في صفوف المشركين ضد المسلمين، من الكفر الأكبر والردة عن الدين ٤٤٥
موالاة المشركين توجب جهاد أصحابها ٤٤٦
المبحث الرابع: اعتزال أهل الشرك والبراءة منهم وتكفيرهم، واجب متحتم على الموحدين الحنفاء ٤٤٧
أسباب كون الشرك أعظم الذنوب ٤٤٧
الأدلة على وجوب البراءة من المشركين واعتزالهم ٤٤٨
المبحث الخامس: موالاة المشركين وصورها المكفرة والغير مكفرة ... ٤٤٩
حدّ الموالاة المكفر، والغير مكفر ٤٤٩
اعتياد فعل الموالاة المحرمة سبيل الوقوع في الموالاة المكفرة ٤٥٠
لا يستقيم الإسلام إلاَّ بالولاء والبراء ٤٥١
بعض صور الركون إلى الظالمين ٤٥١
لا يستقيم الإيمان إلاَّ بمعاداة أعداء الله ٤٥٢
الانبساط مع المشركين يزيل العداوة والبغضاء ٤٥٢
تحذير السلف من موالاة أهل البدع والمعاصي ٤٥٣
علة مشروعية هجر أهل المعاصي المجاهرين بها ٤٥٣
حكم ابتداء الكفار بالسلام ٤٥٣
الفرق بين المصالح الدينية والدنيوية في تعليق الأحكام عليها ٤٥٤
يجب الإنكار على أهل البدع والفسق الظاهر ٤٥٦
هديْ السلف مع الكفار والمشركين ٤٥٧
نهى السلف عن مجالسة أهل البدع، فكيف بمجالسة أهل الشرك والركون إليهم ٤٥٨

الموضوع	الصفحة
حكم سب الصحابة ومناطاته	٤٥٩
حكم الرافضة اليوم أشدّ من حكم أسلافهم	٤٦٠
الخطر العظيم المترتب على ذوبان الحدّ الفاصل بين الموحدين والمشركين في الموالاة والمعاداة	٤٦٠
عقوبة الذنوب	٤٦١
قياس بدأ المشركين بالسلام على قبول هداياهم، قياس فاسد	٤٦٢
معالم ونصائح للفوز والنجاة	٤٦٢
المبحث السادس: موالاة المشركين المنتسبين للملة، كموالاة المشركين المباينين لها	٤٦٤
لا تجوز الصلاة خلف المشركين، وتحرم موالاتهم	٤٦٤
حدّ الولاء المكفر للمشركين	٤٦٦
لا يجوز للمسلم مشاركة الكفار في أعيادهم	٤٦٧
المبحث السابع: إذا تعذر إقامة التوحيد والبراءة من المشركين في بلد، أصبحت دار كفر، ووجبت الهجرة	٤٦٨
حكم الهجرة وفضلها ودرجاتها	٤٦٨
حكم الإقامة في ديار الكفر	٤٦٩
حكم الخروج بين صفوف المشركين لقتال المسلمين	٤٦٩
أنواع من الهجر الواجب	٤٧٠
بعض مناطات الهجرة المستحبة	٤٧٠
ميزان الولاء والبراء في الإسلام	٤٧١
الدليل على غربة الدين	٤٧١
الأدلة على حرمة الإقامة بين أظهر المشركين، لا سيما عند العجز عن إقامة الدين	٤٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ...﴾ الآية	٤٧٢

الموضوع	الصفحة

الإدامة على مشابهة المشركين تؤول بأصحابها إلى وحدة المصير معهم . ٤٧٢
كلمات منتقاة مضيئة ٤٧٤
الفصل الثامن: الأسماء والصفات ومنهج السلف في الإيمان به ٤٧٩
المبحث الأول: منهج السلف الصالح في الإيمان بأسماء الله وصفاته . . ٤٨١
ضوابط مهمة في الإيمان بأسماء الله وصفاته ٤٨٢
الفرق بين أهل السنة والمفوضة ٤٨٣
أسس الإيمان بالأسماء والصفات ٤٨٣
لا نتجاوز القرآن والحديث في الإثبات والنفي ٤٨٣
المنهج في الأسماء والصفات ٤٨٤
الفرق بين صفات الخالق والمخلوق، كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق ٤٨٤
أسماء الله وصفاته توقيفية ٤٨٥
براءة أهل السنَّة من المفوضة، والردّ عليها ٤٨٥
ينبغي التفريق بين الكيف والمعنى ٤٨٥
الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ٤٨٦
لوازم التأويل الفاسدة ٤٨٧
وسطية أهل السنَّة بين المشبهة والمعطلة ٤٨٧
الإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات ٤٨٧
نفي النقص يستلزم إثبات ضده من الكمال ٤٨٨
المبحث الثاني: دلالة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا ٤٨٩
عظمة الخالق سبحانه ٤٩٠
دلالة الأسماء والصفات على كمال الله وعظمته وقدرته ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته ٤٩٤
الأدلة على علو الله على خلقه واستوائه على عرشه ٤٩٥

الموضوع	الصفحة

الردّ على المؤولة والمفوضة	٤٩٧
استحالة إدراك الكيف في صفات الله سبحانه	٤٩٨
معرفة المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى	٤٩٩
الله سبحانه استوى على عرشه حقيقة بإجماع المسلمين	٤٩٩
أول من أنكر الصفات وموقف السلف منه	٥٠٠
علمه سبحانه الذي أحاط بكل شيء	٥٠١
دلالة صفاته سبحانه على تفرده في تألهه	٥٠٣
المبحث الثالث: كيف فتح التأويل في الأسماء والصفات باب الزندقة والنفاق	٥٠٤
طرق أهل الكلام في إثبات أصول الدين	٥٠٥
علم الكلام بدعة وضلالة بالإجماع	٥٠٦
غربة الحق الدائمة	٥٠٦
الردّ على المؤولة، مع بيان لوازمهم الفاسدة	٥٠٦
المبحث الرابع: الردّ على الفرق الضالة في باب الأسماء والصفات	٥٠٨
الإيمان بالله تعالى يتضمَّن الإيمان بأسمائه وصفاته	٥٠٨
الفرق بين أهل السنة والمرجئة في الاستدلال بالأدلة العقلية	٥٠٨
الردّ الباهر على النفاة والمعطلة	٥٠٩
لوازمهم الفاسدة	٥٠٩
الرد على من زعم: أنَّ الإثبات يستلزم التشبيه	٥١١
الردّ على المشبهة والمعطلة	٥١٢
المشبّه في حقيقة أمره يعبد وثناً	٥١٣
وجه الشبه بين المشبه والنصراني	٥١٣
أساتذة مذهب التعطيل	٥١٤
شبهة كافة الفرق	٥١٤

الموضوع	الصفحة
منهج أهل البدع، والردّ عليه	٥١٥
لا تلازم بين الإثبات والتشبيه	٥١٥
المشبهة جمعوا بين التشبيه أولاً، والتعطيل ثانياً	٥١٦
صفات الخالق سبحانه تليق بكماله وغناه، وصفات المخلوق تليق بعجزه وفقره	٥١٦
الردّ على المفوضة، وبيان لوازمهم الشنيعة	٥٢٠
لم يؤثر عن واحد من السلف: إدخال الأسماء والصفات تحت المتشابه من الشريعة	٥٢٠
الفرق بين تفسير السلف للصفات، وتفسير النفاة	٥٢١
مذهب السلف في الاستواء	٥٢٢
حكم تأويل الصفات	٥٢٣
كلمات منتقاة مضيئة	٥٢٤
الفصل التاسع: القضاء والقدر ومنهج السلف في الإيمان به	٥٢٩
المبحث الأول: قواعد السلف الذهبية في الإيمان بالقضاء والقدر	٥٣١
معنى القدر في اللغة والشرع	٥٣٢
كيفية الإيمان بالقدر	٥٣٢
الله سبحانه قدّر الإيمان وأحبّه، والكفر وكرهه	٥٣٣
القدر سرٌّ من أسرار الله سبحانه	٥٣٤
أصول أهل السنَّة في الإيمان بالقضاء والقدر، مع استعراض لمذهب القدرية ولوازمه الفاسدة وبيان بطلانه	٥٣٤
لا شكَّ في كفر من أنكر عموم علم الله لأعمال العباد قبل وقوعها	٥٣٧
الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان	٥٣٨
موقف السلف من القدرية الأول	٥٣٨
شبهة وجوابها	٥٣٩

الموضوع	الصفحة

يستحيل إضافة الشر لله سبحانه ٥٤٠
الشر راجع إلى مفعولات الله، إلى ذاته وصفاته ٥٠٤
المحبة التامة تقتضي المتابعة التامة ٥٤٢
لا يتم الإيمان بالقدر حتى يسلم العبد لخيره وشره ٥٤٢
القلم بعد خلقه كتب كل كائن إلى قيام الساعة ٥٤٣
الفرق بين القدرية الأوائل ومتأخِّريهم في أحكام التكفير ٥٤٣
لا نجاة من النار ولا تحقيق للطاعات قبل تحقيق الإيمان بالقدر ٥٤٤
المبحث الثاني: وجوب التسليم لقضاء الله ومقدوراته العامة ٥٤٧
الفرق بين المؤمن والمنافق ساعة نزول البلاء ٥٤٨
نوع من النفاق ينبغي الحذر منه ٥٥٠
كيف يتم المراد من الإيمان بالقدر ٥٥٠
العجز مذموم شرعاً وعقلاً ٥٥٢
منزلة الصبر في الإسلام ٥٥٣
لا يجوز الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي ٥٥٤
الله سبحانه يحب أن يرى أثر صفاته في عبيده ٥٥٥
قاعدة ذهبية في الإيمان بالقدر ٥٥٦
المبحث الثالث: الفرق بين أهل السنة والجبرية والقدرية في الإيمان بالقضاء والقدر ٥٥٧
درجتي الإيمان بالقضاء والقدر ٥٥٨
حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر ٥٥٩
بيان مذهب القدرية والجبرية ٥٦٠
الوقوف على مصطلحات القرآن والسنَّة للتعبير بها فقط في كافة قضايا الاعتقاد ٥٦٠
تعريف الجبر في اللغة ٥٦١

الموضوع	الصفحة

المبحث الرابع: ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر **٥٦٢**

طمأنينة القلب وارتياحه من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر **٥٦٢**

الإيمان بالقضاء والقدر، لا يعني التواكل وترك الأخذ بالأسباب **٥٦٣**

ومن ثمراته: الثبات واليقين عند مواجهة الأزمات **٥٦٤**

ومن ثمراته: تحويل المحن إلى منح وأجر **٥٦٤**

ومن ثمراته: الجهاد في سبيل الله **٥٦٥**

ومن ثمراته: حسن التوكل المؤدِّي لكمال العمل **٥٦٦**

كلمات منتقاة مضيئة **٥٦٧**

فهرس الموضوعات **٥٧١**

● ● ●